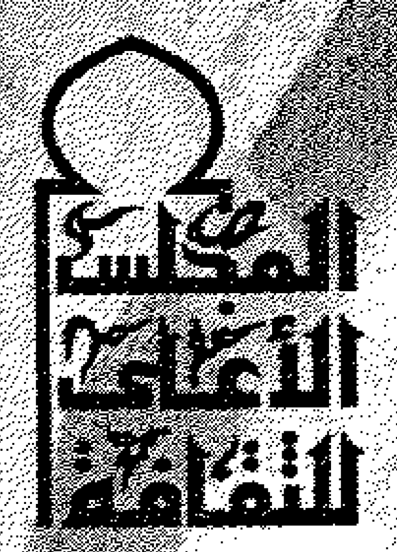


مقالات

محمد حسين هيكل

الجزء الثانى



فى الأدب والفن

جمعها وأعدها للنشر :
أحمد محمد حسين هيكل

إهـــــداء ٢٠٠٦
المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

مقالات

محمد حسين هيكل

الجزء الثانى

فى الأدب والفن

جمعها وأعدها للنشر

أحمد محمد حسين هيكل



٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : مقالات محمد حسين هيكل (الجزء الثانى) فى الأدب والفن

جمعها وأعدها للنشر : أحمد محمد حسين هيكل

الطبعة الأولى : ٢٠٠٤

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084

الفهرس

القسم الأول

مختارات من مجلة السفور
(١٩١٥ - ١٩٢٠)

الحرب والحضارة (*)

- ١ -

تحت هذا العنوان كتب صديقنا "تاسيت" مقالة فخيمة طويلة ، قص فيها فضائل الحرب ، وأظهر لنا ما جادت به المجازر الإنسانية على بنى آدم من حياة ، وقوة ، ورقى ، ولقد خيل لنا ونحن نقرأها أن الدماء الإنسانية أسمدة إذا اختلطت بالأرض أنبتت الفلسفة ، والمدنية ، وجادت على الناس بالحياة والحرية ، وظننا أنها كانت وستبقى كذلك أبد الدهر .

ليهنأ "تاسيت" بالرأى الذى قرره ، وإن العالم المتمدن ليقدم للناس المثل الحى على مافى الحرب من فضائل. هاهى الكنائس البديعة تخرب ، ودور الكتب تحرق ، والوحشية التى اختفت تحت ثوب من رياء الإنسانية تدوس ما جادت به الحروب الماضية من علم وفلسفة ، وتهلك أجمل ما خلّف الإنسان للإنسان ، وتقوم بذلك كله دليلاً ناطقًا على فضيلة الحرب ، وعلى جمالها .

يقول "تاسيت" : إن تلك إلا مصائب وقتية سرعان ما تزول إذا رجع السلم إلى نصابه ، وراجعت الإنسانية حركتها ونشاطها . وما الحرب إلا كالمطر يهطل وابلاً فيصيب بعض ما يلاقى ، ثم إذا الأرض بعده زينة للناظرين .

(*) مجلة السفور ، العدد ٢٥ بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٩١٥ ، وهى ضمن ثلاث مقالات نشرت أثناء الحربالعالمية الأولى دافع فيها الدكتور هيكل عن السلام وما تفيده الإنسانية والحضارة منه فى مناظرة بينه وبين الدكتور طه حسين دافع فيها عن دور الحرب فى حياة العالم . (الناشر)

كلمة ما أجملها لو صدرت من أعرابى فى صحراء مقفرة يرجو الغيث ينبت له من بين الرمال المجدبة كلأ يرعاه بعيره وشعيراً يتبلغ هو به فى تقشفه وزهده، ولكنها لا تصدر من حاضر يهدم المطر بيته الذى بناه على متعاقب السنين . كذلك لو أن الحرب فى أيامنا هذه لا تصيب إلا ما كانت تصيب الحروب فى الماضى من ثروة طريفة سرعان ما تتجدد ، لهان الخطب ، ولقلنا إن الأرض تظمأ أحياناً للدماء تعطى بها البشر حياةً أقوى وأعز ، ولكنها تصيب ثروات تكدست على الزمان وعملتها الأجيال المتعاقبة للسير بالإنسانية فى طريق التقدم . ثروات علمية ، وثروات فنية ، وثروات مادية ، ومن لنا اليوم باستعادة مكتبة لوفان ، أو كنيسة ريمس ، أو نقوش سان مارك ، من لنا باستعادة الشبيبة الزاهرة التى ذهبت ضحية المدنية المتوحشة ، من لنا بعود التوازن السياسى والاقتصادى بعد أن فتكت الحمى المتهوسة بقواعد الاقتصاد والسياسة .

لهذا ليس من الحق فى شىء أن يتمدح متمدح بالحرب. إن هى إلا نزوة من نزوات الطيش تصيب الإنسانية حين ترى الإنسانية أن قد طال متاعها بالسكينة والسلام ، وحين تنسى الويلات الكبيرة التى تجرها الحروب المستعرة ، وإنه لما يوجب الأسف والدهشة معًا أن تبقى الإنسانية ترى ما تراه من مصائب الحروب وبلاياها ، ثم تتناسى بالزمان هذه المصائب والبلايا ، وترجع لتجدد أسبابها لأسباب واهية . إنها فى ذلك كالطفل تصيبه التخمة من جراء الانكباب على الطعام ، ثم لا يفتأ ينكب على الطعام كلما دعاه لذلك داعى الصبا والشهوة . ومن يدرى فقد تكون الإنسانية إلى اليوم فى مبادئ شبابها لم تحنكها بعد التجارب .

أمام هذا الذى نرى منها لا نستطيع إلا أن نقول إن الحرب كانت بلاءً ضرورياً لا مفر منه . وقد ظهر من الإنسانية حكماء استفادوا من كل بلاء ينزل ، ليكون لهم أساسًا لموعظة يتقدمون بها لإخوانهم بنى آدم . هؤلاء هم الفلاسفة الذين قال صديقنا "تاسيت" إن فلسفتهم استفادت فائدة عظمى من الحروب ، وإن عملهم لعلى جانب من الحكمة عظيم . فإن العاقل من استطاع الوصول إلى الحسن ينقب عنه حيث يكون ، حتى ولو كان وسط فظائع الوحشية التى يرتكبها المتمدينون باسم الحرب .

ولكن ذلك كله ليس معناه أن المدنيات الزاهرة التى رأى الناس كانت ثمرات الحرب ، فإنما الصنائع ، والعلوم ، والفنون كلها آثار العمل السلمى الهادئ . ولعمرك

ما شأن الحرب بنظرية التضامن الاجتماعى آخر النظريات التى جاد بها السلام الذى حكم أوربا نحو نصف قرن من الزمان ، بل ما علاقتها ببدائع التصوير وفخيم القصور وجميل الصور ، والتماثيل ، وهل ساعدت هى على اكتشاف الحقائق العلمية التى يقضى المنقبون من العلماء أعمارهم فى البحث عنها .

ألا تعسا للحروب ، فلكم هدمت من ثمرات عمل بنى آدم الأجيال المتعاقبة ، ولكم مزقت كل ممزق النظريات الجميلة المتينة التى وضعت للخروج بالإنسانية من درك الوحشية التعيس المظلم ، ولكم نشرت على الأرض راية الخسف والاستعباد .

كان من نظرية التنافس على البقاء بعض المبرر النظرى لوجود الحروب . فكان أنصار القسوة ، والكراهية ، والوحشية يقولون إن من سنن الطبيعة أن يبقى الأصلح ، ولو كان ذلك بفناء الضعيف ، لكن نظرية التنافس دخلت هى الأخرى فى حكم الضعفاء ، وتغلبت عليها نظرية جديدة مبناها الإخاء ، والعطف، وغرضها التخفيف من تلك الهمجية القاسية التى ظل بنو آدم يقاسونها القرون الطوال . على أساس هذه النظرية الجديدة نظرية التضامن ، تألفت جمعيات العمال ، وتداخلت الحكومات ، لتخفيف الفروق بين الممول والعامل ، وعملت الإنسانية جمعاء على تحقيق شىء من معنى الإخاء بين بنى آدم ، والسعى لاستعباد قوى الطبيعة لفائدته ، ولدفع الاستعباد عنه احتراماً لحريته . ولا نحسب بعد الذى ظهر فى عالم الحياة من تحقيق الكثير مما ترمى هذه النظرية إلى تحقيقه ، ومن إفلاس النظرية القديمة نظرية التنافس المطلق أن إنساناً يستطيع أن يقول بأساس نظرى للحروب فى عالم الإنسانية التى يرجوها المستقبل القريب .

ولقد قلنا أول هذه الحرب ونقول اليوم إنها ، إنما قامت لإعلان إفلاس المبدأ القديم إفلاساً مطلقاً ، وللقضاء على ما بقى منه ، وبشيراً بالمبدأ الجديد الذى لابد عما قريب تراه أعيننا محققاً حياً عاملاً .

ولا يغرن أحداً ما يرى اليوم من مظاهر القوة المتوحشة ، ولا يذهلنا عن إدراك الحقيقة ما يقال من امتلاك الإنسان الأرض والهواء والماء ، الحقيقة إنما امتلكها ليذلها ويستعبدها لفائدته ، لا ليستعين بها على إذلال أخيه الإنسان واستعباده . وما هو حاصل اليوم ليس إلا حمى احتضار ذلك المبدأ البائد ، وكثيراً ما تخرج نوبة الحمى

المصروع عن صوابه فإذا به استوحش فلا يقدر عليه إنسان ، حتى إذا انتهت ثائرته خر صريعاً لا محل فيه لرجاء .

لهذا كله لا يهولن أحداً من محبي الإنسانية ما يرى اليوم من فناء ودماء ، فإنما على الباغي تدور الدائرة ، والباغي هو مبدأ الأثرة والتنافس ، ولا يفرح محبو المجازر بما يرون فيمدون بأعناقهم من ظلمات المستقبل تطلعاً إلى مجازر جديدة مقبلة أفظع مما يشهدون وأقسى . فإنّا نحسب هذا الدرس الحاضر تقاسيه الإنسانية المتعلمة بشيراً بسلام مقدس خالد ، سلام سداه الحب ولحمته الإخاء .

الحرب والحضارة (*)

- ٢ -

يتعثر الطفل أول ما يمشى ، وكثيراً ما يقع فيصيبه الأذى على أثر وقوعه ، ويهفو الشاب فيقاسى الآلام على أثر هفواته ، ويبقى الإنسان كذلك حتى تحنكه التجربة وحتى يبلغ الرجولة ، فإذا بلغها لم يبق محل لأن يغتفر له ما كان يغتفر للشاب وللطفل ، وأصبح بحيث تؤخذ عليه الزلة ويلام على الهفوة .

كثيرون يصفقون لهفوات الشبيبة ، وهل الشباب إلا ربيع الحياة فكل ما فيه جميل . وآخرون ينظرون لها بعين التخوف ، والوجل ، وينتظرون أن تمر بسلام ، فيكون من تذكرها بعد ذلك موضع لتأمل العقل الناضج واستفادته ، أولئك الآخرون لا يقصرون نظرهم على الحاضر القريب ، فيهنئون الشباب بكل ظفر قد يجر عليه ويلاً ، بل هم يمدون البصر إلى ما بعد ذلك ، وينتظرون اليوم الذى يكمل فيه الرجل فيقدر كل شىء قدره ، وغاية الحياة الرجولة الكاملة ، أما ما بعد الرجولة من الكون فتدرك إلى الموت .

مثل الإنسانية مجتمعة مثل الفرد فى تطوره ، وهى إلى الآن لم تبلغ حد الإدراك ، لذلك تراها تتخبط ذات اليمين وذات اليسار آملة هدىً ولما تهتد ، وكما يجد الشاب من يحبذه فى تخبطه ويزداد تصفيقًا له ، وإعجابًا به كلما صادفه الضلال فى مسيره ، كذلك تجد الإنسانية من يحبذها كلما ازدادت ضلالاً فى تلمس طريق الصواب ، ومن المحبذين من قد يكون حسن النية .

(*) مجلة السفور ، العدد ٢٨ ، بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩١٥

على أن فى الزلات درسًا قد يفيد ، وأقل ما يفيده تجنبها . ولكن تجنب الزلة ، إنما يكون بعد تكررها وبعد أن يصل صاحبها إلى حد من الإدراك يستطيع معه كبح جماح شهوته ، والتغلب على نفسه ، والحذر مما سبق أن وقع فيه .

لذلك ولأن الإنسانية لا تزال تغالبها شهوات الوحشية وتغلبها ، نرى الحرب وهى أكبر زلاتها لم تزل باقية ، ولا يزال لها أنصار يحبذونها ، ويحبذونها على نحو ما يحبذ به عامة الناس وارثًا يضيع تراثه بين يدى اللهو ، والشهوة . وكان لها عليه من السحر ما لعربات ذلك الوارث ، وخيوله ، والغانيات ينمن فوق صدره عند جماعة العامة . غداً يصبح الوارث معدمًا أو يكاد . غداً يكون خرابه ، ثم من يدرى ؟ ربما أسعده الحظ فاستعاد بعمله ما يقيمه فى مركزه ، أو على الأقل ما يعزيه على مصيبته ، ولكنك يومئذ تراه أحرص ما يكون على مركزه ونفسه .

كذلك متى أدركت الإنسانية يومًا ما رأت فظائع ماضيها التعيس ، رأت الشقاء الذى يخيم على الأفراد ، والتعس الذى ينتاب المجاميع الصغيرة من جراء نظام العائلة والوراثة والذل الذى يصيب الأمم من العسف والتحكم . ورأت أساسًا لذلك البلاء كله غلطتها الفظيعة التى ارتكبتها جيلاً بعد جيل . رأت الجريمة الشنعاء طالما جاهدت للتكفير عنها ، ثم إذا هى عاودت ارتكابها ، وكانت فى عودتها أشنع ، وأبشع رأت الدماء السائلة والرؤوس الطائرة ، والأطفال الصارخة ، والنساء المتأيمة ، والآثار المُخَربة ، ورأت واقفًا على أطلال ذلك كله شيطان الظلم ، والقسوة النافخ فى بوق الحرب المنادى باستعباد الأمم واستذلال الشعوب ، وإقامة التفرقة بين الطوائف ، الواضع نظام الأرستقراطية ، وإذلال الضعفاء للأقوياء ، والفقراء للأغنياء ، المعلى على رؤوس الملأ استهزاءه بالعدل ، والحق ، والإخاء ، والرحمة . هذا ما ستراه الإنسانية يوم تبلغ رشدها ، ثم تُرجع البصر إلى ماضيها .

لا أحسب من بين العقلاء من يتمدح بالحرب إلا رجلاً واحداً . ذلك الرجل هو المعرى أو من على شاكلته ، فأساس فلسفته أن الوجود شقاء بذاته ، وخير ما يرجى للناس الخلاص منه ، ولا شك أن الحرب أسرع من كل الأوبئة فعلاً ، وأقرب ما يمكن لتحقيق خلاص الناس من الحياة.

ولعل "تاسيت" يرمى لهذا الرجل حين تمجيده الحرب ، فلقد رأيناه رغمًا عن تراجعه عن إدعاء الفلسفة ابنة الحرب ، وتمسكه بأهداب الخيالات ، واعتباره الإلياذة وغيرها كلها أسس المدنية ، لا يرى الحرب خزيًا للإنسانية وعارًا ، بل يعدها أساسًا من أسس المدنية ، فإن كان منتهى ما تريده المدنية هو ما أراده المعرى للناس فأكرم برأى "تاسيت" وبفكرته ، فهى من بين الأفكار لا شك المصيبة .

أما إن كان يريد ما يقول فهو ذلك الذى يحسب الإنسانية بلغت مبلغ الكمال فى حين هى لم تدرك بعد ، وفى حين لا تزال فى تخبط الصبا ، والوقوع فى زلات الشهوات ، ولو أنه راجع التاريخ الذى يُكثر من الإشارة إليه ، وذكّر نفسه كم قليلة هى الخطى التى قطعت الإنسانية فى سبيل الوصول لشىء يكاد يكون هو الحق ، لاقتنع كل الاقتناع بأن الإنسانية لا تزال فى دور الطفولية ، وأن ما يحبذه ليس هو إلا تلك الكبوات التى تتناوشها أثر استرسالها وراء شهواتها .

وما كان لنا أن نطرح فى موضع الجدل حاضر الإنسانية ومستقبلها ، وبالأخص فى تلك الأنهر الضيقة التى تحملها صفحات الصحف ، ولكن إكبار أمر الحرب واعتبارها أساس المدنية استنتاج غير صحيح ، والذى استفادته الإنسانية من الحروب صغُر إلى جانب ما أفسدت الحروب على الإنسانية ، وما كان أغنى الإنسانية عن الإلياذة وأحوجها من هوميروس إلى خيال أرق وأصفى وأدنى إلى الحب والرحمة . ولم تكن عبقرية هوميروس لتقف دون الإلياذة ، لو لم تكن تلك الحرب التى أذكت فى نفسه شيطانها . لهذا كله رأينا أن لا تُترك القسوة التى تعم العالم بالفعل تتسرب حتى إلى أشد الأفكار حيادًا وأقربها إلى الإنسانية السليمة .

على أنّا نكرر هنا أن لن تنهد عزائم أنصار السلام ، فما الحمى التى تهز العالم اليوم إلا الأنانية تقتل نفسها ، وقريبًا تلقى مصرعها ، ليست هى إلا احتقار الشناعة والقسوة ، وهى فى يقيننا فاتحة عصر التضامن ، والحرية ، والإخاء .

الحرب والحضارة (*)

- ٣ -

عفواً يا سيدى الدكتور طه حسين . ما كنت أحسب أن يصل بك الجدل ، فيخرجك عن طوقك ، ويجعلك ترمى مُناظرك مرة بأنه يعرف الحق ، ثم يأبى إلا أن يتعلق بأهداب الخيال ، وأخرى بأنه جزع واله ، وثالثة بأنه لا يجد ساعة يسمع فيها للعقل الهادئ دون سواه . قد يُعذر صاحب الرأى عند مناظرته خصمه إذا هو التجأ إلى المغالطة والسفسطة . قد يعذر إذا قال إن الحرب ، والسلم ، كالطب والمرض . ذلك لأن من الممكن افتراض حسن نيته فى مغالطته أو سفسطته ، ولكن لا عذر له حين يرمى مُناظره بما ينفر منه الذوق ، ولا يرتضيه الأدب . وما كان لنا مهما رأينا فيما تقر من عِوج فى الرأى ، أن ندعى عليك أنك تقول ما لا تعتقد ، أو إنك تطرح العقل جانباً حين تكتب .

ما هو على وجه الضبط الخلاف الذى بيننا ؟ ، الخلاف أن الدكتور طه يرى أن الحرب كانت وستبقى أساس المدنية ، وأقول إنها كانت مظهر الوحشية ، وآية تعس الإنسانية ، وإنها لذلك ستزول من العالم .

ولست أدرى كيف يمكن أن يقول قائل ببقاء الحروب ، أو كيف يدعى مدعٍ أنها كانت إلى جانب خير الإنسانية أميل منها إلى جانب الشر لها .

كل ما قاله طه حسين ، ليثبت أن الحرب كانت أساس فلسفة اليونان ، أنها جمعت بين مختلف شعوب الإنسانية ، ومكنت أفرادها من الاختلاط والتفاهم ، وذلك

(*) مجلة السفور ، العدد ٣٠ ، بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩١٥

هو عين ما يقال عن الحروب الصليبية ، ومعنى هذا من غير شك ، هو أن الحرب لم تكن سبب انتشار الفلسفة ، ولكن سببها كان احتكاك الأفكار ، وتشعب المذاهب ، وتنافس المتناظرين مما أذكى ما فى العقل الإنسانى من ضياء . ولا نحسب متمنطقًا يستطيع مهما بلغ من دقته أن يدّعى أن الحرب كانت وستبقى سبب اختلاط بنى آدم ، أو مصدر التنافس الإنسانى المتطلع إلى السعادة ، ثم لا نحسبه يرى أن جمع الحرب بين الشعوب هو ذلك الخير الأعم الأكمل الذى يغطى على ما فى الحرب من فظائع ، وعلى ما تجىء به من مصائب وويلات .

فلكم اجتمعت الشعوب من غير حرب ، وكم قامت المبادئ والفلسفات من غير حرب ، وكم خطت الإنسانية فيما وصلت إليه من طريقها من غير حرب ، فى حين كانت الحرب فى كل أدوارها مظهر الفظاعة والقسوة ، وقيام الحيوانية الشنيعة بظلمها لإخضاع الرحمة ، والعدل .

نقول هذا فيقول الدكتور طه وبعضهم معه إنّا نسترسل مع عواطفنا ، ونترك خيالنا يتحكم فينا ، ولا نسمع لما ينادى به عقلنا . يا عجبا كل العجب ! . أخيالٌ هى الدماء السائلة والأرواح الزاهقة والآثار المحطمة ؟ ، أم خيال هو استبداد فرد أو جماعة صغيرة بملايين من الناس يرسلون بهم يلقون حتفهم ، ثم يكون أحسن حظ لمن بقى منهم الرضى من الغنيمة بالإياب ؟

وهل استرسال مع العواطف ذكر هذه الوقائع ، وتذكر ماضى الإنسانية ، وتقدير الخطى القليلة التى سارها بنو آدم فى سبيل الرقى ، والحكم على الحروب بعد ذلك بأن مصيرها للزوال؟.

لسنا ننكر إنّا نستعين مع عقلنا فى الحكم بحواسنا وشعورنا ، ولكن عملنا هذا هو وحده الذى يضمن لنا الوصول إلى الحق . فإن النظر للأشياء بالعقل المجرد وإدعاء المنطق ، لتسيير العالم كان فى كل العصور سبب الوقوع فى الخطأ ، ذلك بأن المنطق إذا هفا من نقطة فسدت النظرية التى تعتمد عليه . وعقلنا لم يحط إلى اليوم بكل الأشياء والحوادث علمًا . فمنطقنا عرضة للوقوع حتمًا فى الخطأ إذا نحن قصرناه على القليل من العلم الذى لدينا ، وهل خطأ أكبر من القول بأن الفلسفة ابنة الحرب جمعت

بين مختلف الشعوب ؟ . أم خطأ أتعس من القول بأن الحضارة نتيجة الحرب ، مع أن الحرب علَمُ الموت ، والحضارة ابنة الحياة . لهذا لا نرى محلاً لأن يتمدح متمدح بمنطقه الدقيق فى الوقت الذى لا يعتمد هذا المنطق إلا على الكساء اللفظى الذى يحتويه ، فإن أنت أجلت فيه نظرة انهار ، وتداعى .

ليتلمس معنا من شاء طريق الإنسانية من الماضى ، وليسر معه بعد ذلك طى المستقبل ، وإنَّا لا نشك لحظة فى أنه يصل من بحثه إلى ما وصلنا إليه ، من أن الحروب مظهر الوحشية الحيوانية فى الإنسان ، وأن أوقاتها لحظات ينطفئ فيها نور العقل وتتحكم فيها الشهوات القاسية ، ويدعى لنفسه فيها أبشع أنواع الإجرام الجمال ، وحق الوجود . ولطالما جاهدت الإنسانية تريد محوها ، ولم ترد الإنسانية شيئًا إلا وصلت إليه . فإذا كان لا يزال من بين بنى آدم أنصار للقوة ، ونصراء للهمجية فما هم إلا بقايا العصور القديمة ، وعما قريب لا تبقى لهم باقية ، عما قريب تعلم الإنسانية أن محركى الحروب أعداؤها الألداء ، والدافعون بها فى مهاوى الخراب، فتثور عليهم ، وترمى بهم من عروشهم ، وتستمر هى فى طريقها ، طريق التنافس السلمى إلى نعيم الحياة .

نعم .. غداً تفيق الإنسانية من سباتها ، ويرى الناس هذه الجرائم التى ارتكبوها مدفوعين إليها بآراء المتعسفين القساة من حكامهم ، وسوف تفيق إفاقة طويلة دائمة .

كفاها تلك الإفاقات المتقطعة جاهدت فيها ، لتوال حقوقها المتهضمة ، ورمت بالظَلَمة المستبدين إلى الأرض ، ثم رجعت إلى غفلتها ، فرجعوا إلى ظلمهم . وكفاها ما مضى من الإخفاق فى جهادها للوصول إلى السعادة ، وإن ما يجرى اليوم من بحار الدماء ، وما يجلل العالم من سواد الحزن ، وما يمزق القلوب والأحشاء من الأسى والألم ، كل ذلك يجعلنا نأمل أن ستكون هذه الإفاقة الطويلة الدائمة قريبة منا ، وأن الإنسانية ستحرص بعد الذى رأت من ويلات هذه الأيام أن تعود إلى مثلها ، وتعيد القتل ، والتخريب ، والدمار على هذا النحو الفظيع الشنيع .

لبريق السيوف ، ولأصوات المدافع ، ولمنظر الغازات الخانقة مهابة وجلال ، ولكنها مهابة عزرائيل ، وجلال الجحيم ، وما عهدنا بالموت والعذاب موارد لنعيم الحياة ، ورفاهة الحضارة ، وإنما النعيم والرفاهة فى التنافس السلمى المبنى على الإخاء ،

والرحمة والعدل . والتاريخ يشهد ، والواقع يؤيده، أنه ما حل الظلم بأرض إلا اضمحلت أمامه الحضارة وتضاءلت الحياة ، فإذا كانت الحرب علم الموت ومقدمة الظلم ، لم يبق لها أن تكون أساس العمران ، والمبشرة بالسعادة. وهل سمعنا أنين فرنسا إلا بعد أن أرهقتها حروب نابليون ، وجعلتها بعد أن كانت سيدة العالم تشتغل بتضميد كلومها الدامية تاركة من سواها من الأمم تتقدم تحت ظل السلام على حسابها ، أم هل أصاب تركيا ما أصابها من ضعف إلا بعد أن أسرفت في الحروب ، حتى أقعدتها الحروب عن مكاتفة الأمم ، وهل لا يعد فقد هذه القوى العظيمة بعد أن عطلتها الحروب خسارة جسيمة على الإنسانية ، وعلى المدنية ؟ ثم يقال بعد ذلك إن الحرب أساس الحضارة !!! كلا .. كلا .

إنني أخشى أن تأخذ صديقي الدكتور طه حسين حدة الشباب ، ونشوة المحافظة على المبدأ فيعمد إلى تأييد رأيه بالشدة التي رأيناها في مقاله الأخير ، ولكني أرجوه أن يتمهل قليلاً ، إنه مسافر بعد يومين أو ثلاثة من ظهور هذه المقالة ، لينزل بين أظهر الفرنساويين ، فلينتظر حتى يكون هناك على مقربة من الحرب ، وحيث يستقي المعلومات الصادقة عن آثارها، ثم ليخبرنا بما يرى ، وأرجوه أن لا يضن علينا بما يجيبه به الجرحى والثاكلات واليتامى ، وبما يفيده أقطاب علماء هذه البلاد . أرجوه أن يسأل بعض الاقتصاديين منهم عما ستخلف الحرب من الأضرار المادية ، وغير المادية ، ولعله بعد أن يسمع شكوى العلماء ، وأنات الجرحى ، وتلهفات المفجوعات ، واليتامى يكون أقل حدباً على رأيه وأكثر نزوعًا إلى نصرة السلم ، واعتباره أساس المدنيات في العالم . ولعله كذلك إذا قرأ تواريخ الحروب بنقد أدق مما قرأها به من قبل رجع إلينا مبشراً أنصار السلام ، ومحبي الإنسانية باقتراب عصر السلام ، والرحمة ، والنور على الأرض .

المدنية المقبلة

الاشتراكية تخطو إلى الأمام (*)

كان حكم الاستبداد وطيد الأركان فى أوربا كافة ، ما خلا إنكلترا ، إلى حين قيام الثورة الفرنساوية . وكانت إنكلترا إذ ذاك المثل الأعلى يتطلع إليه الكتّاب من أهل القارة ، يودون لو تنسج أممهم على منواله ، ولكن الأمم بطيئة الخطى دائمًا ، وليست تكفى فيها الحركات ، والأعمال الفردية ، لتنقلها من حال إلى حال .

فلقد كتب مونتسكيو ، ومن سواه من كتّاب فرنسا أبلغ الكتب ، وتمنوا لأمتهم كبار الأمانى ، وقام إلى جانبهم الشعراء ينشدون الأغانى الجميلة تهتز لها النفس تمجيداً للحرية ، ومع هذا كله فإن أعقاب المجاميع الكبيرة التى تكوّن الأمة الفرنساوية لم تتوتر إلا بعد أن أرهقها الظلم ، وبعد أن أذاقها المستبد الأكبر ، وأتباعه أنواع الخسف ، والذل . يوم ذاك قامت باريس وغيرها من المدن، وتحرك على أثرهم باقى السكان فعلت صيحتهم جميعًا فى وجه الظلم ، وبعد أن كانت أغنيات الحرية فردية تنشدها الجماعات الصغيرة فى أوكارها صار يترنم بها القاصى ، والدانى من أهل البلاد .

ويوم ذاك نمت تلك البذرة الصالحة التى بذرها الكتّاب ، وأصبح العقد الاجتماعى الذى وضعه روسّو إنجيلاً يرتله الوطنيون فى جمعياتهم ، كما يرتلون إنجيلهم الدينى فى الكنائس . وسرت هذه الروح وامتدت ، حتى إذا بلغت ذروتها صادفها نحس الطالع فتلقاها نابليون بين يديه واستثمرها أول الأمر ، لخير فرنسا وعظمتها ، فلما وثقت فرنسا منه وأسلمت زمام الأمور إليه أفناها فى شخصه ، وأعاد عليها حكم الاستبداد القديم . غير أن البذرة الصالحة متى نمت لا يمكن أن تقتلها الأعشاب الفاسدة ،

(*) مجلة السفور ، العدد ٣٢ ، بتاريخ ٧ يناير ١٩١٦

والأمم إذا طمحت للحرية لم يثنها عنها أكبر القياصرة ، ولئن استطاع ملك أن يغافلها عن حقها زمنًا ما ، فلن يستطيع أن يميت فيها روح الاستمساك بهذا الحق ، وتضحية كل شيء في سبيل نواله .

لهذا فما لبثت فرنسا أن أفاقت من كابوس الحروب النابليونية ، حتى عاودتها النزعة الثورية الأولى ، وسرت هذه الروح من طبقة الأعيان إلى عامة العمال ، فقام الناس جميعًا في سنة ١٨٤٨ يطالبون بالحرية المغصوبة التي أراقوا ابتغاء الوصول إليها المهج والنفوس .

ثم جاءت ظروف جديدة استعادت الملكية فيها سلطانها ، وبقيت متربعة في دسته حتى أنزلتها الجمهورية الثالثة عن عرشها ، وحطمته ، ووضعت الناس مكانه كل ما أملته الثورة من حقوق الحرية ، والإخاء ، والمساواة . وكذلك حكمت الديمقراطية فرنسا ، وبقيت تحكمها إلى يومنا هذا ، ولم يكن الشعب الفرنسوي يومًا أعز منه حين حكم نفسه بنفسه .

أثَّرت هذه الظروف التي مرت بها فرنسا في أوربا ، بل وأثَّرت في العالم كله ، وأخذ الفرنسيون بيدهم قياد العالم في أنظمته السياسية ، فلم تبد فكرة جديدة ولا قام حزب جديد إلا كانت فرنسا أمته الأولى ، ومربيته ، ومنشئته ، ولذا كان أول من قام الحزب الاشتراكي فصاح في وجه الفردية الاقتصادية ، وما تكره الناس عليه من احتمال النفس في هذه الربوع الفرنساوية ربوع الذكاء ، والحرية ، والنور . وصادفت هذه الصيحة أذنًا صاغية في العالم كله . فقام من الإنكليز ، والألمان ، والروسيين ، وغيرهم من نادى باسم العدل يريدون إنصاف هذه الملايين من العمال الرازحة تحت أحمال عيش لا يفضل عيش الأنعام ، نادوا جميعًا يريدون حياة إنسانية لكل مخلوق وهبه الوجود صفة الإنسانية .

وكذلك قامت الاشتراكية ، وبحثت عن أصول الظلم ، وأرادت محوها ، فحاربها خصومها حربًا عوانًا ، واستعان أولئك الخصوم بما في يدهم من قوة المال يؤيدها السيف ، وسلطة الحكم ، لكن الاشتراكية لم تتزعزع ولم تأخذها الصيحة ، بل ظلت في ندائها السلمي تريد الحق ، والعدل ، وتطالب للناس طرًا بأكبر حظ يستطاع من السعادة .

ولقد كان صوت الحق في كل الأزمان الصوت المسموع ، لذا جعلت الفردية تتراجع إلى الوراء شيئًا فشيئًا وجعلت نفثات الاشتراكية تتسلل من تلك الفرج الضيقة تبدو رغم تلاصق جيوش الفردية فى تقهقرها ، ومن ثم تبدى للاشتراكية نور الانتصار .

وعملت هذه النفثات فى جسم الفردية ، فابتدأ يهتز وخشى أن ينهار بنيانه . فلما بلغ منه الوجل وضاقت به السبل استعمل ما فى يده من أيد وسلطان ، ودفع الجيوش تتحارب وتقتتل . وها قد مضى على هذه الحرب سبعة عشر شهراً أو تزيد ، وإنا لنزداد كل يوم يقينًا بما قلنا أول الحرب ، فصرنا نرى رأى العين ما كنا نتخيل من قبل . صرنا نرى الفردية مسرعة إلى الخذلان ، لتترك للاشتراكية ما كانت تنازعها فيه من بقاء . ولا نحسبها بعد ذلك راجعة إلى ميدان النزاع بعد إذ أغمدت هى بيدها سيفها فى نحرها .

هذا هو ما تنبئ به الحرب الحاضرة ، ولسنا نكتفى لتقرير ذلك بمجرد الاستنتاج المنطقى البحت، فالوقائع التى قررناها وقائع حقيقية صحيحة وليست مجرد مظاهر للوهم والخيال . فضلاً عن هذا فإن الإحصاءات التى نشرها أحد كبراء الكتّاب من الإنكليز (ونشرت فى مقطم الأربعاء ٢٩ ديسمبر الماضى) تزيد هذا الرأى متانة ، وقوة ويظهر منها أن مسائل مفصلة تنتظر أوربا على أثر هذه الحرب لا يمكن لغير الاشتراكية أن تحلها . من هذه المسائل ما يأتى : "وجود ثلاث نساء صالحات للزواج مقابل كل رجلين يصلحان للزواج ، وزيادة عدد الشيوخ على الشبان ، وزيادة عدد الصبيان على عدد العمال البالغين ، وزيادة مُعتَلِّى البنية على سليميها ، ووجود ملايين من الرجال الذين تخلوا عن أعمالهم إبان الحرب ، ووجود ملايين من النساء يعملن أعمال الرجال واعتدن إحراز الأجور ، ووجود ملايين من العمال اعتادوا أن يكسبوا أجوراً تزيد ضعفين أو ثلاثة أضعاف على أجورهم فى الأيام السابقة على الحرب ، وينتظرون هذه الأجور العالية ، ونقص المواد الغذائية بسبب خراب ميادين الحرب" . فهل ثمت من سبيل لحل هذه المسائل المفصلة إلا عن طريق الاشتراكية ، وهل يدرى أحد إمكان محاربة العمال فى أطماعهم بعد الحرب من غير إقامة ثورات لا تكون أقل فظاعة وقسوة من الحرب ذاتها ، وتنتهى حتماً لمصلحة المجموع الأكبر المحس بحقه ؟ أقصد جماعة العمال .

لا أحسب المسألة تحتمل أى شك ، فقد آن للمجهودات الاشتراكية التى بذلت فى نصف القرن الأخير أن تجنى ثمرات ما عملت ، وتقيم على الأرض شيئًا من العدل ، ومن التضامن ، والرحمة بعد أن سعت الإنسانية لهما القرون الطوال ، ولما تهتد .

لم تكن هذه الحرب المخربة هى أساس الاشتراكية . هذا ما لا شك فيه ، ولكنها تسمح للاشتراكية بالتقدم خطوات إلى الأمام ، ولئن أعقب المجازر الشنيعة التى تفيض على أوربا اليوم أنهار الدماء همود طويل هو سبات المنهوك ، ولكن وقت الهمود هذا قد يكون بحيث لو تركت أوربا فى هدأتها ، وسلمها ، لكفاها للوصول من الحق ، والعدل إلى ما رمت الاشتراكية دائمًا إلى تحقيقه . فكفى عزاءً لأنصار الاشتراكية أن الحرب أثبتت للعالم أجمع أنهم هم المحقون ، وأنهم من أجل ذلك لغرضهم سيصلون .

أوَفى انتصار الاشتراكية خير للعالم كبير ؟ هذا ما يتساءل عنه بعض المفكرين. ونظننا فى حل من القول بأن الأكثر من مبادئ الاشتراكية أقرب للعدل ، وأدنى لما هو خليق بالإنسانية . فإذا هى احتوت إلى جانب ذلك شيئًا لا يتفق مع ما يرجوه ابن آدم من أقصى الغايات فذلك لأن الكمال لا يزال بعيداً عن الإنسان جداً ، وكان الإنسان مكلفاً به أن يقصد الكمال فى كل شىء فإن هو اهتدى إليه كان فى ذلك كل مبتغاه ، وإلا فباب الجهاد مفتوح ، وعمر الإنسان طويل .

لهذا ترانا نغتبط باقتراب تحقق الآمال الاشتراكية فى أوربا ، وإنّا نعتقد أن اليوم الذى تدخل فيه مبادئها الكبرى إلى عالم العمل هو اليوم الذى تشرق فيه شمس الحرية على العالم كله ، وهو اليوم الذى ينال فيه نفس بنى آدم حظًا من السعادة يجعل للحياة عنده طعماً ، ويدفعه لمشاركة العالم مشاركة نافعة فى السير إلى الكمال المنشود .

الشبيبة والمستقبل (*)

تعانى الشبيبة المصرية فى هذا العصر الأخير مرضًا امتد حتى أصبح عامًا . ذلك هو خوفها من المستقبل ونظرها إليه بعين مرتاعة وجلة . فلا تكاد تقابل شابًا من الناشئين وتكلمه فى شأن عمله وحاله ، حتى تبدو منه إمارات تدل عنده على يأس ، وهلع ، ووجل شديد . فإن كان من رجال الحقوق صور لك امتلاء الوظائف ، وكثرة المحامين وضعف الأمل فى الوصول إلى ما وصل إليه من سبقه من المركز ، والثروة . وإن كان طبيبًا نعى ما فيه أفراد الأمة من عدم الهرع إلى الأطباء عند كل حادث يصيبهم فضلاً عن صعوبة الوصول فى الحكومة إلى مركز مرض إلا بعد أزمان قد ينتهى العمر قبل أن تجىء . وإن كان مهندسًا أبدى لك حال المهندس الخارج عن هيئة الحكومة ، وكيف لا يجد عملاً ، ثم صور لك إقفال باب وظائف الحكومة العليا فى وجه المهندسين المصريين ، حتى لتظن أن مخاطبك لن يستطيع إلا أن يكون عاملاً بسيطًا . ويأس المعلمين ، وخريجى التجارة أظهر من ذلك كله .

ولا شك أن هذا اليأس مضر بصاحبه أكبر الضرر ، فهو يوقف أطماعه ويحدها فى دائرة لا يرى هو محلاً لإنفاق أى مجهود لتعديها ، لأنه يعتقد أن المجهود الذى ينفق فى هذا السبيل مجهود ضائع ، وما دام ذلك اعتقاده فهو يبقى فيما هو فيه من الضعف لا يتحول عنه ، ولكن هذا الضرر الفردى أخف كثيرًا مما يجلب اليأس على الأمة من الويلات والمصائب ، فإنما حياة الأمم أمل يتبعه عمل يسير بالجماعات فى سبيل الرقى الإنسانى الذى ننشده . فإذا فت فى ساعد الأمل تعطلت حركة الأمة إلى الأمام ،

(*) مجلة السفور ، العدد ٤٧ ، بتاريخ ٢١ ابريل ١٩١٦

وأصبح كل عملها أن تتحرك حول نفسها تلك الحركة التى يكره عليها الوجود ، وتبقى حركتها غير الموجبة حتى يدفعها دافع خارجى إما إلى الحياة ، وإما إلى الفناء .

وعندنا أن هذا اليأس الذى صار أهم الوسائل فى وقتنا الحاضر للوصول إلى إحدى الراحتين أثر من آثار وقوف حركتنا العلمية ، والفكرية عن أن تسير مع حالتنا الاقتصادية ، والمادية . فقد بدأت حركتنا الاقتصادية ترقى من أيام المغفور له محمد على باشا ، وبدأت معها حركة علمية مؤسسة على قواعد المدنية الغربية هى الأخرى ، وسارتا فى نشأتهما ضعيفتين لم تخرجا عن أن تكونا جميعا بعض ما أعدت حكومات ذلك الوقت لفائدتها الخاصة . فلما بدأنا فى الانتقال لإفادة الأمة هى الأخرى ، وذلك من نحو أربعين سنة مضت ، لم تجد الحركة المادية أى مانع فى طريقها ، بل لقد وجدت مشجعات كثيرة ساعدتها على الرقى والنمو ، وكان الناس يومئذ أسعد ما يكونون حالاً ، وأكبر أملاً لأن أطماعهم وأحلامهم وشهواتهم المادية وشهواتهم الروحية كانتا جميعًا فى مستوى واحد ، لكن الحركة العلمية التى هى مصدر كل أمل لم تجد ما وجدته زميلتها من المشجعات فكان تقدمها ، إن كانت تقدمت فى شيء بطيئًا هامداً لا أثر له فى الخارج ، لذلك بقيت أحلام الناس ، وآمالهم الروحية فى الحياة واقفة عند حد معين ، فى حين زادت أطماعهم وشهواتهم المادية إلى مالا حدود له .

ولما كانت الحركة العلمية فى بادئ أمرها معتبرة أساسًا للسلطة ومصدراً للثروة فقد بقى المتعلمون دائمًا وعندهم تلك الأطماع المادية غير المتناهية ، وكأنهم ما حسبوا أن ارتقاء الجهة الاقتصادية من جهات حياة البلاد كان من شأنه أن خلق اختصاصيين لعمل الثروة كانوا أثقل فى كفة المنافسة ، لكسب المادة من زيادة المتعلمين . فأتقن أولئك الأخصائيون فنهم العملى ، وبرعوا فيه ، وجعلوا يتصرفون فى الثروة العامة كما يشاءون . ولا سبيل لمنافستهم ما دام المتعلمون قد وقفوا من علمهم عند الدرجات الأولى التى كانت كافية فيما مضى ، لإكسابهم السلطة والثروة ، والتى لا يمكن أن تكفى اليوم إلا لتزيدهم غروراً وتزيدهم بذلك تعسًا .

ولا يمكن للمتعلمين أن يأملوا فى حياة طيبة ما داموا واقفين وقفتهم هذه ، بل سيزداد الحال سوءاً يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام ، ستزيد المنافسة المادية فى استعداد

طبقات جُلاب الثروة إلى حد يصبح معه المتعلم أسير هذه الطبقات ، كما كان أسير الحكومة من قبل ذلك ، وسيكون من شأن هذا المركز أن يمحو ما كان للمتعلمين فى الماضى من سلطة أو احترام ، وسيصبحون من بعد ذلك من العمال من أى فئة ومن أى طبقة ، سيكون مركز مركز محامى فلان الثرى ، كمركز كاتب فلان هذا ، ومركز طبيبه ، كمركز ناظر زراعته ، وسيكون ذلك كله لأن المتعلمين الذين هم أولى الناس بفهم معنى الأمل قد ركنوا إلى اليأس وحسبوه دون غيره باب الراحة الخالدة .

أما إذا طرحت الشبيبة عنها هذا اليأس القتّال ، وحسبت فى العلم الذى تحصل باب أمل طويل وعريض لرقى الإنسانية ، وعملت من بعد ذلك للتعمق فيه طمعًا فى الوصول لتحقيق هذا الأمل ، إذا هى لم تجعل العلم مجرد وسيلة للمنافسة فى سبيل كسب القوت ، بل جعلته تلك الغاية العليا التى يراد نيلها للوصول بالإنسانية للنور والهدى ، إذا هى أقبلت على العلم للعلم وعملت لفائدة العلم فقد خرجت من هذا المركز البشع ، مركز اليائس ، وأدخلت إلى الأمة أطماعًا روحية جديدة ، كانت معها صاحبة السلطة على البلاد سلطة حقيقية من غير حاجة منها للوظائف التى أصبحت اليوم ، فضلاً عن امتلائها لا يطمع فيها إنسان كامل الشعور بالحياة .

وهذا هو واجب الشبيبة المصرية. إنّا لا نزال نعيش فى ظلمات الجهل ، وليس القانون فى يد القاضى المصرى ، ولا المشرط فى يد الطبيب ، ولا الكتاب فى يد المعلم بأرقى من الفأس فى يد الفلاح ، أو المطرقة فى يد الحداد . ذلك لأن تلك الطبقات الأولى التى تعد نفسها متعلمة قد وقفت عند حد معين لا محل عندها للتفكير الدقيق بعده ، كما وقفت الطبقات الدنيا الأخرى عند حد معين لا تفكير عندها بعده ، والعلم لا يتفق مع وقوف حركة التفكير . فإذا كانت الشبيبة تريد أن تستعيد فى مصر المتحضرة مصر القرن العشرين ، ما كان لأمثالهم فى الماضى من المكانة ، والسلطة ، والاحترام ، فواجب عليها أن تجعل نسبة ما بينها وبين طبقات الأمة الأخرى مثل ما كانت تلك النسبة فى الماضى أو أكثر ، ولن يكون ذلك إلا بتفهم العلم ، واستدامة تحليله ، واستخدامه لإسعاد البلاد ماديًا وأدبيًا حتى يكون عمل الطبقات الأخرى أثرًا من آثار تفكير الشبيبة وعملها ، إذا فعلت الشبيبة ذلك خرجوا من راحة اليأس إلى نعيم الأمل ، وعاشوا حياة يكون لصاحبها سرور بها ولغيره أن يغبطه عليها ما دامت ، وأن يأسف على ذبولها حين يجيئها الهرم والمشيب .

إلى أخواني الشبان (*)

من ألزم ما يكون لمعيشة الاجتماع التناسق فى الأفكار بين أفراد الجماعة ، ذلك لأن الفكر مصدر الخلق ، ومصدر الإحساس ، ومصدر الحركة ، فإذا اختل ذلك التوازن فسدت الأخلاق ، وتنافرت المشاعر ، وتضاربت الحركات . وهذا كله منتهى الفوضى ، والفوضى قتالة للجماعة إذا دامت ما لم تنتج الجماعة منها بحركة عنيفة داخلية ، أو تكرهها على البقاء ، ولو من غير تماسك قوة شديدة خارجية .

إن مصدر الثورة الفرنساوية الفوضى التى سبقتها ، كذلك هى مصدر الثورة الإنكليزية العظيمة ، ثورة القرن السابع عشر ، وقوام الإمبراطورية الصينية الحكم الاستبدادى ، كما أن قوام أمم كثيرة حكم الغير ، وإكراهه إياها على البقاء فى الفوضى .

ولقد كتب على بلد العجائب (مصر) أن تكون الفوضى فيها نظامًا ، فهى اليوم قوام حياته فى كل أجزائها ، وهى لا تفتر تجد من العاملين على تقويتها بأقوالهم ، وأقلامهم ودسائسهم ما يزيد فى ترتيبها ، ويمد فى سلطانها ، ويهيئ لها من أسباب القوة ما يجعلها آمنة تطمع فى الخلود.

بلغ من قوتها بفضل أولئك الأنصار المجدين ، أنه أصبح التفكير فى وسائل الخلاص منها ضربًا من المجازفة ، وطلبًا للمستحيل ، وبلغ من قوتها أن انسلت إلى أفكار أولئك المجازفين أنفسهم فى بعض مواضعها فجعلتهم يقعون أحيانًا فيما يكرهون لغيرهم من عدم التصريح إطلاقًا بكل ما يجول فى خواطرهم ، وبلغ من قوتها أن مهدت لليأس من الإصلاح سبيلاً فى نفوس طامعة فى الفضيلة ، ولنصرة الإصلاح .

(*) مجلة السفور ، العدد ٦٢ ، بتاريخ ٤ أغسطس ١٩١٦

لكن اليأس أقتل للجماعات من الفوضى ، الفوضى مهما استحكمت حلقاتها ، ومهما وجدت من الجنود الذين يقاتلون في جانبها ويساعدون على امتداد صفوفها يمكن لنفس قوية باسلة أن تقوم في وجهها ، وأن تحاربها ، وأن تستعلى عليها فترد التناسق إلى نصابه ، وتعيد إلى الجماعة قوتها ، ولكن اليأس إذا داخل النفوس سلبها فضائلها ، وأضعف مادة الحياة فيها ، ثم دفعها إلى سبات الموت هيهات لغير قوة فوق الطبيعية أن تقيها منه .

لهذا كان القيام فى وجه أنصار الفوضى الممهدين لليأس سبيل احتلال النفوس والتسرب إلى القلوب أقدس واجب محتوم على أنصار الإصلاح ، ومحبى الخير لهذه البلاد ، فإن أولئك هم السم فى الدسم، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، وتصف أقلامهم الكذب وهم يعلمون .

أبلغنا السفور ما لا يفتر يناهضه به خصوم الشبيبة وأعداء الإصلاح ، وأبلغنا أنهم لا يزالون يضربون على نغمتهم القديمة البالية نغمة رمى المصلحين بالإلحاد ، ويطرزون مطعنهم هذا بوشى قذر من السباب والشتائم ، ثم يحيطونه بكلمات من آى القرآن لتزدرده النفوس الساذجة ، آملين ببعد نظرهم الأثيم ، أنه متى احتلها ذاب الغطاء ، ورسبت فى قرارتها المطاعن والسباب .

ليتقولوا عليكم إخوانى الشبان ما شاؤا ، وليكفكم ماضيهم حجة عليهم ، يكفيكم أن السعاة منهم أكثرهم آفاقون كل همهم فى الحياة مرتزق ، ورغد يطلبونهما ، ولا يهمهم حطة السبل التى تصل بهم إلى ما يرجون منهما . سيروا أنتم فى سبيلكم لا يثنكم قول آفاق ، ولا حجة مأجور .

لا تهتموا لما يقولون ، إنما يقولونه نفاق ، وكونوا أحراراً فى أفكاركم أحراراً فى عقائدكم أحراراً فى سعيكم إلى الإصلاح ، وفوق هذا كله كونوا مخلصين فى حريتكم ، وإن رموكم بالإلحاد فليعلم أى منكم مسه هذا القول أن المخلص فى إلحاده خير من المنافق فى إيمانه، إنما الإلحاد ، والإيمان ، والإسلام ، والنصرانية كلها ضروب من اليقين فى العقيدة يأخذ بها الرجل مخلصاً لها إن وقر فى نفسه أنها الحق ، أما النفاق والإفك ، وما يرجونه إلى جنب ذلك من الأباطيل فهى مبتدعات النفس المخربة الفاسدة ،

النفس التى لا يهمها إلا نفسها ، النفس الأنانية التى تطلب كل شىء من كل الأبواب وبعدها الطوفان .

إن هذه النفوس تعيش فى ظلام الوهم متسلطة على النفوس الأخرى ، ولكنها تفنى إذا سطع عليها نور الإخلاص . وأنتم إخوانى قد أخذتم على أنفسكم نصرة ما تعتقدونه الحق ، والعمل لما يصل إلى إصلاح أمتكم ، وإسعادها ، فاعملوا للإصلاح ، وانصروا الحق ينصركم ، ثم لا تخذلون .

انصروا الحق مخلصين له الحجة ، وحجة الحق المخلصة هى وحدها الباقية الخالدة ، ولا يروعنكم تألب المبطلين ، وتناصرهم ، ولئن امتدت ظلمات إفكهم حتى خيم غسقها ، وحتى عم النفوس أدهم ليلها ، فإن كل كلمة حق مخلصة تقذفون بها عليهم تخرق حجب ذلك الظلام، وقريبًا يجىء اليوم الذى يبدد فيه غسقه ، وتنجلى فيه غياهبه ، ويطلع نهار الإصلاح والحق مضيئًا ساطعًا يبصر فيه حتى من أضلت قلبه الأكاذيب التى بناها المنافقون .

يومئذ تسودُّ وجوه ، وتبيضُّ وجوه ، يومئذ يعلو المخلص ، وتزهق روح المبطل الأفاك .

فى ذلك اليوم تخمد أسباب الفوضى ويكون لكم أن تقروا بين أهل أمتكم المبادئ السليمة الطيبة التى تصل بها إلى أحسن الغايات ، فتجدون منها الآذان الصاغية ، والقلوب الواعية ، فأعدوا لهم ما استطعتم من ذلك ، فأنتم الأعلون ، ولكم دون غيركم حكم الغد .

حكم العادة (*)

عمر الحرب الحاضرة إلى الآن خمسة وعشرون شهراً وبضعة أيام . هذه المدة ليست بالطويلة إلى جانب تعاقب السنين وكرّها ، ولكنى أراها كافية ، لتنسينا طعم أيام السلم ، كافية لتجعلنا نرى تلك الأيام التى انقضت ، كأنها حلم لذيذ عاودنا سويعات الكرى ، ثم قمنا فواجهنا الحياة الحقيقية الدائمة ، حياة الحرب المستعرّة ، وأراها كذلك حتى ليبلغ منى السأم حينما تمر أيام متتالية لا أرى فيها من أخبار الحياة المتحركة ، الحرب ، إلا الترامى بالقنابل ، وإلا الغارات الجوية ، وإلا المعارك المحلية ، وإلا هذه الأشياء التافهة التى أصبحت لا تستلفت النظر إلا كما تستلفته المناظر اليومية ، ولا تسترعى السمع أكثر مما تسترعيه قرقعة العربات فى الشارع ، ولهذا السبب صرت لا أعلق على ما تنقله التلغرافات من هذه الأخبار إلا أقل الأهمية . فإذا حدثتنا يوماً بمعارك كبيرة جدية يتوقع معها تقدم رائع ، وتقهقر مفجع ، وسقوط لمدن ، وأماكن حصينة ابتدأت تتحرك فى نفسى شهوة الطلعة ، حتى لتكاد تبلغ تحركها حين مشهد رواية غرامية ، أو حين قراءة قصة متعوس ، أو بائسة .

ولكن الخبر الذى يخيفنى حقيقة ، ويهز نفسى ، وأعصابى وقلبى ، ويبعث إليها جميعاً الرعدة ، هو تصور عودة السلم . نعم هذا هو الخبر المفزع عندى ، وما صورته يوماً لنفسى إلا أحاطت بصورته كل المخاوف ، والشناعات ، ولا عجب . فكيف يمكن لهذه الملايين المتحكمة فى المدافع والمؤن تبعث بها كل لحظة رسل الموت المتسلطة على الحصون ، والمعاقل تدكها دكًا ، وعلى الخنادق ، والاستحكامات تنسفها نسفاً والموكلة

(*) مجلة السفور ، العدد ٦٨ ، بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩١٦

بإزهاق الأرواح ، وببتر الأعضاء ، وبشرب الدماء أن تعود يومًا ما بين عشية ، وضحاها فترمى المدافع وقنابلها والبنادق ورصاصها ، وتعيد السيف إلى غمده ، والخنجر إلى قرابه ، ثم تعمد إلى المزارع ، وإلى المصانع ، وإلى المعابد ، وإلى المدارس . وهل يحسن أولئك الجلادون بعد عودتهم شيئًا غير الإهلاك ، والتخريب ، وإن أحسنوا فأيّان يجدون المصانع ، والمدارس ، والمزارع التى تقبل مريضهم وصحيحهم ، ثم هل تراهم وقد صاحبوا القسوة الشهور ، والسنين يعرفون من بعد ذلك معنى السلم والطمأنينة ، والرأفة . أم تراهم يرجعون من الحرب ثانىّ أعّنتهم إلى بلادهم يقلبونها كعبًا على عقب ، ويعيدون فيها ما كانوا يفعلونه فى ميادين القتال من ضروب البسالة ، والقوة أو بكلمة أخرى من مظاهر القسوة ، والوحشية .

وإن صح ذلك الذى أخشاه يا صاح ، فالطامة الكبرى والخراب الكبير أن الجندى اليوم يحارب جنديًا يقابله ، قوة تقف فى وجه قوة ، هذا تنازع البقاء ، وهو قانون الطبيعة الخالد ، ولكن غدًا ، إذا جاء الصلح ، ونزلت الطامة ، ووقع ما أتوقع ، فسيحارب الجندى امرأة وسيحارب طفلاً وسيحارب أعزل من السلاح ، ومحاربته لهؤلاء ليس لها إلا معنى واحد ، قتله إياهم بسرعة مدهشة ، واستئثاره بالأمر ، واستعباده من تبقى عليه الصدفة المنكودة ، وذلك هو الويل العظيم .

ثم افرض جدلاً أن ذلك لم يحصل ، وأن الأمم لم تنزع إلى القيام فى داخليتها ، ولم تتناقض مطامعها القومية فيما بينها . فهل ترى يكون الصلح غير مخيف ، كلا ، سيكون مخيفًا أيضًا ومفزعًا . إن ألوفًا من العمال الذين سيرجعون لن يجدوا عملاً ، فقد تحولت مصانعهم معامل للذخيرة والمؤنة ، والمصانع الباقية ضيقة بالعمال الذين يشتغلون فيها ، وألوف من العجزة لن يجدوا مأوى ، لأن الصليب الأحمر ينطوى بعد الحرب أو إلا قليلاً ولا تفى ميزانيات الحكومة بسداد الديون ، وبإدارة الحكومة ، وبإيواء العجزة ، وآلاف من النساء لن يجدن عائلاً ، وهن اليوم يشتغلن ممرضات ، وعاملات فى المعامل التى تحتاج الرجال وفى الوظائف الجالسة ، وسيجدن غدًا من الرجال شر منافس.

وافرض أيضًا – أنه أمكن تلافى ذلك كله ، فماذا تكون لذة العيش بين قوم كل لبسهم السواد ، وكل قلوبهم الحزن ، وكل عيونهم العبرات .

للأمم اليوم مطامع تسعى لتحقيقها ، فهى كلها مشرئبة تجاه تلك المطامع ، ولا يدخل أحد من أفرادها إلى داخل نفسه ليعيش مع إحساساته ، ولكن غداً حين يتم الصلح وحين يحقق الناس ما لحقهم من الخسارة ، وما أصاب قلوبهم من وخزات الألم ، وحين يغيب عنهم أولادهم وأزواجهم ومحبوهم وحين تجلس العجوز إلى جانب الموقد ، وإلى جنبها حفيدها ، وليس سواهم فى الدار ، فتتقابل عيونهما ويبكيان وحين تجثو الثكلى المتأيمة على كرسى الكنيسة ، وتنظر إلى المسيح المصلوب ، وإلى الدم سائلاً من أطرافه ، فتتصور ابنها مصلوباً أو ممزق الأشلاء أو مختنقاً بالغاز يوم لم يكن لها فى الحياة أمل سواه ، ترى أن العيش فى مثل هذه الظروف لا يكون ذا قيمة مطلقة .

وافرض أيضا ، ولكن لم كل هذه الفروض التعيسة ؟ لم يجئ السلم بعد ، ونرجو أن لا ..

ولكن .. ألم يكن جميلاً حلمنا القديم ، حلم السلم من خمس وعشرين شهراً مضت .

قاتل الله العادة .. هى الحياة وهى الموت ، هى التى ألقت إلى الحرب نفوساً تحب السلم حب العبادة .

حقيقة الحياة (*)

كم سمعنا أن الحق واحد لا يتغير، سمعنا ذلك حتى ملته الأسماع ، وحتى كدنا نضطر للتسليم به لكثرة ما سمعناه ، ولكنا نرى الناس لا يزالون مختلفين ، وكل منهم يدعى أنه على الحق، فهل معنى ذلك أن الحق شعب كثيرة العدد ، أو معناه أن الحق ليس مما يوجد فى هذا العالم الأرضى .

ليكن هذا أو ذاك . نحن يسرنا دائمًا أن نرى أفكارًا جميلة ، وصورًا محبوبة يقبلها العقل ، ويسر بها الذوق ، وإذا أصر أصحاب هذه الأفكار ، أو تلك الصور على نسبتها للحق لم يكن عندنا مانع من التسليم لهم بما يريدون ، أما إن هم اكتفوا بنسبتها إلى أنفسهم على اعتبار أنها بعض آثارهم فإنّا نكون لهم أكثر احترامًا وأعلى تقديرًا .

ذلك لأنّا نرى أن إنتاج الجميل المحبوب ، وموافقة العقل والذوق أرقى ما يطمع فيه الإنسان ، فمن وصل بمنتوجاته إلى ذلك كان الشخص الحقيق بالاحترام ، والإجلال والحب .

وقعت فى بعض قراءاتى على حكاية بوذية قديمة ، ويعلم القارئ أن البوذية تنبذ الترف ، وتحض على التقشف ، والزهد ، حتى لترى البوذى إذا أصبح جدًا ولو كان فى الأربعين من عمره ، أو قبل ذلك ترك الحياة ، وانقطع عند شاطئ نهر ، أو تحت ظل شجرة لا يكلم إنسيًا ولا يستلذ طعامًا حتى إذا بلغ من ذلك أن خرف أيقن أهله أنه اتصل بالذات العليا ذات برهمة المقدس . ولقد سرنى من حكايتى أنها تصور رأى البراهمة

(*) مجلة السفور ، العدد ٧٠ ، بتاريخ ٦ أكتوبر سنة ١٩١٦

تصويراً جميلاً جذاباً ، فأحببت أن أنقلها لعلى أجد من يشاركنى فى الشعور بأن من أنتجها يستحق الاحترام .

فقد زعموا أنه كان فى مدينة ماتورة من بلاد البنغال جارية بارعة الجمال تدعى فسفدتا ، وأنها التقت فى المدينة بأحد أبناء التجار الموسرين ، وأحبته حبًا جمًا . فأرسلت خادمتها تخبر ذلك الشاب واسمه أويجابا أن سيدتها تنتظر استقباله على الرحب فى منزلها ، لكن أويجابا لم يحضر لأنه كان طاهراً رقيقًا مملوءًا بالشفقة محيطًا بالعلم مراعيًا للقانون متبعًا أوامر بوذا . وذلك كله كاف ليحمله على تحقير حب هذه المرأة .

بعد زمن من ذلك غير بعيد ارتكبت فسفدتا إثمًا حكم عليها من أجله بقطع يديها ورجليها ، وأذنيها ، وأنفها ، فقيدت إلى مقبرة ، ونفذ عليها فيها ذلك الحكم ، وهناك تركت تقاسى آلام الساعات الباقية من حياتها .

ولقد كانت خادمتها تحبها ، لذلك بقيت إلى جانبها تطرد عنها الذباب طمعًا فى أن يجيء عليها الموت هادئة مطمئنة ، وأن الخادمة لتؤدى واجب الإخلاص إذ رأت رجلاً مقبلاً ليست عليه سيما الطلعة ، بل هو قادم بتحفظ كأنه زائر مملوء بالاحترام لمزوره . فلما عرفته الشاب أويجابا أسرعت فانتشلت أعضاء سيدتها المبعثرة ، وأخفتها طى ثيابها ، واقترب ابن التاجر من فسفدتا ، وجعل يتأمل فيمن كان جمالها بالأمس نور المدينة ، فلما بصرت به الجارية ، وعرفته محبوبها وجهت إليه الكلمات الآتية فى صوت خافت مندثر :

إيه يا أويجابا . لقد تركتنى حين كان جسدى غضًا كأنه زهر الريحان تزينه أطواق الذهب ورقيق النسيج ، تركتنى أنا البائسة حينما دعوتك ، وقد كان كل ما فىّ يوحى أشد الرغبة ، فلمَ تحضر الآن ، ولحمى الدامي المبتور لا يستثير إلا التقزز والفزع .

فأجابها أويجابا برقة مستطابة :

يا أخت فسفدتا ، ما كانت إحساساتى لتتأثر أيام جمالك الذاهب بالمظاهر الخداعة ، بل لقد كنت أراك يومئذ بعين الفكر على نحو ما أنت عليه اليوم ، وكنت أعلم أن جسمك ليس إلا وعاء للفساد ، على أنك لم تضيعى علم الله يا أخت شيئًا فى نظر

من يعلم ويفهم ، فدعى الأسف ، ولا تنعى ظلال المسرات ، والشهوات الذاهبة وخلى حلم الحياة الفظيع تتبدد غياهبه .

واعلمى أن مثل ملاذ هذه الدنيا كخيال القمر المنعكس فى الماء ، وإنما جلب عليك الشر إمعانك فى الرغبة ، فلا ترغبى من الآن شيئًا ، وكونى راضية عن نفسك تكونى خيرًا من الآلهة ، لا تطمعى فى الحياة فإن الإنسان لا يعيش إلا إذا أحب العيش ، وأنت ترين يا أخت أن العيش شر كله ، إننى أحبك يا أخت فسفادتا فصدقينى ، وارضى راحة الخلد .

سمعت الجارية هذه الكلمات ، وأيقنت أنها حق فماتت قانعة ، وتركت هذا العالم الخيالى قديسة طاهرة .

هذه هى الحكاية التى أعجبتنى ، وأردت أن يشاركنى من يشاء فى احترام واضعها ، فهى على قصرها تمثل الحياة على نحو ما تصورته طوائف كثيرة من المتدينين ، والفلاسفة ، وتصورها تصويرًا جميلاً يرضاه العقل ، ويُسر به الذوق ، وإنها لتصادف الإنسان أحيانًا فى ساعات ضجره من الناس ، ومن الوجود فيظنها الحقيقة المجسمة ، ثم هو يذكرها أحيانًا أخرى فى ساعات نشوته وقوته فيراها خيالاً جميلاً ، ولكنه بعيد كل البعد عن الحقيقة .

وذلك شأن الإنسان ، يصبغ كل ما حوله باللون الذى يرى به الناس ، والحوادث ، والموجودات ، فإن هو كان من الجامدين الذين يبقون عند نوع واحد من أنواع النظر آمن بما يرى أنه حق ، وإن كان من المفكرين لم ير فيما يعرض عليه مما يسمونه الحقائق إلا خيالاً جميلاً أو حلمًا لذيذًا . وقد يرى فى نظريتين متناقضتين من الجمال أو اللذة ما يجعله يحبهما ، ويهتف بذكرهما .

والحقيقة أن طالب الحقيقة ساع وراء المستحيل .

شبابنا وفتياتنا (*)

يأخذ الكثيرون على شباب اليوم ما يأخذونه من ميل مع الهوى ، وانقياد إلى مهاوى المدنية الغربية ، ويأخذون عليهم من ذلك بنوع خاص عكوفهم على اللذة ، وانعطافهم إلى الجميل مما فى الغرب . وقد بلغ ذلك من نفوس بعض المتقدمين فى السن حتى أدى الأمر بمجلس الأقباط الملى أن يتخذ تدابير ، وجه بعضهم إليها اللوم الشديد فيما يتعلق بزواج شباننا الأقباط من الغربيات.

الغيرة على فتيات اليوم محمودة . حقًا إن شباننا ليصدفون عن بنات عمومتهم وبنات وطنهم ، ويميلون كل الميل إلى الغربيات ، فتجد الأكثرين منهم يعدلون عن الزواج لا لشىء إلا لأن الفتاة المصرية لا تروق فى نظرهم ، أو لأنهم يرون فى العادات المصرية ما يحول دون معرفة من يقال عنهن أنهن جديرات بالعطف والإعجاب ، وهذا الميل مضر بجامعتنا القومية ضرراً غير قليل .

ولكن هل اللوم يقع على الشباب فى ذلك ، هذه هى النقطة الدقيقة التى يجب النظر إليها، ويجب النظر إليها بعين المدقق المحلل الذى يريد أن يصل النتائج بأسبابها لا بعين الخطيب الذى يريد أن يعظ فيصيح ويشدد النكير ، ثم تذهب صيحاته مع الريح .

طالب المرحوم قاسم أمين بتعليم البنات وبرفع الحجاب ، ورفع الحجاب معناه اختلاط الجنسين الاختلاط الشريف ، ومهما كانت الشدائد التى قامت فى وجه نظريته يوم نادى بها ، فإن الزمان برهن على سعة عقل كاتبنا الكبير وبعد نظره . فقد بدأت

(*) مجلة السفور ، العدد ٩٢ ، بتاريخ ٩ مارس ١٩١٧

حركة تعليم البنات من ذلك اليوم وأصبح حزب السفور حزبًا قويًا متينًا ، ولكن قوة هذا الحزب ومتانته لا تخرج إلى اليوم عن حد المناقشة النظرية ، والجدل الكتابى . فإن فتياتنا إلا النادر الذى لا حكم له لا يزلن على ما قمن به من تغيير فى الأزياء، بعيدات كل البعد عن التفكير فى مخالطة الرجال ومحادثتهم ، بل إن المتعلمات منهن ينكرن على أضرابهن لمكالمة شخص عرفنه من زمن طويل ، ولكن أواصر قرباه بهن لا تكفى فى العرف العام للخلطة والحديث . ولهذا كان معظم شبابنا ، بل كلهم ، بعيدين البعد التام عن فتياتنا فلا يتاح لأحد منهم أن يرى ، ويحادث ، ويخالط غير أخته وعمته وخالته . فإذا كان هؤلاء قد نشأن على المبادئ القديمة كانت مخالطته ، إنما هى مخالطة المجاملة والمحاسنة لا مخالطة القربى والود والعطف وذلك لما بين روحه وروحهن من البعد الشاسع ، وإن كن من طائفة بنات اليوم المتعلمات اختلط روحه بروحهن وقويت صلة القربى بينه وبينهن . وهذا النوع الذى يبعث لقلب الشباب دواعى العطف ، والحب والأمل قليل الوجود ، ونادر مع الأسف .

على أنه حين حصوله أبقى أثرًا فى نفس صاحبه من النوع الأول . إن الشاب الذى يرى فى المصريات متعلمات مهذبات خفيفات الروح رقيقات الأخلاق يطمع كثيراً حين يفكر فى الزواج ، والعائلة فى مثل من يرى من ذوى قرباه ، فإن لم يجد من هؤلاء من يسمح له بخلق العائلة التى يرجو معها يبقى فى ألم وحيرة لا يدرى كيف يعرف مثلهن من بنات وطنه . وينتهى هذا الألم وهذه الحيرة معه إلى العدول عن فكرة الزواج ، أو إلى الميل إلى التزوج من أوروبية ساقته الصدفة لمعرفتها .

وأما الشاب الذى لا يجد من ذوى قرباه من تعطيه المثل الطيب من الحياة ، فينحى إلى سكينة اليأس ما لم تصادفه فى طريقه فتاة تخرجه منه ، وهذه الفتاة أوروبية طبعًا ، لأن الفتاة المصرية الشريفة محجبة لا يراها ، ولا يستطيع أن يحلم بخلق عائلة مصرية بحتة معها .

يقولون إن هذه علل كلها لا تقوم . لأن الناصح والمرشد موجود لمن يريد أن يسلك الطريق الشريف ، طريق العائلة من غير تعرض لبحث شرف هذا الطريق ، أو فائدته الاجتماعية . نقول إن الشباب المتعلم أشد الناس تشككًا فى رأى غيره فيما يتعلق بمثل هذه المسألة المتعلقة بذوقه ، وتقديره العلمى . وكم من الحوادث التى عرفناها كان واسطة

الزوج فيها أكبر العقلاء انقلبت الزوجية فيهما إلى شحناء مستمرة ، وانتهت بالطلاق لا لشىء ، إلا لأن الزوج الشاب لم يعرف التى ستصادقه طول حياته ، فلما تقابلا وتعاملا وزالت الكلفة من بينهما ، وظهر كُلّ أمام صاحبه بمظهره الصحيح لم يستطيعا دون الافتراق بعد أيام طويلة قضاها فى الهم والنكد .

ولعمرك ماذا يعرف هؤلاء الوسطاء من شأن الفتيات ، إنهم يرونهن فى النادر ، أو لا يرونهن أبدا ، ومع ذلك هم يشجعون طالب الزواج على التزوج من فتاة معينة ، لأنهم يعرفون شرف عائلتها .

فهل يكفى شرف العائلة ليقوم مقام كل الصفات المطلوبة الأخرى ، أم هل يكفى كمال الفتاة الكمال التام لإسعاد زوج قد يكون هذا الكمال بالذات من دواعى تنغيص عيشته ، وإتعاسه ، وإشقائه .

لهذا فلا يلومن أحد شبان اليوم فكل لوم يوجه إليهم فى هذا الباب ، وكل نصيحة أيضا تضيع سدى . كذلك فنحن لا نلوم الفتيات على ما جنت به عليهن العادات القاسية ، ولكننا ننتظر دائمًا أولئك النوابغ المجانين فى نظر الناس من الجنسين الذين يستطيعون مواجهة العرف والعادة ، ودوسهما بأقدامهم ، وتقريب الشبان من البنات ، وخلق هذه الخلطة الشريفة التى تزيل ما بين الجنسين من وحشة ، وتؤلف بين القلوب ، وتعد المصريين لخلق عائلات صالحة قد تفيد فى المستقبل .

وفى انتظار ذلك الزمن القريب أو البعيد الذى تتمكن فيه الفتاة المصرية من احتلال المكان الذى يليق بها ، ولا تتمكن أى أوروبية من منافستها فيه فى وادى النيل ، سيبقى الشبان فيما هم فيه اليوم لأنهم لا يستطيعون غيره ، سيبقون تتسلل إلى نفوسهم فكرة مضادة الزواج ، وتعمل هذه الفكرة فى تأخير زواج الأكثرين منهم إلى سن متقدمة ، ثم إذا شعروا بمضض الوحدة ، وأعانتهم الصدفة على التزوج من أوروبية فسيتزوجها . ذلك ما سيكون وهو مقدمة العلاج اللازم لأنه هو الذى سيضطر الآباء ، والأمهات إلى النزول عن أفكارهم الضيقة المؤسسة على مبادئ تحقير الإنسان ، وتقديم الشر فيه على الخير ، والبهيمية على العقل والقلب ، وهو الذى سيكون السند للنابغة المصرى الذى يحقق مبدأ حرية المرأة حرية أساسها احترام الإنسان ، وتقديس عواطفه .

جمعية التاريخ (*)

يشتغل جماعة من إخواننا فى هذه الأيام بتكوين جمعية للتاريخ مصرية الصبغة غرضها التأليف بين طبقة الذين يهتمون بتاريخ هذه البلاد ، فيبلغ كل منهم إخوانه ما تصل إليه أبحاثه فى القسم الذى يهتم به ، وذلك بطريق إلقاء المحاضرات فى كل مركز للجمعية ونشرها فى مجلة تنشئها . وتلك لا شك غاية ممدوحة ، وعمل كان من الواجب القيام به من زمن مضى ، وواجب اليوم تشجيعه ، ومعاونة القائمين به بكل وسائل المعونة . لذلك فواجب كل مصرى أن يرحب بمشروع جمعية التاريخ ، وأن يفتح له قلبه ، وأن يعمل مع العاملين على إخراجه من حيز الفكرة إلى حياة العمل .

كم تكلم المتكلمون منا فى شأن تشجيع الحركة العلمية ، والأدبية ، وكم نادت الصحافة أيام كانت هذه المواضيع موضع اهتمامها محبذة ذلك مشجعة عليه ، وكم اجتمع الشبان من أرقى الطبقات للنظر فى طريق السير فيه ، ولكن الكلام لم يتعد الكلام ، وصيحات الصحافة ذهبت مع الرياح ، والاجتماعات انفضت بعد مناقشة وجدل فى الجزئيات كانت نتيجته إبقاء الفكرة الأصلية فى حيز المنى ، والأحلام .

ولعل الظروف الحاضرة التى سكت فيها القول تاركًا المجال للعمل والتنفيذ تتعدى بطريق العدوى إلى بعض أمانينا ، أو على الأقل إلى الأعز منها ، ولا شك أن إنشاء جمعية التاريخ من أعز هذه الأمانى . فإن شبابنا المتعلم – والحمد لله على السراء والضراء – لايعرف من تاريخ هذه الأمة ، إلا ما لا يزال عالقًا بذهنه من توافه الوقائع

(*) مجلة السفور ، العدد ١٥٨ ، بتاريخ ١٣ يونيه ١٩١٨

التى قرأها أيام المدرسة ، وإلا بعض الوقائع الممسوخة التى كانت تتشدق بها الصحف فى العهد الأخير ، ولا شك فى أن هذه حال أضر ما يكون بالبلاد ، لأن من فادح الجهالة إنكار ما للماضى مهما بعُد على الحاضر من الأثر المباشر ، فما لم يكن الإنسان على علم بالماضى ، وما كان يحويه من ظواهر مهمة جوهرية انتقلت على تتابع العصور وبقيت تكوّن عنصراً مهمًا ظاهراً أو غير ظاهر فى حياة الاجتماع ، كان سيره فى الحاضر مبنيًا على مطلق الصدفة ، وما بنى على الصدفة كان رهن الصدفة فى نجاحه ، وفشله ، وكان غالب أمره مضطربًا مزعزعًا تكفى أقل الأغلاط ، لتهد بناءه وتفت فى عضد القائمين به .

نسمع كل يوم افتخار كل أمة من الأمم ببعض الصفات الأصيلة فيها وتخوفها البعض الآخر ، ومناصرة ذاك والاحتياط لهذا ، ونسمع أيضًا تكرار ذكر حوادث التاريخ للسير بأمة من الأمم فى طرق سياسية أو اقتصادية معينة ، ونسمع ذكر التاريخ كذلك لاستنهاض الهمم ، وتقوية العزائم . إن التاريخ يذكر ويعاد فى كل ظرف وكل مناسبة ، لأن تواريخ الأمم مهما أوغلت فى الماضى هى فى قسم منها أشبه بطفولة الرجل وشبابه وغناه وفقره ، لها أثر مباشر عليه فى حاضره ومستقبله ، فإذا كانت جمعية التاريخ تريد استغلال المواهب الفردية للقيام بهذه الخدمة العامة ، فكل رجل لا يضع يده فى يد القائمين بها ينفى نفسه كفرد من أفراد الاجتماع ، وينفى صلته بالماضى ، وينفى علاقته بالحاضر ، وبالمستقبل .

وإذا كان تهاوننا إلى الآن فى إنشاء مثل هذه الجمعية لم يحرك عزائم الأوربيين من النازلين بهذه الديار للقيام بهذا العمل ، فأحسبهم قاموا بكثير غيره ، واتكلنا نحن عليهم كل الاتكال فيه حتى أصبح اتكالاً مخجلاً . لقد أنشأوا الجمعية الجغرافية والمجمع العلمى ، وجمعية الاقتصاد السياسى ، والإحصاء ، والتشريع ، وأنشأوها جميعًا كأحسن ما يكون الإنشاء ، وهى تعمل كلها اليوم بهمتهم فى الإدارة ، وبهمتهم العلمية وكل شأننا فيها ضئيل شأن المستفيد أكثر منه شأن المفيد . فإذا كانوا قد أنشأوا هنا الجمعيات ، وغيرها والتصقنا نحن بهم فيها ، أفلا نظهر من الهمة ما ينشئ جمعية واحدة لأن وجودها ماس بأدق جوانب حياة بلادنا بالجزء الحساس منها بتاريخها ، أى بالقلب المستمر الدقات من أيام ما قبل التاريخ إلى اليوم .

فإذا كانت المصلحة العامة تنادى بإنشاء هذه الجمعية التى هى الأولى من نوع الجمعيات العلمية التى يتكلم المتكلم فيها باللغة العربية ، وكانت الأنفة ، وحب الكرامة يدعوان للقيام بمناصرتها ، وكانت فائدة وجودها محسوسة وملموسة باليد ، كان واجباً الاهتمام بإخراجها إلى الوجود بأسرع ما يكون من الوقت ، وهذه طلبتنا إلى القائمين بأمر مشروعها ، وكان واجب كل فرد أن يساعد على إتمام ذلك بكل وسيلة تمكنه . وهذه دعوتنا إلى كل مواطنينا ، وحينذاك نكون قد قمنا بتكوين أول جمعية علمية تقتضى الحياة العامة وجودها .

ـوت والحيـاة (*)

أجهد الناس أنفسـهم فهم يريدون فـهم الحياة ولمَ يعيشـون ؟ وماذا يجنون ؟ ولأى سبب يكدّون ويعملون؟ ويخيل لهم أحيانًا أنهم بدأوا يفـهمون فإذا هم رأوا شبح الموت مرفرفًا على الوجود جمد فهمهم ، ولم يجدوا للمسألة التى يطلبون حلها حلاً .

هاهى العوالم أمامنا جميعًا لم يسلم منها عالم من أنياب الموت وأظفاره . وها هم النـاس من قبلنـا سبقونـا إلى الحيـاة ، ولم يبق الموت منهم أحدًا . ها هو الرجل يجد ما يريد ، ويحصل ما يقدر ، ويقيم فى الحياة صروحًا وحصونًا ، ويناضل كل الخلائق استزادة فى الحيـاة ، ثم لا يغنى عنـه ذلك كلـه شيئًا وإنك لتراه فتحسب أن قد تم له مـا أراد ولم يبق للوجود عليـه سلطان ، ثم إذا هو يجىء عليه الموت ، ويدخل دولة الفناء ، وكأنه ما عاش إلا ليموت ، والرجل فيما يقال أرقى ما وصل إليه تطور العوالم .

لم إذن الحيـاة ؟ ، وإذا لم يكن فى مقـدورنا أن نخلص منها فلم الكد والنصب ؟ لم لا نكون كما يريد الرواقيون قليلى الأطماع والمطالب ؟ ننتظر غاية الحياة بالصبر والسكينة التى ينتظر بها السجين إنتهاء مدته .

ذلك بأنّا لسنا وحدنا ذات وجود مستقل فى العالم ، كلا ولسنا فى حياة الوجود شيئًا مذكورًا . إنما نحن كالحطب نرمى تحت قِدْر العالم ولا تهتم القِدْر أى الأحطاب انطفـأت قبل غيرهـا ، وإنما يهمـها أن يكون تحتـها الحطب دائمًا ، ومـا دام الحطاب موجوداً . مـا دام ذلك السر الهائل الذى يـحرك الوجود ، ولم يوفق إلى اليوم أحد أن

(*) مجلة السفور ، العدد ٣٢ ، بتاريخ ١٤ يناير ١٩١٩

يفهمه يدفع العالم فى الطريق الذى يسير فيه من الأزل ، فستبقى حياتنا لهبًا ، سرعان ما ينطفئ ، ولكنه متى التهب استمر حتى يجىء على المادة المشتعلة التى وصل إليها .

وهذا هو سر الحياة فى دائرة ما يصل إليه فهمنا . نحن نعيش ، ونتحرك ، ونعمل لأن العالم العظيم الأزلى الخالد الذى حكمنا باق ، ويريد أن يبقى لسنا فيه إلا كذرات التراب فى الجبل الشامخ ، أترى الجبل يتأثر بما يتطاير من فوقه من هذا التراب ؟

كذلك لا يهتم العالم لهذا التطور الدائم الذى نسميه نحن الموت والحياة ، لا يهمه جزع الأب الواله ، ولا صراخ الأم الثاكلة ، ولا دمعات الحزين المصاب ، بل تمر به الحوادث كلها ، ولا يحس بها أكثر مما تحس أنت بالهواء تستنشقه ، ثم تلفظه ، وتحل غيره محله ، ولا يكون نصيب النفس الجديد ، إلا كنصيب سابقه . مع هذا ترانا دائمًا نجزع أمام الموت .

ومن منا لم تتحرك نفسه لمشهدِ جنازة مارة يسأل عنها ، فيقال أن النعش يحوى شابًا غض الشباب ، أو فتاة فى ريعان الصبا ، أو عجوزًا غص بالثروة أو فقيرًا معدمًا ؟ من منا لم تخنه عبرته ، وقد رأى الأطفال صائحين يبكون ينادون : "يا حبيبتى يا أمى" ؟ .

من منا لم ينفطر قلبه لمرأى ذلك الشيخ الأشيب جار عليه الزمان ، فجعله جافًا كله ، وأن الجزع ليحرق فؤاده ، ويستمطر بالدمع عينه لأن ابنه الشاب ذهب وقد غصبه الموت ؟ ألا لقد رأيت ذلك كله فلم تك مرة إلا عاودنى فيها الجزع وكز قلبى الانقباض ، ثم نتقدم للموتور بكلمة فنقول : "إن كل إلا واردها ، وكل من عليها فان ؟ . أى هون عليك فغدًا ستلقى ما لقى صاحبك .

وبعد هذا ينسى الأب ابنه ، والأم وحيدها والصديق صديقه ، وتراجع الثغور بسماتها ، ويعاود الصدور انشراحها ، ونرجع للحياة نستقبلها بنفوس ممتلئة أملاً ، ولكأن الأمل أقوى من الموت .

يا عجبا ! أيدّعى هذا الإنسان الذى تُصرفه الحياة كما تشاء ، ويقضه الموت حين يريد أنه مركز دائرة العالم ، والقطب الذى حوله يدور الفلك ؟ . أيحسب أنه قد انطوى

فيه العالم الأكبر على ضآلة حجمه وصغر جرمه ؟ أيظن أن الشمس ، والقمر ، والكواكب والأجواء ، إنما وجدت لفائدته وللذته ؟ ألا ما أشد غروره !

لكن أترانا ، وقد علمنا أننا ذرات فى العالم لاتهم العالم أكثر مما يهمه أى شىء آخر، صادفين عن الحياة ملتجئين إلى الزهد قانعين بالمرور فوق مركب الزمن ، حتى يسلمنا طور جديد إلى زمن جديد ؟ أم نحن نبقى كما كنا نكدح ونكد ونعمل ؟ أحسب أن حل هذه المسألة ليس من اختصاصنا ، ولكنه يخص العالم بالذات هو الذى يدفع بالموجودات فى السبل التى تسلك من غير أن يكون لها فى ذلك أقل اختيار .

والظاهر أن العالم يريد أن نعمل ، وأن نعمل كثيراً وأن نعمل دائماً جيلاً بعد جيل ، وإذن فلنعمل ولنعمل كأحسن ما نستطيع .

قلب المرأة (*)

ذهبت يوم الجمعة الماضى إلى تياترو برنتانيا ، وشهدت جوق أبيض يمثل رواية قلب المرأة ، وهى فيما يقال رواية حديثة من وضع الكاتب المصرى الأستاذ لطفى جمعة .

شاهدتها بعد أن مضت علىّ أشهر لم أشهد فيها التمثيل لا زاهداً فى التمثيل ، ولكن لأنه ليس فى متناول يدنا سكان الريف أن نرى التمثيل ، إلا إذا نحن حضرنا إليه فى القاهرة .

وإنى أذكر أن بعض أصحابى كان قد حدثنى بشأن هذه الرواية ، وأذكر أيضاً أن شبه ضجة صحافية كادت تقوم حولها ، لذلك قد كنت فى أشد الشوق لمشاهدتها آملاً أن أجد فيها تحليلاً يجمع بين الفلسفة والأخلاق ، تحليلاً دقيقًا يرى فيه مشاهد التمثيل علماً وعبرة ، فكرة تعرض ونفساً تحلل وفضيلة تقام ورذيلة تخذل ، كما أننى كنت مشوقًا أيضاً لأرى التمثيل حباً فى التمثيل .

ولا أنكر أن من بين الممثلين والممثلات من يستحق العطف .

ولكن الرواية فى ذاتها لم تسمح لأحد منهم أن ينال الإعجاب ، فهى لا بطل لها يستدعى حبه ، بل هى تحليل مجرد لقلب بغى ونفس سافلة ، ووضع ذلك لينال من نفس السامع ، وليصل إلى قلبه ، وأما ما حول ذلك من نتائج عمل هذه البغى ففاتر باهت لا يخرج عن خطابة ، أو خطابتين يلقيهما زوج البغى كترين كراستوف ، وتكرار للحط من قدر المرأة ، ورميها بأقبح الصفات ، وإنزالها إلى أحط الدركات ، وإظهار للرذيلة فى مظهر

(*) مجلة السفور ، العدد ٥٠ ، بتاريخ ١٢ مايو ١٩١٩

جميل جذاب ، واحتقار للفضيلة ، وللنظام فلا يستحقان الذكر ، ثم تتنصل الرواية بعد ذلك من تهمة مناصرة الفساد . يجتمع آخر الأمر بطريقة ظاهر فيها التصنع جماعة من لعبت بهم البغى من الرجال وكلهم حولها ضعاف لا يستطيعون أكثر من النظر إليها بعين الحقد ، فلا تحتمل هى اجتماعهم على ضعفه فتتناول السم وتموت ، فيحمد زوجها القدر أن ماتت مع أنه كان من زمن ينوى قتلها ، وبكلمة أخرى يقول بركة يا جامع . ويتسلل إخوانه سكوتًا ، ويقول عاشقها الذى كرهته آخر حياتها : من أراد منكم القطار فليلحقه . أما أنا فباق هنا حتى الصباح . وبهذه الكلمة تنتهى الرواية .

من النظريات الحديثة فى الفن أن لا يعنى الكاتب ، أو النقاش ، أو المصور بنتائج ما يكتب ما دام فى ذلك إعلاء لشأن الفن . وربما كانت هذه النظرية هى المذهب الذى اتخذه مؤلف قلب المرأة فلم يكن من غرضه إلا مجرد تحليل قلب نسائى تحليلاً سيكولوجيًا بحتًا يظهر فيه للرجال مبلغ خبث النساء ومكرهن ، ويظهره على ما هو فى الواقع المحسوس حتى يكون المسرح قطعة حقيقية مما يدور فى الحياة . فإن كان ذلك فليسمح لنا المؤلف أن نخالفه فى رأيه ، ليست الحياة على ما صور فى روايته ، ليس كل ما فى الحياة دار عاهرة تلعب بقلوب الرجال ، ويتهافت عليها الرجال وهم عن كل ما سواها عَمُون ، وليس النساء هم من وصف فى روايته . اللهم إلا عند أهل الأجيال السابقة الذين جعلوا المرأة مخلوقًا لا روح له . وعند طبقة الفاسدين من المثرين الذين يعتقدون جسم المرأة أيا يكون متاعًا يباع ويشترى . إن فى الحياة جمالاً وفضائل تستحق أن يتناولها القلم القدير . أما تناول ما فى الحياة من خبيث ، ورجس فذلك اختيار الغراب للجيفة ، وإن كان نظيف ما يمكنه أن يطعم قريبًا منه وفى متناوله .

وأما إن كان مؤلف "قلب المرأة" ممن يرون الحياة المتعارفة لا تستحق الوصف ، فكل الناس بها عليم ، وإن كان الكاتب يحب أن يبحث عن شىء غريب يهديه لقرائه ولسامعيه فإن فى الحياة من الغرائب ما بلغ فى غرابته قمة الجمال والحسن ، وخير أن يهدى الله لهذه الأمة التى لا تزال فى أول تطلعها للحياة الجميلة محاسن ما فى الحياة من طيبة نفس ، وطهارة حب ، وسمو فضيلة . فإذا تخلل هذا النوع من الأدب نفسها وبلغت من تفهمه حتى أصبح مبتذلاً عندها كان على الكتّاب أن يفتشوا فى السجون ، وفى المستشفيات ، وفى الملاهى ، وفى دور الفُجر والعهر عن غرائب الأخلاق ، وعجائب

الطباع يُطلعون عليها القراء يفيدون منها المعرفة ، ويتخذونها درعًا إذا مس ما عرفوه من فضيلة وطهر أى سوء . أما التقدم لهم بهذا النوع المريض الذى لم تصل إليه أوربا ، إلا بعد أن قطعت مراحل وقرونا فى الأدب الصحيح المعافى ، فإيقاف للطفل تحت رذاذ المطر ووسط أوحال الطريق ، قد يُسر الطفل مما يبعثه المطر إلى نفسه من الانتعاش ، ولكن لا يلبث حين يريد أن يتخطى وسط الأوحال أن يسقط إلى أم رأسه ، ويبقى مرتكسًا ، ثم من يدرى إذا وجد من ينقذه .

كل هذا نقوله من غير أن نتعرض لقيمة الرواية الفنية . إن الأكثر من رواياتنا التى تمثل على المسارح لا يستحق ذكراً . فإذا أراد الناقد أن يجعل للجهة الفنية فى كل رواية موضعًا من نقده لم يك به إلا أن يطلب إقفال التياترات ، أو إلا قليلاً . ولكن ما لا قبل لنا باحتماله هو أن تُضحى الفضيلة ، وأن تُنصر المبادئ المفسدة ، ويصفق لها شبيبة كتابنا أحرى الناس بأن يقوموا على أخلاقهم ، فلا يقدموا لهم إلا أدبًا طيبًا معافى .

التفكير الصحيح (*)

من رأى العلماء ، والفلاسفة أن العلم والفلسفة ، إنما ينحصر همهما فى البحث وراء الحقيقة من حيث هى ، وتقرير هذه الحقيقة عند الوصول إليها من غير نظر للنتائج العلمية التى تترتب عليها إن كانت نافعة أو ضارة . وهذا أيضا هو رأى أهل الفنون الجميلة من كتّاب ، ورسامين ، ونقاشين ، وموسيقيين . فإذا وصل الفيلسوف من نتائج أبحاثه ، وتفكيراته إلى المذهب الأبيقورى من أن اللذة هى غاية الحياة رتب على هذه الحقيقة كل آثارها من غير تراجع أمام قواعد الخلق المرسومة ومن غير تخوف لما يقوله الناس عنه . وإذا رأى "نيتشه" فى أن القوة هى الغاية التى يجب أن يرمى إليها الأفراد والأمم ، وأن الضعيف يجب أن يهلك تحت براثن القوى أيّد مذهبه بكل ما لديه من قوة وخرّج عنه كل نتائجه . وإذا أنتج له العقل والاستقراء أن الإيمان هو القوة التى تهد الأطواد ، وتزعزع الجبال عمل على تدعيم رأيه وبيان كل آثاره . كذلك الكاتب أو الرسام لا يهم الأول حين يصف امرأة جميلة ، ويحدد بتدقيق خطوط جسمها ، ودقائق خلقها ، ولا الثانى حين يصورها على القماش مملوءة حياةً وشبابًا وجمالاً أى أثر تحدثه عند القارئ أو الناظر ، ولكن الوصول إلى هذه الحقائق لا يتأتى فى كل وقت ومكان ، إنما هو يتأتى حين يجد الفكر حرية مسرحه ، ويستطيع التخلص من أوهام هذا العالم ، ويقف بعيداً عنه ، ليحكم عليه ، ويتحكم فيه ، حين لا يضطر المفكر إلى النزول من سماء الفكر ، ليكاتف الموجودات الأرضية الوضيعة عبدة الشهوات وأسيرة الأهواء ، وذلك لا يكون إلا حين يستقر السلام ، وتراجع النفوس الطمأنينة للحياة ، ويستقر الناس

(*) مجلة السفور ، العدد ١٥ ، بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٢٠

بالسكينة وبالحرية. حين تنسحب الجيوش إلى معسكراتها البعيدة عن حركة الحياة السليمة، وحين يقنع السياسيون بغرفهم ، وبمرتباتهم ليعيشوا هم الآخرين تحت حكم أرباب العقل والحكمة ، والعلم ، والفن . حينئذ ترتفع الأذهان النابغة ، لتملى على العالم المطمئن آثارها الخالدة ، وتملأ الجو بأناشيد الحكمة ، وبنور العرفان .

أما حين تتحكم الشهوات فى الناس إلى حد تخرجهم فيه عن صوابهم ، وتحكّم فيه الأفاقين من أدعياء السياسة ، والمتوحشين من رجال السيف والمدفع فلا حكمة ، ولا حقيقة ولا فن ، بل تسابق إلى غاية مرسومة تبرر دونها كل الوسائط مهما بلغ من فظاعتها . وهنالك يخبو شعاع الذهن ، وينطفئ نور الحق ، وتدفن العقول القوية القادرة تحت أكداس الشهوات ، والغايات ، والأطماع، وترى أولئك الذين كانوا بالأمس نبراس العالم وهداته على حال من الذلة ، والضعف مأخوذين ببريق القوة الغرّارة متقدمين طوعًا لخدمتها ، ولو خالفت كل حق عرفوه وكل مبدأ قرروه . على أنك إن تسلهم ينبئونك عن حق أن ذلك جنى ما غرسوا من قبل ، وأن ما يرى العالم من مظاهر الفتك الجنونى ليس هو إلا من تلك القوانين التى وضعوها . فهم فى خضوعهم ، إنما يخضعون لأمتهم ، هم كالأب البار أتى عليه المشيب ، وخرج أبناؤه أشداء يريدون أن ينالوا فى يوم ما نال أبوهم فى حياة طويلة ، فإذا أراد نصحهم أخضعوه لرأيه فيخضع طائعًا مختاراً لأن هؤلاء الأبناء هم غرسه ، وعملهم اليوم هو جناه .

ثم يخرج العالم بعد أن تنهكه شهواته مهدوراً يريد أن يطمئن إلى حياة هادئة ولكنه يرى فى الحقائق ، والمبادئ القديمة خرقًا وعوجًا ، فيبدأ مفكرون فى أثناء سبات العالم يرتبون ، وينظمون ، ويبحثون عن دعائم فى ترتيبهم ونظامهم فيما يسمونه الحقائق العلمية مرة ، والحقائق الفلسفية أخرى ، والفن الصحيح ثالثة ، وبهذه المبادئ ينفخون فى الإنسانية المنهوكة قوة جديدة ، فتبدأ تناوئها الشهوات حتى تتغلب عليها وتغلبها ، وتخضع لحكمها المفكرين والفلاسفة ليخدموها وهكذا من جديد وهكذا دائمًا .

فالتفكير الصحيح لا يكون من قطيع الإنسانية المجتمع ساعة شهوته ، ولكن من نوابغ الإنسانية أثناء همودها ، وذهولها ، ونعنى بالتفكير الصحيح طبعًا أحسن تفكير يستطيع العقل البشرى أن يصل إليه فى زمن من الأزمنة ، وأما الإرادة الصحيحة

فهى كامنة فى نفس المجموع ، وفى نفس الفرد المطبوع بطابع المجموع ، ولكنها غير موجودة عند سواهما ، إلا إلى حد ضعيف .

لهذا فالعالم اليوم – العالم المدعى المدنية ، والتفوق – العالم الطامع فى المجد من طريق القوة ، هو فى أحط مراتب التفكير وإن كان فى أشد مظاهر الإرادة ، لأنه تحت حكم الشهوة السخيفة ، ولكنا سنراه قريبًا جداً قد انهدت قوته ، ثم أرجع مفكروه الطرف إلى الماضى ، لتوقى أغلاطه ، وللتفكير تفكيراً صحيحاً للمستقبل .

القسم الثانى

خواطر إنسانية

(من "السياسة الأسبوعية" و "الهلال")
(١٩٢٦ - ١٩٣٦)



جمال الحياة الإيمان بالواجب (*)

للحياة الإنسانية جمال يدركه من يعرف ذوق الحياة ، وإدراك هذا الجمال ، هو الذى يجعل للعيش معنى ولذة ، ولا يكون جمال الحياة ، إلا لمن شارك العالم وكان فيه قوة عاملة مخلدة الأثر ، ولا تكون هذه القوة ، إلا لمن كان له أمل سام ، وغاية عليا ، ومن جعل حياته وقفًا على تحقيق هذا الأمل ، ودرك تلك الغاية .

أما الذين لا يجدون فى الحياة إلا عبثًا مملولاً وطريقًا مسلوكًا لكل من ألقت به يد المقادير فى لجة هذا العالم ، فهؤلاء يدخلون الحياة ، ويخرجون منها من غير أن يعرفهم العالم ، ومن غير أن يذوقوا جمال الحياة الإنسانية .

وكثيراً ما يحتمل أولئك الذين يقفون حياتهم على إدراك غاية سامية آلامًا تنوء بغيرهم وكثيراً ما ينظر الناس إليهم أول أمرهم منكرين ، لكن إيمانهم بأملهم وهبتهم حياتهم لتحقيق غايتهم يهوّنان عليهم آلامهم ، بل يحملان منها لذائذ ومسرات ، كما أنهما كثيراً ما تبدلان ازدراء الناس لهم حبًا وتقديسًا ، وهم طوال حياتهم يشعرون بهذه اللذة العليا التى لا يُؤتاها إلا العظماء ، ومنهم من ينعمون قبل موتهم بتقدير الناس لمجهوداتهم واحترامهم لما قدموا من تضحية ، هؤلاء العظماء هم الذين يقيمون مجد الأمم ، وهم الذين يخلعون على حياة الأفراد خير ما فى الحياة من المعانى السامية التى تجعل للعيش قدراً وقيمةً ، وهؤلاء بإيمانهم هم الهداة الذين يوجهون الإنسانية فى سبيل السعادة .

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٤ ، بتاريخ ٣ أبريل ١٩٢٦

للشرقى أن يأسف اليوم لعدم وجود هذا الإيمان فى الشرق ، فليس بيننا من يرى فكرًا من الأفكار أو فنًا من الفنون غاية سامية تستحق أن تكون الحياة لها ، وأن تضحى فى سبيلها ، بل كلنا نوجه أول همنا لتحصيل الرزق بما أوتينا من ملكات وقوى . والمحترم أمام الناس والمحسود منهم هو الموفق فى سبيل الرزق ، ولو لم يحقق للإنسانية أملاً سامياً ولا غاية عليا ، فأما هذا الذى لا يجنى من وراء حبها رزقًا حسنًا فليس له إلى احترام الناس سبيل ، وهو لذلك سرعان ما يتولاه اليأس وتقعد همته عن مقاومة الحاجة ، فيلجأ إلى الدون من وسائل الكسب ، لتمليق الأقوياء والأغنياء ، والسعى لنيل الزلفى عندهم ، ليدِرّوا عليه من أخلاف المادة ما يوهمه ويوهم غيره ، أنه متمتع بالحياة غارق فى لجة السعادة .

ومن بنى الشرق من خلعت عليه الطبيعة هبات سامية فى الفن ، ومنهم من أوتى عقلاً راجحًا وتفكيراً ساميًا وحسن حيلة فى الاختراع والاكتشاف ، ومن هؤلاء الذين أوتوا تلك الهبات من وفق فى كسب رزقه ، هؤلاء يكادون يشعرون بالنعمة المادية تبيح لهم المتاع بما يتوهمه الجمهور أداة السعادة حتى يقفوا عند ما بلغوا إليه فى تفكيرهم وفى فنهم مكتفين باستغلال هذا القدر ، لمتاعهم المادى ، ومسرة حياتهم ، لا يرى واحد منهم أن هذه الهبة التى خلعها عليه القدر ليست له ، ولكنها للعالم جميعًا، ولا ترى واحداً منهم يفهم أن بين ما وصل إليه من إعجاب الجمهور به ، والكمال الذى يجب أن تصل هبة القدر إليه مراحل يجب عليه معالجة تخطيها لبلوغ غاية الكمال . لذلك يبقى يُدلله الجمهور زمنًا ، وهو فى شغل بتدليل الجمهور إياه ، وبهذا المتاع المادى الذى أتيح له عن طريقه أن يسمو إلى هذه السماوات الرفيعة التى يجلس على عروشها من جاهدوا فى سبيل الكمال .

قل لى ، أرأيت مغنية أو مغنيًا أعجب به الجمهور فكر فى أن صوته ليس له ، وإنما هو ملك لفن الغناء ، وأن واجبًا عليه أن يحيى بهذا الصوت كل ما يستطيع الكمال الفنى أن يصل إليه ؟. أرأيت رسامًا أو مثالاً أو ممثلاً أو كاتبًا أو شاعراً عمل لما يعتقده الكمال عمله للرزق ، ولتصفيق جمهور هذا الزمن الحاضر ؟ مع ذلك ترى من هؤلاء المغنين والمثالين والممثلين والكتّاب من حبتهم الطبيعة هبات سامية لو اتجهت إلى الكمال ، وعرفت أن الكمال مجهود متواصل ، لاقتربت منه ، أو لخلقت له على الأقل من الوسائل ما يجعل للغير حظ بلوغه ، أو الاقتراب منه .

أعلم أن لكل من وهبه القدر فى مصر ، والشرق نوعًا من الامتياز اعتذارًا عن وقوفه عند ما يعجب الجمهور ، ولو لم يعجبه هو ، ذلك أنه يجب أن يعيش أولاً، وذلك أيضًا أن الجمهور لا يستطيع متابعته فى السمو إلى مراق جديدة من التفكير أو الفن ، وللعذرين لدى النظرة السطحية قيمة كبرى ، وما قيمة هبة يمتاز بها صاحبها على الناس جميعًا ، تجعل منه شقيًا لا يجد فى العيش ما يتمتع به من لم يؤت تلك الهبة ، وما فائدة السمو إلى ما فوق إدراك الجمهور إذا انصرف الجمهور عما تقدمه ، ولم يستفد منه ؟ .

لكن هذه المعاذير ليست لها فى الواقع قيمة ، فهبة القدر ليست ملكًا لمن وهبت إليه ، ولكنها ملك الإنسانية كلها . فلو أنها لم تغل لصاحبها شيئًا لما جاز له مع ذلك أن يحرم الإنسانية من المتاع بها . ولقد عاش كثير من النوابغ فقراء ، وماتوا بؤساء ، ولم يمنع الفقر أحدهم من أن يقوم للإنسانية بالواجب الذى يفرضه عليه ما حباه القدر به من نبوغ . وهذا بتهوفن ، أحد أكابر آلهة الموسيقى فى القرن الماضى عاش فقيرًا ومات شقيًا ، لكنه بالرغم من ذلك لم يهن ولم ييأس ولم يتخل عن القيام بالواجب الذى فرضه عليه نبوغه ، بل لقد قست الطبيعة عليه بما لم تقس به على أحد كان موسيقيًا فحرمته الطبيعة نعمة السمع وتركته أصم لا تشنف نغمة من نغماته أذنه ، وهى تشنف اليوم آذان الملايين الذين يسمعونها ، وكان له إلى جانب ذلك من أعصابه ما جعله متطيرًا حليف الهم والشجن ، لكنه كان يؤمن بما ألقى عليه القدر ، حين وهبه النفس الموسيقية ، من واجب عليه للإنسانية . وفى لجة الهموم ، والأحزان التى كانت تكتنفه من كل جانب كان يشعر شعورًا قويًا صادقًا بأنه مكلف برسالة ، هى أن ينشر للإنسانية السرور الذى تكنه بدائع أنغام الموسيقى ، وهذه العقيدة هى التى دفعته ليضع ألحانه الخالدة .

ولقد كان جان جاك روسو فقيرًا طوال حياته ، لكن القدر وضع بين أصابعه ، قلمًا موسيقيًا تنساب منه صور الطبيعة العذبة ، وأغانى الحب ، وشجو الغرام ، ودموع الآلام والآمال على نحو لم يؤت غيره نظيره . فلم يمنعه فقره من أن يسطر بهذا القلم البديع الساحر كتبه التى أصبحت للإنسانية ميراثًا تتناقله الأجيال ، ثم يبقى جديدًا أمام كل جيل جديد .

غير روسو وبتهوفن كثيرون أدركوا أن ما وهبهم القدر ليس ملكًا لهم ، ولكنه ملك للإنسانية كلها ، فمن الخيانة ومن الغدر عدم إمتاع الإنسانية بنتائجه وثمراته .

وغير روسو وبتهوفن كثيرون في أوربا عاشوا عيشتهما وماتوا فقراء مثلهما . وغيرهما ما يزالون إلى اليوم يقضون حياتهم في تأييد رأى من الآراء ، وإعلاء شأن فن من الفنون ، ثم يعاجلهم الموت في شرخ الصبا ، وميعة الشباب ، وهم يتمرغون من الفقر في حمأة ليس مثلها حمأة ، وكل أولئك ، إنما يؤيدهم إيمانهم بالواجب بروح من عنده ، ويجعل الحياة أمامهم جميلة برغم ما يحتملونه فيها من صنوف الفاقة وهموم الألم ، وإنك لترى أمثال هؤلاء في كل أمة كملت لها أدوات الحضارة ، أو هي في سبيل البعث لاستكمال كل أدوات الحضارة .

فأنت ترى أمثالهم في مصر الفراعنة ، وفي عصور مصر الزاهرة أيام الفاطميين والأيوبيين ، وغيرهم ، وهذه آثار الأقدمين شاهد بما قضى بعض الفنانين ، والعلماء والفقهاء من حياتهم في سبيل أداء الواجب الذي آمنوا بأنه الواجب عليهم . وفي غير مصر من أمم الشرق ، والأمم الإسلامية أمثال كثيرة ، بل لعل الأنبياء أسمى ما يجده الإنسان مضربًا للمثل في الإيمان بالواجب ، وفي حب الحياة لأنها ميدان أدائه ، وفي الصد عنها على أنها وسيلة متاع للفرد وحده .

ومن نافلة القول ذكر ما ضحى الرسل عليهم السلام في سبيل واجبهم ، بل من النافلة الإشارة إلى أئمة الفقه ، وأصحاب المذاهب في الإسلام وغير الإسلام ، وما استحبوا في الحياة من صنوف الأذى ، وما احتملوا من ألوان الظلم في سبيل الآراء التي آمنوا بها ، ثم كانت الحياة مع ذلك باسمة لهم جميلة أمام نظرهم أن أتاح القدر لهم فيها أداء الواجب عليهم ، وما المال وقيمته ، وما الدنيا وزخرفها بإزاء واجب يفرضه الشرع ، أو العقل ، أو العلم ، أو الفن ، بل هل للدنيا زخرف وهل للحياة قيمة إلا لمن أدى الواجب عليه فيها حق أدائه ؟

هذا على أن الذين عاشوا فقراء وماتوا فقراء ، ممن خلعت عليهم الطبيعة هبات لم تخلع على سواهم هم الأقلون من بين هؤلاء النوابغ ، والأكثرون أدرك الناس قدرهم وأحلوهم منهم محل التَجِلّة والاحترام ، وجعلوا لهم من الوسائل لنعيم الحياة ،

وللطمأنينة للعيش ما لا يطمع فى أكثر منه ملوك المال ، والجالسون على عروشه ، وهؤلاء كانوا من نعمة الحياة أوفر حظًا كلما كانوا أكثر إثمارًا وإنتاجًا .

فأما السمو إلى ما فوق إدراك الجمهور يضيع على الجمهور الفائدة لانصرافه عنه ، فذلك عذر أكثر وهنًا من سابقه . حقًا لقد ينصرف الجمهور أول الأمر عما لا يسمو إليه إدراكه من مظاهر الفكر والفن ، لكن إدراك الجمهور مرن ، ومرونته تمكنه من تمثل الجديد الذى يعرض عليه ، ولئن طال بالجمهور الزمن قبل تمثل ما يقدمه إليه صاحب الهبة من فكر أو فن فهو لابد متمثل هذه الثمرات يومًا ما دامت سائغة لذيذة ، وما دام نبوغ النابغة ليس ملكًا له ، وإنما هو ملك الإنسانية فسيان قدر هذا الجيل أو الأجيال التى بعده ما يقدمه النابغة من ثمرات ، فهو مطالب بتقديمها لأن الإنسانية لا تقف عند الجيل الحاضر ، بل تتخطاه إلى أجيال وأجيال تتغلغل فى أبعد غايات المستقبل .

ليقوم من وهبه القدر حظًا من النبوغ بالواجب عليه يجب أن يؤمن أن حياته وقفًا على هذا الواجب ، وأنه مطالب قبل التفكير فى نفسه وفى ملاذّه وفى حياته الخاصة بالتفكير فى أداء ما فرض عليه القدر أداءه . ليكن من وراء أداء واجبه أن تحفه النعمة من كل جانب ، أو أن ينظر إليه الناس منكرين ، وأن يحيطوه بما شاءوا من أسباب الشقاء والبؤس يجب أن يكون ذلك فى نظره أمرًا ثانويًا . ذلك متاع نفسه وهبته ليست ملك نفسه ، ويجب أن يسير فى الطريق الذى يؤمن بأن القدر بعث به إلى الحياة للسير فيه ، وهو إن لم يلق جزاءه فى حياته فسيلقى هذا الجزاء مضاعفًا بعد الراحة من أعباء الحياة .

هذا الإيمان هو جمال الحياة الحق ، وهو الذى يجعل للعيش قدرًا وقيمة ، وهذا الإيمان هو قوام حياة الأمم ، وهو مجد الإنسانية كلها .

لذلك نتقدم بالنصيحة للشبان الذين يشعرون بأن القدر ألقى على عاتقهم رسالة أوجب عليهم أداءها عن طريق الفكر أو الفن وأن يؤمنوا بهذه الرسالة إيمانًا قويًا ، وأن يقفوا حياتهم على البلوغ بها إلى غاية الكمال ، وأن يكرسوا كل جهودهم فى هذا السبيل ، قد يجدون فى سبيل هذا الإيمان غضاضة ، وقد يقاومهم الناس وينكرونهم ؛ لكن هذا الإيمان هو لذة الحياة ونعيمها ، فإذا هم لم يعبأوا بما قد يلقونه من مقاومة وبما قد يصيبهم من عنت ، وساروا فى سبيلهم لا يلوى عنانهم رغبة ولا رهبة ، ولا يرون

أمامهم إلا تحقيق أملهم ، إذن فهم سعداء بأداء الواجب عليهم للإنسانية . والإنسانية سعيدة بالثمرات التى يقدمونها والتى تتذوقها ، وتنعم بها حتمًا ، وإن لم تتذوقها وتنعم بها اليوم ، فستتذوقها وتنعم بها غداً .

هذا الإيمان هو الذى ينقص الشرق اليوم ، ونقصه هو الذى يهد عزائم ويضعضع نفوساً كان الشرق يجنى من ورائها ، لولا ذلك ، مجداً وعظمة . والشبان مطالبون بالتفكير فى الواجب عليهم والإيمان به ، فإن آمنوا ودفعهم إيمانهم فى سبيل تحقيق غاياتهم ، فقد آن للشرق أن ينهض ، وأن يدرك أبعد الغايات وأسماها .

الشعور بالواجب (*)

يخيل إلى الكثيرين منا أن الناس لا يقومون فى الحياة بواجبهم إلا أن يُلفتوا له ويطلب إليهم أداؤه ، وهذا الشعور هو الذى يجعل صاحب قضية من القضايا يرجوك كى تكلم محاميه حتى يهتم بدراسة دعواه ، أو تكلم القاضى لغير شىء إلا أن يفصل فى الدعوى بالعدل ، وهو الذى يجعل المريض يرجوك كى تكلم طبيبه ، ليلقى إليه باله ويجعله موضع عناية خاصة ، وقد ألح على يومًا أحدهم أن أخاطب له طبيبًا أجنبيًا يشتغل فى مصر ولم أكن أعرفه ، فأردت لأخلص من إلحاحه أن أحيله إلى صديق لى من الأطباء المصريين كى يخاطب له هذا الطبيب الأجنبى ، وما كان أعظم إعجابى بجواب صديقى الطبيب حين رد علىّ يقول :

لو أنك طلبت إلى أن أخاطب زميلاً مصريًا لهان الأمر على لأننا جميعًا متعودون أن نسمع مثل هذا الرجاء ، فأما صاحبى الطبيب الأجنبى فيعتبر حديثى إليه كى يعتنى بمن توصى به إهانة له. إذ معناه الواضح عنده أنه لا يعنى بأداء واجبه ، إلا إذا نُبه لذلك تنبيهًا خاصًا ، وهذه جارحة لا يقبلها ، ثم إن حديثى إياه لن يزيده عناية بمريض لأنه هو يعرف كيف يؤدى واجبه .

وحاولت أن أقنع صاحبى بصحة رأى صديقى الطبيب فلم يرض أن يقتنع ، وهل فى مصر شىء – على ما يقول – يسير إلا بالمحسوبية والرجاء حتى الطبيب وحتى المحامى وحتى القاضى وحتى الممتحن وكل من سوى هؤلاء ممن يشغل عملاً حرًا ،

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٢٤١ ، بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩٣٠

أو عملاً حكومياً لا يؤدى عمله إلا تحت ضغط الإلزام أو تحت ضغط الرجاء ! . وهذا الذى يقوله شعور نما مع الشىء الكثير من الأسف نمواً عظيماً جداً فى مصر . وليس يحول دون إطراد نموه ما ينطوى عليه من معان تدل على فقر فى الخلق الذاتى ، وفى الخلق الاجتماعى ليس من شأنه أن تشرُف به أمة من الأمم ، أو تطمع معه فى خطوات واسعة تسيرها إلى الرقى ، رغم حاجة مصر الملحة إلى هذه الخطوات الواسعة . فمن المعانى التى ينطوى عليها هذا الشعور أنه استهانة بمعنى من معانى الرشوة واعتبارها مباحة إلى حد ما ! أليس معنى رجائى إياك أن تقوم بعمل من الأعمال إكراماً لى أنى أعدك مقابل ذلك أن أؤدى لك مثل هذا العمل يوم يعرض لك ويكون فى مقدورى أداؤه ؟ و "كله سلف ودين" على ما يقولون ! أليس معناه كذلك عدم ثقة الواحد منا بحرص الآخر على أداء واجبه أداءً صحيحاً ؟ فالمفروض أن كل طبيب يؤدى لمرضاه جميعاً كل ما يستطيع من عناية ، وأن كل محام يدرس القضايا التى توكل إليه بكل عناية ودقة، وأن كل قاض يحكم بين الناس بالعدل . هذا هو المفروض الأول فى الناس جميعاً . فتنبيههم إلى هذا المفروض ورجاؤهم أن يقوموا به ، معناه عدم ثقة من شعورهم بالواجب إزاءه . وفى هذا ، على حد قول صديقى الطبيب، إهانة ليس لسكوتنا عليها معنى إلا أننا نسلم ولو إلى حد ، بصحة ذلك الشعور السيئ ، وبأن ضميرنا ليس من اليقظة لكى ينبهنا إلى واجباتنا بحيث نحتاج إلى منبه سواه .

والحق أنى إذا أسغت الرجاء لفتح باب العلم أمام طالب العلم ، أو باب العمل أمام طالب العمل أو فى سبيل استدرار العطف من أى نوع كان على جدير بالعطف ، فإنى لا أفهم الرجاء مطلقاً لتنبيه إنسان إلى أداء واجبه ، وبخاصة إذا كان هذا الإنسان من طائفة تهذبت مداركها الخلقية تهذيباً يجعل مثل هذا التنبيه جارحاً لشعور من يوجه إليه ولكرامته ، وإنى لأشعر بالرعدة تسرى إلى نفسى حين أسمع أن قاضياً يُلفت نظره إلى قضية خاصة لكى لا تؤجل ، أو لكى يعنى بقراءة أوراقها ، تسرى الرعدة إلى نفسى لأن القضاء ضمير فوق كل اعتبار ، فإذا لم يتنبه هذا الضمير من تلقاء نفسه إلى أداء الواجب الأسمى الملقى عليه ، واجب إقامة العدل بين الناس ، لم يكن تنبيهه إلى هذا الواجب إلا إقراراً بعجزه ، بل بفساده ، على أن سمو واجب القاضى لا يجعله فى الحقيقة يتعلق بالضمير أكثر مما يتعلق واجب أى إنسان من الناس كذلك بضميره .

ولعل هذا التقزز الخاص الذى أحس به فى ناحية التقدم إلى القضاء بالرجاء كى يقوم بواجبه يرجع إلى أنى اشتغلت عشر سنوات بالمحاماة ، فكنت دائم الاتصال بالقضاء ، دقيق الإحساس لذلك بما يتصل بعمل القاضى والمحامى ، دقيق التقدير لضخامة واجب العدالة الملقى على عاتقهم أن يتعاونوا فى سبيله ، لكن كل واجب ، أيا كان نوعه ، يتصل بالضمير اتصال إقامة العدل بضمير القاضى . فهذا الذى نصب نفسه معلماً أو أستاذاً عليه واجب عظيم هو أيضًا لا يقل عن واجب القاضى سمواً ورفعة واجب تهذيب الناشئة ، وإنارة السبيل أمامهم ، ليروا بقلوب مستنيرة ، وعقول ذكية خلاصة ما أنتجت قرائح الإنسانية فى الماضى ، حتى يهتدوا به ويضيفوا إليه للمستقبل . والطبيب الذى يقوم بمهمة إنسانية جليلة يتصل واجبه بضميره ، حتى ليخيل إلىّ أنه يبيت معذب النفس ، كلما شعر بأن واحداً من المرضى الذين يعنى بهم تضنيه الليل همومه وآلامه ، ورجل الفن ، هذا الذى يستخلص من جمال الحياة رحيقه ، ليزيد به الحياة جمالاً وروعة ، أكبر الناس همًا حين يشعر بأنه كان فى مقدوره أن يضيف إلى الفن جديداً فقصر فى ذلك ، أو لم تسعفه الظروف على القيام بواجبه . والعامل أيا كان عمله ، والموظف أيا كانت وظيفته ، والأم فى البيت ، والتلميذ فى المدرسة ، هؤلاء يتصل واجبهم بضميرهم اتصالاً يجب أن يشعروا به شعوراً قويًا عميقًا آخذاً بمجامع النفس والقلب يحبب إليهم أداء الواجب ، ويجعل فى هذا الأداء لذاته خير عوض ينتظرونه لطمأنينة بالهم وراحة نفوسهم .

الذين يشعرون بهذا الشعور ، ويحسون بهذا الإحساس يألمون ألمًا عميقًا حين يرجوهم إنسان أن يحسنوا القيام بواجبهم ، ويشعرون بأنه يوجه إلى ضمائرهم سهمًا جارحًا بل قتّالاً . مع هذا ترى الكثيرين منا لا يشعرون بالغضاضة إزاء مثل هذا الرجاء ويتقبلونه بقبول حسن. فهل معنى ذلك أن ضمائرنا تحس بالحاجة إلى ما يحفزنا لأداء الواجب ؟ . لعل كثيرين لا يشعرون بهذه الحاجة ويؤذى ضمائرهم أن يستمعوا إلى هذا الرجاء ، لكنهم ألفوا فى عرفنا الاجتماعى تسامحًا نحو هذه الإهانة فلم يروا بداً من أن يظهروا من جانبهم هم أيضًا بمظهر التسامح ، ولو أن كل واحد منهم أظهر لمرتجيه ما يشعر به من غضاضة ، لترك ذلك فى نفس الأقلين إعجابًا كإعجابى بالطبيب الذى أشرت إليه أول الحديث ، ثم لترك ذلك فى نفس الأكثرين

مطعنًا على هؤلاء الذين يقدرون واجبهم تقديره الأوفى . ومرجع السبب فى هذا إلى أن الذين تتصل فكرة الواجب عندهم بالضمير ، وبالنفس ، حتى لنرى فى تنبيه صاحبها لواجبه جرحًا لكرامته ، ما يزالون بيننا عددًا قليلاً . أما الكثرة فما تزال تزن الواجب بمقدار المنفعة التى تحصلها من وراء أدائه ، وتعمل فى حدود ذلك القانون الاقتصادى الذى يعلن الفرديون إيمانهم به ، قانون المجهود الأقل ، فلو أنك استطعت أن تحصّل منافع ضخمة وأرباحًا هائلة من غير أن تقوم بأى عمل أو تنفق أى مجهود أو تؤدى أى واجب ، فأنت (الشاطر) الذى يشار إليه فى أوساط كثيرة بالبنان . أنت قاض ، فإذا استطاع الرقى أن يسرع إليك من غير أن تجهد نفسك فى نظر ما يطرح أمامك من القضايا ؛ ولكن لأن لك بوزير أو كبير صلة ، فأنت الرجل الموفق فى الحياة والذى يُعترف له بأجل المزايا . وأنت طبيب ، فإذا عرفت كيف تخدع الناس بوسائل ينكرها العلم ويعافها الطب ولا يقرها إلا الدجل ، ثم كان لك من وراء دجلك كسب كبير ، فأنت المحسود بين الناس على أنك من رمقته العناية واختصه الحظ بأفضاله . وأنت محام ولك فى كسب القضايا وسائل تعافها الذمة ويأباها الضمير تكذب على القاضى فى الوقائع التى تقصها له ، ولا تأبى عليك نفسك تلفيق الشهود ، ولا الإيهام برشوة القضاة ولذلك يعظم إيراد مكتبك ، فأنت إذًا مثل النبوغ لأن النبوغ بقدر المقابل المادى الذى يحصل صاحبه عليه . وهذه الجهود التى تتنافى مع الواجب ، ويأباها الضمير هى أبدًا جهود ضعيفة ؛ ولكنها وفيرة الربح لأن صاحبها قليل الذمة ، وقلة الذمة فى أحيان كثيرة باب واسع بل هو أوسع أبواب الكسب الحرام أو الحلال .

بهذا يقدّر الكثيرون منا معنى الواجب ، ولهذا يرى الكثيرون أن مقابل العمل لا العمل لذاته، هو الذى يجب حسابه وتقديره لقياس العمل على مقتضاه . فإن استطعت الحصول على هذا المقابل نفسه جزاء لعمل أقل فأنت (شاطر) أيضًا ، وأنت تستحق الإعجاب . ألا تسمع إلى الشكوى العالية من جانب موظفينا وقلة عملهم فى مكاتبهم ؟ هؤلاء الموظفون لا يقدرون الواجب عليهم ما داموا يقتضون آخر الشهر رواتبهم ، وما دامت تصلهم فى مواعيدها علاواتهم وترقياتهم ، فضلاً عن طمعهم فى علاوات ، وترقيات استثنائية . وأى شىء وأية قوة تقتضيهم هذا الواجب ومضاعفة ما يبذلون من جهد ، إلا إن استطاعت أن تؤخر علاواتهم أو ترقياتهم . وغير الموظفين فى هذا كالموظفين

سواء كل من استطاع أن يلقى عن عاتقه عبئًا من الأعباء أو يفر من مسئولية من المسئوليات كان ذلك غايــة فى المهارة ومنتهى الشطارة ، ما دام ذلك لا ينقص ما يقتضيه ، فكلما قل عمله زادت مهارته ، وكلما فر من واجبه ملقيًا به على عاتق غيره حسب ذلك له حذقًا وكياسة ، ومن أجل هذا رأيت الذين أغناهم الحظ عن الكدح لا تتقد فى نفوسهم شعلة الواجب المقدسة ، ولا يحسون بأن عليهم للحياة نصيبًا من السعى هم يخونون الحياة إذا لم يقوموا به . وهؤلاء وأولئك ممن لا تهتز ضمائرهم طربًا لأداء الواجب ، أو همًا للتقصير فيه أنانيون غاية الأنانية ، وأنانيتهم كأنانية اللص سواء ، اللص يسرق مال الأفراد ، وهؤلاء يسرقون حقوق الجماعة ، وهم مع ذلك لا تتحرك نفوسهم ، ويعتبرون جريمتهم موضعًا للاغتباط بل موضعًا للفخار .

هذا الشعور الحقير موجود مع الأسف عند الكثيرين ، وهو الذى يدفع البعض ليرجو صاحب العمل أن يعنى بعمله ، ثم لا يجد هذا الأخير فى رجاء معناه اتهامه بالتقصير ، وسوء التقدير للواجب أى غضاضة على نفسه ، ولو أن شعورنا بالواجب هذب كما يجب أن يهذب ، لو أن هذا الشعور حل من نفوسنا محل الإيمان فصار أداء الواجب فرضًا علينا نقدسه كما يقدس العابد صلاته وصيامه . ثم لو أنا آمنا كذلك بأن أداء الواجب يقتضى النزاهة فيه ، والإخلاص له ، وعدم النظر إلى المقابل المادى الذى نجنيه من ورائه والتضحية فى سبيله بالوقت والجهد ، بكل ما يحتاج إليه من وقت ومن جهد ، ثم قدرنا أن خير جزاء لنا عن القيام بواجبنا هو رضى النفس ، وطمأنينة الضمير ، إذن لما رأيت أحدًا من الناس يقصد إليك كى ترجو أحدًا ليحسن أداء واجبه، ولاعتبرنا جميعًا مثل هذا الرجاء سبة لا يليق أن تصدر من رجل مهذب ، ولا أن توجه إلى رجل مهذب .

من أجل أن ينمو هذا الشعور فينا ويصبح خلقًا اجتماعيًا عامًا ويصير الخلو منه هو النقيصة التى تنظر إليها الجماعة بعين المقت والإزدراء ، يجب تعهد هذا الشعور فى أطفالنا وفى صبياننا وفى ناشئتنا جميعًا ، يجب أن نغرس فى هذه النفوس إنك تعمل الخير غير مبتغ من فعل الخير جزاءً ولا شكورًا ، وإنك تؤدى الواجب لأن ضميرك يجعل فرضًا لزامًا عليك أن تقوم بأدائه ، لا لأن لهذا الواجب مقابلاً ماديًا تقتضيه . يجب أن تغرس هذه القواعد فى النفوس على أنها بعض قواعد إيمان الجماعة ،

وما لا سبيل لها إلى العيش بدونه ، ويجب أن تؤمن الجماعة بذلك إيمانًا صحيحًا . يجب أن تدرك عن علم وعقيدة أن ما هو شائع اليوم بيننا من مظاهر الأنانية الوضيعة يضيع على الجماعة جهوداً ضخمة مخلصة ما كان أعظم فائدتها للأمة كلها ، ولكل فرد من أفرادها لو أنها لم تضع ، ثم ما كان أكبر ما تدفع به إلى نفس القائمين بها أنفسهم من سعادتهم لو أنهم توجهوا إليها خالصة نفوسهم راضية قلوبهم محسة ضمائرهم بأنها تتأذى وتهان لكل تقصير فى الواجب . يوم يؤمن أطفالنا ، وشبابنا ، ورجالنا جميعًا بهذا يشرق فى الأفق نور جديد هو نور الإيمان بمبدأ من أسمى المبادئ الإنسانية العليا ، ويحسبك لتقدّر هذا أن تدرك أن الفيلسوف أوجست كومت لما وضع فلسفته ورتب عليها "ديانة الإنسانية" جعل الإيمان بالواجب فى مقدمة ما شاد عليه دينه الوضعى ، كما أن الفروض فى الأديان السماوية هى المقدمة على كل شىء ، والفروض هى الواجبات الأولى نؤمن بها ونؤديها بنزاهة ، وتوجه خالص لله فى أدائها . فهذا الاتفاق بين الدين الوضعى لعقل كبير ، وبين الأديان السماوية المنزّلة يجعل منزلة الإيمان بالواجب من حياة الفرد ، وحياة الجماعة بحيث يكون أى شك فيها أو أى عمل على خلافها تحقيراً للعقل وللعاطفة وللقلب وللإيمان ، ولكل ما هو إنسانى فى الإنسان .

أفيتفق شبابنا وإيانا فى هذا الذى نقول ، فيروا فى الشعور بالواجب ، وفى الإيمان به صورة من صور المثل الأعلى الأولية التى يجب أن ترتسم فى أعماق النفس الإنسانية ارتساماً قويًا يوجهها فى كل أعمالها وتصرفاتها؟ . إن يكن ذلك ، فلعلهم يشاركوننا فى الدعوة إلى الإيمان بالواجب ، ولعلهم يرون معى أن النفوس الخالية من هذا الإيمان نفوس خربة لا فائدة منها للجماعة ولا فائدة منها لذويها ، ولا فائدة منها لأصحابها .

لا صلة البتة بين التجديد والإلحاد (*)
وإنما هى صيحة حرب منكرة

اعتاد جماعة من الكتاب كلما أرادوا مهاجمة شىء من الأشياء أو نظام من النظم أن يجيئوا لمهاجمته من ناحية الدين ولو لم يكن هذا النظام أو الشىء من الدين فى شىء. ولم يكفهم من ذلك أن يتهموا الداعى إلى النظام الجديد ، بأنه أتى فى الدين بدعة أو حبب شيئًا مكروهًا ، بل هم لا يقصرون دون رميه بالإلحاد ، والإلحاد كما يدل عليه ظاهر لفظه هو الإنكار . والملحد هو منكر الأديان جميعًا . فكيف يسوغ عقل أو منطق أن يرمى رجل فى عقيدته لو لم يتكلم عن العقيدة فى شىء ؟ ، ولو لم يتناول الدين أو أصلاً من أصوله بل فرعًا من فروعه بالبحث ، ولو هو وقف عند مسائل بعيدة عن الدين وهى من أمور الدنيا البحتة التى قال فيها النبى عليه السلام : "أنتم أعلم بأمور دنياكم" .

فهذا رجل يدعو إلى تغيير زى اللباس فهو ملحد ، وهذا آخر يدعو إلى استحداث كلمات فى اللغة فهو ملحد ، وهذا ثالث يريد الاستفادة بمنشآت مدنية الغرب فهو ملحد ، وهلم جرا مما لا يقف عند حد من الحدود . فما شأن تغيير الزى ، أو استحداث كلمة أو كلمات فى اللغة ، أو الكتابة بأسلوب غير الذى ألف السلف الكتابة به ؟ وما شأن الاستمتاع بمنشئات حضارة الغرب بالدين وبالعقيدة ؟ أليس فى الهند وفى الصين وفى جاوة ، وفى أوربا نفسها مسلمون شديدو الحرص على دينهم ، وعلى عقيدتهم وهم يلبسون غير زينا ، ويتكلمون بغير لغتنا ، ويعيشون على غير طريقة عيشنا ؟ وهؤلاء لا يقول أحد من الناس إنهم ملحدون ، أو أن فى عقيدتهم زيفًا وفى قلوبهم مرضًا ، بل هم على العكس من ذلك موضع إجلالنا واحترامنا جميعًا . فكيف يكون ذلك الشأن

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١٥٦ ، بتاريخ ٢ مارس ١٩٢٩

وهم يلبسون اللباس الذى يتهم الداعى إلى زى مثله فى مصر بالإلحاد ، وهم يستمتعون أتم استمتاع بحضارة يتهم الداعى إلى الاستمتاع فى مصر بآثارها بالإلحاد ؛ وهم يكتبون لغة غير العربية ، فإذا كتب العربية منهم كاتب لم ير ضرراً ما فى استحداث كلمة من لغة بلاده ، أو لغة بلاد أخرى إذا لم يجد فى عربيته ما يسع هذه الكلمة ؟ أليس هذا قاطعًا فى الدلالة على أن مسائل الأزياء واللغة والحضارة ، وما تخضع له من تطورات لا علاقة لها بالعقيدة التى يؤمن بها الرجل ، فلا محل لذلك لاتهامه فى عقيدته بسببها ؟! . أوليس هو كذلك قاطعًا فى الدلالة على أن الذين يلجأون إلى اتهام مخالفيهم بالإلحاد كلما رأوا غير رأيهم فى مسائل لا صلة لها بالعقيدة ولا بالإيمان ، إنما يتخذون من هذه الكلمة صيحة حرب يريدون بها الغلب أمام الجماهير ، وإن كان أكثرهم يعتقد أنه إذ يقولها لا يعبر عن الحقيقة ولا عن شىء يقرب منها .

على أن الاتهام بالإلحاد حتى فى بعض مسائل تمس الدين يبدو هو الآخر ، وليس فيه أكثر من صيحة حرب يقصد بها الظهور بالغلب أمام الجماهير إذا نحن ذكرنا الكثيرين من الأئمة وذوى الرأى المعتبر فى الدين من السلف الصالح . وهذا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده قد رُمِىَ أثناء حياته بالإلحاد ، وأُفتى بكفره ، واستُحل دمه أو كاد يُستحل ، وما أدرى ماذا يقول بعضهم حين يرى الإصلاح والتجديد اللذين يقوم بهما فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وما ستبعد أن يحسب بعضهم أن نقل "الخِزن" من الأزهر ظاهرة من ظواهر الإلحاد ، وأن تعليم العلوم الحديثة والتربية على الطرائق العلمية الحديثة بعض ظواهر الإلحاد ، ذلك أن هذا البعض لا يؤمن بشىء مما يقول عن الإلحاد أكثر من أنها كلمة مثيرة تلفت نظر الجماهير بشىء من الريبة إزاء من تُوجه إليه .

ولقد تعجب حين تذكر أن رجلاً كالشيخ رشيد رضا مثلاً كان متصلاً اتصال تلمذة واتصال رزق بالمغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده حين كان رحمه الله يُرمى بالزندقة والكفر والإلحاد، لا يتعفف هو عن أن يرمى الناس بالإلحاد ، وكأنما لم يجد لنفسه فى الماضى عظة ودرسًا يجعلانه يقصد فى إلقاء مثل هذه التهمة الزائفة أو كأنه قد شعر يوم كان يُرمى بها حقًا أو باطلاً ، بما تجنى عليه فى مصالحه وفى رزقه فحسب أنه ينال من أشخاص خصومه إذا هو رماهم بها ، فأعلنها عليهم حربًا يرمى بها المؤمن ، والمسلم ، والمسيحى ، وغير هؤلاء وأولئك بغير حساب .

هذا على أن الإلحاد لا علاقة له بهذه الشئون التى يتشدق باسمه فيها من يرمون به غيرهم يريدون أن يحاربوهم باسم الدين والخروج عليه ، فما نعرف - كما قدمنا - أن للإيمان ، والإلحاد علاقة بزى اللباس ، وألفاظ اللغة ، ونوع الحضارة التى تحياها أمة من الأمم ، بل إن بين كل أمة أيا كان زيها ولغتها وحضارتها مؤمنين وملحدين فى عقيدتهم . ذلك بأن الإلحاد قديم فى العالم كالإيمان ، وفى مصر الفراعنة كان هناك ملحدون ومؤمنون ، وفى اليونان والعرب كما فى أوربا اليوم مؤمنون وملحدون ، ومن المؤمنين من ينادى بتجديد الأزياء والأساليب وصور الحضارة من غير أن يؤثر ذلك فى إيمانهم بشىء ، ومن الملحدين محافظون لا يريدون أن يتغير فى اللغة حرف ، وأن تبقى الأزياء كما كانت من قرون وقرون ، وأن تعود الحضارة القديمة لأنها كانت تسمح للناس من ورد السعادة بما لا تسمح لهم به هذه الحضارة التى تحكمنا اليوم ، بل تدس هذه الحضارة فيه سموماً مؤذية قتّالة .

فأنت إذا أردت أن تبحث عن إيمان الرجل أو إلحاده فابحث عنه فى عقيدته التى يدين بها ، وفى مظاهر هذه العقيدة وفى دعوته إليها . ولقد نرى ملحدين بين أشد الناس حرصاً على أن لا يتجدد فى الحياة ولا فى الوجود كله شىء ، كما أنك ترى المؤمنين بين دعاة النهضة والتجديد فى كل صور الحياة.

بل أرانى لا أغلو إذا قلت إن التجديد أقرب إلى الإيمان منه إلى الإلحاد ، وهو كذلك فى الإسلام بنوع خاص ، فالحديث يجرى بأن العلم فرض على كل مسلم ومسلمة . والعلم يقتضى البحث عما لا نعرف ، وكيف نصل إلى معرفته ، وكلما وصلنا إلى الكشف عما لا نعرف كان ذلك جديداً يدعونا إلى متابعة البحث للوقوف على جديد غيره . والقرآن يدعونا فى مواضع كثيرة جداً منه إلى النظر فى خلق الله ، وهذا النظر يزداد تبحراً وتعمقًا وسعةً مما نقف عليه من نظر أسلافنا وبما يسلحنا به العلم من أدوات تجعلنا نكشف عما لم نكن نستطيع الكشف عنه من قبل ، وكم من أشياء وموجودات كشفها لنا التلسكوب والميكروسكوب لم تكن معروفة فى الماضى ، وكل كشف جديد يدعو إلى تجديد فى الحضارة وفى اللغة وفى طرائق الحياة وأساليبها ، فالدين الذى يدعو إلى النظر يدعو فى نفس الوقت إلى التجديد، وإلى التجديد فى كل شىء مما يقع تحت النظر أو يحيط به الحس ، والدين ، واللغة ، والحضارة وكل ما فى الوجود مما يقع الحس عليه هو موضع نظر كل إنسان ذى بصيرة .

ولعل أشد الناس مناداة بصيحة الحرب ضد التجديد وقَرَن الإلحاد إلى صيحتهم جماعة من إخواننا الكتّاب يحسبون النقد موجهًا إلى إسلوبهم الكتابى ؛ لأنهم يلجأون إلى استظهار أساليب الأقدمين لا فى ألفاظها وتراكيبها وكفى ، بل فى مجازاتها واستعاراتها وفى وقوفها على الأطلال وبكائها الديار وحدائها الإبل ، وذكرها الهودج والصحارى وكثبان الرمل ، وفى ألوان غزلها ولهوها ومجونها . يوجه النقد إلى هؤلاء ويرى الذين ينتقدونهم أن خير الأساليب ما تجاوب مع الحياة المحيطة بالإنسان ، وما أدى الصور والمعانى التى يراها ، ويشعر بها ، ويتخيلها مما يرى ، ويشعر ويجول بخاطره ويفكره كأثر للحاضر المحيط به ، فبربك ما شأن هذا النقد بالعقيدة والإيمان ؟ . ولم يكون الذى يوجهه ملحداً غير مؤمن ؟ ، ولم يكون المحافظ على القديم الملح فى محافظته عليه مؤمنًا غير ملحد ؟ . أو لم يكن بين كتاب العرب وشعرائهم نصارى ويهود وملحدون ينكرون الأديان كما كان بينهم المسلمون ومن صح إيمانهم وثبتت تقواهم ؟ . فلم لا يكون الدعاة إلى الوقوف عند القديم من أساليب اللغة ، وألفاظها من هؤلاء الملحدين ؟ ، ولم لا يكونون أشد منهم فى الإلحاد إلحاحًا ؟ ، كما أنهم قد يكونون كذلك مؤمنين ذوى ورع وتُقى.

من الخلط غير اللائق برجل يمسك القلم ويدعى لنفسه التفكير والتخيل ، أن يلجأ إلى هذا النوع السقيم من المنطق . لقد نفهم أن يقول أنصار الأساليب والأخيلة القديمة والعائشين ما يزالون بين كثبان الرمل والذين لا يعرفون أن شيئًا اسمه الوابور ، أو الأتوموبيل ، أو الطيارة قد اخترع . أن كل مسايرة للمدنية الغربية فيه باللغة وبأساليبها إضراراً لكيت وكيت من الأسباب التى يسردونها ، لكن ذلك شىء والإلحاد شىء آخر ، فإذا هم وقفوا عند هذا النوع من المنطق وجدوا من ينازلهم الحجة بالحجة والدليل بالدليل .

وما نحسب أحداً من هؤلاء الذين يدعون لأنفسهم أنهم أنصار القديم ، وبأنهم خصوم كل تجديد فى اللغة أو فى الأسلوب يؤمن حقيقة بهذا الذى يدعيه ، فالحياة دائمة التجدد فى كل مظهر من مظاهرها وفى كل ناحية من نواحيها . أتراك إذا عدت إلى تاريخ حياتك منذ نشأتك حتى اليوم الذى أنت فيه ألا ترى أن حياتك تتجدد صورة بعد صورة ومظهرا بعد مظهر . أفأنت تقيم اليوم فى المنزل الذى كنت تقيم من قبل فيه ،

وإن كان المنزل هو إياه ، أفلم يتغير شيئ من عمارته ولا فى أثاثه ؟ وإن كنت شاباً ثم تزوجت فكان ذلك فى حياتك جديداً ، ثم كان لك ذرية رأيتهم يكبرون بعينك وعنايتك رويداً رويداً وهم كلما كبروا جدّد ذلك فى حياتك وزاد عليها أو نقص من بعض جوانبها ليزيد فى البعض الآخر وأنت ما تزال كذلك طوال المدة التى تعيش فيها . وأنت بعد لست إلا فرداً محدود الحياة فى دائرة ضيقة من الزمن ، فما بالك بما يطرأ على حياة الأمة فى مختلف نواحيها من تجدد . واللغة ليست إلا ظاهرة من ظواهر حياة الأمم . هى التى تعبر عن حياتهم ، وما فيها من علم ، وفن ، وشعور ، وإحساس ، وهى التى تتناول صور معيشتهم اليومية ، وبما أن هذه الصور تتطور بما ينشئ العلم ، والتجارب فيها ، فإن اللغة نفسها تتطور بهذا المقدار فى العلم نفسه وبأكثر من هذا المقدار فى الشعر والأدب . والذين يسمون أنفسهم أنصار القديم يحسون هذا فى كتاباتهم هم ؛ لكنهم مع هذا يترددون فى متابعة التطور فى سرعة سيره فيقفون فى وسط الطريق لا هم إلى القدماء الذين يريدون أن يحتذوا وهم يمثلون الحياة المحيطة بهم ، ويعبرون عنها تعبيراً صادقًا ، فهم لذلك يثورون ويحاربون الذين ينبهون غيرهم إلى موقفهم ، وهم يتخذون من الرمى بالإلحاد وسيلة لهذه الحرب ، وإن كانوا يعلمون أن التجديد والإلحاد لا صلة بينهما .

وبعد ، فما نفع الكلام فى القديم والجديد فى الأسلوب ، وفى اللغة ووفرة ألفاظها ليس من شأنها أن تؤدى بالكاتب حتمًا ليكون كاتبًا مجيداً ، كما أن بعض الكتّاب المجيدين قد يكون معجمهم من اللغة التى يكتبون بها غير مترامى الأطراف . وهذا بيير لوتى الكاتب الفرنسى المعروف فى مصر بما كتب عن مصر والمعدود فى فرنسا من أئمة كتابها ، وبخاصة فى الوصف الذى يخيل لك أنه أحوج من غيره إلى الألفاظ الكثيرة ، ما تكاد تقرأ كتبه حتى تعجب لسهولة لفظه ووضوح بيانه ، فإذا أنت رجعت إلى ما كتب النقاد عنه رأيتهم جميعًا متفقين على أنه كان قليل الثروة من ألفاظ اللغة ، ولكنه كان يخلع من روحه على هذه الثروة اللفظية القليلة قوة تجعلها أكثر إبانة ، وأبلغ عبارة ، وأجمل اتساقًا وأشجى موسيقى من كثير غيره من الكتاب الذين لا حد لهم ولا حصر لثروتهم اللفظية ، وموباسان مثل لوتى ، وأنت إذا رجعت إلى كتاب كليلة ودمنة أو إلى الأغانى فى كتب أدب العرب ، وجدت أسلوب النثر فيهما خلواً من كل غريب من

اللفظ ، وهو مع ذلك آية فى السهولة والجودة ، ودقة التركيب ، وحسن الأداء ، فيها ترى صورة صادقة للكاتب الذى حررها والعصر الذى كتبت فيه . وهاتان هما الميزة الصحيحة للكاتب المجيد ، فهو مجيد ما رأيت له صورة صادقة فى أسلوب سهل جيد دقيق التركيب حسن الأداء يعبر تعبيراً صادقاً عن عصره . ولعلك واجد اليوم أكثر من كاتب من هذا الطراز بين كتّابنا ، بل لعلك تقع فيما يكتب الكتّاب الذين يسمون أنفسهم أنصار القديم على صور صادقة للكاتب المجيد ، ولو أنهم استطاعوا أن يقفوا من أنفسهم موقف النقاد ، وأن يعرفوا مواضع القوة ، ومواضع الضعف من كتابتهم لمهد لهم ذلك السبيل إلى السمو فوق هذه المنازعات بين القديم والجديد ؛ لينتجوا مثل هذا الذى بلغ مبلغ الجيد الصحيح مما كتبوا . وأنهم إذن ليكونون بذلك أكثر إفادة لبنى جنسهم وأكثر عملاً لإقامة ما هم جديرون به من مجد .

لكن كثيرين لا يستطيعون هذا لأنهم يريدون أن يروا حولهم جمهوراً يصفق لهم ويشكّون فى أن يجدوا هذا الجمهور المعجب الضعيف أمام الجيد الصالح مما يكتبون . فهم لذلك يشنون الغارة باسم الإلحاد تارة ، وباسم المحافظة على اللغة طوراً . والله حافظ دينه من غير حاجة إلى نضال لا طائل تحته ، ولم تفسد لغة من اللغات لأن كاتباً أو جماعة من الكتاب عجزوا عن أن يصلوا إلى مكان الإجادة فيها فأرادوا ستر عجزهم بادعاء الدفاع عنها أو التجديد فيها ، إنما تحيا اللغات وتغذى بالآثار القيمة الصالحة التى يلهمها محبو الفن فى الأدب فيكتبونها تعشقاً منهم لها ، لا يعنون حين يكتبونها بالقديم ولا بالجديد ؛ ولكنهم إذ يفرغون منها وينشرونها للناس يرى الناس فيها شخصيتهم واضحة بارزة ، ويرون صورة العصر الذى كتبت فيه مصورة أجمل تصوير ، ويرون هذا الأثر بذلك جديراً بالمجد وبالبقاء ؛ لأنه دليل قوة إنسانية ممتازة وصورة صادقة لعصر من عصور حياة أمة من الأمم ، أو من حياة الإنسانية جمعاء ولو فى إحدى نواحى هذه الحياة .

التبعة والجزاء (*)

نظريتان جديرتان بالبحث

كلنا نتحدث عن مسئولية العامل عن عمله وعن الجزاء الذى يستحقه عن هذا العمل ، وكلنا يتحدث عن العقوبة التى يجب أن توقع على المسىء جزاء إساءته ، فإذا رجع كل واحد إلى نفسه يسائلها عن فكرة المسئولية ما هى ؟ ، وعن الرابطة التى تربط التبعة بالجزاء اختلف تفكيرنا اختلافًا كبيراً . فمنا من يجعل المسئولية أثرًا من آثار الحرية الفردية ، حرية مقرونة بالتمييز . فما دام الإنسان حرًا مميزًا وجب عليه أن يفرّق بين الخير والشر ، وأن يوجه نفسه للعمل الصالح أو يلقى جزاء إساءته . والذين يرتبون التبعة على الحرية ، والتمييز يذهبون إلى أن هذه التبعة تسقط ، ولا يبقى لها وجود إذا انعدم التمييز أو انعدمت الحرية . ومنا من يجعل المسئولية أثرًا اجتماعيًا فيرى فى الجزاء والعقوبة رد الفعل الطبيعى تقوم به الجماعة بإزاء ما يضرها كما يدفع الفرد عن نفسه الضر والأذى ، وكما يدفع الحيوان الضر كذلك . وإذن فالتبعة والجزاء ليسا إلا مظهراً لغريزة اجتماعية هى غريزة احتفاظ الجماعة بوجودها ، غريزة ركبت فيها كما ركبت فى الفرد ، وفى كل كائن من الكائنات .

وأصحاب الرأى الأول يستشهدون لتأييد رأيهم ، بأن الجماعة نفسها تعفى من العقاب من ثبت انعدام أحد ركنى المسئولية عنده ، فالذى لا يميز، والذى لا يكون حرًا فى تصرفه ، لا مسئولية عليه فى عمله ولو أضر هذا العمل بالجماعة أفدح الضرر . أترى لو أن مجنونًا وضع النار فى مدينة فأهلكت الحرث ، والنسل ، وذهبت بالأنفس والأموال يكون عليه أية تبعة عن عمله ؟ كلا ! . وإذا هدد رجل آخر بالقتل إن هو

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١١٢ ، بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٢٨

لم يرتكب جرمًا من الجرائم فانعدم اختياره انعدامًا صحيحًا وارتكب وهو فى هذه الحال ما أمر به لم تكن عليه تبعة كذلك ، فلو أن المسئولية كانت مظهر غريزة اجتماعية يترتب عليها رد فعل محتوم هو الجزاء لما كان للإعفاء من العقاب موضع ، ولحوكم المجنون ، وحوكم المكره كما كان يحاكم الحيوان ، وكما كان يحاكم الجماد فى العصور الماضية .

ويؤيد أصحاب هذا الرأى رأيهم بأن نظرية الإضرار La Nocivite التى قررها جماعة من فطاحل الفلسفة الجنائية فى إيطاليا لم تلق تأييدًا فى الواقع العملى ، فلم يخرج مشرع من المشرعين فى دولة متمدنة على القواعد القديمة التى قررت ضرورة توافر ركنى الحرية والتمييز لتوافر المسئولية . ولم يذهب القضاء الجنائى فى أى من هذه البلاد إلى القول بعقاب غير المميز أو فاقد الحرية ، فغريزة الجماعة إذن غريزة تقدير ، وعدل ، وليست غريزة دفاع آلى عن كيانها ، بل إن اتجاه التشريع ، والقضاء ، ليزيد فى ترجيح هذا الرأى إذا ذكرنا ميل أهل الأجيال الأخيرة إلى تحديد العقوبة بنسبة مسئولية من توقع عليه ، وإلى الإعفاء من العقوبة كلما تغلبت غرائز الفرد على واجب احترامه لحياة الجماعة تغلبًا أنفد صبره وأضعف تمييزه . وما تقول فى هذه الأحكام الكثيرة يصدرها المحلفون والقضاة ببراءة شخص ارتكب جريمة القتل لخيانة امرأة له أو جريمة السرقة لجوعه . وما تقول فى نظرية أنصاف المسئولين وأرباع المسئولين؟ ما تقول فى هذه المسئولية النسبية يترتب عليها اختلاف فى توقيع الجزاء من فرد إلى فرد عن جريمة واحدة ؟ فإذا أنت انتقلت من ميدان العقاب القانونى إلى المسئولية الأدبية رأيت هذا التفريق فى التقدير واقعًا بمقدار وقوعه فى الميدان القانونى ، فهذا الرجل يرتكب العمل نفسه فلا يدهش الناس له ؛ لأنهم تعودوه منه ، ولأنهم ازدروه من قبل فأصبح ازدراؤهم له مزمنًا ، والازدراء المزمن كالمرض المزمن لا يكون حادًا ولا يصحبه غضب ، كذلك الازدراء المقرون بالأسف لما يخطئ فيه رجل لم يكن للناس بخطئه عهد .

إذن فإن القول بأن التبعة مظهر لبعض غرائز الجماعة يقابله رد فعل هو الجزاء ، قول لا يؤيده الواقع الذى ذكرنا والذى يجعل العدل ، ودقة التقدير بعض غرائز الجماعة تدفعها إلى ترتيب المسئولية على الفرد بمقدار ما يكون له فى العمل الذى يأتيه من حرية وتمييز .

* * *

على أن أصحاب الرأى الثانى لا يقنعون بهذه الحجج التى تقدمت ، ويأبون أن يروا فكرة المسئولية فى نفس الفرد شيئًا آخر غير صدى رد فعل الجماعة نتيجة غريزة احتفاظها بالحياة ، وأن الصلة بين التبعة والجزاء هى رد الفعل هذا . ويذهبون فى ذلك إلى مدى يقررون معه أن المسئولية الأدبية ، وليست المسئولية القانونية وحدها ، هى فى نفس الفرد هذا الصدى من رد فعل الجماعة ، فلو لم تكن الجماعة لما كان رد فعل ، ولما كان صدى لرد الفعل ، ولما كانت المسئولية ، ولكانت الغريزة الفردية هى التى تسيّرنا فى الحياة كما تسيّر فى الحياة أى حيوان من الحيوانات .

ويؤيد هؤلاء رأيهم بأن فكرة الحرية هى لذاتها فكرة اجتماعية ، وحدود الحرية التى يترتب على الخروج عليها توقيع الجزاء هى الأخرى حدود اجتماعية . والقول بأن للفرد حرية ذاتية تترتب عليها المسئولية ، فيه من التجوز الشيء الكثير ، فهذه الحرية الفردية فى الجماعات المنظمة ، إنما تقوم على أساس النظام والقانون وبالمقدار الذى يرضيانه ، أى أنها تقوم بتقدير الجماعة لا بتقدير الأفراد . والواحد من الجماعة كالعضو من الجسم ، أو هو بالأحرى كالذرّة من هذا الجسم ، قد يشعر بأن له وجوداً خاصًا له شيء من الاستقلال بينما هو فى الواقع متأثر بالجسم كله تأثرًا مباشرًا ، متأثر بكل فعل ورد فعل يصيب هذا الجسم ، ثم هو فضلاً عن هذا متأثر بميراث ذلك الجسم إلى أجيال ، وأجيال ماضية. وما دام شأن الفرد فى الجماعة هو هذا الشأن ، فتقديره التبعة لا يعدو أن يكون صدى الفعل ورد الفعل الذى يصيب الجماعة كما تقدره هى ، لا كما يقضى به شيء اسمه العدل أو حسن التقدير لذاتهما .

والأمثال التى ضربها أصحاب الرأى الأول تأييداً لرأيهم هى بعينها الأمثال التى يضربها أصحاب هذا الرأى الثانى تأييداً لرأيهم . فالجماعة التى كانت تعاقب الحيوان والجماد ، وتعاقب المجنون فى العصور الماضية هى التى تعفى المجنون اليوم من العقاب . ففكرة العدل لذاته أو حسن التقدير لذاته قد تغيرت فى الجماعة بتطور العصور ، ثم إن إعفاء السارق بسبب الجوع ، والقاتل بدافع شهوة الغرام، لم يقعا إلا فى العصور الأخيرة . والجماعات تسير فى هذه السبيل ، سبيل الإعفاء ، بخطى واسعة ، وليس ذلك ناجمًا عن تطور تقدير الجماعات لمعنى العدل وكفى ، بل هو ناشئ قبل كل شيء عن زوال كثير من أسباب الخوف التى كانت تصيب الجماعة ، وتدعوها إلى القسوة ،

وإلى التشدد فى العقاب ، وعن ازدياد طمأنينتها للأمن وانتشاره . لهذا كله اطمأنت فيها غريزة الدفاع عن النفس ، ويصبح رد الفعل فيها ضعيفًا بإزاء أشياء كثيرة كان يحدث فى الماضى بإزائها رد فعل قوى ، لأنها بالغريزة التى تكونت لها من تفكير الأفراد القرون المتتالية ، أدركت أن هذه الأشياء لا تضر حياتها الضرر الذى يستدعى رد الفعل القوى . فالمجانين الخطرون فى العالم قليلون ، وأمرهم يكتشف أغلب الأمر قبل أن يقع منهم شىء فيذهب بهم إلى مستشفيات المجاذيب تحت علاج ، وحراسة قاسية لا تقل فى شدتها عن العقوبة ، فإذا أفلت بعد ذلك بعض المجانين فارتكبوا جرائم يجزى غيرهم عليها جزاءً صارمًا - وبقاء هؤلاء المجانين اليوم نادر جداً - لم يكن فى عملهم هذا من الخطر على الجمعية ما يهدد حياتها . أما هذا الإعفاء الذى ينال الجرائم التى تدفع إليها الشهوات فمرجعه أن تصرف المجنى عليهم مع من اعتدوا كان ضاراً لذاته بالجمعية ضرراً بليغاً ، والجمعية لم تضع بعد من روادع التشريع أو التقدير العام ما يمنع من هذا الضرر أو يخففه ، فإذا رد الفرد العدوان بالعدوان ، وشعرت الجمعية بتقصيرها عن حماية الفرد ، كان لها من غريزتها ما يجعلها ترى فى العدوان الأخير جزاءً عادلاً ، فتعفى صاحبه من العقاب ، ولو أنك رأيت غداً تشريعًا وضع يكفل حماية هؤلاء الأشخاص الذين يرتكبون الجرائم بدافع الشهوات ، لرأيت هذا الإعفاء وقد انقلب شدة ، ورأيت هؤلاء المحلفين ينظرون للمسألة بغير العين التى ينظرون بها إليها اليوم ، ذلك بأن إدراك الجماعات الغريزى له منطق غريزى هو الآخر كمنطق الأفراد .

أما المسئولية النسبية ، وأما نصف المسئولية ، وربع المسئولية ، فهى لا تزيد على أنها حيل منطقية ؛ لتبرير ما يشعر الكل به من ضعف رد فعل الجماعة بإزاء أشياء كثيرة كان يحدث بإزائها رد فعل قوى فى الماضى . والواقع أن ضعف رد فعل الجماعة ناشئ عن زيادة إدراكها الغريزى لقلة ضرر الأشياء التى كان رد الفعل بإزائها قويًا فى الماضى لا لسبب إلا الجهل بمبلغ أثرها ، والجماعة فى هذا كالفرد سواء بسواء . فالرجل الساذج الذى لا يدرك بغريزة بصيرته آثار الأشياء التى تحيط به وما يمكن أن يصيبه منها ، يتولاه الفزع لأقل حركة ، وتراه سريعًا إلى اعتبار أية حركة عدوانًا يدفعه بالعدوان . وأنت إذا رأيته فى هذه الحال ابتسمت لشدة طيشه ، على أن هذا الطيش كثيراً ما يستتبع طيشاً آخر ممن حصل العدوان عليه قد يجر إلى نتائج ما كان

ليقع شيء منها لو أن هذا الرجل لم يكن من السذاجة بالمقدار الذى رأيته به ، وكان يدرك حقيقة آثار الأشياء ونتائجها إدراكًا غريزيًا أو فى حكم الغريزى .

وعبارة الإدراك الغريزى نصرّ عليها لأن الشخص كالجماعة قد يدرك الأشياء إدراكًا عقليًا ومنطقيًا ولا يدركها إدراكًا غريزيًا فيكون رد الفعل الذى يصدر عنه ، والذى هو غريزى بطبعه ، غير متناسب مع الدرك للشيء إدراكًا غريزيًا . ولنضرب لذلك مثلاً : رجل يعيش فى هدأة الريف ، أو فى سكينة المدن الصغيرة يجيء إلى مدينة القاهرة ، أو تذهب به المصادفة إلى مدينة كالقاهرة ، أو تذهب به هذه المصادفة إلى مدينة أكثر ازدحامًا كباريس أو لندن ، ثم إذا به وسط ميدان ، أو شارع كبير يموج بالسيارات والعربات .. هو قد رأى السيارات والعربات من قبل ، وهو يدرك إدراكًا فعليًا أثرها وضرورة اتقاء التصادم بها ، لكنه مع ذلك معرض فى كل لحظة لهذا التصادم ، فإذا حصل أن وقف فجأة أمام عربة كانت توشك أن تصدمه رأيت رد فعل قوى ربما استثار منه ، إذا كانت فى يده عصا أو مسدس ، حركة آلية هى حركة الدفاع عن النفس ، فضلاً عن صخبه واضطرابه وعن اصفراره وذهاب لونه ، هذا مع أنه يعلم أن السكينة أوجب ما تكون فى هذا الموقف ، ومع أن من عاش فى هذه المدن الزمن الكافى ، ليدرك هذه النتائج إدراكًا غريزيًا ، فإن تصرفه يتغير تغيراً تامًا وتراه يفعل ، بطريقة آلية بحتة ، ما كان يحتاج فيه إلى تفكير فى الماضى .

هذا مثل نرى كلنا تمام صحته ، ما بالك إذن لو أن هذا الرجل كان ساذجًا وكان لا يدرك ولو إدراكًا عقليًا تلك الآثار ، إنه يكون حين تلقى به وسط تلك المدن بين أحد أمرين : إما أن يموت فزعًا وإما أن يثور ويرتكب أعظم صور الهوس والجنون .

فقد يلقى بنفسه تحت العجلات فى محاولته الفرار منها مدفوعًا بغريزة احتفاظه بحياته ، بل لقد يرتكب أشنع ما يمكن أن يصوره الخيال والوهم .

فأما الرجل الذى يدرك بغريزة حياته ، ولو إدراكًا آليًا ، صورة هذه الحياة المائجة بكل وسائل المواصلات فتراه فى سكينة ومن غير تفكير يتقى شرها اتقاءً آليًا من غير ضجة ومن غير أن يثير أية ثائرة . فإذا هو أصابه مكروه طفيف وقدر بغريزته ، ومن غير ضرورة لتفكير خاص ، أن هذا المكروه بعض ضرورات هذه الحياة ، لم يقف

طويلاً ولم يحاول أن يثير جدالاً، بل لقد يكفيه نظرة لوم أو كلمة عتاب يوجه بها إلى هذا الذى أصابه بالمكروه غير متعمد ، ثم تنقضى الحادثة ويسير هو فى طريقه من غير أن يستغرق ذلك منه تفكيراً خاصاً أو يدعو إلى رد فعل قوى .

فالجماعة إذن فى تطور صور رد الفعل بالنسبة للجرائم هى كالفرد سواءً بسواء ، كلما ازدادت إدراكًا غريزيًا لحياتها واطمأنت إلى ما فى هذه الحياة من ضرورات صالحة وأخرى سيئة كان رد فعلها بالنسبة لما نراه شيئًا متناسباً مع مقدار السوء ، وإذن فترتيب الجزاء على التبعة هو فى رأى أصحاب هذا الرأى عمل اجتماعى بحت ، ليس لذاتية المسىء فيه أى أثر إلا بمقدار ما ترتب الجماعة على هذه الذاتية نفسها من أثر فيها .

ولكن ! هل معنى هذا أن المباحث التى تقوم على أساس الرأى الأول قائمة على خطأ بحت فى نظر أصحاب هذا الرأى الثانى ؟ كلا ! فالواقع أن الفرد كخلية من الجماعة يحوى فى طوايا نفسه صورة الجماعة التى يعيش فيها ولو بمقدار . وغريزة الجماعة تنطبع فى نفس الفرد ، وتجعله يقدر التبعة والجزاء على صورة لا تبعد كثيراً عن الصورة التى تقدرها الجمعية فى متوسط مستواها . فالمباحث البسيكولوجية الخاصة بالأفراد تتصل من جانب بالمباحث الاجتماعية بوجه عام ، ولعلها ، إذا أردنا الأخذ بترتيب العلوم على نحو ما وصفه أوجست كومت فى تبعة التعلق بالعلوم الاجتماعية تعلق هذه بالبيولوجيا ، لكن الذهاب فى تقدير الذاتية إلى الحد الذى يجعل الجزاء أمراً ذاتياً يتعلق بالإثم على نحو ما يراه الأستاذ الكبير ، هو فى رأى مخالفيه تطرف لا يتفق مع حقيقة الحياة الاجتماعية ، فلتكن مباحث هذه الحياة الاجتماعية وتطورات غرائزها هى الأساس ، لتقدير التبعة ، وما ينشأ عن التبعة من جزاء يجعل الباحث أدنى إلى الوصول لغايات أقرب للحقيقة الإنسانية .

* * *

هذا بحث أعرضه اليوم على قراء السياسة الأسبوعية فى أقطار العالم العربى كافة أود لو تناوله منهم من يرى فى التعمق فى بحثه فائدة اجتماعية ، وأنا من الذين يؤمنون بهذه الفائدة ، وأن أقل ما نجنيه منها ، إنما هو توجيه العلوم الاجتماعية ، والعلوم النفسية ، و "البسيكولوجية" ، وجهات أدنى إلى تصوير حقائق الحياة .

المثل الأعلى

وسيلة العمل المحبوب (*)

كثيراً ما تقابلنا صور "فقراء" الهنود الذين يقضون حياتهم يعانون ألواناً من تعذيب نفوسهم ابتغاء طهارة أرواحهم والصعود بها إلى عالم "النرفانا" لتتصل بالملأ الأعلى ، ولتكون بعض الروح المسيطر على هذا الكون كله والمصرِّف له . هؤلاء "الفقراء" تعلموا أن الحياة شر بما فيها من ملاذ وشهوات ومرض وموت ، وأن لا سبيل إلى الاستعلاء على هذا الشر ، إلا بقتل أصوله في النفس ، وبالقضاء على أسباب الرغبة والمرض والموت بأن يحيلوا – فيما يعتقدون – جسمهم روحاً يخلد ويبقى فى خلده بمنجاة من شر الحياة ، وهم فى هذه السبيل يخضعون نفوسهم لطقوس من تضحية ما فى الحياة مما يحسبه غيرهم نعمة الحياة وسعادتها ، ولصور من الألم يرى كثير غيرهم من الفلاسفة أن جهاد الإنسان فى الحياة يجب أن يتجه لاتقائها ، فإذا نجح "الفقير" فى التغلب على رغائبه ، ووصل من ذلك إلى هزال الجسم ، وهذيان العقل والفناء الدنيوى اعتبر عند أقرانه وزملائه مثلاً أعلى يقدسونه ويسبحون بحمده ، ويرون العجز عن احتذاء مثاله ضعفاً فى الحياة يجب أن يأسف له الإنسان ، وأن يعتبره نقصاً قعد به عن التغلب على شر الحياة .

وفى رأى الفيلسوف الألمانى نيتشه أن هذه الصورة من المثل الأعلى ليست إلا حماقةً وسخفاً ، وأن المثل الأعلى الحق هو فى قوة الغلب والاستعلاء . أليس النضال أس الحياة ؟ أليست ذرات الوجود فى دائم تفانيها وتجددها فى حركة مستمرة ونضال لا نهاية له ؟ فقصر النفس على هجر النضال مقدمة لهجر الحياة ،

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١٤٨ ، بتاريخ ٥ يناير ١٩٢٩

اعتقاداً بأن فى ذلك ما يحقق السعادة ، سخف وحماقة ، وإنما الحق أن تجاهد ، وتجاهد ، وتجاهد ، وإنما المثل الأعلى أن تصل من جهادك للتغلب على غيرك والاستيلاء عليه ، ولا تثريب عليك بعد ذلك إن رأيته ضعيفاً أن تدوسه بقدمك ، وأن تقضى عليه القضاء الأخير حتى لا يبقى على الأرض غير الأقوياء الصالحين للنضال فى الحياة نضالاً قوياً عنيفاً .

بين هاتين الصورتين المتناقضتين من صور المثل الأعلى فى الحياة ، عدد لا يحصى من ألوان وصور أخرى ، وإلى جانب هاتين الصورتين صور تختلف عنهما وقد لا تتصل بهما فى قليل ولا كثير ، فمما بينهما من الصور هذا الذى تراه أعيننا كل يوم ذلك الفلاح يستيقظ فى الصباح وقبل مطلع الشمس ، فيذهب إلى المسجد يؤدى فيه إلى الله فرضه ، ويذهب بعد ذلك يعمل فى مزرعته قانعاً بالرزق الذى قسمه الله له ، فإذا جاء الظهر ، ثم العصر ، ثم المغرب ، ثم العشاء أدى فيها فروضها وسننها وشعر بأكبر السعادة لهذا واعتبره غاية التقوى ، وخير الزاد هو التقوى . وذلك الفلاح يستيقظ فى الصباح فيسرع إلى أداء فرضه ثم إلى مزرعته يظل طول نهاره ، وشطراً من ليله يقلب فيها يريد أن يستنبتها كل ما تستطيع إنباته ، ليزيد من عمله فى ثروته ، وليوسع فى رزقه وليكون بذلك شاكراً لله على نعمته ، ولئن شكرتم لأزيدنكم ، وهذا الشخص الثالث يكفيه أن يزيد فى ثروته ويبتغى إلى جانب الثروة جاهاً وبعد صوت يفضلهما على الثروة التى كانت وسيلة لهما "لأن الصيت خير من الغنى" . وهذا الرابع الغنى الوجيه البعيد الصوت لا يكفيه ماله من ذلك كله ويرى فى الحياة شيئاً آخر هو الجمال يريد أن يستمتع به ويرى فى ذلك الاستمتاع غاية ، ومما إلى جانب تينك الصورتين من صور ما يراه مثلاً أعلى جماعة الذين لا يعنون بالمال لذاته ولا بالجاه لذاته ولا بالتقوى لذاتها ، وإنما هم يرون فى فيض مواهب الفرد على الجماعة فيضاً مخلصاً قد تكون له ثمراته من مال وجاه ومجد ولكنها غير مقصودة لذاتها ، وغير مقصودة أن تجيء فى الحياة أو بعد الموت ، وهؤلاء هم رجال الفن المحبون لفنهم المخلصون له المترفعون عن الاتجار به . وأقصد برجال الفن هنا معنى أوسع بكثير مما يراد بهذه الكلمة حين التحدث عن الفنون الجميلة . أقصد بهم كل عامل يحب عمله ويخلص له ، فيهم أحشر العلماء الذين يحبون علمهم ويفتنّون فيه ، وأرباب الفنون الجميلة طبعاً ، بل أحشر أيضاً الصناع المحبين لصناعاتهم المفتنّون فيها ، هؤلاء جميعاً يرون المثل الأعلى فى إتقان ما يحبون

من فنونهم ، وفى مواصلة العمل ، لبلوغ درجة الإتقان هذه . ولقد تقتصر مداومة العمل عند مداومة التفكير فى الغاية التى يقصدون إليها ، وقد تكون الثمرات التى ينتجونها قليلة غاية القلة ، لكنك إذ تراها ترى فيها ظاهرة هى التى تدلك على أن صاحبها قصد بها إلى بلوغ المثل الأعلى ، هذه الظاهرة هى حب العامل عمله حباً وصل به إلى إنتاج هذه الثمرة، وهذا الحب تراه واضحًا متجليًا فى المذهب الفلسفى الذى يعرضه الفيلسوف ، وفى القصة الشعرية التى يفيض بها الإلهام على براعة الشاعر ، وفى القصة التى يكتبها الكاتب ، وفى قطعة الحجر النفيس التى نقشها الصائغ ، وفى العصا التى جمّل الصانع يدها ، وفى كل ثمرة من الثمرات التى تدفع بالحياة للتقدم إلى ناحية الكمال ، والتى تبعث إليها روحًا جديدة من فيض الجمال .

أحسب أن المثل الأعلى فى هذه الصور الأخيرة أقرب إلى تحقيق معنى هذه الكلمة ، مما يصنع "الفقير" الذى يريد أن يتغلب على الحياة بالسمو فوق الحياة ، ومما يصنع المناضل فهو يريد أن يتغلب على الحياة بالتغلب على أمثاله فى الحياة ، والمثل الأعلى فى هذه الصورة الأخيرة ، يسلك السبيل إلى غايته عن طريق العمل ، وحب هذا العمل ، والحب هو السر فى هذا المثل الأعلى الذى تصل إليه ، هو الذى يفيض على عملنا ، كما يفيض على الحياة كلها نوراً وجمالاً يرتفعان بها فوق "النرفانا" وفوق الغلب فى النضال ، وفوق كل معنى آخر يعتبره الأكثرون سامياً .

وأنت إذا حللت هذا الحب للعمل حباً ينسيك نفسك فى عملك ، ويدفعك لتطلب غاية ما يصل إليه العمل من كمال وجمال لرأيت فيه هذين المعنيين : معنى النرفانا — أو الفناء فى الروح العام وفى وحدة الوجود — ومعنى الغلب والتفوق ، ولكنك تجد فيه هذين المعنيين ماثلين فى صورة سامية جميلة تتألق نوراً وسنًا . أليست ثمرة العمل الذى يحبه صاحبه ما تكاد تخرج من بين يديه حتى تصبح ثروة جديدة للعالم وللإنسانية ومعنى جديداً من معانى السعادة فى الحياة ؟ فهى إذن ثمرة "غيرية" كل ما لصاحبها منها فضل إنتاجها . والعالم إذ يستمتع اليوم بهذا التراث الخالد من فلسفة أفلاطون وسقراط وديكارت وكمت وبرجسن ، ومن تصوير رفايل ومكلنج وروبنص ، ومن موسيقى بتهوفن وفاجنر وموتزار وفردى ، ومن شعر امرئ القيس والمتنبى وفرجيل ودانت وشكسبير وملتن وراسين ولامارتين ، ومن أدب فولتير وروسو وجيتى ولا بروبير

ولوى ، ومن صناعات الصناع المتفننين ، وآثار المغنين والممثلين ممن أحبوا عملهم فبلغوا به حد الإتقان وإن كلفهم ذلك من الجهود والعناء ما كلفهم ، وإن أقعدهم فى ضيق الفقر والمرض ، فالعالم إذ يستمتع بهذا التراث الخالد ، إنما يستمتع بآثار المثل العليا مما أنتج العمل وحب العمل ، بينما هؤلاء الفلاسفة والشعراء والكتاب والموسيقيون والممثلون كانوا لا يصبون إلى شىء مما يطمع فيه غيرهم من مال أو جاه أو بعد صوت أو مجد ؛ وإنما عرفت أسماؤهم الجاه والمجد وبعد الصوت ، وعرف بعضهم الثراء والرخاء ، لأن ذلك كله جاء عفواً وثمرة لاعتراف الإنسانية بجميل هؤلاء عليها بما خلفوا وراءهم من أسباب سعادتها وزيادة متاعها بالحياة .

على أن فى هذه الثمرات "الغيرية" للذين يحبون عملهم حبًا صادقًا معنى النرفانا ومعنى التغلب والتفوق ، وإن لم يقصد هؤلاء إلى أى من هذين المعنيين لذاتهما . فيه من النرفانا نسيان العامل نفسه فى عمله وسموه به ، ليصل إلى درجة الكمال فى جمال الكون ، وليكون بذلك بضعة من الروح العام فى وحدة الوجود ، وفيه معنى التفوق لسموه على ما سبقه ولتقدمه بالإنسانية خطوة إلى الأمام ، لكن الدافع إليه يخالف دافع "الفقير" والآخذ بمذهب نيتشه ، فالفقير الزاهد فى الحياة المتخلى عنها يضرب للناس مثلاً فى هذا الصنف من العيش علهم يحتذون مثاله فيتخلون عن الحياة . أما العامل المحب لعمله فيريد أن يزداد الناس بالحياة استمتاعًا . والقراء جميعًا يذكرون أن الموسيقى العظيم بيتهوفن كان فى قرارة فقره ومرضه دائم التوجه ، ليضع للناس لحن المسرة يهبط به إليهم من عالم السماوات ، فهو وأمثاله من النوابغ الطامحين للمُثل العليا عن طريق حب العمل ، يحبون الحياة ، ويحبون للناس أن يزدادوا شعوراً بنعيمها وحرصًا عليها ، والآخذ بمذهب نيتشه يريد الغلب للغلب والتفوق للتفوق . أما صاحب المثل الأعلى عن طريق العمل المحبوب فهو يصل للتغلب وللتفوق لا لأنه يريدهما ؛ ولكن لأن حبه لعمله وسعيه فى سبيل المُثل الأعلى واتجاهه نحو الكمال ليسمو به فوق غيره من الآثرين الذين يطمعون فى نعيم ذواتهم سمواً يجعله يتغلب عليهم غلبًا تبدو آثاره سواء فى حياته ، أو بعد مماته .

إن المُثل العليا إذن هى ثمرات العمل المحبوب الذى يخلص له صاحبه . على أن الناس قد اعتادوا حتى فى المُثل العليا ، أن يجعلوها طوائف ومراتب ، وأن يجعلوا بعضها

فوق بعض درجات. فهذا الصانع المتقن عمله لا يقف فى تقديره للمُثل العليا الموقف الذى يقفه العالم أو الفيلسوف أو الفنان أو الشاعر أو الكاتب ذلك بأنه وإن قصد كمال الجمال ، إلا أنه يقصده فى دائرة محدودة وفى زاوية من نواحى حياة الوجود . فأما الذين يسمو بهم تفكيرهم وخيالهم إلى الإحاطة بالعالم كله ، ليرسموا لأنفسهم منه صورة يريدون أن يطبعوها فى نفس الإنسانية ، وأن يحملوها على الإيمان بها ، فأولئك ينظر إليهم العالم بغير العين التى ينظر بها إلى غيرهم . ولعلك تراه ينظر إلى رجال الفن فى النقش ، والتصوير ، والموسيقى ، والشعر ، والأدب فيحلهم من المُثل العليا فى الدرج الأول به والمكان الأرفع ، وينظر إلى ثمراتهم نظرات إعجاب وتقديس أكثر مما ينظر بالإعجاب والتقديس لثمرات أعمال غيرهم . والسر فى ذلك أن هؤلاء يحلون عليه ما يعتقدونه كمال الحياة وجمالها فى صور ذات بهاء وروعة تخلب لبه ، وتملك قلبه ، وتنسيه نفسه كما أنست الباحثين عنها أنفسهم حين هبط عليهم فيض وحيها فنًا مقروءًا أو مسموعًا أو منظورًا .

وسواء أكان الناس على حق فى الدرجات التى يضعون فيها المُثل العليا ، أم لم يكونوا فإن هذه المُثل العليا جميعًا تستحق الإعجاب والتقديس كما يستحقهما حب العمل والإخلاص للغاية السامية إخلاصًا صادقًا . فهذا الحب وهذا الإخلاص هما أثمن ما فى الحياة ، هما مفتاح سر ما فى الحياة ، بل ما فى الوجود كله من كمال وجمال ، وبهما تستطيع الإنسانية التقدم إلى هذين : الكمال والجمال ، وهما أنبل غاياتها وأسمى منازلها .

خواطر في دار الأوبرا (*)

أراني أشعر بفارق كبير بين استمتاعي بسماع الموسيقى أثناء سفري خلال أوربا ، واستمتاعي بهذه الموسيقى نفسها حين أسمعها وأنا بمصر. وكنت أعلل هذا الفارق باختلاف الوسط أكثر من تعليله بأي سبب آخر، فأنت إذ تسمع الموسيقى الأوربية في أوربا تسمع جوابًا لنداء الطبيعة المحيطة بك وللجمعية التي تسير بينها ، وللتاريخ الذي تمتاز به البلاد التي تمر أو تقيم بها ؛ وأنت لذلك أكثر استمتاعًا بهذه الموسيقى التي تمثل كثيرًا مما يدور بنفسك وتؤديه أبدع أداء وأكمله . أما ما تسمعه من هذه الموسيقى في مصر فلا يلتئم مع الوسط ولا الجمعية ولا التاريخ الذي أنشأ هذه الموسيقى وكانت هي بعضه ، ثم أن الوسط الذي يستمع وإياك إلى هذه الموسيقى ينقل إلى نفسك وأنت في أوربا ما لا ينقله الوسط الذي يحيط بك إذ تسمعها وأنت في مصر . ذلك الوسط الأوربي الذي نشأ ، ونما وشبّ ، وترعرع قد أصبحت هذه الموسيقى بعضًا منه أي الجواب لما تتأثر به عواطفه ، وميوله ، وآماله ، ومخاوفه ، وكما ترى البدوي يهتز طروبًا للحداء الذي سمعه السنين تلو السنين في الصحراء ، وكما ترى الفلاح يهيج طربه شدو قيثارته وأنغام المزمار يترجمان عن حياة ما في الوادي المطمئن النضير الساكن إلى نضرته وطمأنينته ، كذلك تهيج تلك الموسيقى نفوس الأوربيين إن كانت توقع منها على أوتار خلقها الوسط الطبيعي الذي أنشأها ، ورسم فيها صورة جباله وثلوجه ، ووديانه ، ومزارعه المتفاوتة ارتفاعًا وانخفاضًا . وللطرب عدواه ، فبحسبك أن تدرك شيئًا من جمال موسيقى الغرب لترى هذا الجمال يتضاعف أمامك ، كما ترى من مظاهره على وجوه مشاهديه وأعصابهم . وعدوى الجمال أشد وأقوى ، كلما كان

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١٥٠ ، بتاريخ ١٩ يناير ١٩٢٩

الشعور بهذا الجمال طبيعيًا لا متكلفًا تحسه العاطفة قبل أن يقدره العقل ، وتلتهمه الغريزة قبل أن يزنه المنطق وينقده . لذلك كله كنت وما أزال أرى الاستمتاع بالموسيقى الأوربية التى سمعتها فى أوربا أكبر من هذا الاستمتاع بتلك الموسيقى التى سمعتها فى مصر .

وكان هذا الرأى عندى إلى مساء الجمعة الماضى صلبًا جامدًا لا يقبل مناقشة فيه ولا تحويراً له. وماذا ترى يدعونى لتحويره وأنا بطبيعة عملى الصحفى الذى يضطرنى لقضاء أمسياتى إلى مكتبى لا أجد الفرصة لسماع الموسيقى إلا فى الأماكن العامة ، وأكثرها من موسيقى هذا الرقص الحديث التى لا تهيج فى النفس أية صورة من صور الجمال ، ولا ترسم أمام النظر أى مشهد من مشاهد الطبيعة ، والتى تقف عند تحريك الغرائز الأولى فى النفس مما يدعو إلى النشاط ، رقص هو إلى الرياضة البدنية العنيفة أقرب منه إلى أى فن من فنون الجمال أو صورة من صوره . فإذا عزفت الموسيقى غير الرقص أدواراً أخرى فنية حقًا شعرت بجمال هذه الألحان ينقص إلى حد كبير للأسباب التى قدمت ، ورأيت نفسك تذكر فى أسف ونشوة معًا هذه الألحان نفسها سمعتها فى أحد مسارح الأوبرا بأوربا ، فطارت بخيالك إلى جنان من الجمال ، وتأثرت لها نفسك أعمق التأثر .

وفى مساء الجمعة الماضى أدت بى الظروف لأذهب فأشهد فى الأوبرا تمثيل الرواية (La Boheme) وأسمع غناءها وموسيقاها . وجلست فى أول فصولها متأثراً بالرأى الذى قدمت وجعلت أقلب فى نفسى خواطر شتى . ها نحن من سنوات لا نسمع فى دار الأوبرا المصرية غير الغناء الإيطالى ، والموسيقى الأوربية ، وها هى كثير من مقاعد الأوبرا مما حولى خال ، وكثرة الحضور من الأجانب عن مصر . وما نحسب الأوبرا أنشئت يوم أنشئت من أموال المصريين وبعرق جبينهم ، ليستمتع بها الأجانب النازلون مصر ، ويحرم المصريون منها خلا بضع مئات لا يجد أكثرهم اللذة الحقيقية فى الذهاب إليها ، بل يذهبون لأن "المودة" تجعل من حسن المظهر الذهاب إلى الأوبرا ، وها أنا أسمع غناء الممثلين فلا أفهم منه حرفًا لأنه ليس عربيًا وليس إنكليزيًا وليس فرنسيًا . وما أحسب المصريين مطالبين بأن يعرف المتعلمون منهم أكثر من ثلاث لغات ، بل ها أنا لا أدرك بالضبط ما يصور المنظر الذى أمامى ، لأنى لم أقرأ بعد برنامج

الرواية المكتوب بالفرنسية ، وها هى موسيقى بوتشينى البديعة دائمًا لا تفسر شيئًا من هذه الألغاز التى أمامى . أكذلك قضى على أهل هذا البلد أن يعيشوا فى فنهم عيالاً على غيرهم ؟ . وهل أجدب النبوغ ، وأجدبت العبقرية من مصر فليست لنا لغة للمسرح ولا موسيقى للمسرح ، ولا غناء للمسرح ، ولا مغنون وموسيقيون يحاولون خلق شىء من هذا ؟ . وهذه المبالغ الطائلة التى تنفقها الحكومة على دار الأوبرا فى كل عام ، هذه المبالغ التى تزيد على العشرة الآلاف من الجنيهات ، إذا أنت قدرت لدار الأوبرا إيجاراً أو ضممت إليه ما تدفعه الحكومة لمديرها الذى يجىء فيها بالأجواق كل عام ، أفما كانت تعاون على ظهور النابغة الذى يخلق الموسيقى القومية والغناء القومى والأوبرا القومية والمسرح القومى بدلاً من أن نعيش هكذا عيالاً على غيرنا من الأمم .

وذكرت إذ ذاك حديثًا قصه علىّ أمير الشعراء شوقى بك رواية عن أحد كبار الموسيقيين الذين زاروا نادى الموسيقى الشرقى ، ورأوا المجهودات التى تبذل لإحياء الموسيقى القديمة ، وللتقريب بينها ، وبين الموسيقى الغربية لخلق موسيقى قومية تتفق مع روح هذا العصر ، فلما سُئل فيما رأى كان جوابه أن هذه الجهود لا تؤدى فى اعتقادى إلى الغاية المرجوة منها ، وإن كانت على كل حال جهوداً صالحة ، إنما يخلق الموسيقى القومية نابغة لمّا يظهر عندكم وهو إذا ظهر لم يكن ليتقيد بالموسيقى الشرقية ولا بالموسيقى الغربية ولا بهذه الجهود التى تبذل اليوم ، بل هو سيلهم من كل هذا إلهامًا يجعله يضع النغم الذى تستريحون أنتم إليه جميعًا وترون فيه تعبيراً عن عواطفكم ومشاعركم وإحساسكم وآمالكم على الصورة التى تحبون أن يعبر عنها النغم فى العصر الذى ظهر النابغة فيه ، وانتقل خيالى من تذكر هذا الحديث إلى تذكر أنغام شهرزاد ، هذه القطعة الموسيقية الغربية التى تحكى قصص بطلة ألف ليلة وليلة ، هذه القطعة التى وضعها مؤلفها بعد أن عاش فى الشرق سنين درس فيها حياته ، ووصل من طريق النغم إلى تعرُّف روحه ، حتى إذا انعكست فى نفسه هو أخرجها موسيقى غربية فطرب لها الغربى لأن مقاييسها ، ومقاماتها هى مقاييس الموسيقى الغربية ومقاماتها، ويحبها الشرقى لأنها تحكى أنغام روحه ، وإن كانت تحكيها على طريقة غير التى ألف فيما اعتاد من موسيقانا الشرقية المتشابهة المحزونة الحنون .

وفيما أنا أفكر فى هذا وفى مثله تحيط بى ظلمة صالة الأوبرا أثناء التمثيل رأيتنى أتجه إلى ناحية رئيس فرقة الموسيقى بحركة آلية لا شأن لإرادتى فيها ورأيت آذانى تمتلئ بموسيقى بوتشينى شيئًا فشيئًا حتى لكأنه جو المكان قد أصلح أوتارها وأصارها مستعدة ، لتسمع هذه الموسيقى ، ولتستمتع بجمالها، أو لكأنها أنستنى الظلمة المحيطة بى فى أية بيئة أنا ، وجعلتنى أتخيل نفسى فى البيئة الطبيعية لسماع هذه الأنغام من جبال أوربا ووديانها ، على أن أوتار أذنى لم تصل إلى غاية الدقة فى ضبطها دفعة واحدة . وكان استمتاع عينى بمنظر رئيس الأوركسترا أسرع أول الأمر من استمتاع سمعى ؛ وإن أنسانى السمع بعد ذلك كل ما سواه من صور الإحساس . اتجهت أذنى إلى رئيس الأوركسترا فإذا بيديه ورأسه وأكتافه وجسمه جميعًا يهتز فى إشارات عصبية متوالية يشير إلى ناحية من الموسيقيين ثم إلى ناحية أخرى ثم إلى مغن ثم إلى مغنية ؛ ثم إلى الجوقة جميعا ، ثم يعود إلى مجموعة الموسيقيين ، وهو فى كل هذا كتلة عصبية ما تفتأ تهتز ، وتهتز وتضطرب وتضطرب يمنة ويسرة صعوداً وهبوطاً ، ويده ما بين فترة وأخرى تقلب صفحة الموسيقى ، أو تحاول إعادة النظام إلى شعره المضطرب لكثرة اهتزازات رأسه وجسمه . اتجهت إلى ناحية هذا الرئيس ، وثبت بصرى عنده برهة خيل إلى على أثرها أنه ليس شخصاً مثلنا ، وإنما هو مجموعة أوتار موسيقية ركبت فى صورة الإنسان ، فهى كلها فى اهتزاز دائم مختلفة بهذه الأصوات البديعة الساحرة التى وضعتها ريشة بوتشينى على الورق ؛ وأنها لم تكن حبيسة طى غلاف الجسم لسمعت أنا ، ولسمع الحاضرون جميعًا أصواتها كما يسمعون هذه الأوركسترا التى تدق أمامهم بشجى الأنغام منساقة بقيادتها .

نعم لم يكن رجلاً رئيس فرقة الموسيقى الذى أرى ، بل هو صندوق موسيقى تشتبك فيه الأنغام تحاول أن تصل إلى آذان السامعين فلا تقدر إلا عن طريق إلهامها الفرقة الموسيقية الكبيرة الخاضعة كلها لعصا الرئيس الساحرة . وهو لذلك الممسك بيده مصير القطعة التمثيلية وموسيقاها جميعًا ، ومجهوده لذلك عظيم ضخم . فما يكاد ينتهى فصل من فصول الرواية حتى إذا به يتصبب عرقًا وإذا به يفر مسرعًا إلى ناحية يرتمى عندها كى يستريح من عناء مجهوده ، وهو مع هذا أقل الناس عناية بأن يقدّر غيره هذا المجهود لأن أكبر همه أن يتوّج عمله بالنجاح ، ولو لم يعلم بنجاحه إلا هو .

وبعد برهة أخرى بدأت أتتبع التمثيل والغناء مستعيناً على فهمها بالموسيقى ومستعيناً بهما على ذوق الموسيقى ، وتركت نفسى تذهب إلى ما شاءت من استمتاع بها ، وبعد إذ كنت أنظر إلى رئيس فرقة الموسيقى أراقب حركاته وأرى فيه صندوقاً موسيقياً صُوّر إنساناً ، بدأت أسمع حركاته وإشاراته فى الموسيقى التى تسايره . ونسيت كل شىء إلا الرواية التى أسمع ، وإن لم أفهم اللغة الإيطالية التى يتغنى بها مغنوها ، نسيت خواطرى ونسيت تعصبى القديم ونسيت الموسيقى القومية ، ولم يكن يخرجنى من هذا النسيان إلا ما تعذر علىّ تتبعه أحياناً من مواقف الرواية لعدم فهمى اللغة التى تلقى بها ألحانها ، وإن كنت أعرف الرواية القديمة التى أخذت عنها هذه الأوبرا منذ سنوات عديدة.

وظللت فى نسيانى ما حولى مكتفياً بالاستمتاع بما أسمع وأرى حتى آخر الرواية ، وحتى انتهى الرقص الذى أقيم بعدها ، ليسرّى عن النفوس ما تأثرت به لخاتمتها الفاجعة المحزنة ، لكنى لم ألبث أن عدت لأحدث نفسى : ها أنا قد استمتعت فى حدود ما أستطيع من استمتاع بهذه الموسيقى ، وما أشك فى أن الأوربيين الذين سمعوا ما سمعت كانوا به أكثر استمتاعاً لأن الموسيقى موسيقاهم والحياة التى تمثل حياتهم والعقلية التى أملت الحياة ، والموسيقى والأنغام حياتهم وموسيقاهم وأنغامهم . وما أشك فى أن ما فاتنى من متاع لم يفت أحداً منهم وإن كان مثله أو أكثر منه قد فات كثيرين من النظارة المصريين أمثالى . فهل نرى من حق حكوماتنا أن تنفق كل هذا الذى ينفق فى كل عام على الأوبرا ، لاستمتاع الأوربيين النازلين مصر ، ولاستمتاع مئات من المصريين استمتاعاً غير كامل ؟ . وهل شيدت الأوبرا القومية لهذه الغاية ؟ هل شيدت من ستين سنة ، فقد افتتحت سنة ١٨٦٩ ، لتظل طول هذه المدة فلا يمثل فيها أثر قومى واحد مما شيدت له ، ولا تعرف ألواحها أوبرا مصرية واحدة تمثل فوقها ؟ ، ثم عدت أسائل نفسى : ترى لو أننى شهدت فى أوربا ما شهدت مساء الجمعة الفائت فى مصر ، أكان يقف استمتاعى به عند حد ما وصل إليه أو أنه كان يزيد ؟ وهل ترانى أظل عند رأيى الأول صلباً جامداً لا أقبل فيه مناقشة ولا له تحويراً ؟ ، ولعل فى ذلك من الشك ما يجعلنا نظن أن مذهب الشك جدير بأن ينال الموسيقى بمقدار ما نال الفلسفة من صور التفكير ، والحس الإنسانى .

العظماء والفكرة الإنسانية (*)

تتنازع الحياة منذ القدم أفكار تبدو للنظرة الأولى متناقضة كل التناقض . فالفكرة الفردية ، والفكرة الاشتراكية ، والفكرة القومية ، والفكرة الإنسانية ، والفكرة النفعية والفكرة الخلقية ، وهلم جرا . ومنذ القدم يتعصب قوم لواحدة من الفكرتين ويتعصب آخرون للفكرة الأخرى ، هذا على أن كلتا الفكرتين بعض لازمات الحياة ومالا غنى لها عنها ، كما أن لكل عضو من أعضاء الجسم بعض لازماته فلا غنى له عنه . فإذا صح لقوم أن يتعصبوا للأطراف على المعدة ، أو للقلب على الرأس، أو للحس على التصور، وأن يبلغوا من هذا التعصب حتى ليرون أن لا ضرر من القضاء على ما يتعصبون له إذن لأمكن أن يتصور الإنسان هذا التعصب لفكرة على فكرة تبدو مناقضة لها . أمَا وهذا التعصب لعضو من الجسم على آخر غير مقبول عقلاً ، فالتعصب لفكرة على فكرة غير مقبول كذلك عقلاً ، وكل تعصب أيًا كان نوعه لا يسيغه العقل المتسامى فوق نزعات الهوى ، وإن أساغته دائمًا مصالح الحاضر ، وأوهام الساعة .

ونود اليوم أن نقصر حديثنا على الفكرة القومية ، والفكرة الإنسانية ، ونظر عظماء بنى الإنسان لكل واحدة منها ، وتطور تفكير هؤلاء العظماء دائمًا إلى ناحية الفكرة الإنسانية مع بقاء الفكرة القومية عزيزة عليهم مقدسة فى أعماق قلوبهم ، وإذا ذكرنا العظماء كان الأنبياء أول من يرد بخاطرنا منهم ، ولعلنا لا نجد الفكرة الإنسانية واضحة قوية إبان العصور القديمة عند عظيم من العظماء وضوحها عند الأنبياء . ذلك بأنهم جاءوا برسالة قصدوا بها سعادة الناس جميعًا لا سعادة طائفة معينة منهم ،

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١٨٣ ، بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٢٩

ولا أمة خاصة من أممهم ، لذلك لم تكن الفكرة القومية قوية فى نفوسهم قوة يمكن أن تؤثر فى الفكرة الإنسانية السامية التى أوحيت إليهم رسالتها ، وهذا موسى عليه السلام نشأ فى مصر من أبوين مصريين ، وتعلم فى دور العلم المصرية ، وتلقى على الكهنة المصريين ، فلما آن له تبليغ رسالته ووجد فى جو بلاده السياسى من العنت ما لا يمكّنه من ذلك هاجر وقومه من وطنه ، وذهب يدعو إلى رسالة ربه حيث تثمر الدعوة ، وتبلغ الناس الرسالة . ولم تكن الدعوة الإسلامية حين قام بها محمد عليه السلام طامحة إلى فتح أو غلب ، وإنما كانت غايتها هداية الناس من أهل الأمم كلها ، ولئن قيل أن الرسل أنفسهم لم يفكروا حين قيامهم بالدعوة إلى رسالتهم فيما ستؤول إليه من بعدهم وفى الملايين من أهل الأرض على مختلف الأجيال يعتنقونها عقيدة وإيمانا يدافعون عنها بمهج الأرواح وحبات النفوس ، فإن طبيعة الرسالة لذاتها إنسانية لا شىء من القومية فيها ، ذلك أن أساسها الأول روحى ، وأساسها الثانى خلقى . أساسها الأول : صلة ما بين الناس ، وبارئهم ، وهذه الصلة لا تقف عند أمة من الأمم ، ولا ترمى إلى تغليب قوم على قوم أو دولة على دولة ، وأساسها الثانى : خلقى متصل فى رسالة الرسل بالأساس الأول عن طريق جزاء البارئ لخلقه ، فإذا كان من الملوك والساسة من أرادوا فيما بعد أن يستخدموا الرسالات الدينية للأغراض السياسية ، فذلك لا يغير من طبيعة الرسالة باعتبارها إنسانية شاملة غير مقيدة بزمان ولا بمكان ، بل لا يضيف إلى هذه الطبيعة شيئًا قوميًا يمكن أن يجنى عليها أو يضعفها .

على أن كثيرين من العظماء غير الأنبياء ممن انتهت حياتهم إلى الدعوة للفكرة الإنسانية فى أسمى صورها ومعانيها قد بدأوا حياتهم بالدعوة إلى الفكرة القومية وبالتعصب لها . ويذكر كثيرون من مترجمى الفيلسوف ، والشاعر الألمانى العظيم جيتى أنه كان فى بدء صباه متعصبًا للفكرة الألمانية أشد التعصب ، حتى لم يكن يرى جمالاً ولا جلالاً ولا عظمةً فيما سوى الألمانى من الأشياء . فتاريخ ألمانيا أحفل تاريخ بجلائل الأعمال ، وفن ألمانيا أرقى الفنون وأسماها ، وطرائق ألمانيا العلمية أدق الطرائق وأخصبها إنتاجًا وأغزرها مادة ، وطبيعة ألمانيا أكثر من طبيعة أى بلد آخر وحيًا بأسمى معانى الشعر وإلهامًا لأجمل مراتب الفن . وقد تألفت حول جيتى طائفة تناصر هذه الفكرة القومية بكل قوتها ، وتدعو إليها بكل وسائل الدعوة . فلما تقدمت السن

بالفيلسوف ، ورأى خلال سياحاته فى مختلف أنحاء أوربا صوراً شتى من الجمال تبعث للنفس ألواناً من الشعر والفن تختلف عن الشعر والفن الألمانيين وتفضلهما أحيانا .
ولما رأى فوق هذا اشتراك الإنسانية فى الآلام لما تعانى من مرض ، وبؤس ، وشقاء ، ولما وقف من آثار روما القديمة على مجد ، وسعى للارتقاء بالإنسان ليس دون ما عمل له أسلافه الألمان إن لم يفقه ، ولما ذكر إلى جانب هذا كله ما أفادته قراءاته عن سعى اليونان ومصر وغيرهما من الأمم لسعادة الإنسانية ، ولما رأى هذا كله ورأى من أهوال حروب نابليون ما يتساوى أمامه الإيطالى ، والنمسوى ، والألمانى ، وغيرهم ممن ذاقوا أهوال تلك الأيام السوداء ، سما تفكيره فوق نطاق القومية ، وحدود الوطن وصار تفكيراً إنسانياً إن لم تشبه شوائب الروحية التى لما تثبت أمام العلم ، فهو ليس لذلك أقل من الروحية دعوة إلى الإخاء الإنسانى العام ، وإلى التسامح ، والمودة والسلام .

وكان الموسيقى العظيم بتهوفن معاصراً لجيتى وكان أكثر منه سبقًا للفكرة الإنسانية . ولعل ذلك يرجع إلى أن الموسيقى لا تتقيد بما يتقيد به الأدب ، والشعر والفلسفة من أوضاع اللغة ، وأن ألحانها تتخطى الحدود ، وتنساب إلى القلوب من غير تفريق بين أهل أمة وأهل أمة أخرى . بسبب هذه الفكرة الإنسانية السامية ، كان بتهوفن معجبًا أشد الإعجاب بالثورة الفرنسوية وببطلها نابليون ، متسامحاً فيما أدت إليه الثورة من إراقة الدماء ، وإزهاق الأرواح معتبراً ذلك ضحية رخيصة للحرية والمساواة والإخاء التى كانت الثورة تدعو إليها ، وتعمل على نشر ألويتها على العالم كله حرصا على سعادة الإنسانية ، ورقيها . وبلغ بتهوفن من إعجابه هذا أن وضع لحنًا لبطل الثورة نابليون أراد أن يخلّد به مجد أعماله فى سبيل هذه الغايات السامية . فلما أعلن نابليون نفسه إمبراطوراً ورأى الموسيقى بذلك أنه كغيره من الذين يريدون تسخير الإنسانية بعد مخادعتها باسم الحرية والإخاء بلغ منه الغضب مبلغه ، ومزق اللحن ، ثم أعاد كتابته فى صورة أخرى وجعل له عنواناً آخر أهداه به للحرية التى سفك نابليون دمها بعد أن كان مهدى لنابليون الذى أرخص دمه فداء للحرية ، وللمبادئ السامية التى جعلتها الثورة الفرنسية شعارها .

وإذا ذكرنا جيتى وبتهوفن ، فإنما نذكرهما على سبيل المثال للعظماء الذين تمثلت الفكرة الإنسانية نفوسهم ، وارتفعت بها فوق كل ما سواها . والواقع أنه لم يكن من بين

عظماء المفكرين ، ورجال الفن عظيم ، إلا كانت هذه الفكرة غاية ما يدعو إليه . وأنت إذا عدت إلى الماضى تستلهم أفلاطون ، وسقراط ، وغيرهما من فلاسفة اليونان ، والمعرى ، وابن رشد ، وغيرهما من عظماء مفكرى العرب ، ثم انحدرت من بعد ذلك على العصور إلى عصرنا الحاضر لما كدت ترى لهذه القاعدة استثناء . وإنى لأذكر الآن تلك الساعات الساحرة حين كنا نستمع لشاعر الهند الكبير تاجور أثناء مروره بمصر ، وهو يشدو بصوته العذب الرخيم آيات الوحدة الإنسانية فى أجمل صورها ، وأسمى معانيها ، ويرتل من روحياته فى هذه المعانى ما تلين له أقسى القلوب ، وتستريح له أشد النفوس عذاباً بما فى الحياة من مصائب وآلام . ولن تهدأ هذه الفكرة الإنسانية حتى تؤتى ثمرها للناس جميعاً ، وأول ثمرها أن يعيشوا إخوة فى المحبة والسلام .

* * *

أفيدل هذا التطور الذى نشهده عند العظماء من الفكرة القومية إلى الفكرة الإنسانية على تناقض ما بين الفكرتين حتى يصح التعصب لإحداهما على الأخرى ؟ وهل ينتهى هذا التطور لذلك بأصحابه إلى إنكار الفكرة القومية ، والخروج عليها ؟. هذا ما يجول بخاطر البعض على حين أنه وهم لا حقيقة له.

ولئن بلغ الإنسان ما بلغ من حب الإنسانية إلى حد الفناء فيها فلن ينسيه ذلك قوميته ، كما أن قوميته لن تنسيه يوماً من الأيام شخصيته. وكيف ينسى أحد أهله ووطنه وهم أبدا مرجعه ومآله ! . أفرأيت إلى أى واحد من العظماء شعر بأنه أدى ما عليه للعالم من رسالة إلا راجعه الحنين إلى مسقط رأسه ، فأوى هناك إلى أهله ، وكان بعض أمله فى الساعات الأخيرة من حياته ، أن يعود فيدفن فى الثرى الذى نبت منه ؟ ذلك بأن القومية موئل فطرى ، وملجأ حين الشدة . وأى إنسان من الناس لا يتعرض فى مختلف ظروف حياته إلى ألوان مختلفة من الشدة ! .

والفكرة الإنسانية ليست بعد إلا الفكرة القومية ذاتها ، ليست إلا فكرة العائلة الضيقة الحدود فى صورة واسعة الأفق فسيحة المدى ، وكما كان أهل اسبرطة كمدينة يحاربون أهل أثينا كمدينة ؛ ثم انضمت اسبرطة وأثينا وغيرهما من المدن فأصبحت اليونان ، ووضعت اليونان هذه قوانين ، وقواعد تكفل لأهلها جميعاً أكبر حظ مستطاع

من النعمة والسعادة ، وكما أن إيطاليا المختلفة انضمت فأصبحت روما العظمى وأصبحت إيطاليا ، وكما أن هذا التوسع وقع لكل أمة من الأمم فانفسحت حدودها وامتدت آفاقها ، كذلك الفكرة الإنسانية تنظر إلى هذه المجموعات القومية وتضعها كلها أمام العاطفة ، وأمام العقل فى صعيد واحد ، وترجو أن ترى بينها من الوئام والسلام ما بين أهل الأمة الواحدة . وإذا كان نظام كنظام الأمة الواحدة غير مستطاع بالنسبة للإنسانية فى ترامى أطرافها ، فإنه من الممكن فى عرف هؤلاء العظماء أن تجمع قواعد المودة والألفة والتسامح والإخاء بين الناس جميعاً فى صورة عملية ، كما جمعت بين الأمة الواحدة فى صورة عملية كذلك .

ليس إذن بين الفكرة القومية ، والفكرة الإنسانية هذا التناقض الذى يتوهمه بعضهم ، ويبالغ فيه إلى حد يرى معه التعصب لإحدى الفكرتين على الأخرى . والحقيقة أن التطور من الفكرة القومية إلى الفكرة الإنسانية إنما هو تدرج من حكم الفطرة المتأثرة بما فى طبيعة الجماعة من الخوف ، والرهبة ، وما يدفعان إليه من الحرص على الاحتفاظ بالحياة المادية إلى حكم العقل المهذب بالعاطفة المتسامى معها إلى عليا الدرجات الدافع إلى الاحتفاظ بالحياة النفسية فى سموها وطهرها . والفطرة ، والعقل ، والعاطفة ، والحياة المادية ، والحياة النفسية كلها بعض مظاهر هذا الوجود ، وكلها لذلك لا يمكن أن تتناقض وإن بدت مختلفة متباينة .

وهذه الفكرة الإنسانية التى دعا ويدعو العظماء إليها قد ظلت تنمو مع الزمن وتنتقل من كونها نظرية مجردة لا يتحقق لها فى العمل حتى هذا العصر الأخير الذى بدت فيه آثار تحققها بصورة عملية ، وأوسع خطوة فى سبيل تحقيقها هى خطوة تأليف عصبة الأمم ، وما قامت به العصبة من الأعمال يدل على أن الفكرة ترسخ أقدامها وتثبت ثبوتاً مطرداً . ذلك بأن العصبة لم تقف جهودها على ما كان يتصوره البعض من المساعى السياسية فى سبيل تأييد السلام ؛ بل وجهت هذه الجهود إلى ناحية إنسانية تتناول إلى جانب السلام شئون الإنسانية كلها فى نواحى حياتها المختلفة . وإذا صح أن كانت المساعى التى بذلت ، وتبذل من جانب العصبة فى الشئون الاجتماعية إنما تتصل بحياة الإنسانية المادية وبسلامها، فإن ما تبذله من الجهود فى الناحية العقلية إنسانى بحت ، وهو لا يقل فى بعد أثره ودفعه بالحياة إلى ناحية أسمى مما تعارف الناس عليه حتى اليوم ، عن مجهودها فى حفظ السلام المادى بين الأمم .

وليست العصبية هى الأثر الوحيد للفكرة الإنسانية وجهاد العظماء فى سبيل تحقيقها ، وتوطيدها. فاتفاقات التحكيم الأخيرة ، وما ينتظر أن تنتجه من تمكين السلام فى ربوع العالم ، والتمكين بذلك للجهود فى سبيل الفكرة الإنسانية السامية أن تؤتى كل ثمراتها ، هى كذلك بعض نتائج هذه المجهودات القيمة التى قام بها العظماء .

وتتضافر العناصر على تقوية هذه الفكرة وتأييدها ، ولعل أقوى هذه العناصر وسائل الانتقال السريع التى قربت بين أجزاء العالم ، ويسرت لذلك سبل التفاهم ، ومهدت للقضاء على أسباب التعصب ، وكل قضاء على أسباب التعصب يؤدى حتمًا إلى انتشار المودة ، والمحبة ، والإخاء بين الناس ، وإلى زيادة الفكرة الإنسانية رسوخًا وثباتًا ، ويجعل لجهاد العظماء فى سبيل هذه الفكرة قيمته ؛ ولهؤلاء العظماء على الإنسانية الفضل أولاً وآخرًا .

المرء ووقت فراغه (*)

لن يمل الإنسان الإشادة بذكر العمل وفضله ، وكل عمل لذاته شريف . على أن عملنا الذى نكد فيه ، ونجدّ لا يستغرق من حياتنا ثلثها أو ربعها . فالعامل الذى يشتغل بيديه ثمانى ساعات فى اليوم يجد ثمانى ساعات أخرى خالية من العمل غير ثمانى الساعات التى يحتاج جسمه إليها للنوم ، وكلما تقدمت بالناس السن قلّت ساعات نومهم فزادت تبعًا ساعات فراغهم . وكثيرون لا يقتضيهم عملهم لسعى الحياة ثمانى ساعات ، بل يكتفون بست ساعات ، أو بخمس ، فأوقات الفراغ تزيد إذن على أوقات العمل وقد تصل إلى ضعفها ، فإذا نحن أضفنا إلى هذه الأوقات ما تناله من أيام الراحة الأسبوعية ومن الإجازات السنوية ، كانت أوقات الفراغ هذه هى القسط الأوفى من حياة الإنسان .

وقد تعود الناس أن يعتبروا أوقات الفراغ هذه وكأنها ليست من حياتهم ، أو كأنها فى حكم الساعات التى نقضيها نيامًا ، وغلا آخرون فاعتبروها معوانًا على الفساد ، حتى لنذكر جميعًا هذا البيت من الشعر :

إن الشباب والفراغ والجدة   مفسدة للمرء أى مفسده

وعندى أن قائل هذا الرأى مخطئ ، وأن أوقات الفراغ هى أثمن أوقات الحياة ، هى التى يستطيع الإنسان فيها أن يكوّن نفسه ليصبح إنسانًا فلا يبقى مجرد تكرار للوحدة الإنسانية التى لا تتميز عما سواها ولا تمتاز عن غيرها ، فالغذاء العقلى ،

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٢١١ ، بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٣٠ - وهى محاضرة ألقيت بالجامعة الأمريكية .

والخلقى الذى نتلقاه شأنه منا شأن الغذاء الجسمى سواءً بسواء ، فكما أن هذا الغذاء الجسمى لا يفيد الجسم ، إلا بمقدار حسن هضمنا له ، وإلا بمقدار ما يأخذ الجسم ، ليستفيد مما تمثله منه ، وليقوى برياضته ، ويستعد للنضال فى الحياة ، كذلك لا يفيدنا الغذاء العقلى والخلقى الذى نتلقاه إلا بمقدار رياضتنا لأنفسنا ، لنتمثله فيصبح جزءاً منا تكبر به نفوسنا ، وتعظم قلوبنا ، كما يكبر جسمنا ، ويقوى بالغذاء الذى يهضمه ويتمثله ، ولا سبيل إلى تمثل الغذاء العقلى والخلقى إلا بمداومة التأمل فيه وتقليبه على مختلف وجوهه ونواحيه حتى يصبح بعض تفكيرنا نحن ، وبعض خلقنا نحن ، بدل أن يكون مجرد عارية محفوظة عندنا كل غايتنا أن نستفيد منها لحياتنا اليومية .

ثم إن كثيرا من المعارف ، والأفكار ، والنظريات العلمية ، والخلقية التى نتلقاها ، أو نقرأها فى الكتب ، أو توحيها إلينا مناظر الكون ، وأحاديث الأصدقاء لا تتصل بعملنا اليومى ، ولذلك نرى الكثيرين ممن لا يجدون لأوقات فراغهم قيمة أكثر من أن تقضى فى الدعة والطمأنينة ، أو نُسخّر لقضاء الأهواء والشهوات ما يكادون ينقطعون عن دراساتهم التى يضطرون خلالها اضطراراً لمراجعة الآراء والمعلومات كى يحصلوا على الدرجات المطلوبة لجواز الامتحان ، هؤلاء الكثيرين سرعان ما تصبح عندهم هذه المعارف والنظريات نسياً منسياً ثم لا يبقى لهم من معارفهم إلا ما تقتضيه الصناعة التى يزاولونها لكسب قوتهم اليومى . ولهذا السبب نراهم تضيق دائرة تصورهم الحياة إلى حد يصبحون فيه سجناء هذا الكم القليل من المعارف الضرورية ، ويصبح فيه اتصالهم الإنسانى معدوماً أو شبه معدوم ، وتصبح كل قيمتهم الإنسانية ، هذه القيمة الضيقة التى يمثلها كم المعلومات الضئيل ، مضافاً إليه وسائل تافهة لإرضاء بعض شهوات الإنسان لإضاعة وقت الفراغ فى استيفائها.

ولا يزيد على هؤلاء كثيراً فى قيمتهم أولئك الذين يقرأون ، أو يسافرون يرون الأقطار المختلفة ، أو يستمعون للحديث النافع ، وكل غرضهم من ذلك قطع الوقت كما يقولون ، هؤلاء إذا أمسكوا بكتاب تصفحوه كان غرضهم من هذا إضاعة ساعة ، أو ساعات بنسيانهم أنفسهم فى تقليب صفحات الكتاب، كما ينسى لاعب النرد نفسه ساعة لعب النرد مثلاً . وهم إذا مروا بما يمرون به من صور ومناظر أثناء سياحاتهم لم يكن همهم من النظر إليها ، إلا إرضاء شهوة خاصة ، هى شهوة قطع الوقت

والاستعانة على ملل الحياة . ولن يعدو ما يفيده هؤلاء لأنفسهم ما يفيده الطراز الأول من الناس ، فإن شخصيتهم الإنسانية لا تربو ولا تنمو بمطالعاتهم ومشاهداتهم ، لأنهم لا يحاولون تمثلها بمجهود كالمجهود الذى تقتضيه الرياضة البدنية لحسن تمثل الغذاء الذى يناله الجسم ، وهم لذلك يبقون أكثر الأحيان وحدات تتكرر من صورة الجماعة لا يميزها مميز ، ولا تمتاز عن غيرها فى كثير .

والسبب فى هذا يرجع إلى أن الحقائق ، والنظريات ، والآراء التى تلقى لنا أثناء دراساتنا ، أو أثناء مطالعاتنا ، لا يمكن أن تصبح حقائق بالنسبة لنا إلا بعد أن نمتحنها ونقلبها ، ونميز أوجه القوة وأوجه الضعف فيها ، ونؤمن بما يلهم الإيمان به منها ونفصل ما يهدينا بحثنا إلى زيفه عنها . إلى هذا الحين لا تكون الحقائق حقائق بالنسبة لنا ، وإنما تكون سبل هداية أرشدنا إليها غيرنا ، حتى نصل منها إلى الغاية إذا نحن حاولنا هذا الوصول باستثمار أوقات فراغنا فى التأمل والتمحيص ، وما مَثَلُها قبل أن نمتحنها ونمحصها إلا كمثل الطريق يخبرك المرشد أنه يصل بك إلى ناحية معينة ، على أن تظل حافظاً أن هذا الطريق يصل إلى هذه الناحية ، ولكن ماذا فى الطريق من جميل تراه ووعر تتقيه ؟ وما هذه الجهة التى يصل الطريق بك إليها ؟ لن تستطيع إلى ذلك معرفة حتى تسلك الطريق بنفسك ، وترتاده فى أناة وعلى مهل ، وتجتلى ما قد يحيط بك من جمال وتتقى ما قد يكون فيه من مخاطر ، فإذا وصلت بعد ذلك إلى الجهة التى يصل الطريق بك إليها ، ودرت فى أنحائها ، وعرفت نواحى عمرانها المختلفة ، كان لك بعد ذلك أن تقول إنك تعرف الطريق وتعرف كل ما فيه ، وإنك قد أفدت لنفسك فعلاً من هذه المعرفة .

كذلك الأمر فى الحقائق التى تلقى إلينا أثناء الدراسة على أنها حقائق ، والتى نطلّع فى الكتب عليها معتبرين إياها حقائق كذلك . يجاهد أساتذتنا كى يكشفوا لنا عن طرق الوصول لهذه الحقائق وعن مختلف مناحيها ، ويدخلون إلى روعنا أنهم أقنعونا تمام الإقناع فى شأنها ، وكذلك يفعل الكاتب الذى يجلى لنا رأياً من الآراء العلمية أو الخلقية أو الفنية ، لكنا أثناء الدراسة وأثناء القراءة فى ساعات الدرس والعمل ، إنما نرى بعين الأستاذ أو الكاتب ، ونستمع بأذنه ، ونحس بقلبه ، وتبقى الحقيقة أو الفكرة لذلك عارية عندنا ليست مملوكة لنا ، فأما إذا نحن توفرنا فى أوقات فراغنا على تمحيصها

لأنفسنا ، والنظر إليها بعيوننا ، والبحث فيها على طريقتنا ، فاهتدينا بعد ذلك إلى الإيمان بها كما هى ، أو مع تحوير يتفق مع طبيعة نفوسنا ، ويلائم تكوين عقولنا، إذن فقد أصبحت الحقيقة أو النظرية ملكنا نحن وحدنا فى غنى عن العارية التى أعارنا إياها الأستاذ أو الكاتب بعد شكرنا إياه على أن فتح أمامنا الأبواب لسلوك الطريق إلى هذا الملك .

كلما زادت بضاعتنا المملوكة لنا عن طريق التأمل والتدبر فى أوقات فراغنا ، كنا أكثر بالحياة اتصالاً ، وأقوانا على الحياة ، وأقدرنا على الاستفادة منها ، وإفادة الناس فيها أكثرنا بها اتصالاً . والإنسان وحده دون سائر الحيوان ، هو القدير على هذا الاتصال ، ولكنه لا يتأتى للذين حصروا نشاطهم من الحياة فى الدائرة الضيقة التى تكفل لهم الحياة المادية ، والقوت لبطونهم وبطون ذويهم ، إنما يتأتى هذا الاتصال للذين يعملون مثابرين لاكتناه كل حقائق الحياة وكل صورها ومظاهرها ، والذين يصلون منها بذلك لكى ترتسم فى نفوسهم بكل ألوانها وشكولها حتى يصدق عليهم أن قد انطوى فيهم العالم الأكبر ، هؤلاء وحدهم هم الذين يوجهون الحياة والناس فيها ، وهم الذين يستطيعون مغالبة الضعف الذى يغزو بعض النفوس لأنها لم تصل إلى الإيمان بالحقيقة التى تدعو إليها.

والواقع أن كثيرين ممن تميل بهم حياتهم إلى نواح من الضعف الخلقى ، والذين ينزلقون لذلك إلى ما هو فى حكم الجريمة ، بل إلى الجريمة ذاتها ، هم ضعاف النفوس بسبب عدم توفرهم فى أوقات فراغهم على محاربة الضعف بالعمل المتصل ؛ للاتصال بالحياة اتصالاً يجعلهم أصحاب السلطان عليها والتحكم فيها .

فأما الذين يتصلون بها ، وتزداد نفوسهم نمواً وقلوبهم عظمة بهذا الاتصال ويدركون من طريقه حظًا من الحقيقة موفوراً ، فأولئك ينتهى بهم اتصالهم إلى اختيار مثل أعلى يدعون إليه ليجعلوا من ذويهم وبنى قومهم من يصلون من الحياة إلى مثل ما وصلوا هم إليه . ولأضرب لذلك بعض الأمثال علّها تزيد ما أقصد إليه من معنى الاتصال بالحياة وضوحًا ، وتبين الغرض من استثمار وقت الفراغ للمزيد فى هذا الاتصال .

كان المرحوم قاسم أمين قاضياً ومستشاراً بمحكمة الاستئناف ، وكان له من جاه المنصب وسلطانه ما كان يمكن له من المتاع بكل ما يطمع الناس فى المتاع به ، مما فى الحياة . وقد ترك من بعده، كرجل من رجال القانون مجموعة أحكام تكفى للدلالة على علو مكانته كقاض واسع العلم غزير الإطلاع دقيق التقدير ، لكن العمل اليومى فى القضاء مثله مثل العمل اليومى فيما سوى القضاء له فائدته الكبرى، ولكنها فائدة محصورة فى منفعة الحاضر الذى تعيش فيه الجماعة ، وليس من شأنه أن يدفع بها إلى الأمام أو يسير بها إلى ما تصبو الإنسانية إليه من صور الكمال . لذلك لم تقف همة قاسم عند عمله فى القضاء مع أنه لو وقف عنده لأتيح له أغلب الأمر أن يصل إلى أرفع المناصب ، ويستمتع بأعرض الجاه وأهم النفوذ فى حياته . لم تقف همة قاسم عند عمله فى القضاء ، وراح يستلهم كل ما فى الوجود من صور يزيد بها فى كم حياته حتى أشعرته قوته وملكه للحياة بالواجب عليه فى أن يعمل لمعونة مواطنيه بالدعوة إلى مثل أعلى ، وكان هذا المثل الأعلى هو ما دعا إليه فى كتابيه : "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" . كان هذه الصيحة الصادقة إلى حرية العلم ، وحرية التهذيب ، وحرية العاطفة حرية تشترك فيها المرأة مع الرجل اشتراكاً صحيحاً .

وإذا كنا نحن اليوم ، وكان شباب هذا الجيل بنوع خاص لا يشعر بما كانت عليه هذه الصيحة من قوة يوم ارتفع بها صوت قاسم فى سنة ١٨٩٩ ، فذلك لأن الدعوة أثمرت ، والفكرة تحققت ، ولم يبق من عقبة تحول دون الغاية التى اعتبرها قاسم مثلا يدعو إليه ويطلب تحقيقه . وهذه الصيحة كانت ثمرة من ثمرات أوقات فراغ قاسم غير متصلة بعمله فى القضاء على أى اتصال . كانت من أثر التقليب الحقائق والصور التى وقعت عليها عينه أثناء دراسته فى أوربا ، كما وقعت عليها عيون كثيرين ممن درسوا مثله وشاهدوا ما شاهد ولكنهم لم يحاولوا ما حاول من تقليب الأشياء والتأمل فيها والعمل على تمثلها ، لتكبر نفوسنا بها ، وتصبح بعض مظاهر إيماننا الذى يدفعنا لنبثه فى نفوس الناس ، وتعمل الجماعة على اعتناقه كما اعتنقناه .

وهذه الفكرة التى كانت ثمرة من ثمرات أوقات فراغ قاسم ، والتى أحدثت ما أحدثت من انقلاب عظيم فى حياة مصر والشرق تذكرنا بأن كل فكرة عظيمة خطت بالإنسانية خطوة جديدة ، إنما كانت ثمرة من ثمرات أوقات الفراغ لأحد العظماء .

وقد يكون مدهشاً أن يكون ذلك هو الشأن فى أمر المسائل العلمية كما هو الشأن فى أمر المسائل الفنية ، والأدبية ، والشعرية ، والاجتماعية . فالعالم الذى يتوفر على تدريس علم معين لطلابه ، والذى يمتاز فى كثير من الأحيان بدقة التدريس كثيراً ما تنقضى حياته العلمية من غير أن يكون قد أبدع فى العلم جديداً ، لأن فكرة من الأفكار لم تحتل بصفة خاصة موضع التأمل منه لتفتح أمامها الطريق لحقيقة جديدة يكشف عنها ، ذلك بأن عمله اليومى يستنفد من مجهوده ما لا يبقى له من القوة فى استثمار أوقات فراغه بحيث يستطيع إبداع الجديد . وقد يكون عالم آخر أقل توفراً من صاحبه على التدريس ، ولكن أوقات فراغه تكون مشغولة أبداً بامتحان ما يقع عليه ، وما يجد موضعاً للبحث الجديد والتأمل المستمر فيه بحثًا وتأملاً يهديانه إلى حقيقة جديدة يكشف الستار عنها ويضيف بها للثروة الإنسانية العلمية حظًا جديداً . وبديهى أنه إذا صدق هذا فى شأن العلم فصدقه أكثر وضوحًا فى شؤون الاجتماع ، والأدب ، والشعر ، والفن . ذلك أن وقت الفراغ إذا استغل أخصب الخيال ودفعه إلى الخلق ، والابتكار . والاجتماع والشعر والأدب ، والفن بحاجة إلى خلق ، وابتكار مستمرين ليكون لها من الجدة ما يكفل حسن سير الإنسانية فى سبيل الكمال.

بل إن الرسل الذين أنزلت الأديان وحياً عليهم ، إنما أدبهم ربهم وأعدهم لرسالته لا من طريق عملهم ، ولكن فى أوقات فراغهم . وهذا محمد عليه السلام كان أول نشأته تاجراً، وكان يسافر كما يسافر غيره من التجار الذين يقصدون الشام ، أو اليمن للمزيد فى ثروتهم وفى رزقهم ، لكن محمداً كان يفيد من أوقات فراغه على خلاف ما يفيدون ؛ شغل ذهنه بالبحث عن الحقيقة ، والتماسها من أفواه من كان يفد عليهم أثناء تجارته من العلماء وغير العلماء . وجعل يقلب هذه الحقائق التى يدلونه عليها حتى بلغ كماله ، واستعد لتلقى الرسالة التى أوحاها الله إليه ليبلغها للناس هدى وبشرى للمتقين . وفى هذه الرسالة يدعو الكتاب العزيز فى مواضع كثيرة إلى التأمل فى خلق الله ، وإلى بحث ما يقع عليه النظر وما يتصل بالحس ، والسعى لمعرفة الحقيقة التى يدل التأمل عليها . وهذا التأمل لا يتأتى بطبيعة الحال فى أوقات العمل للعيش ، وكسب الرزق ، ولكن فى أوقات الفراغ التى يتمكن من يعرف كيف يستثمرها من بلوغ المزيد من اتصاله بكل ما فى الحياة ، وإلى مداومة التأمل فيه للوصول إلى الحقيقة والدعوة من طريق هذه الحقيقة إلى مثل أعلى يحققها ويقرب الإنسان من طريقها خطوة جديدة إلى الكمال .

إذا وجب توجيه الدعوة لاستثمار أوقات الفراغ إلى الناس جميعًا ، فتوجيهها إلى الشباب أشد وجوبًا . ذلك بأن أوقات الشباب أوسع ، وتطلعهم للحقيقة وحرصهم على الوصول إليها يجب أن يكون أشد وأقوى . فالرجال الذين نضجت بهم السن مشغولون أكثر الوقت بما لا يشغل الشباب به ، عليهم تبعات أهلهم وأبنائهم وذويهم ، ورخاء هؤلاء وطمأنينتهم ، وهم معرضون إلى ألوان من الهم لا يتعرض الشباب لها ، بل لا يعرفها ، قد يقض حادث مضجع رجل ويحطم فى نفسه كثيرًا من القوى ما كان أحوجه إليها لعمله ولتأمله وتدبره ، فأما الشباب فنادر أن تفجأهم الحوادث والمشاغل بما تفجأ الرجال به وأوقات فراغهم لذاتها أوسع ، وهم على استثمارها أقوى ، فواجب عليهم كل الوجوب إن هم أرادوا أن يكونوا ذوى مكانة إنسانية وألا يكونوا أعدادًا تتكرر لا يميزها على غيرها مميز ، أن يعملوا فى أوقات فراغهم ليتصلوا بالحياة اتصالاً تنمو به نفوسهم وتكبر قلوبهم ، ويملكون الحياة على أثره ملكًا يمكنهم من أن يؤدوا لأوطانهم وللإنسانية كلها أَجل خدمة بالدعوة إلى مثل أعلى فى أية ناحية من نواحى الحياة .

يقولون : إن العظمة فكرة يهتدى إليها الشاب وتنفذ إبّان الرجولة . ولا سبيل إلى الاهتداء لفكرة إلا أن يصبح الشاب ملمًا بتفكير غيره محيطًا بمختلف نواحيه عارفًا مواضع الضعف والقوة فيه، هنالك يستطيع استنباط فكرة جديدة تكون له هو ويعتبرها مثلاً أعلى يسعى إلى تحقيقه فى حياة الأمة التى يعيش فيها. والأمم فى حاجة إلى كثير من المُثل العليا ، لتتمكن من السعى فى سبيلها للتقدم خطوات متتابعة نحو الكمال . وكل جيل من الأجيال يحقق طائفة من الأفكار وينفذها فى رجولته ، يخلق من بعده ، بطبيعة دوام التجدد فى الحياة ، دوافع لبعث أفكار جديدة تكون المُثل العليا للجيل الذى بعده يهتدى إليها هو أيضا من طريق مداومة التفكير فى أوقات فراغه . فعلى الشباب إذن واجب لأنفسهم ، ولأوطانهم ، وللإنسانية ألا يضيعوا أوقات الفراغ سدى ، وأن يستثمروها لتتكون شخصياتهم أولاً ، ولتنضج الأفكار التى يعتبرونها مُثلهم العليا ثانيًا ، وليعملوا على تحقيق هذه المُثل العليا إبان رجولتهم ، ولن يقعد بشاب أن غيره سعى سعيه ، فقد لا يهتدى إلى الفكرة التى يهتدى هو إليها . فإنه محال أو يكاد يكون من المحال أن تتطابق فكرتان تطابقًا تامًا. ذلك بأن للناس الذين يُربون تربية واحدة ويتلقون علومًا واحدة وميولاً مختلفة تجعل أحدهم ينحو نحو إصلاح اجتماعى

كمـا فعـل قاسم أمين ، وتجعل آخر ينحو نحو المثل الأعلى فى الأدب ، أو فى الفن ، أو فى العلم ، أو فى الصناعة ، والتجارة والشئون الاقتصادية ، وهلم جرا. هذه الأفكار التى تبدو مختلفة ، وقد يبدو بعضها متناقضًا متضاربًا ، هى التى يكون بتضافرها وتضامنهـا قـوة الجماعـة ، وهى التى تدفـع بهـا إلى ذلك السير الذى أشرنا إليه نحو الكمال .

فهل لنا أن نرجو أن يستمع شبابنا الأذكياء إلى هذا القول ، وأن يرى كل واحد منهم فى وقت الفراغ الذى يتاح له وقت التأمل والتفكير الذى يكفل له عظمة المستقبل ولوطنه المجد والسعادة ، وللإنسانية الرقى نحو الكمال ونحو السلام .

الحياة والموت

وموقف الإنسان منهما (*)

قلّ أن تتيح لى الظروف فى هذه الأيام حديثًا فى غير شئون السياسة ، وما يتصل بالسياسة من مصالح. وكثيراً ما تتصل مطالعاتى بهذه الشئون ذاتها ، ولعل ذلك يرجع فى كثير إلى اشتغالى بالحياة السياسية فى مصر ، كما يرجع إلى عملى الصحفى ، ثم لعله يرجع كذلك أو أكثر من ذلك إلى أن المجتمعات فى مصر لا حديث لها فى غير السياسة إلا ما اتصل بالمصالح الذاتية . فحديث المزارع زراعته ، وحديث الموظف علاواته وترقياته . فأما ما سوى هذا من شئون تتصل بحياة النفس أو نشاط العقل أو ألوان العاطفة أو مطارح الفكر أو نتائج القرائح فى العلم والأدب والفن فى مختلف أنحاء العالم، فمما يعتبر الحديث فيه إدعاءًا وغروراً ، كأنما ضرب على من لم يكن جاهلاً أن يكون داعيًا مغروراً ، وكأنما نكتة تقال فيضحك لها الحاضرون توازن كل نظريات الفلاسفة ، والكتاب ، وكل خيالات الشعراء والأدباء وكل ما فى العالم من ضياء الروح ، ونور القلب ، وهدى العقل ، ومتاع المشاعر.

على أنى حظيت يومًا من أيام الأسبوع الماضى بالتحدث والاستماع إلى سيدة جدد حديثها فى نفسى نواح من تفكيرى منذ سنين طويلة ماضية ، وألقى عليها ضياءًا جديداً . أما من حظيت بالتحدث والاستماع إليها ، فالسيدة الجليلة المحترمة هدى هانم شعراوى . وأما ما تناوله حديثنا فمما لا شك فى أنه سيكون مثار دهشة القارئ . كان معظم حديثنا دائراً حول الانتحار والموت ، وحول الموازنة ما بين آلام الحياة التى تزهدنا فيها ، وألوان النعيم التى تحببها إلينا ، ثم مبلغ ما يتعلق الإنسان بالحياة فى

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٢٣٩ ، بتاريخ ٤ أكتوبر ١٩٣٠

مختلف أطوار عمره ، وأسباب هذا التعلق . وقد صادف من بعد أن ذكرت أطرافًا من هذا الحديث لأشخاص رأيت ، فكان لما ضربوا من بعض الأمثال ، وما أثاروا من ألوان تفكير أخرى ما دعانى إلى أن أعرض لهذا الحديث الشيق اللذيذ تخالط لذته مرارة تجعله أساس مدخلاً إلى النفس وأعذب مساغًا فيها .

وأعترف بأن التفكير فى الانتحار والبحث فى أسبابه ليس بالأمر الحادث علىّ ، بل أعترف كذلك بأنى كنت أيام التلمذة من بين من دارت فكرة الانتحار بخواطرهم غير مرة ولأكثر من سبب ، فكنت إذا أخطأت فى عملى خطأ رأيته يوجب الاعتذار أسرعت فكرة الانتحار إلى نفسى ، حتى لأذكر ذات مساء ومازلت بالمدرسة الابتدائية إذ أخذت القدوم الذى كان يكسر به الخشب والفحم فى المطبخ ، وحاولت أن أضرب رأسى به ، وفى أثناء ترددى حيل بينى وبين مقصدى ، ولما دخلت امتحان الشهادة الثانوية فى سنة ١٩٠٥ صح عزمى على الانتحار إذا أنا لم أنجح ، وفكرت فى الطريقة التى أنتحر بها . وإذ كنا ندرس الكيمياء فى السنة الأخيرة من سنى الدراسة الثانوية فقد رأيت أن الكلورين يكفل نفاذ ما اعتزمت على نحو لا أحتمل معه ألمًا شديداً . ثم بدا لى بعد ذلك رأى آخر ، ذلك أن عدم النجاح لا يساوى انتحاراً كاملاً . وكنت إذ ذاك أتقن السباحة بمقدار ما يتقنها من كان فى مثل سنى يومئذ . فاستقر عزمى على أنى إذا لم أنجح عبرت النيل سابحًا ، فإما ضعفت فى الطريق فغرقت ، فكان ذلك الجزاء الوفاق لفشلى المزدوج . وإما نجحت فى محاولتى ، وعبرت النهر سابحًا فكان لى من هذا النجاح ما يستر فشلى فى الامتحان ، على أن المقادير لم تشأ أن ينفذ هذا العزم فنجحت فى الامتحان .

ولما سافرت إلى فرنسا لإتمام دراسة الحقوق كان بحث الانتحار من وجهة فلسفية بعض ما استهوانى ، وأذكر أنى راجعت فى الموضوع ، ورجعت إلى مصادر مختلفة فيه ، على أن أبسط تحليل له فى نظرى حينذاك أن الحياة سواء أطالت ، أم قصرت منتهية حتمًا إلى الموت . وفى الحياة وفى الناس من أسباب السآمة ، وموجبات الضجر ما يدعو الحكيم ليستعجل الخاتمة ، فيضع بالموت حداً لآلامه ، وموضع ضجره بالحياة وشكواه منها . وكنت أعتقد أن هذه الحجة بالغة من الإقناع غاية حدوده ، فكان يدهشنى غاية الدهشة أن يبقى الناس على حياتهم بكل ما يبدو منهم من حرص عليها وتعلق بها .

على أنى سألت يومًا صديقًا لى جاء يتمم مثلى دراساته العليا بباريس : ألم يكن قد فكر فى الانتحار ؟ وكم كان عجبى شديداً ودهشتى بالغة حين أجابنى : أن هذا الخاطر لم يرد ، ولا يمكن فيما يتوقع أن يرد بباله . هذا رجل مهذب النفس مثقف الذهن رقيق الشعور دقيق الحس ، يتألم من غير شك لما أتألم له مما فى الحياة والناس ، وهو مع ذلك لم يفكر قط فى الانتحار . ألا يدل هذا على أن الحجة التى سبقت إليها ليست من الإقناع بما قدرت لها ؟ . وزادنى انبعاثًا إلى العود للتقليب فيها أنى عرضتها على صديقى فلم يزد على أن ابتسم لسذاجتها ، وأن ذكر أنها تخالف كل قواعد الدين وتعاليمه . ورحت أفكر من جديد فيها وأمعن فى مراجعة ما كتب عن الانتحار . ولقد كان تضارب الآراء فى الموضوع مبعث حيرة حقيقية ، وإن كانت أكثر الحجج التى كنت أقع عليها مما لا يقنع عقلى المحتاج يومئذ كى يقتنع ، إلى أسانيد قوية واضحة كل الوضوح . ولم تكن حجة أشد مثاراً لعدم اقتناعى من قولهم إن الانتحار مبعثه الجبن . فكيف يكون جبنًا وهو صراع الحياة كلها والانتهاء بالتغلب عليها وصرعها؟ . كيف يكون جبنــًا وهو الانتصار على سليقة حب البقاء المركبة فينا ، والممسكة بنا كى نبدل ما فى الحياة من أسباب السأمة وموجبات التضجر ؟ . وإذا كانت الحياة نعيمًا ومتاعًا فكيف يكون الانتحار جبنًا وهو التضحية بكل هذا النعيم وهذا المتاع ؟ . أم يقولون إن ما فى الحياة من عناء ومشقة ، إنما هو الجلاد فى سبيل النعيم ، فالانتحار خور أمام الجلاد فقصور دون إدراك النعيم ، فجبن وخذلان فى الموقفين ، ولكن هل فى الحياة حقًا جلاد يصل بصاحبه إلى النعيم؟ هل هذا العمل للعيش ، وهذا التناسل والسعى للنسل ، واحتمال مر الأيام ، والسنين المتتابعة فى هذا العمل ، حتى يدركنا الموت هو الجلاد وهو النعيم ؟ وهل استطاعت الإنسانية خلال ألوف السنين ، وعشرات الألوف مما عاشت أن تصل إلى ما تجرى وراءه خلال هذا الزمن كله من سعادة ؟ أم أن كل جيل لا يلبث أن يرى السعادة حلماً عزيز المنال مستحيل التحقيق فيكتفى من الحياة بنصب الحياة تاركًا للأجيال التى تخلفه أن يصيبها من استحالة إدراك هذا الحلم ما أصابه ؟ .

وظللت سنوات أفكر فلا يهدينى تفكيرى إلى غير النتيجة التى وصلت أول الأمر لها . إذن فمن الإخلاص للنفس ، والاحترام للعقل أن أنفذ فكرتى . وكنت إذ ذاك مشغولاً بالتفكير فى المادة ، والروح ، وهل هما شيئان مختلفان ، أم هما شىء واحد نسميه

روحًا فى إحدى صوره ومادة فى صورة أخرى ، كما نسمى الشىء الواحد ثلجًا وماء وبخارًا ، والثلج والماء والبخار لا اختلاف بينهما إلا فى درجات حرارتها ، وإلا فى صورة الجمود ، والسيولة ، والهوائية . وكنت إذ ذاك أميل للاعتقاد بأن المادة ، والروح يستحيل إنفصال أحدهما عن الآخر ، وأنهما شىء واحد ، وأن ما نسميه الفناء سواء للجماد ، أو النبات ، أو الحيوان ، ليس إلا صورة من صور التحول ينتقل بها الشىء إلى نظيره ، أو إلى شىء آخر بإضافة عناصر جديدة للشىء الأول ، أو انتقاص بعض عناصر منه . فإذا كان ما يصدق على الحيوان يصدق على الإنسان ، وكان هذا الجسم إذا تحلل بالموت استحال فى صور أخرى من الحياة ، فماذا عسى تكون الاستحالات التى يحول إليها جسمى بعد تحلله ؟ وهل تكون هذه الاستحالات خيرًا من الحياة الإنسانية فى أتعس صورها أو تكون شرًا منها على كل حال ؟ .

أمام هذا الوضع للمسألة وقفت موقف المتردد ، هب جسمانى استحال حيوانًا فهل الحيوان أسعد بالحياة من الإنسان ؟ وهبه استحال نباتًا أو جرى ماء أو جمد فى صخر أو تبعثر وتوزع فى كل من هذه الصور جميعًا ، فهل يكون خيرًا مما هو ذلك اليوم يوم كنت أفكر فى هذه المسألة ؟ . وأمام هذا التردد نضبت من نفسى صورة الانتحار على أنه بعض ما يدعو إليه المنطق ، وتملى به الحكمة ، ولم أجهد نفسى بعد ذلك لأفكر فيما إذا كان الانتحار لفشل أو خذلان أو نحو هذا مما يجوز أو لا يجوز . وأخال اليوم أن المسألة ليست مسألة تفكير ، ولكنها مسألة شعور وأعصاب . فالذى يفّضل هوان الحياة على الموت له من شعوره ومن أعصابه عذره . والذى يفضّل الموت انتحارًا على هوان الحياة له منها عذره . ومن المغامرة فى التفكير وفى التقدير أن يوصف أحدهما بأنه شجاع ، وأن ينعت الآخر بأنه جبان .

ولكن ذلك لا يحل المسألة حلاً تامًا. فإذا لم يكن الانتحار جبنًا ولم يكن شجاعة ، أفيكون الخوف من الموت ، والحرص على الحياة جبنًا أم شجاعة ؟ أحسب أن لا محل للكلام عن الجبن وعن الشجاعة هنا أيضا ما دام الأمر محصورًا فى دائرة التفكير . وأحسب أن الأقلين جدًا هم الذين يطرحون هذا السؤال على أنفسهم ، ويحاولون مواجهة فكرة الموت . فهذه الفكرة لذاتها تتنافى مع غريزة الاحتفاظ بالحياة ، ومن أجل ذلك كان الكثيرون يرون طرح هذا السؤال أمرًا لا فائدة منه . على أن هذا السؤال كثيرًا

ما يطرحه الأفراد متحدثين عن غيرهم ، وعند ذلك تراهم يضعون القواعد يضيفونها إلى أسباب معينة ، ويرتبون عليها نتائج معينة . ومن ذلك مثلاً ما يكاد يجرى مجرى العقيدة العامة من أن الشيوخ أكثر فزعًا من الموت وأكثر حرصًا على الحياة من الشبان . ولعلنا إذا عرضنا إلى هذه الفكرة الشائعة بشيء من التحليل نستطيع أن نواجه المسألة كلها مواجهة أدنى إلى الحقيقة ، وأكثر توضيحا لسبيل الحكمة .

وأكبر ظننا أن هذه الفكرة الشائعة لا تستند إلى الحقائق المادية بمقدار ما تستند إلى شعور يحسن إيضاحه . ولجلاء هذا الإيضاح نسبق إليه بمثل اعتاد المقامرون أن يقولوا إن الرجل الكثير المال أدنى إلى الربح من قليل المال . ويظهر أن التجارب تؤيد هذه الفكرة فى جميع ألوان القمار ، فلاعب الورق ، والمضارب فى البورصة يستويان فى أن ذا المال الكثير أدنى إلى الربح ، وتفسير هذا بسيط كل البساطة ، فكثير المال لديه فرص أكثر من قليله ، بحيث أنه لو خسر مرة ومرة استطاع بما لديه من بقية ماله أن يربح فى مرة ثالثة أو رابعة أو عاشرة فيعوض على نفسه خسارته . أما قليل المال فليست هذه الفرص كثيرة أمامه . يضاف إلى هذا أن نفسية ذى المال القليل تضطرب للخسارة ، وتتزعزع من مخافة أن تستنفد كل المال الذى عنده فلا يبقى عنده إلى المقامرة من سبيل ، أو يضطر إلى الاقتراض فيعرضه ذلك إلى ما هو شر من الخسارة . ولو أن ذا المال الكثير تصور فرضًا ممكنًا تمام الإمكان ويقع فى كثير من الظروف فرض توالى الخسائر عليه حتى ينفد كل ما معه ، ويصبح شأنه شأن ذى المال القليل سواء لكان أشد من هذا الأخير جزعًا وانزعاجًا . كذلك الشاب والشيخ . عند الشاب وفرة من الحياة يحسب أن لا نفاد لها ، فهو لا يخشى الحياة ، ولا مفاجآتها، ويتصور دائمًا أنه الرابح فيها ، وأن شبح الموت المزعج لا سبيل له إليه . ويظل ذلك شأن الشباب ما دام معتقدًا أنه يستطيع مغالبة المرض والتغلب عليه ، لأن ذلك معناه مغالبة الموت والتغلب عليه . فإذا تولى اليأس الشباب ، وقل أن يقع ذلك إلا فى حالات تسبق الموت بسويعات ، كان جزع الشباب وخوفه من الموت أضعاف جزع الشيخ وخوفه فى مثل هذه الحال ، بل لعل لفظ "أضعاف" لا يعبر عن الفرق الهائل بين شعور أحدهما وشعور الآخر .

والمشاهد المحسوس يؤيد هذا المعنى التصويرى ، وينقض الفكرة العامة . فجنازة الشباب أشد حرارة ، والفجيعة فيهم أبعث للألم لنفس من عرفهم ومن لم يعرفهم .

وإنك لترى على وجوه المشيعين شبانًا أو شيوخًا هذا الإحساس مرسومًا بوضوح وجلاء . وليس يمنع الشيخ أنه شيخ من أنه يظهر الأسف الصادق على شباب هصره الموت هصراً . وهذا واضح فى الدلالة على أن الناس جميعًا شيبًا وشباب أشد فزعًا أمام هول الموت يغتصب الشباب ويتغلب عليه ، بل لقد كان من معروف بعض الجهات فى أقاليم مصر ، وما أدرى هل هذه العادة ما تزال باقية ، أن يغنوا غناء الحجيج للمتوفى وافى العمر ، ويعتبرون البكاء والعويل غير لائقين بجلال السن التى انتقل فيها إلى جوار ربه ، وإذا لم تكن هذه العادة فاشية فى كل النواحى ، فهى تعبر عن الشعور الطبيعى والمعقول ، وتدل على إحساس الناس بأنباء الموت فى أعمارهم المختلفة .

ولهذا الشعور تأويل طبيعى له مظهره فى الإنسان ، كما أن له هذا المظهر بعينه فى كافة الأحياء. فكل حى تم نموه يتصل من الحياة بكل ما تتيح له فطرته وملكاته أن يتصل به منها . ويظل هذا الاتصال قويًا وثيقًا يجعلنا ننبض بكل ما ينبض فى الحياة بلون من الإحساس فيه قوته . فإذا توالت علينا السنون بدأ هذا الاتصال بالحياة يضعف شيئًا فشيئًا . فهذا المغرم بالطعام المتقن طهيه يبدأ يحس بأنه أقل على الطعام إقبالاً وأقل للطعام شهية . وهذا الذى كان لا يحول بينه ، وبين المتاع بالطبيعة ، وجمالها مجهود بالغ ما بلغت شدته يبدأ يفتر فيه هذا الغرام ، إلا أن يكون فى فترات تعاوده فيها ذكريات الشباب تجدد فيه ما يكاد يندثر من صلاته بالحياة . وهذا المولع بالقراءة وبالتفكير يعود يقلب ما كان يقرأ من قبل ، ويعيد النظر فيما سبق له التفكير فيه ، ثم لعله آخر الأمر ليكتفى من ذلك بالقسط الذى كان يراه من قبل أتفه من أن يقف عنده ، ويستمر هذا الانفصال بين الحى والحياة دائبًا على مهل وفى بطء وتريث ، ولكنه يظل دائبًا من غير انقطاع . صحيح أن هذا الإنسان يكون قد أنتج فى مختلف أدوار نشاطه فى الحياة ما يغتبط إذ يراه فى شيخوخته – سواء أكان ما أنتج نسلاً أم مالاً أو علمًا أو فنًا أو أدبًا . لكن هذه الثمرات تتصل هى بالحياة على حين ينفصل هو عنها ، وقد كان العرب يعبرون عن هذا الانفصال تعبيراً ماديًا ، ولكنه واضح الدلالة على هذا المعنى حين كان أحد يسأل صاحبه : ما بقى من لذاتك يا فلان ؟ فكأن ملذات العيش تتلاشى على الأيام ، حتى ليُسأل صاحبها عما بقى بعد الذى ذهب منها ، وبعبارة أخرى يُسأل عما بقى من اتصاله بالحياة بعد الذى انفصل منه عنها .

طبيعى أن يكون الخوف من الموت بمقدار ما يسلبنا الموت من لذات الحياة ، فإذا كانت الأيام قد سلبتها لذة بعد لذة فلم يبق منها إلا أن يقف الرجل من الحياة موقف المتفرج وكان شعوره بمغادرة الحياة أقل من شعور من لا يسلبه الموت إلا بقيمة قليلة من اللذة . فكيف إذن تجرى العقيدة العامة بأن الشيوخ أكثر خوفًا من الموت ؟ تأويل هذا بسيط هو أيضًا . ذلك أنهم أقرب إليه وأكثر ارتقابًا له. ومهما تكن بقية اللذة فى الحياة قليلة ، ومهما يكن الإنسان قد أصبح فى الحياة متفرجًا ، فإن الخوف من الموت فى هذه الحالة إنما سببه الخوف من المجهول ، من هذا الديجور الذى تتخطى إليه ساعة تغادر الحياة ، ونحن لا نعلم ما نحن ملاقون فيه . والمجهول مخيف دائمًا . ولو أنه عُرف لأقبل الناس عليه باسمين . فهل يصل العلم إلى الكشف عما بعد الحياة ؟ أم يظل هذا اللغز المعمى ، هو الذى يدفع الناس للتعلق بالحياة وحبهم إياها فلا يغادرونها إلا كارهين .

الشك (*)

Le Scepticisme

هل رأيت إنسانًا بلغ من الحياة غاية أمله أو تحقق له فيها كل مطمعه ؟ أم أن كل واحد منا يظل تحركه شهواته الرفيعة والوضيعة حتى إذا دنا من الموت كانت له مطامع لم تتحقق ، وغايات لم تُدرك . وكانت هذه المطامع والغايات أكثر تشعبًا وسعة كلما كان صاحبها أبعد همة وأكبر عزمًا .

فذاك الذى قضى حياته يجمع المال ، ويستثمره ، ويزيد فيه ، والذى بلغ من ذلك أن كانت له المزارع الواسعة والسلطان العظيم ، يشعر إذا دنا أجله بأن كثيراً مما كان يود أن يحققه ، لزيادة ثروته قد أخطأه أيام قوته ، أو قصر به الزمن عن دركه ، وهو يشعر بأن كثيراً مما كان يرجو أن يمتع به إلى جانب الثروة قد فاته لأنه لم يفكر فيه ، وأن هذا الكثير ليس أقل من الثروة قيمة لمن أراد كمال النعمة فى الحياة .

وهذا الآخر الذى قضى شبابه مكبًا على العلم وتحصيله منصرفًا عما يفيض به الشباب من لذة ونعيم ، لا يكاد يتنسم روائح خريف الحياة حتى يستشعر الندم على ما فرّط فى حق الملذات والنعم . أما صديقه الذى حصّل من الملذات الحظ الموفور ، فيرى بعين الأسف ما أضاع فيها من وقت كان أجدى عليه ، لو أنه حصّل أثناءه بعض ما حصّل صاحبه الأول من علم.

وذلك شأننا جميعًا فى الحياة . توجهنا شهواتنا إلى ناحية من نواحيها ، فإذا ارتفع عنا حكم هذه الشهوات فترة ورأينا ما فاتنا من سائر النعم تولانا الأسف والندم .

(*) مجلة الهلال ، نوفمبر ١٩٢٥

ولو أنا أتيح لنا أن نغترف من هذه النعم من قبل أن يتولانا الندم ، لعفناها إن كان لنا فيما تنهل منه شهواتنا راضية مطمئنة ما يكفى لسعادتنا ونعيمنا .

هذا الأسف على ما فاتنا من نعم الحياة المادية ، هو صورة من الشك فى استطاعتنا استيعاب ما فى الحياة المادية من حقيقة النعمة والمتاع والسعادة .

* * *

والآن فانظر إلى ذلك الجمع من الجميلات ذوات الفتنة ، إنهن جميعًا قد جلسن على عرش الحسن ، لكنك ترى نفسك أشد ميلاً إلى هذه الغضة الناعسة الطرف التائهة فى أحلام الهوى ، وأنت قد تعلقتها حتى نسيت جاراتها جميعًا بينما تعلق كل من أصحابك بجميلة غيرها ، فشغف واحد بممشوقة القد ذات النظرة النفاذة المملوءة حياة وسلطانـًا ، وشغف الثانى بصاحبة الجبين المصقول الممتلئ حكمة وروعة . وقد لا يكفى أحدكم أن ينسى جارات صاحبته ، بل لقد ينكر عليهن الحسن لأنه يريد أن تتفرد صاحبته به ولا يكون لغيرها منه نصيب ، فإذا أراد القدر أن يرفع عنكم حكم الهوى برهة من زمان ، وأن يهبكم حسن ذوق الجمال ونظر كل منكم إلى الجميلات جميعًا ، إذن لرأى أن لكل جميلة حظًا من الحسن لا يقل عن حظ صاحبته ، ولرأى أنه ظلم نفسه أن قصرها عند واحدة حبسها عليها .

وهذه صورة من الشك الذى يختلج نفوسنا فى أمر الجمال وتقديره .

* * *

ذوق الجمال والمال والعلم له دركه الأدنى ، ودرجه الأسمى ، فأدناه ما هدَت إليه فطرة الفرد أول خلقه ، وهو فى هذه يشترك مع ذوق الحيوان ، وأسماه ما وصل إليه غاية تقدم الإنسان فى الخير وفى الشر ، والذوق بين بدئه وغايته خاضع لشهوات الإنسان بمقدار مستقل عنها كذلك بمقدار وخضوعه واستقلاله يختلف ما بين فرد وفرد وأمة وأخرى . وهو أكثر للشهوات خضوعًا كلما كان أقرب للدرك الأدنى . فالمتوحش ومن كان فى حكمه ضعيف فى تذوق الجمال ، شديد الاندفاع وراء أية صورة من صوره، ضعيف فى حبه للمال شديد الاندفاع وراء ما قل أو كثر منه ،

ضعيف فى تلقى العلم مشوق غاية الشوق لما يستطيع أن يسيغه من بسائطه ، لكن غاية التقدم لا تقتضى حتمًا ضعف حكم الشهوة ، فمن الناس من يسيغ غاية ما بلغته الإنسانية من حضارة ، ثم هو يخضع فى ذوق ذلك الدرج الأسمى لشهوته التى أترفت هى الأخرى فتساوت بترفها مع غاية الحضارة .

من هؤلاء الغزاة والفاتحون ، ومنهم الداعون إلى المبادئ عن إيمان ويقين .

* * *

الفكر كالحس والعاطفة له شهواته ، والفكر يجعل كل ما فى الحياة من محسوس وغير محسوس صورًا يذوقها ، وأدنى ذوق الفكر لصور الحياة مجتمعة صورة بسيطة يؤمن بها إيمانًا ، وهو فى هذه الحال خاضع للشهوة التى تجعل له من هذه الصورة معبودًا ينظر إليه نظرة إلى تلك الغضة البضة الناعسة الطرف المرسلة الشعر التائهة فى أحلام الهوى . فهو ينسى كل صورة غير هذه الصورة التى يقدسها وينكر على كل صورة أخرى حق الوجود . فإذا قُدِّر للفكر أن يسمو إلى غاية ما وصل إليه تقدم الإنسانية أقر لغير صورته المقدسة بحق الوجود ، لكنه يظل ما دام خاضعًا لحكم شهواته مقتنعًا بأن فى سائر الصور نقصًا وفسادًا . فإذا أراد القدر أن يرفع عن الفكر حكم الهوى برهة من زمان ، إذن لرأى فى كل فكرة مقدارًا من الحق لا ينقص عما فى فكرته المحبوبة ، ولرأى فى هاته الأفكار جميعًا كما رأيت أنت فى أولئك الجميلات جميعًا أشعة من نور الحق لا تدرك الإنسانية موضع ملتقاها ، ولأيقن أن فى كل من هاته الأفكار غير الناحية المضيئة بشعاع الحق ناحية تسترها ظلمة تبعث إلى النفس شكًا فى قيمة الفكرة ، وتحفز النفس لجلاء هذا الشك ، فإذا لم تخضع الفكرة لشهوة ، ولم يدرك الذهن السأم ، فاندفع يقلب الأفكار واحدة بعد أخرى ؛ إذن لرأى لكل منها وجهًا مضيئًا وآخر مستورًا ضياؤه ، فنازعه الشك فيها جميعًا ، وهذا الشك يحفز الفكر ، ويشحذ الذهن لجلاء ما قد يكون فى الحياة من حقيقة سامية ، وهو يظل عند آخر حياة المفكر ذلك الندم الذى يشعر به جامع المال حين يرى فى آخر أيامه ، أنه لم يحقق كل غايته إن أخطأه شىء من التوفيق أيام قوته ، أو قصر به الزمن عن درك كل

ما كان يطمع فى دركه ، والذى يشعر به من أكب شبابه على العلم ففاتته لذائذ الحياة ، ومن حصل من لذة الحياة الحظ الموفور ففاته كثير من العلم .

وهذا هو الشك العلمى أو الشك الفكرى ، وهو "السيبتيسزم" .

* * *

والناس يتسامحون مع جامع المال أو لذائذ الحياة ، وقد يشاركونه فى الأسف على ما فاته ، ويقرون بذلك شكه المادى ، لكن الأقلين هم الذين يتسامحون مع من يلتمس فى كل فكرة وجهها المستور . ومن يشك لذلك فى كل فكرة ، ويرى أكثر الناس الشك نقصًا وضعفًا . فالحياة تحركها الشهوة ، والشهوة لا تعرف الشك . والذين يضعون كل رأى وكل فكرة موضع الشك يضعفون شهوات الحياة . فلو أن رجلاً وصل من شكه إلى قتل حكم الشهوات جميعًا عليه لفقد هو طعم الحياة ، ولأصبح وجوده بين الناس أمرًا مشكوكًا فى إمكانه .

ومن ثم نرى كل مفكر يصل من حياته الفكرية إلى التسليم برأى معين يقف عنده ويدافع عنه بكل ما أتاح المنطق ، وأتاحت اللغة للناس من وسائل الدفاع ، وهو فى موقفه هذا يخضع لحكم الشهوة الفكرية إلى حد كبير . ذلك أنه يحسب أنه وصل إلى لب الحقيقة السامية التى يقوم عليها بناء العالم ، ويكون شأنه فى تسليمه بهذه الحقيقة السامية شأن الساذج الذى يجمع الحياة فى فكرة بسيطة يؤمن بها إيمانًا . فأولئك الفلاسفة الذين يقيمون مذاهبهم عن الحياة ، ويريقون من المداد لتأييدها ما تشاء لهم شهواتهم الفكرية ، فهم مؤمنون إيمان الساذج بعقيدته ، ومثلهم أصحاب المذاهب الاقتصادية ، والاجتماعية المختلفة .

ولن يزال الحال كذلك ما دامت حياة الأفراد ، وحياة الأجيال لا تتخطى هذا العدد القليل من السنين الذى يعتبر متوسط حياة الإنسان ، فكل فرد وكل جيل يجب أن يعيش فى خير ظروف هيأ له القدر العيش فيها ، وهذه الظروف لا شأن للفرد ولا للجيل فى اختيارها ، هى أثر هذا الميراث الذى يخلفه الماضى الطويل لكل جيل من الأجيال . وكما أنك إذا ملكت قطعة من الأرض فى قرية أو فى مدينة معينة لا تفكر فى ان تجوب أقطار الأرض الأربعة باحثًا عن خير قطعة من الأرض تتبدلها بما ملكت ، لتقيم عليها

منزلا ، بل ينحصر تفكيرك فى البحث عن خير منزل يقام على هذه القطعة من الأرض التى ملكت ، وعن خير أثاث يوضع فى هذا المنزل ، وعن خير زينة تزينه ، كذلك ينحصر تفكير أهل كل جيل فيما أورثهم الماضى من آراء ، ومذاهب ، وقواعد للحياة ، فإن يسرت لهم هذه الآراء والمذاهب خير ظروف العيش فذاك ، وإلا انصرف كل مفكر يبحث عن أوجه النقص فى تفكير السلف وجاهد كى يزيل هذا النقص ، فيجلو ما يغشى الحقيقة من ستار لم يتمكن سلفه من أن يجلوه ، فإذا اطمأن إلى أنه وصل إلى الكمال وقف عند كماله يدافع عنه ، ويؤمن به إيمان الساذج بفكرته البسيطة عن مجموع الحياة .

وكل جيل يضع آراء الأجيال التى سبقته موضع الشك ، ومن كل جيل يقوم من يهدم آراء كانت موضع إيمان أجيال سابقة ، وفى كل جيل يكشف العلم ويكشف النظر عن أوجه من الحق كانت مستورة ، وأوجه من الباطل كانت لامعة ، لكن كل جيل يطمئن آخر الأمر إلى أنه وقف على حقيقة الحياة وأزاح الستار عن كل مواضع الشك ، وعندئذ تصبح هذه الحقيقة عنده شهوة الفكر التى تحرك الحياة ، وتدفع الوجود فى سبيل التوازن والتقدم .

وما نظننا بكبير حاجة إلى ضرب الأمثال لهذا التطور الدائم فى حياة الأفكار ما بين جيل وجيل ، وأمة وأخرى . فقد تعاقبت الأديان وكل منها يقر الدين الذى سبقه ويضيف إليه أو يحور منه ، وتعاقبت المذاهب الاجتماعية ، والاقتصادية ، وكل مذهب يرى فيما سبقه سبب آلام الناس ومصائبهم ، ثم لا تحقق الحياة من أمر المذهب الجديد إلا أن تحور المذهب القديم بالمقدار الذى يسمح بعيش الجماعة فى خير ظروف هيأ لها القدر العيش فيها . وكم من آراء كانت موضع إيمان الناس زمنًا ثم شك الناس فيها ثم ألقوها جانبًا أن رأوها ظاهرة الخطأ ، بل السخف والسقم . وهذه نظرية روسو عن العقد الاجتماعى ، حسبها أهل زمانه وحسبها من بعده من أهل الثورة الفرنساوية آية الآيات فآمنوا بها إيمان كل ساذج بفكرته البسيطة عن الحياة ، وهاهى اليوم معتبرة من السخافات المضحكة يعجب الناس اليوم كيف ساغ لعقل أن يأخذ بها ، وكيف ساغ لجيل أن يقيم عليها كل إيمانه .

هب رجلاً من الناس أوتى سر الخلود ، فرأى بعينيه هذه الأجيال التى تتعاقب فيهدم كل جيل شيئًا من آراء الجيل الذى سبقه ، ورأى أنه لا تكاد تمر فترة قصيرة

من فترات حياة الوجود ، كألف سنة أو ألفين ، حتى تصبح فكرة الوجود شيئًا جديداً غير الذى كانت وحتى يكشف الناس من أسرار الوجود عن كثير أو عن قليل غير الذى كشف عنه من قبلهم ، وحتى يختفى شىء من الأسرار التى كانت قد كشفت . أفتظن أن هذا الذى أوتى سر الخلود فاطلع على تنازع الأجيال وعلى الأفكار وقيامها وانهيارها ، وعلى أسرار الوجود وظهورها وخفائها مطمئنًا إلى حقيقة أى من هذه الأسرار أو تلك الأفكار ، أم تراه يتولاه الشك فيها جميعًا وينظر إليها آخر الأمر على أنها حقائق لازمة ، لقيام حياة الناس عاجزة تمام العجز عن تفسير سر الوجود .

والفكر فى أسمى درجات تفكيره يطمع فى الكشف عن سر الوجود . والإنسان المفكر وإن كان قصير مدى العمر فى عدد السنين ، إلا انه باستيعاب ميراث تفكير الماضى يظن أنه قد استعرض حياة الوجود الفكرى مما قبل التاريخ ويزعم أنه كذلك الذى أوتى سر الخلود ، قد رأى بعينيه تعاقب الأجيال واقتتال الأفكار وانهيارها ، وهو لذلك يخرج من استيعابه واستعراضه بذلك الشك الفكرى أو الشك الفلسفى الذى لا يؤمن بفكرة ولا ينقض كل فكرة ، والذى يضطر غاية الرأى ويحكم الحياة التى تسيرها الشهوة إلى الميل بفطرته ، لتفضيل نوع معين من العيش ، وإن رأى بفكره أن هذا النوع المعين ليس لذاته خيراً من سواه .

هذا الشك الفكرى هو السبيل الوحيد لبلوغ الحقيقة الكامنة عند سر الوجود ، إن كان ثمة حقيقة كامنة عند سر الوجود أو كان للوجود سر غير ما يُدرك بالفطرة ، وهذا الشك الفكرى لا يصل إليه إنسان إلا بعد استعراض كليات تفكير الوجود وبحثها بحثًا دقيقًا .

فأما الشك الذى يصل إليه كثير من الناس لسرعة ملالهم من البحث ، والشك الذى يحتمى به كثيرون ممن لا يريدون التقيد بفضائل نوع معين من الإيمان ، فذلك شك لا يصلح سبيلاً لشىء فى الحياة ، ولا يصلح نظامًا فكريًا لأحد ، إنما هو نوع من اليأس أو الشلل الفكرى يقف بصاحبه عن أن يشارك المؤمنين فى إيمانهم والباحثين فى بحثهم .

والشك الفكرى الصحيح الذى يعمل أبدا لكشف ما هو مستور من ضياء الحق ، والذى لا ينخدع أبدا بضياء يحجب عنه أستار الريب ، هو من الإيمان بمثابة العالم

الواسع من القصر الأنيق ، فهو لا يفتر يقلب هذا العالم يريد أن يقف منه على جديد . أما المؤمن فهو متى أقام قصره احتمى فيه وقصر همه على زخرفه ، وهو قد يكون بذلك أكثر سعادة ، وأبعد عن تيهاء الضلال ، لكنه يظل حياته حبيس إيمانه بينًا يجد الآخر فى شكه سبيلاً لإيمان يتجدد كلما برق شعاع جديد من حق كان مستوراً ، ثم ينهار كلما غشت الظلم شيئًا من الضياء .

فإذا كان للمؤمن طمأنينة بإيمانه وسعادة بطمأنينته ، فللشاك سعادة كبرى بالحقائق المتناقضة التى تبدو أمامه ثم تخفى ، لكنه مع ذلك لا غنى له عن إيمان يسلط عليه شهوات فكره ، كما أن المؤمن لا غنى له عن مواضع شك يستريح عندها إلى انه ما زال يفكر .

النور الجديد

أيان يكون مطلعه (*)

فى العالم اليوم شعور بقلق نفسانى مصدره الحاجة إلى الاطمئنان لصلة ما بين الإنسان والوجود يستريح إليها ويؤمن بها ، وأوضح مظاهر هذا الشعور بالقلق ما نراه من اتجاه طائفة من مفكرى الغرب وعلمائه إلى الشرق وعقائده وفلسفته ، يأملون أن يجدوا فيها ما يكشف عن هذه الصلة ، ويبسطها بعد ما زادتها حضارة الغرب المادية دقة وتعقيدا . فهل ترى يهتدى أولئك الباحثون فى تاريخ الشرق إلى عقيدة بسيطة يستريح إليها العالم فى طوره الحاضر ، ويجد فيها ملجأه المعنوى يتصل من خلاله بكل ما فى الوجود خلال الزمان والمكان ؟ .

على أن هذا المظهر للشعور بالقلق ليس هو أعمق مظاهره وإن يكن أوضحها . فموجة الإلحاد التى انتشرت فى العالم منذ القرن الثامن عشر ، فاطمأن العالم زمناً إليها قد وصلت إلى الحد الذى سوّغ الشك فى الإلحاد مثل ما سوّغ الإلحاد الشك فى الإيمان أول قيام مونتنى ، وفولتير ، وغيرهما يهدمون صروح الإيمان القديم لما عشش فيها من الأوهام والأباطيل . ولقد اطمأن أناس إلى النفى والإلحاد زمناً لا على أنه حالة نفسية يعيش العالم بها ، بل لأنهم رأوا العلم يخطو خطوات واسعة ، ويكشف من نظم الحياة وقوانين الوجود كل يوم عن جديد ، فعلقوا عليه أملهم راجين أن يكشف لهم عن معنى الحياة وسر الوجود على صورة يطمئن إليها العقل ويرضاها المنطق الإنسانى أكثر من الصورة القديمة . ولقد كان من حقهم أن يعلقوا على العلم هذا الأمل ، وأن يرتجوا منه ما رجاه رينان فى كتابه (مستقبل العلم) من حل لغز الوجود . كان ذلك من

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ أول يناير ١٩٢٨

حقهم بعد ما رأوا كثيراً مما كان الناس يؤمنون به فى الماضى على أنه حقائق ثابتة وقد كشف العلم عن باطله ، وبعد ما رأوا المدنية المادية التى أقامها العلم ، وقد آتت من الثمرات ما أتاح للإنسانية من أسباب النعمة فى الحياة ، ومن وسائل الاتصال بالكون مما لم يكن يحلم الناس به من قبل ، ثم بعد ما رأوا العلم يكاد يحل مشكلة الحياة نفسها ، ويأتى من المعجزات بما كان موضع إيمان العصور القديمة على أنه من أمر القوة الخالقة المدبرة للكون ، فلينتظر من شاء هذا الإيمان الجديد الذى يعمل العلم لتحقيقه ، ثم لتكن بعد ذلك ديانة الإنسانية كما صورها أوجست كونت أو جمال الكمال كما ارتضاه شلر ، أو أية صورة تقرها النفس الإنسانية المهذبة نتيجة ما أبدع العلم الحديث كصلة بين الإنسان والوجود يستريح إليها ويؤمن بها ، فلينتظر من شاء هذا الإيمان الذى حان حينه ، وليخالف من شاء رأى ابن المقفع الذى أبى أن يبيت على غير دين .

على أن الإنسانية طال بها الانتظار كما صادفتها هزة عنيفة أنفدت صبرها ، تلك الهزة النفسانية هى الحرب الكبرى . فكثيرون من أولئك العلماء الذين كانوا ينقبون بصبر وجلد يريدون حل لغز الوجود حلاً علمياً رأوا الأرض تميد بهم ورأوا من حولهم أعز ما فى حياتهم يتساقط . رأوا أبناءهم وأصدقاءهم وزملاءهم يبتلعهم الفناء ، ورأوا أنفسهم فى خريف الحياة تجردوا من كل أوراق الربيع . لذلك التفتوا إلى ناحية الفناء الذى كانوا يرونه بالأمس بعض صور تطور الحياة فى تخطيها ما نسميه نحن لجج الزمن ، ورأوا فيه كل ذكرياتهم وكل آمالهم وكل حياتهم . أحق أن هذا الفناء عدم وأن الزمن لا وجود له ، وأن ليس شيء اسمه الماضى ، ولا الحاضر ، ولا المستقبل . ألا رجاء لنا فى بعث تجتمع فيه بهؤلاء الأعزة الذين كانوا أمل الحياة وطمأنينتها إلى الموت ؟ كلا ! ولو صح هذا لكان قاسياً أبلغ القسوة ولكان الوجود الإنسانى ضرباً من العبث . وحاشا أن يكون الإنسان وهو تاج الوجود ضرباً من العبث .

وعامل ثالث أثار الشك فى الإلحاد ، وأنفد صبر المنتظرين . ذلك بعث الشرق بعد الحرب ، أليس فى الشرق قام موسى وعيسى ومحمد ؟ ألم يكن بوذا وبرهمة وكنفشيوس رسلاً فى الشرق ؟ فهذا الشرق البعيث سيبعث معه عصر الإيمان ، وسواء أكان ما يبعثه من ذلك بعض ما آمن به فى الماضى ، أم كان إيماناً جديداً ، لكن النفس

الشرقية التى عرفت فى الماضى أن تكون مرآة ما فى العالم من نور وعرفان ، وأن تجمع هذا النور كله فى كلمة كما يجتمع الأبيض من ألوان قوس قزح السبعة ، فهذا الشرق الذى انبعث يستوعب ما جاءت به الحضارة الغربية ويلتهمه التهامًا سيخرج للناس من هذه الحضارة وعلمها إيمانًا جديدًا . فلنجاهد نحن أهل الغرب علّنا نعثر فى الشرق على هذا الإيمان فتطمئن إليه نفوسنا مخافة أن يظل الشرق زمنًا قبل أن يقول كلمته كلمة النور والهدى .

وفى العالم غير ما تقدم من مظاهر الشعور بالقلق النفسانى شىء كثير ، غير أن ما تقدم يتناول من يتناول من العلماء والمفكرين ومن ذوى الرأى والمستنيرين دون غيرهم ، على حين قد نفذ الشعور بالقلق إلى السواد نفاذه إلى هذه الطوائف والطبقات ، وهو قد نفذ إلى السواد على إحدى صورتين : فمن الناس من رأوا فى العلم محطم قيود ثقال أرهقتهم بما شدا العلم به من أغانى الحرية ، فاندفعوا يلتمسون فى الحرية سعادة كانوا محرومين منها وذهبوا فى المتاع بالحرية إلى أبعد الحدود ، هؤلاء وجدوا فى أول الأمر فى حريتهم متاعًا صحيحًا ، ثم ما لبثوا أن انتهوا إلى حال من اليأس من أن تنيلهم الحرية والسعادة حتى لقد أحس بعضهم بأن قيود الحرية لا تقل ثقلاً عن قيود الطقوس الأولى ، والآخرون ظلوا مرتبطين بقيود الماضى لريبتهم أكبر الريبة فى أن تنيلهم الحرية الجديدة سعادة يحلمون بها ، ولكنهم برغم بقائهم فى دائرة الموروث من عاداتهم ضعف إيمانهم بما يحقق هذا الموروث من نعيم . هؤلاء وأولئك من السواد ومن العامة أنفسهم يشعرون بقلق نفسانى يظهر عند الأولين بمظهر الأسف على ضياع الخرافات المحسنة التى كانت تهوّن عليهم هموم الحياة من غير أن تعيضهم الحرية عنها شيئًا ، وعند الآخرين بالأسف على الحرمان من حرية يتمتع بها الأولون مع ضعف فى الإيمان بسعادة الدارين .

هذا القلق الذى يساور الإنسانية جميعًا ، والذى يتغلب عليه كل فريق بما اعتاد أن يغالب به هموم نفسه قد زاده وقواه عاملان يظهران متناقضين : أما أحدهما فالهوة العقلية ، والنفسية السحيقة التى تفصل ما بين العلماء والمفكرين من ناحية ، والسواد وعامة الشعب من ناحية أخرى . ففى طبائع الجماعات أن يتولى ذو الرأى والفكر قيادة السواد ، وتؤمن الجماعات بهم على أنهم أولياء الحقيقة والعارفون بها . فإذا نقض

العلماء الحقيقة التى يؤمن السواد بها ، ثم لم يؤمن هذا السواد بالحقيقة التى يدعو العلماء إليها كانت القطيعة بينهما ، وكان اضطراب النظام اضطراباً لا تمسكه إلا القوة المادية . وأما العامل الآخر فما نشأ عن هذه القطيعة من تزعزع فى عقائد السواد بكثير من الأساطير التى كانت آية إيمانه من قبل ، ومن أخذ هذا السواد بكثير مما جاء العلماء به ومما رأى فيه مخفف ويلات الحياة وهمومها . فهذه القوانين الاجتماعية الجديدة التى خففت من حدة القوانين القديمة بعد أن لم تعد ملائمة لحياة العصر ، وهذه المكتشفات والمخترعات الحديثة التى يسرت للإنسان فى الحياة ما لم يكن يتيسر له ، وهذا الظاهر من الإخلاص الذى يبدو على العلماء فى بحثهم عن الحقيقة وفى سعيهم لإسعاد الإنسانية ، هذا كله جعل السواد يشعرون بظلم من يتهمون العلماء إطلاقًا بأنهم أهل شر وفسوق . وكذلك كانت القطيعة والتقرب عاملان متناقضان ، ولكنهما أثر محتوم للحياة الجديدة ، وأثر كان من شأنه أن زاد القلق النفسانى فى العالم إذكاء وقوة .

وهذا القلق المنبعث عن حاجة الإنسان إلى الاطمئنان لصلة بينه وبين الوجود يستريح إليها ويؤمن بها طبيعى ، ولا سبيل إلى زواله إلا إذا سدت هذه الحاجة . فمنذ القدم جهد الإنسان يبحث عن صلته بالوجود وأثره فيه وتأثره به . وكانت صلته أول الأمر صلة خوف ورهبه ، إذ لم يك له على الوجود ولا على شىء مما فيه سلطان . ثم تطورت هذه الفكرة الأولى بحدوث صلات جديدة بين الإنسان والوجود ظلت تتطور هى الأخرى بتطور ما يكشف الإنسان عنه من خفيات الوجود ، وما يقف عليه من أسراره وقوانينه . ومنذ بدأ العلم فى القرون الأخيرة يكشف عن غوامض من الأسرار كان الإنسان يحسب آثارها فى الماضى معجزات لا تقع تحت سنة من السنن ظن الناس أنهم واصلون فى زمن إلى أعمق سر الكون ، بل إلى لغز الوجود ، وماهية الحياة . وقد كشف العلم عن كثير كان يبرر هذا الطمع فى أكثر من ظرف من الظروف ، لكنه ما يزال إلى اليوم برغم اتساع ميدانه إلى أضعاف ما كان فى الماضى ، ولما يصل إلى هذا السر ولما يكشف من مستور الغيب عما جهد الإنسان فى البحث عنه منذ أول وجوده . لذلك اتجهت طائفة من مفكرى الغرب وعلمائه إلى الشرق وعقائده وفلسفته ، يأملون أن يجدوا فيها مادة الإيمان بالغيب من طريق هدى الإلهام والغريزة .

ومن الرجم بالغيب أن نفترض نتيجة جهدهم هذا ، أفتراهم يخرجون بصورة جديدة للإيمان تهتدى بها أفئدة البشر ، أم أنهم يعوبون من مباحثهم ومن استيحائهم الماضى ولم يتقدموا قيد شعرة عما خلف الماضى فى أمر الغيب المستور عن حكم العقل ؟ . لكن الذى نستطيع أن نفترضه ، بل الذى نستطيع أن نعتقده ، فذلك أن الإيمان الذى يتوقون إليه قد يتفق وقد لا يتفق وإيمان الماضى فى أمر واجب الوجود ، لكنه يختلف اختلافًا جوهريًا عن إيمان الماضى فيما بين الإنسان والوجود من صلة . وهذا الذى نعتقده بديهى لا يحتاج فى نظرنا إلى عمق فى التفكير ، أو بحث فى المادة وما وراءها . فالعلم كما قدمنا قد كشف للإنسان من أمر الوجود عن كثير لم يكن يعرفه ، ومكّن له من التحكم فى كثير من قوى الطبيعة التى كانت من قبل فوق حكمه . وطبيعى أن صلتنا بما نعرف ليست صلتنا بما لا نعرف كما أن صلتنا بما نخضع له من القوى غير صلتنا بما نتحكم فيه منها ، وقد كان ما لا نعرف من أسرار الطبيعة ، وما نخضع له من قواها بعض أى إيمان الماضى ، وبعض ما تكيفت به نفوسنا وفاق هذا الذى كنا ندركه إدراكًا مبهمًا من المحيطات بنا . وإذن فسيكون لنا من تقدير صلاتنا بالوجود مبادئ وتقاليد غير ما كان لنا من قبل سوى ما يكون من أمر الإيمان بواجب الوجود ومن صفاته .

على أنّا نرتاب فى نجاح جهود علماء الغرب ومفكريه لاستلهام الشرق سندًا معنويًا جديدًا يسد من النفس الفراغ الذى عجزت الحضارة المادية عن سده . ذلك بأن الإيمان لا يمكن أن يكون نتيجة بحث علمى الشك أساسه ، وقد تغلبت الروح العلمية على الغرب حتى صار عسيرًا إن لم يكن مستحيلاً أن يعرف نور الإلهام طريقه إلى نفس غربية . وما دام الشرق يتلقى اليوم آثار الحضارة الغربية ويلتهمها التهامًا ، فأكبر الظن أن تورى شرارة الإلهام من نفس شرقية اجتمعت فيها آثار حضارة الغرب جميعًا ، كما تجتمع الألوان السبعة فى نقطة واحدة فينبعث منها نور الهدى ، وينطق صاحبها بالحقيقة الإنسانية المقدسة فى هذه العصور ، عصور العلم والبحث .

فإذا صح حدسنا فقد يطمع الشرق فى انبعاث هذه الرسالة القدسية الكبرى من خلاله قبل عشرات السنين وقبل أن يجتمع له علم الغرب وحضارته ، والبلد الشرقى الذى يسبق غيره فى هذا سيكون له فخر هداية الإنسانية إلى سبيل السعادة إلى أجيال بل إلى قرون .

ولن يكون ذلك عجباً وقد كان الشرق مهد الوحى ومنبت الهدى . ففى مصر نزلت الديانات الأولى منذ العصور الميثولوجية ، ثم انتقلت منها إلى فينقيا ، وإلى الإغريق وروما وإلى آشور وأواسط آسيا . ومن مصر خرج الكليم موسى داعياً إلى الله وهداه ، وفى بيت المقدس قام عيسى برسالته ، وفى مكة هبط الوحى على محمد ، وهذه الأراضى المقدسة أراضى مصر وما حول مصر ، كانت منذ أول عهد الإنسانية بالوجود منبت الحق الإنسانى الأقدس ، وكان هذا الحق ينبعث منها كى يستضىء العالم كلما تشعب أهل العلم شيعاً فى تصور الحق . واليوم وقد ذهب الناس فرقاً فيما يتصورونه وجعل أهل كل فرقة لعبادتهم طقوساً مما يزعمون ، فلعل الساعة التى يجتمع الناس على حقيقة تنجيهم من قلقهم النفسانى آتية ، ولعل مطلع نور هذه الساعة يكون من مصر صاحبة مدنية العالم الأولى ، ويومئذ يفرح المؤمنون بما أفاد العالم فى هذه القرون الماضية من علم ، وبما عاد العالم إليه بعد علمه من إيمان بالحق يهديه سبيل السعادة .

بين الأدب والصحافة

خواطر أثارتها المطالعة (*)

الصحافة رزق يوم بيوم ، والأدب رحيق الجمال بين صفحتى الأزل والأبد . والصحافة توجيه الحاضر لما نعتقده المنفعة ، والأدب تصميم المدينة الفاضلة ، والتغنى بذكرها تمهيداً لإقامتها وتشييدها . والصحافة جهاد يومى متصل غايته الغلبة والظفر . والأدب تأمل وإمعان لاستجلاء الحق ، والخير ، والكمال لمجد الإنسان وسعادته . هذه وأمثالها خواطر وردت إلى ذهنى قبيل كتابة هذا الفصل على أثر عودى لقراءة كتب أناتول فرانس ، وأثناء مطالعتى قصة "السوسن الأحمر" Le Lys Rouge .

قد تكون هذه الخواطر صحيحة ، وقد تكون مشوبة بشىء غير قليل من المبالغة . وأشهد أنى لم أقف زمناً لتحقيقها لأن الوقت الذى ينتهى فيه صف "السياسة الأسبوعية" وطبعها لم يبق عليه غير ساعات ، فيجب أن أسلم هذا الفصل لتصف حروفه بعد ساعة أو نحوها . والساعة ليست الزمن الكافى للتحقيق والتمحيص ، ولو كان الموضوع الذى تريد تحقيقه مما يتصل أوثق الاتصال بعملك . فأنا صحفى ، ويقال إنى أديب ، وكثيراً ما ورد إلى خاطرى مقارنة ما بين الأدب والصحافة ، وكثيراً ما نعيت جناية الصحافة على الأدب من غير أن أنكر لذلك فضل الصحافة ، لكن ذلك لا يمنعنى من الاعتراف بأن ما يقضى به الأدب ، وما يقضى به العلم من التأمل والتدقيق والاستفاضة فى البحث ليس مما يتيسر دائما للصحف ، وبخاصة فيما يتصل بالأفكار التى لا ضرورة فى تحقيقها إلى معلومات مادية يسهل استيفاؤها فى زمن قصير بالالتجاء إلى مراجعها ، والوقوف على الوقائع المضبوطة والأرقام الصحيحة

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٢٥٠ ، بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٩٣٠

والتواريــخ الثابتة . فأما هذه الأفكار التى تتصل بالفن وبالحقيقة من ناحيتها العلمية أو التجريدية ، فذلك ما يتعذر تحقيقه على الصحفى إلا إذا هو فضل أن يرجئ الكتابة ، وأن يتنصل من عمله الذى يستغرق نشاطه الزمن الكافى لهذا التحقيق .

وسواء أكانت الأفكار التى قدمت صحيحة ، أو مشوبة بحظ من المبالغة ، فذلك لا يغير من أنها خواطر تواردت علىّ بسبب العودة إلى قراءة أناتول فرانس ، وأقول العود ، لأن عهدى بقراءة أناتول فرانس راجع إلى أكثر من عشرين سنة ماضية ، ولأن غرامى به صدر شبابى كغرامى به اليوم لم يفتر ولم يخمد لهيبه ، على أنى تحدثت إلى قراء السياسة عنه فى سنة ١٩٢٤ مرات عدة جعلتنى أخشى إن أنا زدتهم بعدها حديثًا أمللتهم وصرفتهم عن القراءة ، ولكى أحقق الانقطاع عن الكتابة هجرت كتب أناتول فرانس وما كتب عنه إلى موضوعات أخرى ، إلا أن أعود فأتلو لنفسى بعض صحف منه استذكر بها ما أكون قد نسيت ، فلما كان من أسابيع جدّ بى الحنين إلى مطالعته فأتيت على قسم من تاييس ، وها أنا الآن أتلو قصة السوسن الأحمر .

ولم تثر تاييس فى نفسى من الخواطر ما أثارت القصة التى أقرأ الآن ، ذلك أنى أكاد أحفظ تاييس عن ظهر قلب ؛ فإذا فتحت كتابها فى أى موضوع منه عرفت على وجه التحديد ما سأتلو فى الصحف التى أقلبها واحدة بعد الأخرى . وقلّ أن يحرك الشىء الذى تحفظ خواطر جديدة فى نفسك وإن حرّك الخواطر القديمة كلها وزادها وضوحًا ودقة تحديد . فأما الكتاب الذى نسيته أو كدت ؛ فيحرّك عندك خواطر لم تتحرّك من قبل ، أو لعلها على الأقل لم تتحرّك بمثل القوة التى تتحرّك بها عند عودك إليه . ثم لعل لظروف الحياة المحيطة اليوم بى من الأثر أن جعلت هذه الخواطر فى ورودها إلى ذهنى أشد لفتًا لنظرى ودفعًا إياى للعناية بها ولتدوينها ولإشراك القارئ فى قصتها .

وليس من غرضى أن أتحدث عن القصة التى أقرأ ، فقد ترجمها إلى العربية الأستاذ أحمد الصاوى ، وتحدث عنها صديقى الدكتور طه حسين أعذب الحديث وأشهاه . وكل الذين يقرأوننى اليوم أو على الأقل أكثرهم إن لم يكن كلهم قد قرأوا القصة بالفرنسية ، أو ترجمتها العربية ، أو حديث صديقى طه عنها . ومنهم لا ريب من قرأ

هذا كله . لكنى أريد أن أقف اليوم من أثر قراءتى عند صفة معروفة لأناتول فرانس واضحة فى أسلوبه وفى طريق تفكيره ، هذه الصفة هى الدقة والسلاسة ، واللين والمرونة اللفظية والفكرية التى لا حد لها . وهذه الصفة تجعلك إذ تقرأ ما يكتب تحسب أن ليس أسهل منه ، وأن القلم ينطلق به انطلاقًا كما تنطلق أقلامنا نحن الصحفيين ؛ أو أسهل وأسلس مما تنطلق أقلام الصحف ، لكنك إذا وقفت عند كل فكرة وعند كل كلمة وعند كل صورة ، وسألت نفسك كيف وفق أناتول فرانس لهذا التزاوج العجيب البديع بين أفكاره وعباراته ، وكيف جمع بين ألفاظ تكاد تحسب محالة الجمع بينها ، ثم هو مع ذلك قد جلا بها أمامك صورة أو فكرة لا يمكن لغيره أن يجلوها إلا فى سطور أو صحف ، وقفت ذاهلاً وأيقنت أن هذا الكاتب كان يحمّل نفسه من العناء والمشقة ، وكان يحمل نفسه على التدقيق والإحاطة حتى لكأنه كان يروض الألفاظ واحداً بعد الآخر ليرى مبلغ صلاحه للدلالة على المعنى ، أو الصورة التى يقصد ، ثم يظل به يصقله أو يستبدل به غيره أو يضيف إليه وصفًا أو ينقص منها حرفًا حتى يضع أمامك هذه العبارة السهلة فى هذا الأسلوب البديع ؛ فيجعلك تحسب أنك أمام رجل يلقى بعباراته من غير عناء لأنها عبارات سهلة أنيقة تؤدى أفكارًا بديعة دقيقة .

ليس فى متناول يدى الآن ترجمة عربية للقصة أو لشىء منها ، فأضع تحت نظر القارئ بعض صحفها ليرى ما قدمت . ولو أننى حاولت أن أنقل إلى العربية شيئًا منها ولو صفحة واحدة ، لاحتاج ذلك إلى زمن لا يتسع له الوقت الباقى لدفع رسالتى هذه إلى المطبعة ثم لما كانت الترجمة لتنقل من الأصل صورة ترضينى . وأقول هذا الذى أقول عن علم وتجربة . فمنذ سنوات حاول صديق قديم أن يترجم صحفًا خاصة من هذه القصة التى أتحدث عنها ، قصة السوسن الأحمر ، ثم تفضل فعرض على ما ترجم ، فجعلت أدله على الفروق الكبيرة بين ما تؤديه عبارته وما تؤديه عبارة فرانس . وحاولنا معا أن نصل لتكون الترجمة صورة صادقة للأصل حتى خيل إلينا أنا بلغنا من ذلك ما نرضى . وعدت بعد ذلك فقرأت وإياه هذه الترجمة وقرأنا الأصل الفرنسى ، فإذا نحن لم نتقدم كثيرًا عن ترجمته الأولى ؛ وإذا نحن بحاجة لنعود إلى رياضة العبارات ومعالجة الألفاظ وصقلها . وانتهى بنا الأمر إلى الاعتراف بالعجز ، ولست أذكر أنسبنا العجز إلى أنفسنا أم إلى اللغة العربية . على أنى أستطيع اليوم أن أقول

إن كاتبًا فرنسيًا ضليعًا أراد أن ينقل ما كتب فرانس فى عبارات فرنسية أخرى وحاول ذلك محاولتنا نقله إلى العربية ، فلعله كان يشعر شعورنا بالعجز ، ولعله كان يقول إن اللغة الفرنسية لا تتسع لآراء أناتول فرانس إلا بعبارات أناتول فرانس وبأسلوبه ولغته.

وقد لا يكون الكاتب الفرنسى الذى يقول هذا القول مغاليًا ، فقد يذكر من راجع إحدى تراجم أناتول فرانس أنه كان يكتب رسائله كما نكتب نحن رسائلنا ، ويدفع بها إلى المطبعة . فإذا أتمت صفها وتصحيح الخطأ المطبعى فيها بعثت بها إليه فراجعها وحذف منها وغير فيها وقدم وأخر ما شاء له فنه وعلمه ومواهبه ، ثم يرد هذه التجربة الأولى إلى المطبعة فتصف وتصحح من جديد ويبعث بها إليه فيتناول هذه التجربة (البروفة) الثانية بمثل ما تناول به الأولى من محو وإضافة وتقديم وتأخير ، ثم يردها إلى المطبعة وترد المطبعة له تجربة ثالثة يكون حظها حظ سابقتيها ، ثم تجربة رابعة كذلك ثم تجربة خامسة ، ثم تجربة سادسة . وفى هذه المرات الست يصقل فرانس الأسلوب والفن والتصوير ، ويتقن فى الصقل ما شاء . والتجربة السادسة هى وحدها التى يكون عليها الإذن بإجراء الطبع . ويقول أناتول فرانس أو ينقل عنه بعض رواته أن طبع كتاب من كتبه لا يعنى فراغه الأخير منه ؛ بل كان يعود إلى تلاوة كتبه أو صحف منها بعد طبعها ويتناولها بالتنقيح فى هوامشها تنقيحًا تستفيد منه الطبعات التى تلى الطبعة الأولى أو أية طبعة بعدها ، وإذا لم تكن هذه التنقيحات لتتناول أكثر من لفظ يراه الكاتب أدق أداء للمعنى المقصود أو أحسن نغمًا عند تلاوته فذلك على كل حال كمال يدأب فرانس على التطلع له ، ويحرص بكل ما تمكنه مواهبه السامية ونبوغه الفذ على بلوغه .

وليس فرانس وحده هو بين نوابغ الكتاب والشعراء من يتّئد كل هذه التؤدة ، ويحمّل نفسه كل هذا العناء . فقد ذكر فلوبير أنه كان يظل أسبوعًا كاملاً فى شغل دائم باحثًا عن "صفة" يضيفها إلى عبارته لتؤدى المعنى القائم بنفسه . والذين يعودون إلى دواوين بعض كبار الشعراء يجدون فى هوامشها كيف عدلوا عن شطرة أو بيت أو مقطوعة بعد سنة أو أقل أو أكثر من كتابة قصيدة من قصائدهم ، لم يعدل بهم عن ذلك أن طبعة أو طبعات من هذه القصائد ظهرت ما دام غرضهم بلوغ غاية الكمال فى تصوير الوصف أو المعنى الذى يحرصون على أدائه .

هذا التأمل المستمر لاستخلاص رحيق الجمال مما بين صفحتى الأزل والأبد هو قوام الأدب الصحيح ، وهو الذى يجعل الأدب لا يتقيد بالحاضر بل لا يتقيد بزمان ولا بمكان . أما الصحافة فيثقلها من هذه القيود ما تنوء به . وسيان فى ذلك الصحافة السياسية ، والصحافة الخبرية ، بل إن ما يسمونه صحافة الفنون الجميلة ينوء بهذه القيود كغيره من سائر أصناف الصحافة سواء . وأنى يجد الصحفى الوقت الذى يراجع فيه تجارب ستًا ، بل ثلاثًا بل اثنتين لرسائله ؟ وإن أكثر أمر هذه الرسالة إن لم يكن المحقق أمرها أن أدفع بها إلى المطبعة من غير أن أعيد تلاوتها بعد الفراغ من كتابتها ومن غير أن أراجع تجارب التصحيح ، وأكتفى بعناية المصححين . ومن أجل هذا وبسبب رداءة خط الكثير من الصحفيين ، وأعترف أنى من بين هؤلاء يقع خطأ فى التصحيح يجعل الكاتب نفسه فى بعض الأحايين يلقى عنتا فى الوقوع على اللفظ وعلى المعنى الذى يقصد . وكثيراً ما نواجه فى الصباح وحين نقرأ الجريدة بعبارات مقلوبة تؤدى عكس ما قصدنا إليه ، هذا ثم إن الكاتب إذا أتيح له أن يراجع تجربة مقاله أو بحثه فذلك لكى يضبط خطأ الألفاظ دون سواه ، وقل أن يتاح له ضبط شىء غير الألفاظ، وأين الوقت الذى يتسع له ليقدم ويؤخر ، ويضيف ويمحو ويصقل على هواه ؟! إن الجريدة يجب أن تصدر فى موعدها وهى لا تنتظره كما تنتظر ملزمة الكتاب فالأديب يراجعها ويدقق فيها . والصحفى متأثر فى كل ما يكتب بالبيئة المحيطة به وبالحوادث التى تقع حوله . وهو مطالب دائما بأن يواجه جمهور قرائه بعد ساعات من وقوع الحادث ليكونوا لأنفسهم رأيًا فيه. وحياة كهذه لا يتاح فيها التأمل فى صور الحق والجمال والخير بعيدة عن ملابسات الحوادث المحيطة بها .

لذلك كان عناء الصحفى فى عمله أضعاف عناء الأديب فى عمله ، فالأديب غير مطالب بشىء إلا أن يلهم هذا الشىء بعد تأمل وروية ، وهو حر فى أن يعاود التأمل وفى أن ينقب ويبحث ، وقد يكون الكسل والابتعاد عن الناس من خير ما يتغذى به الأدب والأديب . أما الصحفى فلا غذاء له إلا فى الرحى الطاحنة ، رحى الحوادث وتقلباتها ، والناس وأهوائهم والمصالح العامة وتقدمها وتأخرها .

ومن ثم يرى القارئ كم من الفرق بين الأدب والصحافة ، ولعله يرى أن الصحافة رزق يوم بيوم، وأن الأدب رحيق الجمال بين صفحتى الأزل والأبد . ومن الناس من

يعنيه رزق يوم بيوم أكثر مما يعنى بجمال الوجود كله . ومنهم من يرى فى اجتلاء الجمال كل ما فى الحياة مما يجعلها جديرة بالحياة ، وأن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء .

الخير والشر

هما معروف الجماعة ومنكرها (*)

ما الخير وما الشر ؟ أحسب لو أنك أجهدت نفسك لتصل إلى ما يسمونه التعريف الجامع المانع لهاتين الكلمتين للقيت من العناء ما لقيت أنا ، ولما بلغت إلى أكثر مما بلغت . مع ذلك فالكلمتان تمثلان كل ما فى الحياة من أفعال وأقوال وتتناولان إلى جانب حياة الأفراد حياة المجاميع والأمم . ألسنا نسأل إن كانت الحرب خيرًا أم شرًا ؟ بل إنهما لتتخطيان حدود أعمال الناس إلى ما يقع فى الكون مما لا يد للناس فيه ، ولا سلطان لهم عليه . فالقحط شر والرخاء خير ، والجو المعتدل خير ، وحرارة القيظ شر . فكيف وكذلك شأنهما يبذل الباحث عن تعريف جامع مانع لهما جهدًا أعظم الجهد ويلقى عناءً أشد العناء ، لينتهى آخر أمره إلى القول بأن الخير والشر هما المعروف والمنكر .

وهذا هو تعريفهما الدقيق الذى ينطبق عليهما تمام الانطباق فى كل زمان وفى كل مكان . وإذا كان معروف الناس يتغير من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان آخر ، وإذا كان ما ينكرون يتغير كذلك ، فليس لكل من الخير والشر صورة واحدة مطلقة لا تتغير . لذلك نرى ما يعده الناس يومًا على أنه الفضل كل الفضل يصبح فى زمن آخر أو يكون فى أمة أخرى وليس فيه من الفضل شىء ، وما يعتبرونه البر غاية البر يومًا يكون فى يوم آخر أو يكون فى أمة أخرى ولا شىء من البر فيه ، بل يكون معاونة العاطل على مداومة بطالته والشرير على الإمعان فى شروره .

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ يونيو ١٩٢٨

ألسنا كنا نرى إلى زمن قريب أن الإحسان هو إعانة من يتقدم إليك طالبًا المعونة ، ولم يكن يدور فى خلد أحد من الناس أن يرمى بالبساطة من يبذل كل ماله فى هذا السبيل . أو لم يكن المتلاف ماله للناس كريمًا وكان الكرم كبرى الفضائل ، فأصبح المتلاف سفيهًا يستحق الحجر عليه لا البر به ولا العطف على حاله . وكانت المعونة الفردية هى الصورة الظاهرة للإحسان ، فأصبح الإنسان اليوم فى معاونة منشآت البر التى تتحرى ألا يذهب عملها سدى أو أن يوضع فى غير محله أو يصادف غير أهل . ثم أن الناس كانوا ينظرون للمصائب غير المادية على أنها أسباب لاستثارة عاطفة الإشفاق والرحمة ، فإذا بهم أصبحوا ينظرون إلى هذه المصائب كأنها بعض آثار تقصير الجماعة فيما يجب من حماية الفرد . وليست حماية الفرد فى حماية هؤلاء المصابين فى مصائبهم وكفى ، بل حماية الفرد تتناول حماية من لم يصابوا من منظر أصبح يثير فى نفوس حساسة كثيرة التقزز والتأذى بدل أن يثير الإشفاق والرحمة .

وفى هذه الأحوال جميعًا يظل الخير على مختلف الأزمان وفى مختلف الأمكنة هو المعروف، ويظل الشر هو المنكر ، فإسداء الإحسان للسائل كان معروفًا ثم صار فى بلاد كثيرة معاونة للبطالة فصار منكرًا . وإذن فقد كان خيرًا ثم صار شرًا . والحرب فى الأزمان القديمة كانت خيرًا لأنها كانت وسيلة اتصال الشعوب بعضها ببعض ولو اتصالاً داميًا فيه خراب وفيه دمار وفيه موت ، لكن اتصال الشعوب كان يفيد فى تقدم الإنسانية أكثر مما يضرها وما يترتب على الحرب من خراب ودمار وموت . وفى هذه الأزمان الحديثة صارت الحرب شرًا لأن أسباب اتصال الشعوب بعضها ببعض لم تكن محتاجة إلى الحرب حاجتها فى الماضى فأصبح شر الحرب اليوم أضعاف خيرها ، وأصبح الدعاة للحرب دعاة تأخر ودمار للإنسانية . وظاهر أن كل ما فى الحياة يختلف الناس فى الحكم عليه إن كان خيرًا أو شرًا باختلاف الأزمنة والأمكنة وباختلاف أسباب التقدم التى تجنيها الإنسانية بمر العصور وتداول الأجيال .

* * *

هذه خواطر مرت بنفسي بينما كنت أفكر في هذا الموضوع ، موضوع الخير والشر ، وبينما كنت أبحث لهما عن تعريف جامع مانع . ولكني بالرغم من وضوح هذه الأمثلة التي مرت بخاطري سألت نفسي : إذا صح أن تغيرت المظاهر التي يتعارف الناس على أنها الخير والشر كما تتغير المظاهر التي يتعارف على أنها الجمال والقبح فهل يكون للخير والشر أساس ثابت في قرارة النفس الإنسانية ؟ . لقد يختلف تقدير الناس لما يجب أن يكون الإحسان أو البر ، لكن عاطفة الإحسان والبر كمينة في قرارة النفس تظهر آثارها على الصورة التي تتعارف الجماعة على أنها مظهر الإحسان والبر ، وعاطفة الشفقة وعاطفة الإشفاق كمينتان في قرارة النفس الإنسانية ، وإن اختلفت مظاهرها بمعروف الجماعة ومنكرها . وإذا جاز لنا أن نذهب إلى أن قواعد السلوك وآدابه كما يقولون إنما تتصل بعلاقات الناس بعضهم ببعض فهي ظاهرات اجتماعية بحتة أساسها المنفعة المتبادلة التي تختلف باختلاف صور الحياة الاجتماعية من مضارب البدو إلى ناطحات السحاب ، ومن ركوب البيداء إلى الطيران في الهواء . فإن العواطف الغيرية في النفس مما يتصل بالبر ، والشفقة ، والعطف ، والإشفاق ، والحب والكراهية لا يختلف أصلها ، وإن اختلفت مظاهرها بين رجل البادية والرجل الذي نشأ في آخر أدوار الحضارة . فإذا نحن قصرنا الخير والشر على هذه العواطف الغيرية كان لنا أن نقول إن للخير والشر قواماً ثابتاً يجعلهما صالحين لأن يكونا حقيقة مطلقة لا تتغير بتغير الأزمان والأمكنة .

وقام هذا الاعتراض على تعريف الخير والشر بالمعروف والمنكر ، فجعلني أتردد قبل إثباته. صحيح أن بعض العواطف غرائز ، والشبه بين هذه الغرائز لا يوجد عند الإنسان البدوي ، بل عند الإنسان المتوحش والإنسان المتحضر وكفى ، بل هو يتصل كذلك ببعض غرائز الحيوان . ألا ترى أن الحيوانات جميعًا إذا رأت واحداً من بني جنسها يُقتل تعلوها رعدة إنكار وفزع ، بل أليس من الحيوان ما يقال إنه مات همًّا لحادث كبعض الحوادث التي يموت لها الإنسان همًّا ، كأن يحزن على إليفه فلا يطعم ولا يشرب حتى يشارك الإليف في العالم الآخر . فما بالنا وهذه ملاحظات يزيد أمامنا عددها كل يوم فنريد أن نجعل من العواطف الغيرية مظاهر اجتماعية أساسها الغريزة الأساسية ، غريزة الاحتفاظ بالوجود لفائدة الجماعة أكثر مما هو لفائدة الفرد .

وما بالنا نريد أن نجعل معروف الجماعة ومنكرها هو الخير والشر والفضل والنقص والقبح والجمال كأن لا شيء في الوجود مستقل بذاته عن حكم الجماعة عليه أو كأن حكم الجماعة حق لا يقبل نقضاً ولو كان حكماً زائفًا فاسد الأساس .

والحق أن إنكار وجود مصدر للعواطف الغيرية وللعواطف الأنانية كذلك فى نفس الفرد إنكار لواقع لا سبيل إلى إنكاره . وإذا صح إن كان الفرد وحدة من وحدات الجماعة أو خلية من خلاياها فهى تتأثر بها كما تؤثر فيها . ومتوسط هذه الضمائر الفردية هو ما يعبر عنه دائمًا بضمير الجماعة، كما أن متوسط العواطف الفردية هو عاطفة الجماعة . فمن المبالغة فى إنكار وجود الوحدة ومن التجنى عليها القول بأنها لذاتها وبنفسها لا تعرف الخير والشر ولا تقدرهما ، وأنها فى انتظار إدراك معروف الجماعة ومنكرها لا وجود للخير ولا للشر فى نظرها .

وهب رجلاً من أقاصى كندا عند الخلجان المتصلة بالمحيط المتجمد الشمالى جاء إلى مصر أو ذهب إلى بلد آخر يختلف كل الاختلاف فى حضارته عن تلك البلاد التى جاء هذا الكندى منها . أفتراه يبلغ الخلاف بينه وبين أهل البلد الجديد الذى نزله حتى يكون معروف أهل هذا البلد ومنكرهم فى الخير والشر بما يخالف معروف هذا الرجل ومنكره خلافًا جوهريًا ؟ . أو أنك تجد بينه وبين أهل أى بلد فى العالم وفى أى زمان من الأزمان التى مر بها العالم قاسمًا مشتركًا لكمية غير قليلة من الشئون يتفق قدره وإياهم لخيرها ولشرها ؟ وإذا لم يكن بد من الجواب بالإيجاب على هذا السؤال أفليس معنى هذا أن كمًا معينًا قلّ أو كثر هو خير فى كل زمان ومكان وأن كمًا آخر هو شر فى كل زمان ومكان ، وأن هذا الكم من الشر حقيقة ثابتة لا تأتى عليها الغير ولا تتغلب عليها موجات تطور الاجتماع بل تبقى هى الأسس الثابتة فى هذا التطور .

لعل هذا صحيح . ولكنك إلى جانب هذا القاسم المشترك لكمية كثيرة أو قليلة من الخير والأخرى من الشر تلاحظ كذلك أن بين هذا الكندى وبين أهل البلد الذى ينزل فيه خلافًا كبيراً فى تقدير ما بقى بعد هذا القاسم المشترك من الخير والشر . بل أنت لست بحاجة إلى أن تجىء بالكندى أو إلى أن تبعث رجلاً من أهل العصور الغابرة لتقطع بوجود هذا الخلاف ، وبوجوده حاداً غاية الحدة . فالناس من أهل الأمة الواحدة

والبلد الواحد يختلفون فى تقدير الخير والشر ، وإنما يغلب فى ذلك حكم الجماعة على حكم الأقلية ، بل لعل لمعروف الخير ولمنكر الشر مقاييس تختلف من بيئة لبيئة فى البلد الواحد بين أهله الذين يتكلمون لغة واحدة ويدينون بدين واحد . ونوع حياة كل بيئة ، وأقصد حياتها المادية ، بل له أثر مباشر عليها فى تقدير الخير والشر كما أن له أثراً مباشراً على عواطفها . وإذا صح أن قاسماً مشتركاً بين الناس يجعلهم يتفقون فى التقدير بالنسبة لأمور معينة فما ذلك إلا بالنسبة للأمور الأولية التى تتصل بالغرائز الدنيا . وكلما ارتقى الإنسان فى درجات الإنسانية والحضارة كان الخلاف فى تقدير الخير والشر ، وفى تقدير القبح والجمال ، وفى تقدير كل ما فى الحياة خلافاً ما يزال هو مصدر نشاط العالم فى دأبه الدائم إلى الكمال ، أو إلى ما يتوهم أنه الكمال .

وإذا كان إنكار وجود مصدر مشترك للعواطف الغيرية والعواطف الأنانية فى نفس الفرد إنكاراً لواقع لا سبيل إلى إنكاره فإن هذا المصدر المشترك بين الأفراد جميعاً أشبه الأشياء بالنبع الذى يخرج منه الماء لرى ما حوله . كم تختلف آثار هذا الرى باختلاف الأوساط التى يتخللها الماء إن كانت حجرية ، أو رملية ، أو خصبة صالحة للإنبات ، والإزهار . كذلك هذا المصدر المشترك فى النفس الإنسانية للعواطف المختلفة تختلف آثاره باختلاف الجماعة فى حياتها المادية والمعنوية . فبينما هو ينزلق على البيئات الصخرية فلا يكون من أثره إلا وميض ولمعان إذا به فى الجماعات التى تخطت منازل البداوة وأخذت من الحضارة بحظ وافر يغذى من آثار هذه العواطف صوراً مختلفة تزداد تكاثراً واختلافاً كلما ازدادت الجماعة سمواً فى درجات الحضارة . ويتأثر المصدر نفسه بهذا السمو تأثراً كبيراً كما يتأثر الماء بعد تركه النبع إذ يتخلل النباتات والزهور العطرة فإذا أنت قطّرته منها ألفيت رحيقًا عطراً أو سمًا زعافًا بدل أن تجده ماء كما كان لم يزده انحداره على الصخر أو تخلله الرمل شيئًا جديداً .

فالبيئة أو الجماعة لها إذن أثر على آثار العواطف وعلى العواطف نفسها . وما دام الخير والشر هما أثر حياة الجماعة مترددة فى نفس الفرد ، فإنك وإن لم تنكر هذا المصدر المشترك مضطر آخر الأمر إلى أن تقول بأن الخير والشر هما معروف الجماعة ومنكرها ، وأنهما لذلك يتطوران ويتغيران بتطور حياة الجماعة ، وأن ما قد يكون باقياً منهما لا يتغير خلال الجماعات والعصور المختلفة لا يزيد على الغرائز الدنيا للإنسان .

وإذا صح هذا ونعتقده صحيحًا ، فالخير والشر نسبيان فى الحياة ، كما أن كل ما فيها نسبى . هما معروف الجماعة ومنكرها ، كما أن كل ما فى الجماعة من أفكار وآراء وعقائد لا يزيد على أنه معروف ومنكر .

ما وراء المدنية الحديثة (*)

أنظر ! أترى هذا البناء الفخم الذى يقوم العمال بتشييده ، وما يزال تحيط به حواجز الخشب وسلاله . وهل تسمع ضجة هؤلاء العمال من نحاتين ، وبنائين ، ونجارين وبعضهم يتنادى والبعض يتغنى ؟! . إن هذا البناء قصر يقوم مكان قصر سبقه ما تزال بعض أجزائه باقية ، وما تزال أكثر أسسه فى مكانها ، لم يستطع الهدامون القضاء عليها ، وانتزاعها من الأعماق التى نبتت فيها . وهو واحد من سلسلة هذه القصور المتصلة اتصال سلسلة قصور اللوفر بباريس أو معابد الكرنك بالأقصر. لا يتم تشييدها فى جيل ولا فى أجيال ، بل تتعاقب القرون حتى يبلغ تمامه . أفتظن أن هؤلاء العمال الذين يصلون ليلهم بنهارهم فى تعميره وتشييده يستطيعون أن يرسموا لأنفسهم صورة صادقة مما سيكون بعد تمامه ، وبعد أن يصبح مجموع هذه القصور قصراً واحداً ؟ كلا ، فكل فى شغل أى شغل بالناحية التى يعمل فيها وبالعمل الذى يشغل جهده وتفكيره ، فإذا انتهى من كد نهاره أو أعياه التعب تغنى شاكراً للقدر أن يسر له كد النهار ليطمئن إلى راحة الليل ، أو مستمداً من الغناء وسلطانه الموسيقى والنغم ما ينسيه إعياءه وتعبه . وهل تظن المهندس الذى وضع تصميم هذا القصر الذى يقوم العمال اليوم بتشييده أمامك قديراً على أن يرسم لك صورة من هذا القصر ، دعنا من مجموعة القصر بعد تمام زخرفته ونقشه وتأثيثه وكمال الغاية منه ؟ كلا فهو إنما رسم وصمم ما أمره رب هذا القصر برسمه وتصميمه ، ورب هذا القصر لن يبقى أغلب الأمر إلى حين الانتهاء من إقامته وتشييده . وهل قدر الذين تعاقبوا على

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ فبراير ١٩٣٤

بناء اللوفر من ملوك فرنسا أنه سيصبح متحفًا كما أصبح اليوم ، وأنه سيصبح أعظم متحف فى العالم كله ؟! إنما يقرر مصير هذه القصور التى تراها تشاد بعينك أولئك الذين يرثونها بعد أن تتم كلها ، ويجعلون منها ما تلهمهم روح عصرهم ، ووحى روحهم أنها أكثر ما تكون صلاحًا له .

هذه المدنية الحديثة التى تغمرنا اليوم بمنشآتها أشبه الأشياء بذلك البناء الفخم الذى يقوم العمال بتشييده . لقد كانت حضارة العالم إلى قرون قليلة مضت مستمدة من حياة العالم فى تلك العصور ، ومن تأثر العلماء والمفكرين بتلك الحياة ، وتكييفهم لنظم الإنسان والاجتماع على مقتضاها . ثم كانت الثورة على تلك الحياة وعلى تلك النظم ثورة بدأت بأوربا دينية فى القرن السادس عشر فى القارة ، وسياسية فى القرن السابع عشر فى إنكلترا ، وفى القرن الثامن عشر فى فرنسا . وكانت هذه الثورة هدامة لسلطة الملوكية ، هدامة لسلطة الأشراف الالتزامية ، هدامة بعد ذلك وأثناءه لطرق البحث والتفكير . ومن خلال هذه الثورة خرج العلم الواقعى ، وألفى نفسه حين خرج خصمًا للكنيسة ولرجال الدين . وانتقل العلم سراعًا بعد خروجه من الميدان النظرى إلى الميدان العملى . وبدأ العلم يغزو من ميادين الحياة والكون ما لم يكن أحد يفكر فى غزوه تفكيرًا قويًا مستقرًا ، وها هو العلم ما يزال يغزو الميدان العملى بقوة ، وما يزال يكشف من قوى الكون كشفًا يزيدنا علمًا بها وسلطانًا عليها ويجعلنا نرى فيما كان يحسبه أسلافنا معجزات وخوارق منذ بضعة قرون ظواهر طبيعية تخضع لنواميس الكون التى يزداد العلم كل يوم كشفًا عنها . فهذا الهواء قد أصبح فى سلطاننا تطير طائراتنا مخترقة إياه ، وهاهو الأثير قد دخل فى ملكنا نحمله من الرسائل والأخبار والأصوات ما نشاء لينقلها كرهًا أو طوعًا إلى حيث نشاء. وهاهم العلماء ما يزالون يجدّون فى معرفة طبقات الأثير إلى ارتفاع الألوف والألوف من الأمتار لمعرفة كثافتها ومكانتها من حياة الكون ، وهاهو النشاط العلمى موزع فى كل ناحية من نواحى الحياة فى الجماد والنبات والحيوان ، فى الأرض والماء والهواء ، فى الذرات والإلكترونات وما هو أدق من الذرات والإلكترونات ، فى مصدر الحياة وأصلها ومُتوجهها . والعلم التطبيقى فى هذا أكثر نشاطًا من العلم النظرى وأغزر آثارًا مادية ، وإن استمد العلم التطبيقى حياته من العلم النظرى . وما يزال العلماء

يوالون جهودهم للكشف عن كثير مما لم يكشف عنه بعد من سنن الكون. وما يزال المخترعون والمكتشفون يستمدون من العلم قوة للبلوغ إلى مزيد من الاكتشاف والاختراع .

هذا النشاط الحاضر هو نشاط البناءين ، والنحاتين ، والنجارين ، وسائر العمال فى ذلك القصر الذى رأيت ، وهو نشاط المهندسين الذين يوجهون مجهودات أولئك العمال ومن يقوم بالرقابة عليهم ، وهو نشاط مجهد شاق يشغل صاحبه عن التفكير فى الأثر المحتوم الذى ينتج عنه إذا آن لهذا النشاط أن تهدأ ثائرته ويشغله عن أن يرى هذه القصور الفخمة التى يقيم العلم حتى يقرر مصيرها بعد الفراغ من إقامتها من يدفع إليها وحدة فى حياتها كمجموعة ، هى وحدة الحضارة التى تجىء وراء هذه المدنية الحديثة ، مدنية النشاط الإنشائى تحت لواء العلم وفى ظل قيادته .

ولقد ألف الناس من أهل هذا الجيل أن يسموا هذا النشاط وما يصل إليه من نتائج تحكم الإنسان فى الطبيعة . وهؤلاء يرون أن العلم ومدنية العلم سيطوعان للإنسان أن يزداد فى العالم تحكمًا حتى يبلغ من السلطان عليه أن يوجه كل ذرة فيه الوجهة التى يشاء . وهذه فى رأينا نظرة خاطئة . فالإنسان لا يزداد بالعلم تحكمًا فى الكون وإنما يزداد بالعلم معرفة للكون واتصالاً به . وهذه القوى التى تسير القطر والبواخر ، والطائرات . وهذه الموجات الأثيرية التى أتاحت لنا أن نتصل بمختلف نواحى العالم، وما يمكن أن نصل إليه بعد ذلك من المعلومات ، ونكشف عنه من سنن الكون لا يزيدنا على الكون قوة ، ولكنه يزيدنا بالكون علمًا واتصالاً . أفيزيدنا هذا الاتصال حرية أم هو يخلق لنا على العكس قيودًا جديدة ؟ أفيزيدنا هذا العلم سعادة أم يخلق لنا من الشواغل ما يزيدنا للحياة تنبهًا وما يلهينا بدوره عما نجد فى لذة نسيان النفس من سعادة ؟ وهل يزيدنا العرفان بسنن الكون خضوعًا لهذه السنن وإسلامًا لها أم يدفعنا إلى الثورة عليها والحرص كل الحرص على أن نكون أصحاب السلطان المتحكمين فيها ؟ هذه كلها مسائل ليس من اليسير الإجابة الآن عليها إجابة دقيقة ، لأن كلامنا ما يزال كما قدمنا فى شغل بهذا الجزء الذى ألقت الأقدار علينا أن نقوم به فى سبيل الكشف عن سنن الكون ، والمزيد من الاتصال العلمى به . كل منا ما يزال فى شغل مثل شغل كل أولئك البناءين ، والنحاتين ، والنجارين ، والمزخرفين فى ذلك

القصر وفى تلك القصور التى رأيت . فمن العسير علينا أن نضع الإجابات الشافية لتلك الأسئلة ، وكل الذى نستطيعه أن نرسم ما يدور بخيالنا كصورة لهذه القصور التى يشيد العلم وما يمكن أن يكون الضياء الذى ينتشر من بعد فيها ، والروح الذى يبعث الحياة من بعد إليها .

وفى هذه الحدود نتحدث اليوم إلى قراء "الهلال" عما وراء هذه المدنية الحديثة ، وعما ستكون حياة هذه القصور التى يشيد العلم على أحدث طرائقه النظرية والتطبيقية . ورأينا أن هذه القصور التى يشيد العلم سينتهى نشاط الناس فى بنائها وسيطمئنون إليها بعد قرن أو نحوه من الزمان . هنالك تصبح هذه العمائر قسماً مألوفًا من حياة الإنسانية لا يثير طلعتها بمقدار ما يدعوها إلى التفكير فى حسن الاطمئنان إليه والمتاع به . هنالك يشتد بها الشعور الذى بدأ يظهر منذ اليوم ، الشعور بالشوق إلى معرفة صلة الإنسان بالكون كله ، الشعور بهذه الوحدة الروحية التى صبا الإنسان منذ بدء حياته إلى الإحاطة بها ، والتى صورها فى مختلف العصور حسب ما هداه إلهام ما يعرف من الكون إياه . يومئذ نشعر بأن هذه القوة المادية التى تستخدم ليست مجرد قوة صالحة لخدمتنا ، ولكنها مظاهر لوحدة الكون كالشمس والقمر والنجوم وكالهواء والماء ككل ذلك الذى ألف الإنسان منذ آلاف السنين، ستصبح الكهرباء وسيصبح الأثير كهذه الظواهر الكونية الكبرى ، وسنصل من العلم بهذه القوى إلى مثل ما وصلنا من العلم بالماء وباليابسة . وستتصل هذه القوى بشعورنا وبعواطفنا وبوجداننا المختلف ، وسنتغنى بها ونرى فيها بعض حياتنا كما أن فينا بعض حياتها ، لا يصبح مرور منطاد أو طائرة أو سماع ألحان آتية من أمريكا أو من المحيط المتجمد الشمالى عن طريق الأثير بعض ما يلفت النظر ، بل ستصبح هذه القوى جميعًا من مألوفات ما نعرف كلنا ، رجالا ونساء ، شبانًا وشيبًا . وستنفتح بذلك دائرة علمنا الوجدانى بمقدار ما يزداد اتصالنا بالكون ، وسنرى يومئذ لزامًا علينا أن نعيد نظام حياتنا على أساس هذا الاتصال وذلك العلم ، وستكون تلك هى المدنية الحَقّة ، وستكون ما وراء الحضارة الحديثة .

أنا مؤمن بأن هذا الدور الذى يبدأ فيه ذلك التنظيم الإنسانى الرفيع لصلتنا بالكون سيكون من عمل الشرق . فالنظرية الطبيعية التى تقتضى تنظيم العمل قد

جعلت للشرق دائمًا هذا التنظيم وألقت عليه فى مختلف العصور عبء القيام به . قامت حضارة بابل وآشور ، وقامت الحضارة الفرعونية معاصرة لها ، وكانت وثنية تلك العصور وعبادة النار وقوى الكون المختلفة ، ثم قامت الموسوية فى مصر داعية إلى التوحيد . وقام التنظيم الرومانى معيداً إلى العالم العهد الوثنى متغنيًا أغنيات النعيم والترف غارقًا فى المادة إلى أذقانه ، ثم قام عيسى فى فلسطين يعلن أن دخول ملكوت الله أيسر من دخول الغنى سَمّ الخياط . وافتتنت الإمبراطورية الرومانية فى روما ثم فى بيزنطة فى التشريع جاعلة الوثنية ثم المسيحية المحرّفة قبلتها . وقامت إمبراطورية مثلها فى فارس المجوسية . ثم قام محمد فى بلاد العرب يدعو إلى التوحيد ، توحيد الله فى أبسط صورة وأقواها وأسماها . وحكمت الحضارة الإسلامية العالم بعد ذلك فى شرقه وغربه قرونًا متتالية ، حتى آن لسلطانها أن يفتر وإن بقى لها سلطان الغلب الحربى ممثلاً فى الأتراك حين اقتحموا أسوار القسطنطينية وحين مهدوا بهذا الفتح الحربى للبعث الأوربى . ثم كانت فترة الإحياء وما أعقب فترة الإحياء من ثورات دينية فى أوربا توّجها فولتير ومدرسته بنفى الأديان جميعًا والنعى عليها مما شق الطريق لبواكير البحث العلمى . وهذا العلم يؤتى اليوم من الثمرات ما أشرنا إليه ، ويشغل الإنسانية كلها ببناء قصور المستقبل . فليس من ريب فى أن يكون الوقت قد آن لتلقى المقادير على كاهل الشرق حظه من تقسيم العمل فى حياة الكون لتنظيم وحدة الكون على الأساس الذى آمن به الشرق دائمًا ، والذى تتابعت رسائل الوحى فيه على رسله وأنبيائه .

على أن الشرق يجب عليه حين يضطلع بهذا العبء أن يقف على أصدق ما قرر العلم من نظريات عن سنن الكون ، ومن تطبيق لهذه النظريات فى واقع الحياة . وهذا ما يقوم الشرق اليوم به جاهداً برغم ما يوضع من عقبات فى سبيله .

وهو إذ يهضم نظريات العلم ، ويطبق هذه النظريات ويعاون على نشرها ، يفعل ذلك فى الاتجاه الذى هيأه القدر له . فإذا جاء اليوم الذى تدوى فيه الصيحة ويطلع فيه النور ، كان الشرق مصدر الصيحة والنور جميعًا . وكان ذلك إيذانًا بعهد جديد فى حياة الإنسانية فهو عهد أساسه الإيمان بالحق وبوحدة الوجود إيمانًا مستنيراً لا يشوبه دجل ولا تعبث به خدعة .

الحياة محبة

صورة قديمة من حياة مصر الحديثة (*)

أهدى شاب إلى أناتول فرانس كتابًا ألفه وتوسل إلى كاتب فرنسا العظيم أن يقرأه ويبدى له فيه رأيه . وانقضت أيام وأسابيع تردد خلالها الشاب يسأل فرانس رأيه فى الكتاب ، فلما كثر تردده وإلحاحه قال له فرانس :

– يابنى فى مثل سنى لا يقرأ الإنسان جديداً ، وإنما يعيد تلاوة ما قرأ من قبل .

وأحسب الأمر لا يقف عند الكتب وقراءتها ، وعود الإنسان إلى ما استراح له من قبل منها ، بل هو يتناول الآراء والأفكار والصور التى تحيط بالإنسان منذ نشأته. فهو يتخطاها واحدة فواحدة ، وهو يعتقد فى كثير من الأحيان أنه قد خلفها إلى غير رجعة إليها ، لكنه ما يلبث ، كلما تقدمت به السن وكلما ازداد معرفة بالحياة وما فى الحياة أن يعود إليها ، ليمتحنها وليرى مبلغ ما كان فيها من خير وفضل ، وليحاول أن يبعث منها ما يعتقده قويًا على الحياة صالحها لها .

وهذا شعورى أنا اليوم . فقد تقلبت فى الحياة منذ الطفولة إلى هذه الساعة التى أكتب فيها ، فى صور وألوان من الحياة ، وتعلقت فيها بآراء وأفكار ، ثم أنكرت تلك الصور والألوان ، وطرحت تلك الآراء والأفكار وأنكرت منها ما كنت أعرف واستبدلت بها غيرها ثم غيرها . وها أنا اليوم أستعيد صورة الحياة أيام طفولتى وأسائل نفسى إذا لم تكن أدعى لسعادة الناس من صورة الحياة التى يحيون اليوم . وإذا لم يكن من الخير أن نعمل لإعادة هذه الصورة ، لا كما كانت فذلك غير ميسور، ولكن فى الحدود التى ترضاها قوى الحياة فى هذا الزمن الحاضر الذى انتقلنا وانتقلت الحياة إليه .

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ أبريل ١٩٣٤

والروح التى كانت تحرك تلك الصورة تتلخص فى كلمتين اثنتين: الحياة محبة ، محبة شاملة لكل ما فى الحياة ولإخواننا بنى الإنسان جميعًا أولا . محبة لا يغض منها التنافس ، ولا يعدو عليها بقاء الأصلح ، ولا تعرف استغلال القوى للضعيف . محبة صادقة تعطر جو الحياة كله ، وتجعل الناس يتحركون فيه على أنه الهواء الذى يتنفسون ، والنور الذى به يهتدون .. ماذا ؟ لست أريد أن أبدأ بشرح فكرتى ، وإنما أريد رسم صورة الحياة كما كانت فى دار طفولتى لأصور الفكرة كما تنور بخاطرى .

فقد كان جدى عمدة البلد ، وكان يناهز السبعين حين ولدت . ولشيخوخته هذه – على ما أظن – تواضع أهل القرية فأطلقوا عليه لقب شيخ البلد ، وكان رجلاً مثلاً فى التقوى والورع ، ولأنه كان أكبر إخوته فقد كان هو الذى يدير أملاك الأسرة كلها . وكانوا جميعًا كما كان أبناؤهم مقيمون وإياه بدار واحدة أطلق الناس عليها "الدار الكبيرة" لأنها كانت كبيرة بالفعل . كان بابها الواسع حتى ليدخل منه جمل بحمله يفتح على دهليز يؤدى إلى فناء رحب هو وسط الدار ، ومن حول هذا الفناء كانت تقوم غرف فوقها غرف يختص بطائفة منها كل رجل وزوجه وأبناؤه . وكان قطّان هذه الدار من أهلنا يزيدون على المائة عدا . وكانت لهم بها طاحون لا تهدأ الليل ولا النهار ، وأفران لتحميص الحب ، وأخرى لخبز العيش اختص بالعمل فيها بعض نساء الدار سواء من أهلها أو من أتباعهم يقمن قبيل الفجر ويعملن تلك فى تجهيز الحب للطحن ، وتلك لنخله بعد طحنه ، والأخريات للخبز . وذلك كله فى حركة متصلة قد تستمر أحيانًا إلى ضحوة النهار وأحيانا أخرى إلى ما بعد الظهر . وفى جانب من هذه الدار الكبيرة تقوم زريبة لأبقار اللبن وجواميسه تحلب فى المساء ، وفى الصباح قبل أن تذهب إلى المزارع ويعمل من ألبانها الجبن والسمن . وعلى مقربة من الدار الكبيرة كان يقوم دوار المواشى به مرابط الثيران واصطبلات الخيل . ويلاصق هذه الدار مناخ الجمال ، وهذه المواشى والخيل والجمال كانت تعمل فى أراضى الأسرة كلها لا فرق بين ما هو مملوك لجدى ولغيره من أهله وذويه ، لأنه كما قدمت كان أبًا للأسرة جميعًا فكانت كلمته فى الأسرة هى العليا ، وكان له فى قلوب إخوته وأبنائه وأبناء إخوته كل إجلال وإكبار.

وكنا نحن الصغار نتناول الطعام فى الدار . أما جدى فكان يتناول طعامه فى المضيفة القائمة إلى مقربة من الدار الكبيرة ومن باقى مبانى العائلة ، ولم يكن قط

يتناول طعامه من غير أن يحيط به من أهل البلد ومن الضيوف عدد غير قليل ، ومن هؤلاء أناس من أهل القرية عضتهم الحاجة فلاذوا بشيخ البلد يقضون أكثر وقتهم إلى مقربة منه ويتناولون الطعام وإياه ، ومنهم عدد غير قليل من أهله. أما الدار الكبيرة فلم يكن يقتصر تناول الطعام فيها على أهل الأسرة ، بل كان التملية الذين يشتغلون فى المزارع يتناولون فيها طعام العشاء بعد عودتهم من عملهم ، كما كانوا يفطرون قبل ذهابهم لعملهم اليومى . أما الغداء فكانوا يتناولونه فى المزارع . وهؤلاء التملية كانوا يجلسون كتفًا إلى كتف مع أبناء العائلة الذين يعملون وإياهم فى المزارع ويشعرون جميعًا كأنهم أسرة واحدة هذه الدار دارها وهذا الخير الذى ينالونه جميعًا خيرها المشترك بينهم جميعًا .

فإذا جاءت المواسم وآن لشيخ البلد أن يحضر الكسوة جيء بها إلى هؤلاء جميعًا. إلى التملية وإلى أبناء العائلة . ولن أنسى كيف كانت إحدى سيدات العائلة توزع الثياب على هؤلاء الناس من هذا المجتمع ، تعطى الواحدة كسوتها وكسوة زوجها وأبنائها . والتملية وأبناء العائلة فى ذلك سواء لا امتياز إلا لبعض الكبراء ممن تقدمت بهم السن ومن أصبحوا بحاجة إلى زى خاص يتفق مع سنهم ومقتضيات هذه السن من مبالغة فى الورع والتقوى .

هذه صورة موجزة سطحية من الحياة فى دار طفولتى . وقد ظلت هذه الصورة كما هى أو تكاد إلى ما بعد ذهابى إلى المدرسة الابتدائية بسنتين أو ثلاث بدأت بعدها تتطور شيئًا فشيئًا. وها أنا أعود الآن فأستعرض هذه الصورة القديمة التى مضى عليها وعلى بدء تطورها ما يناهز الأربعين سنة ، وأسائل نفسى إن كانت مصر قد أحسنت بالانتقال من هذا النوع من الحياة الاجتماعية إلى النوع السائد اليوم . فما أشك فى أن هذه الصورة التى شهدت بدار طفولتى كانت السائدة الحاكمة منذ أكثر من ثلث قرن مضى فى مصر جميعا ، وما أشك فى أن أهل كل قرية كانوا فى ذلك العهد كأهل قريتنا يتعاونون فيما بينهم ويحب بعضهم بعضا ويدين شيوخهم بما كان يدين به جدى من كراهية الاستدانة ، ومن اعتبار القرية وحدة يجب أن يسهر كبراؤها عليها لحمايتها مما يعتقدونه السوء والأذى. وأدت كراهية الاستدانة هذه بجدى إلى أن أحداً من الأروام أو غيرهم من المرابين لم يستطع أن يجد له بالبلد عيشاً . وكان أحد أهل القرية

إذا تأخر عليه لتاجر أو للحكومة مال دفعه عنه غيره ونظرة إلى ميسرة . وكان إكرام الضيف بعض عوائد أهل القرية جميعًا حتى لكانوا طوال شهر رمضان يخرج الواحد منهم طعام إفطاره أمام باب داره فإذا مر به ساعة الغروب فقير أو غريب دعاه لمشاركته فى اللقمة التى أمامه ، ودعاه عن نفس طيبة وقلب مطمئن كما يدعو الأخ أخاه والولى الحميم وليه الحميم .

ولم يكن ابن من أبناء العائلة أو أحد من التملية أو رجل من رجال القرية يجد إلى تذمر موضعًا. ذلك أنهم كانوا جميعًا يؤمنون بعدل شيخ البلد ، وبأنه رجل يؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ويرعى الفقير والبائس والمحروم ويرى الأقربين أولى بالمعروف ، ويقوم بما يقوم به من ذلك كله كما يؤدى فرائض صلاته وصيامه وزكاته وحجه ، مؤمنًا بأنه يؤدى لله حق الله عليه . ويقوم فى ذلك بأداء واجب الشكر لله ليزيده الله من نعمته . وكان ما يضربه للناس من هذه المثل يدفعهم إلى احتذائها ويجعلهم يحب أحدهم أخاه أو صاحبه ، لا لأن واجبًا عليه أن يحبه ، ولكنه يحبه كما يتنفس الهواء وكما يتناول الطعام فى أوقات الطعام .

كانت الحياة محبة إذن بين أهل القرية فى ذلك الزمن النائى القريب . ذلك الزمن الذى شهدنا نحن من لا نزال فى صيف العمر لم نتخطه بعد إلى الخريف ، أو لو تطورت حياة الجماعة المصرية فى هذا الضرب ، وبقيت هذه الحياة محبة تزداد كلما ازداد الناس معرفة للحياة واتصالاً بها ، أفما كان ذلك خيرًا من هذه الحياة التى استعرنا من الغرب والقائمة على أساس من الأثرة والشحناء والتنافس والبغضاء ؟. أو ليس غريبًا أن يكون هذا الزمن الذى نفاخر به ونزعم أنّا قطعنا فى سبيله الخطى قد نأى بنا عن أدق أسرار الحياة – المحبة – ودفعنا إلى التفكير فيما يفكر أهل الغرب فيه من نضال الطوائف وفى استئصال ما نظنه من إخواننا بنى الإنسان غير صالح ، وأدى بالكثيرين منا إلى أن يطرحوا جانبًا معانى الفضل والكرامة والشهامة والكرم والإيثار والمحبة ليسلكوا إلى المجد الموهوم أدنى السبل إلى الجريمة وأبعدها عن الخير والحق والجميل ؟ . إننى أفكر اليوم فى هذا وأشعر حقًا بأننا قد ملنا عن الطريق وضللنا الحجة وأننا أصبحنا نتخذ المثل الأعلى فى الحياة من حثالة أبناء الغرب الذين يفدون إلى شرقنا مزودين بظاهر زائف من علم ، وفضل ، وباطن حالك اللون من شراهة وافتراس .

أشعر بهذا ، فهل يرجع هذا الشعور إلى تفكير غير مقيد بالذاتية ولا متصل بهذا الماضى الذى أتحدث عنه ؟ أم أنه رجعة الضمير إلى منشئه الأول ، وتأثره بالبيئة التى نجم فيها ، والتعاليم التى تغذى أول أمره بها ، وحرصه على استعادة صور هذه النشأة الأولى على نحو ما يفعل الأكثرون حين يبلغون سناً معينة فلا يقرأون جديداً ، وإنما يعيدون تلاوة ما قرأوا من قبل ؟ هذا البحث نفسى جدير بالاعتبار جدارة اختلاف الناس فى النظر إلى الحياة بخلاف نشأتهم ، والتعاليم التى تلقوا أول حياتهم . كنت أتحدث إلى أحد معارفى الغربيين منذ أيام فذكرت له أن لا شىء أهون من كسب الوفير من المال على شريطة واحدة ، ألا يشتد الإنسان فى تقدير اعتبار الفضل ، والنزاهة والكرامة ، فكان جوابه : تلك اعتبارات علمها إيانا أشد الناس شرهاً للمال وحرصاً على اقتناصه لنكون أضعف منهم فى ميدان المنافسة . وكان دليله على رأيه هذا أن القسس ورجال الدين ممن نصبوا أنفسهم فى العصور الماضية لتعليم الزهد والإعراض عن الدنيا كانوا وما يزالون أوفر الناس ثروة وأشد للمال شرهاً . وهو لذلك يرى أن يعمل الإنسان للوصول إلى المال ما دام لا يقع تحت يد القانون ، لأن المال قوة ولأن الذين يعفّون عن المال عجزاً منهم عن اكتنازه وادعاءً منهم أنها الفضيلة والنبل هما اللذان يحولان بينهم وبين الثراء فهؤلاء يقعون فى كثير من الأحيان تحت سلطان أرباب المال يستغلون تفكيرهم وضمائرهم بما يشاء سلطان المال .

وبينما يقول محدثى الغربى هذا الكلام تنشر الصحف أن هتلر زعيم ألمانيا اليوم إنما وصل إلى ما وصل إليه من قوة لاحتقاره المال احتقاراً أدى به إلى التنازل عن مرتب المنصب الكبير الذى يشغله اكتفاء بما تدره عليه كتاباته . وهتلر يعتقد أن الإيمان الصادق بالفكر والدعوة إليها دعوة خالصة من شوائب الغرض الذاتى أقوى من المال ، وأقوى من كل سلطان .

أفينكر هتلر وينكر أيضاً محدثى الأجنبى ، فإن كلاهما متأثر بماضٍ قديم هو البيئة التى نشأ فيها ؟ ليكن الجواب بالإثبات أو بالنفى فلن يغير ذلك من رأيى شيئاً فى أن أعمق أسرار الحياة هى المحبة . وفى أن ما تقاسى الإنسانية اليوم من آلام يرجع إلى رغبتها عن معرفة هذا السر وعن السعادة به ظناً منها أن الإثراء والنعمة المادية يغنيان عن الإيثار والمحبة ورضى النفس . وهذا الظن إثم كله . وهو لذلك لا يمكن أن يعيش إلا ريثما تعود الإنسانية إلى إدراك سر الحياة .

العمل عبادة (*)

أذكر منذ أيام الصبا منظراً يتكرر اليوم وهو لن يزال يتكرر أبد الدهر ، ذلك حين كنا نقضى إجازاتنا المدرسية بالريف ، وحين كنا نخرج فى أحيان كثيرة مع الفجر ، فنرى القرية استيقظت ، ونرى الرجال يذهبون إلى المسجد يؤدون فيه فريضة الصبح قبل مطلع الشمس ، لينتشروا بعد ذلك فى المزارع يعكفون فيها على العمل نهارهم ويبقى بها منهم شطراً من الليل من يمسكهم العمل فيها هذا الشطر من الليل ، وترى النسوة أخذت كل منهن جرتها لتملأها ولتعود بها مراراً ، ثم لتعكف على عمل الدار صباحها حتى إذا كان الظهر ذهبت لرجلها بطعام الغداء فى المزرعة .

أعادت هذه الصورة إلى ذاكرتى مثل لا تينى معروف ترجمته "العمل عبادة" . ولهذا المثل نظير فى لغات العالم جميعًا . وفى ريفنا يقولون : الشغل عبادة ، كما يقولون نوم الظالم عبادة . والحق أن كل عمل صالح عبادة . فالعمل الصالح هو بعض ما وجد الإنسان فى هذه الحياة ليقوم به ، بل هو كل واجب الإنسان فى هذه الحياة ، وكلما ازداد الإنسان فى العمل الصالح دأبًا وإتقانًا ازدادت عبادته وازداد عند الله أجره ومثوبته .

والعمل الصالح يتناول كل عمل مثمر يقوم به الإنسان لخيره وخير الناس من غير عدوان به على أحد من الناس ، إلا أن يكون دفعًا لظلم أو اجتنابًا لضر . فى هذه الحدود كل عمل شريف ، وكل عمل عبادة ، يستوى العمل اليدوى والعمل العقلى أو الفنى . فهؤلاء الذين يقومون مع الفجر يفلحون الأرض ، والذين يعملون فى الصناعة

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ يونية ١٩٢٥

أو فى التجارة ، والذين يسعون فى مناكب الأرض ابتغاء الرزق، يتساوون مع العلماء ورجال الفن والسياسة ورجال الحكم فى أن عملهم شريف ، وأنه لذلك عبادة خالصة لله . ولقد أخطأ أولئك الذين كانوا يفاوتون بين الأعمال ويعتبرون بعضها أشرف من بعض ، ليصلوا من ذلك إلى أن الرجل الغنى عن العمل المتعالى ، لذلك عليه هو أشرف الناس مقاماً وأكثرهم نبلاً - أخطأ هؤلاء وضلوا ، فالمتعالى عن العمل كسلان يأكل عمل غيره ويسلب هذا الغير حظًا من رزقه بغيًا بغير حق ، ولو أن رجلاً اجتمعت له الأموال حتى ما يكاد يحصيها لما أعفاه ذلك من أن يعمل ، ولما سوّغ له ذلك أن يستنزف باسم ماله عمل غيره. فهو إما أن يكون قد جمع هذا المال من طريق العمل الحلال فواجب عليه أن يتابع سعيه فى هذا العمل الحلال ، وإما أن يكون قد آل إليه من عمل غيره فواجب عليه أن يسعى كما سعى هذا الغير ، وأن يعمل ليكون قد أدى فرضه من العبادة .

والعبادة فى الحق ما هى ؟ هى هذا التوجه الخالص للاتصال بالكون إيماناً بخالق الكون ، وكيف لنا أن نتصل بالكون إذا لم نعمل فيه ؟ كيف لنا أن نتصل به إذا نحن جعلنا كل همنا إلى الانفصال عنه فراراً مما نسميه همومه وآلامه ؟ نعم ! كيف نتصل بالكون إذا قصرنا كل جهدنا على أن نستهلك ثمراته دون أن ننتج مكانها ثمرات جديدة من نوعها أو من نوع آخر ؟ وكيف يؤمن بخالق الكون إيماناً صادقًا من لا يترك بعمله فى الكون أثرًا أيًا كان نوعه ؟ . أو لو تصورنا الناس جميعًا، رجالاً ونساء ، شبانًا وشيبًا وقد انقطعوا عن العمل زمنًا ، فماذا يكون مصيرهم وماذا يكون مصير الكون ؟ أما هم فمصيرهم لا ريب أن يمحوهم الكون وأن يستبدل بهم قومًا غيرهم . وأما الكون فيظل فى حياته دائبة ذراته على التفاعل والعمل . فإذا كان ذلك مصير الجماعة كلها إذا جنحت إلى البطالة، فالعدل يقتضى أن يكون مصير الفرد كذلك إذا جنح إليها . والنظم التى تحمى البطالة نظم آثمة تجنى على الإنسان أكبر جناية .

وفى يقيننا أن العالم لم ينحدر فى عصر من العصور إلى درك الانحلال والانحطاط إلا حينما انصرف أهله عن العمل المثمر فى نواحى الحياة المختلفة ، وجعل كل همه إلى أن يعيش من سلب عمل غيره ، وحينما اعتبرت المهارة فى سلب عمل الغير "شطارة" يستحق صاحبها الإجلال واحترام الناس إياه ، فالجماعات التى تسيغ مثل هذه الآثام وتحترمها تسرع فى تفكيرها إلى وثنية وضيعة أولى درجاتها عبادة المال

وتقديس أربابه والنظر إليهم كأنهم أنصاف آلهة يجب أن تقرب إليهم القرابين ، وأن توجه إليهم صنوف العبادة ، فإذا كان ذلك كان هذا سبب ثورة الذين ينهكون أنفسهم كدحًا وعملاً على أنصاف الآلهة هؤلاء . وليس يخالجنى شك من الريب فى أن المذاهب الاشتراكية المتطرفة ، وفى أن البلشفية التى قامت فى العالم كثمرة من ثمرات الحرب ، إنما هى بعض آثار هذه الوثنية والثورة عليها . وليس يقف تعليل ذلك عند ما ذهب إليه كارل ماركس ومن تبعه ، وفى مقدمة الثائرين منهم لينين ، من أن الطوائف فى الجماعة فى نضال دائم ، وأن الغلب دائمًا للعدد الأكبر لأنه مركز القوة المادية ، وإنما تعليله الحقيقى فى أن الأقلية التى تريد أن تطبع الجماعة على غرارها يجب أن تكون صفوة مختارة ذات غرض إنسانى سام ، هو التوجه بالجماعة إلى سبيل النعمة والكمال من غير أن تتخذ هذه الصفوة مكانها ذاك وسيلة لتمعن فى صنوف المتاع المادى ، وتجعل نفسها فى مكان السيادة ، وتجعل الكثرة الكبرى عبادًا لها . يوم توجد هذه الصفوة ويوم يكون الأمر لها لا يكون بين الطوائف نضال على نحو ما يصوره ماركس ، ولا تكون الجماعة بحاجة إلى نظم خيالية لا تتفق مع واقع الحياة على ما ذهب إليه فوربيه وسان سيمون وغيرهما . فهذه الصفوة المختارة لن ترضى عن نظام يبيح البطالة لرجل لأنه غنى ، ولن ترضى لذلك أن يشعر السواد بأن غيره يسلبه حظًا من رزقه ، وإنما يكون العمل فى رأيها عبادة يجب على كل أن يؤدى فرائضها ، ويجب أن ينال كل ما كتب له من رزق بسبب أدائها ، لا يظلم أحد أحدًا ، ولا يسلب أحد عمل أحد .

وإنى لأعجب من أولئك الذين يطيقون أن يمضوا وقتهم فى غير شىء إلا التحايل على إرضاء أهوائهم وشهواتهم الدنيا ، كما أعجب لأولئك الذين يريدون أن يجعلوا رزقهم فى الحياة ثمرة المصادفة والحظ . لذلك كنت أرى دائمًا أن هذه (اللوتريات) وهذه المسابقات للخيل وما يكسب الناس من ورائها عمل غير جائز . كما كنت أرى الميسر الذى يمضى الناس على مناضده ساعات وأيامًا عملاً غير جائز. حقًا إن أعمالاً خيرية لها قيمة عظيمة تستفيد من اللوتريات ومن سباق الخيل لتؤدى إلى الناس أعمالاً جليلة ، لكن من الحق كذلك أن أوراق الحظ هذه مفسدة للشعوب داعية إياها إلى الاستهانة بالعمل وإلى الركون لألوان من النقائص شتى . ولو أن الجماعة أنفت هذا

النوع من الرزق الحرام ونظرت إلى أصحابه نظرة الزراية ، وجعلت للذين يلتمسون المثل الأعلى فى الحياة بالعمل الشريف كل احترامها ورأت فى دأبه على العمل الشريف العبادة الصادقة الخالصة لله ، إذن لتقدست فى النفوس من المعانى الإنسانية السامية آثار عميقة تدفعها إلى التضحية فى سبيل البر ، وإلى إقامة أعمال الخير من فيض فضل الله عليها بدل أن تقوم هذه الأعمال على أساس من الطمع فى الربح ، ومن التماس كل وسيلة له .

وكل مؤمن يذهب بحق إلى أن العبادة سبيل السعادة ، فهل من سبيل للسعادة أوفى وأكرم من العمل الشريف ؟ هل من سبيل للسعادة أوفى وأكرم من هذا الدأب المتصل يرى صاحبه آثار عمله كل يوم تزدهر تحت نظره كما يرى الأب البار الحنون أبناءه يشبون ويكبرون بعينه ، وليكن فلاحنا المثل دائماً أمامنا ، فهذا هو يكدح نهاره وجانباً من ليله . وهذا هو يرى ثمرة كدحه كل يوم تزداد أمام عينه ازدهاراً حتى يحين جناها ، وهو أثناء ذلك كله سعيد بنموها وازدهارها سعيد بأثمارها وجنى ثمرها شاكراً نعم ربه يرجو من الله أن يزيده بالشكر نعمة ، وتلك هى السعادة وذلك هو النعيم .

أما الذين يحسبون الحياة لهواً ولعباً ولا شيء غير اللهو واللعب فيها ، فإنما يغريهم الشباب ويزين لهم شيطانه . فإذا تقدمت بهم السن ألفوا أنفسهم عاجزين عن العمل ، وألفوا الشباب قد خلق لهم بلهوه ولعبه من سيء الآثار فى مالهم وفى صحتهم ما لا يجدى معه الأسف ولا يغنى عنه الندم . فليذكر شبابنا دائماً أن العمل عبادة . وأن العبادة مرانة متصلة منذ أول الصبا . فمن هجر العمل فى أول عهده بالقوة على الحياة هجره العمل حين يشعر بالحاجة إليه . يومئذ يحس إحساساً أليماً بأن الحياة تخلت عنه وبأن الحظ خانه ، وما تخلت الحياة عنه وإنما تخلى هو عنها ، وما خانه الحظ وإنما خان هو نفسه . فليبكر كلما استطاع بهذه العبادة السعيدة المسعدة . فليبكر كل بالعمل والدأب عليه والإثمار فيه ، العمل الذى يقوم به الإنسان لخيره ولخير الناس من غير عدوان على أحد إلا أن يكون دفعاً لظلم أو اجتناباً لضر ، وفى هذه الدائرة كل عمل شريف وكل عمل عبادة .

حضارة البِرّ والرحمة (*)

لما زرت بيروت فى أوائل يونيو الماضى إجابة لدعوة جمعية العروة الوثقى بالجامعة الأمريكية للاشتراك فى الاحتفال باليوبيل الألفى للمتنبى ، دعتنى عمدة دار الأيتام الإسلامية ببيروت لألقى محاضرة بالدار تتصل بكتابى "حياة محمد" . وقد آثرت أن أحدِّث القوم عن الحضارتين الأوربية والإسلامية إجابة لهذه الدعوة الكريمة ، على أننى رأيت من الخير أن أزور الدار قبل يوم المحاضرة وأتعرف إليها وأعرفها بنفسى . وأجابت عميدة الدار - وهى إدارتها على حد تعبيرنا فى مصر - طلبى فذهبت بعد ظهر الاثنين الثالث من يونيو ، وجعلت أثناء الطريق أسأل دليلى عن الدار ما هى وماذا تقوم به من عمل ؟ .

ووقفت بنا العربة على باب بناء فيه عظمة وفيه بساطة ، ودلفت إلى فناء الدار ، ثم إلى حجرة المدير وفى نفسى صورة من هذا المعنى القاسى ، معنى اليتم وآلامه المادية والمعنوية . وطفت أنحاء المكان ورأيت الأيتام ، وسمعت إلى حديث بعضهم ، وتحدث إلىّ معلموهم وأرونى صناعاتهم ، وما غرست أيدى البنين ، وما غرست أيدى البنات فى جوانب ملاعب الدار الفسيحة ، وخرجت من الدار وفى نفسى صورة تختلف كل الاختلاف عن الصورة الأولى المنقبضة الأسارير ، والتى تمثل ألم الجسد والروح . خرجت وأنا أقول : لا يتم ولا أيتام وفى الناس قلوب تغدق من برها ومن حنانها ومن رحمتها أبوة على من حرمهم القدر آباءهم ، وأمومة على من حرمهم القدر أمهاتهم ، ونعمة على من حرمهم القدر النعمة، وبشاشة على وجوه صغار لولا هذه القلوب لذهبت

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ يوليو ١٩٣٥

بشاشتها ، بشاشة تجعل أبناء الدار ينعمون بالصحة والعافية وبالمعرفة ، والأمل الباسم للحياة . وكذلك خرجت ممتلئًا إعجابًا بمجهود إنسانى عظيم تتمثل فيه أسمى المعانى الإنسانية ، المحبة والشفقة والإيثار .

من يومئذ ترد إلى خاطرى صورة هذه المبرة ويدعونى إلى أن أسأل : إذا كان يسيرًا على الإنسان تهوين المشقة على الإنسان ، وعلى الصغير الذى فقد أعز ما فى الحياة ، فما بالنا نرى الشقاء مخيمًا على الأرض ، فما نلبث نسمع صيحات الأسى والألم منبعثة من أعماق القلوب فى أقطار الأرض طرا ؟ وتهوين المشقة على نحو ما فعلت دار الأيتام الإسلامية ببيروت لا يقتضى عظيم جهد ولا كبير نفقة ، وإنما يقتضى عاطفة صادقة وبرًا مخلصًا بالمحتاج حقًا إلى هذا البر . فهذه المؤسسة البيروتية إنما قام بها أول أمرها رجل واحد هو الدكتور إدريس ، قام فدعا الناس إلى هذا البر ملتمسًا من قلوبهم الخير فالتف حوله جماعة من أهل بيروت الذين لا يجلسون من الناس مجالس الحكم ولا يتمتعون فيهم بعريض الجاه ، وأبدوا صادق رغبتهم فى معاونته ، من هؤلاء سرت العدوى إلى غيرهم فبذل كل ما تدعوه عاطفته إلى بذله . تبرع كثيرون بإقامة غرف بالذات أو أجنحة من بناء الدار ، لم يقصدوا من ذلك إلا الإحسان ابتغاء رحمة الله وإرضاء لأرواحهم أو أرواح أعزة عليهم انتقلوا إلى جوار الله ، فشعر أبناؤهم وشعر تلاميذهم وشعر محبوهم ، بأن نفوس هؤلاء الأعزة تزداد فى الدار الآخرة رضى ، وبأن أرواحهم تزداد فيها اطمئنانًا حين تحس بأنها ما برحت تتصل بهذا العالم اتصال بر باليتيم والضعيف والبائس والمحروم .

ولن أنسى معنى رائعًا تركته هذه الدار فى نفسى . ذلك أن البر والرحمة كسائر العواطف الإنسانية السامية ، لا يحول دون ظهورها وتفجر ينابيعها اختلاف الناس فى الجنس أو فى الدين . فمن الغرف التى أقيمت بهذه الدار الإسلامية ببيروت حيث يربى الأيتام من أبناء المسلمين وبناتهم، غرف أقامها محسنون مسيحيون يتساوى العطف فى نفوسهم على اليتيم المسيحى وعلى اليتيم المسلم، ويرون هذا وذاك جديرين بحق متساو من الحياة والمحبة والإحسان . وكيف يرضى العقل أم كيف ترضى العاطفة أن يحول دين الإنسان بينه وبين الإخاء للإنسان وبينه وبين الإحسان على أخيه المحتاج للإحسان .

وتشترك حكومة لبنان في معاونة الدار كما يعاونها تجار بيروت من أهل البر يرسلون إليها بما يحتاج إليه الأيتام من أشياء لمأكلهم ومشربهم . لذلك نرى هؤلاء الأيتام وعلى وجوههم البشاشة ، وترى صناعاتهم مثمرة عليها الإقبال تقديراً لهؤلاء الأبناء وتشجيعًا . وليس في الحياة خير من عمل أسس على البر والتقوى . وليس أجدر من هذا العمل بالبقاء على الحياة .

* * *

ترد إلى خاطري صورة هذه المبرة فأسأل نفسي : ما لنا لا نزال نسمع أنات اليأس وصيحات الألم إذا كان يسيراً تهوين الألم وتيسير المشقة على هذا النحو الجميل الذي رأيت ؟ وعندي أن ذلك يرجع إلى هذا الأساس الاقتصادي لحضارة العالم في وقتنا الحاضر . هذه الحضارة التي تجعل المال غرضها الأول وتستخدم كل شيء في سبيله . فهي تستخدم العلم وتستخدم التشريع وتستخدم الفن وتستخدم العواطف لتحويله من طائفة إلى أخرى . في سبيله يهون كل شيء وتهون الحرب ذاتها ، يقتل فيها ملايين الناس باسم الحرية تارة ، وباسم القضاء على الروح العسكرية تارة أخرى وباسم الإنسانية نفسها طوراً ثالثًا . وهذه كلها علالات وخدع تنصب في سبيل المال وحصره في يد طائفة من الناس تتحكم عن طريقه في سائر الطوائف تحكمًا هو مبعث هذه الصيحات والأنات التي تحز في كبد ذوي النفوس الحساسة ، ولا تلقى عند أرباب المال المتحكمين في غيرهم بسببه إلا ابتسامات ازدراء واحتقار لهؤلاء الذين يئنون ويتألمون . ولو قامت الحضارة على غير أساس المال ، لو قامت على أساس إنساني تبعثه عواطف البر والإخاء والمحبة لأمكن محو الألم أو تهوينه على الأقل ، ولاستطاع الإنسان أن يشعر بالإخاء الحق نحو الإنسان .

لما اندلعت الثورة الفرنسية وفكر آلهتها في غزو العالم بمبادئها جعلوا شعارها الحرية والمساواة والإخاء . وفي سبيل هذا الشعار أريقت دماء وأزهقت أرواح وقيل بعداً للظالمين . وقد استطاعت الأجيال منذ الثورة إلى ما قبل الحرب الكبرى أن تحقق للناس الحرية والمساواة أمام القانون . حقق هذان المعنيان من شعار الثورة ونظمًا بالقانون . وتمهيداً لتنظيم القانون إياهما كتب الكتّاب والفلاسفة كتبهم البليغة البارعة

فى تصوير هذين المعنيين وكيف يجب لخير الفرد لخير الجماعة أن يتحققا ، وأن يكفلهما القانون . وتغنى الشعراء بالحرية والمساواة ، وأنشدوا فيهما روائع القصيد ، ووضعوا فيهما حلو الأغانى . وكذلك مهد هؤلاء وأولئك لتحقيق الحرية والمساواة وتنظيمهما. فأما الإخاء ، فهذا المعنى الأوسط من شعار الثورة الفرنسية ، فبقى الأمر فيه متروكًا لعواطف الأفراد . لم يتناوله الكتاب والفلاسفة ولم ينظم فيه الشعراء ما يمهد لتحقيقه وتنظيمه بالتشريع ليصبح أمرًا واقعًا كالحرية والمساواة ، بل بقى معتبرًا أملاً حلوًا يشكر الفرد إذا هو حققه وسعى إليه . ولا تثريب عليه إذا هو لم يحفل به ولم يرتح إليه ولم يحققه بالفعل فى الحياة ، وإنما يرجع السبب فى هذا إلى أن الحرية والمساواة اتصلا بمصالح الناس المادية وبنظامهم الاقتصادى . اتصلا بالعوامل الاقتصادية الثلاثة : الطبيعة والعمل ورأس المال . أما الإخاء فبقى معنى إنسانيًا ساميًا فوق هذه الاعتبارات الاقتصادية وما يحتدم بين الناس من الخصومات بسببها ، فاعتبر لذلك كمالاً . فالتشريع لا يتناول الكمال ولا ينظم الخلق ، وإنما ينظم المعاملات وينظم الجرائم والعقوبات .

وسمع الناس أثناء الحرب الكبرى أغنيات الحرية وحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، لكن الحرب ما كادت تضع أوزارها حتى اعتبرت الحرية نفسها وهما من الأوهام ، وإذا هى تلحق الإخاء فى أنها أمل حلو يشكر الفرد إذا قدّره وأجلّه ، وإذا التجنيد الاقتصادى يحل محل التجنيد الحربى فيعصف بالأمانى الإنسانية المتواضعة التى تخلفت عن الثورة الفرنسية ويحيل الإنسان آلة كآلات المصانع ، وإذا النضال الاقتصادى على أشده ، وإذا التشريع وضع لحماية هذا النضال تشريعًا لا يعنى فيه من أمر الأفراد بكثير ولا بقليل . وهذا هو فى الحقيقة مصدر القلق الذى يساور الإنسانية فى الوقت الحاضر ويدعو أكبر الساسة الأوربيين للتساؤل عن مصير الحضارة الأوربية حضارة المال والاستعمار فى سبيل المال .

إن الحضارة التى تقوم على هذا الأساس لا يرجى منها أن تعاون على البر والرحمة ، وأن تخفف من ويلات من تقسو الأقدار عليهم ، بل هى على العكس من ذلك ترى هؤلاء الذين قست عليهم الأقدار غير صالحين للبقاء ، وتقضى عليهم لذلك بأن يفنوا تحت عبء أرزائهم وهمومهم . وفلاسفة أوربا وكتّابها لا يأبون أن يقرروا ذلك ، وأن يصارحوا

الناس به . ولئن بقيت فى بعض النفوس الأوربية دوافع للعواطف الإنسانية السامية التى تجعل أصحابها يقيمون من أعمال البر ومنشآت الإحسان ما يخفف الألم عن المتألم والهم عن المهموم ، فإن ذلك لا يعتبر فى عرف الحضارة الأوربية واجباً إنسانياً يتحتم القيام به ، بل هو فى نظر كثيرين من كبار كتّاب أوربا بقية من بقايا الضعف المتخلف عند الإنسان من عصور الحياة الدينية والحياة التجريدية . أما الحياة العلمية فلا تقر فى رأيهم هذا الضعف ولا ترضى عن بقاء الضعفاء فى الحياة .

هذا الأساس الذى تقوم عليه حضارة اليوم أساس فاسد فى رأينا . وما يدعو إليه الإسلام من البر والتقوى وما يفرضه على الناس من الزكاة والصدقة وما يوصى باليتيم والبائس والمحروم هو الأساس الجديد بأن تقوم عليه حضارة إنسانية حقيقة باسم الإنسانية . وقد ثبت على مر الدهور أن النوابغ الذين تهبهم الأقدار خير الصفات الإنسانية ينبتون أغلب أمرهم فى البيئات التى صقلها الألم وهذبت عواطفها الإحساسات القاسية . فكبار الشعراء وكبار الأدباء رجال الفن الممتازون والمخترعون الذين نقلوا الإنسانية فى أطوار حياتها مراحل واسعة ، كان أكثرهم من هذه الطبقات التى تدعو حضارة اليوم إلى إفنائها بدعوى أنها ضعيفة غير صالحة للبقاء . والبر باليتيم والبائس والمحروم أمر يسير كما رأيت فيما قصصنا عليك من بناء دار الأيتام الإسلامية ببيروت . فمن خير الإنسانية أن تقيم حضارتها الجديدة على هذه الأسس الإنسانية السامية ، لتكفل لأبنائها السعادة وللجماعة الإنسانية كلها الرقى والتقدم .

أثر السياسة فى أخلاق المجتمع

السياسة تنهض بأخلاق الأمم القوية (*)

فى الحياة ألغاز يحار الناس فى حلها . ومن الكتاب من ينفق مجهوداً غير قليل فى محاولة حل هذه الألغاز . فأيهما أسبق فى الحياة : الدجاجة ، أم البيضة ؟ . ولعل من ألغاز الحياة ما بين سياسة أمة من الأمم وأخلاقها من تفاعل . فهل هى السياسة التى تؤثر فى أخلاق الأمة ؟ أو أن أخلاق الأمة هى التى توجه سياستها ؟ وعندنا أن الأمرين متلازمين تمام التلازم . وأن نظام الحكم فى أمة من الأمم والطريقة التى ينفذ بها هذا النظام ليس إلا ظاهرة من ظاهرات حياة الأمة النفسية ، وبالتالى من ظاهرات أخلاقها . ومع ذلك فلطريقة الحكم فى الأمم أثر فى أخلاق الجيل الذى يخضع لهذه الطريقة ، وفى الأجيال التى تتأثر به بطبيعة الحال .

لما انتهت الحرب العظمى الماضية ، كانت الفكرة البلشفية التى استولت على نظام الحكم فى روسيا تهدد أكثر ممالك أوروبا . فكان أثرها فى ألمانيا والنمسا وإيطاليا واضحًا أكثر من وضوحه فى فرنسا وإنجلترا . وكانت الثورة تهدد هذه الدول وتقلب نظمها رأسًا على عقب . إذ ذاك قام موسولينى فى إيطاليا ، وجمع حوله أنصار رأيه فى محاربة البلشفية من الفاشست ، وزحفوا على روما ، واستولوا على الحكم فيها وبدأوا يقيمون نظامًا جديداً غير النظام الديمقراطى التقليدى الذى كان معروفًا فى إيطاليا يومئذ . ومن ذلك الوقت بدأت إيطاليا تتجه فى حياتها كلها اتجاهًا جديداً ، وبدأ زعيمها موسولينى يضع لها مُثل عليا ويغرس فى نفوس أبنائها آمالاً لم تكن معروفة عندهم من قبل. بذلك بدأ الشعب الإيطالى يحس لنفسه بمكانة فى العالم غير المكانة

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ مارس ١٩٣٦

المتواضعة التى كانت له قبل الحرب الكبرى وبعدها وإلى أن تولى موسولينى مقاليد الحكم فيه . ووجه هذا الشعور الجديد أخلاق الشعب الإيطالى وجهة جديدة حجبت ما كان فيها من ضعف ، وأبرزت ما فيها من قوة ، وهيأت لإيطاليا أسباب السؤدد ، ومكنتها من أن تقف وحدها بعد خمس عشرة سنة من بدء الحكم الفاشستى موقفًا حيّر العالم كله .

ومثل ألمانيا ليس أقل إثارة للملاحظة من مثل إيطاليا . فهذه الأمة التى خرجت هزيمة من الحرب الكبرى ، والتى أملى الحلفاء عليها فى معاهدة فرساى ما أملوا ، قد استطاعت أن تسترد قوتها وكرامتها ومكانتها الدولية فى خمس عشرة سنة منذ انتهاء الحرب . هذا بينما بقيت دول غيرها محطمة هشيمة ضعيفة الرجاء فى استرداد مكانتها كل همها أن تتصل بدولة أخرى لتنقذها من المهانة التى هوت إليها .

أفهى القدرة السياسية التى استطاعت أن تبلغ بإيطاليا وبألمانيا هذا المبلغ ، بينما قعدت هذه القدرة بغيرهما عن إدراك المكانة التى تطمع فى إدراكها . أم أن أخلاق هذه الشعوب هى التى مهدت للمقدرة السياسية السبيل ؟ فى رأينا أن ثمة تلازمًا وثيقًا بين الأمرين : بين الأخلاق والسياسة . وهذا التلازم يبدو واضحًا فى مثل آخر حديث بشكل أوثق اتصالاً بهذين المثلين . ذلك مثل الإمبراطورية البريطانية ، فقد قيل عن هذه الإمبراطورية أنها هرمت وأصبحت غير قادرة على أن تعمل شيئًا أكثر من الدفاع عن كيانها دفاع الهرم المتدلى إلى الفناء ، فلما كانت المشكلة الدولية الأخيرة بين إيطاليا والحبشة ورأت إنكلترا كيانها كإمبراطورية مهددًا ، نهضت نهضة جديدة قوية تدل على أن حيويتها ما تزال قوية متوثبة . وقد دل الشعب الإنكليزى بما أبداه فى مختلف أدوار هذه الأزمة الأخيرة على أن ما عرف عنه من متانة خلقية وجلد قوى ما يزالان ذوى أثر فعال فى حياته السياسية العامة .

هذا التلازم بين السياسة وخلق المجتمع يجعل للسياسة فى الأمم القوية الخلق أثرًا يزيد خلقها قوة، وفى الأمم الضعيفة الخلق أثرًا يساير هذا الضعف حتى يغير الله ما بهذه الأمة من ضعف حين تغير ما بنفسها ، وعلة ذلك بسيطة واضحة ، فإن الأمم القوية الخلق هى التى يحكم فيها الرأى العام على الحاكم والمحكوم جميعًا فيها تعتبر

الحكومة وكيلة عن الشعب مأجورة على وكالتها ، فإذا هى حادت عن حدود الوكالة حاسبها الشعب على ذلك حساباً عسيراً بالثورة عليها وبإسقاطها . والحكومة فى مثل هذه الشعوب تعتبر الثورة حقاً من حقوق الشعب ، فهى تتفاداها بالنظم الديمقراطية . والحقيقة أن الانتخابات العامة التى تقيم حكومة وتسقط أخرى ليست إلا ثورة منظمة تصالح عليها الملوك مع شعوبهم فى الأمم القوية الخلق . فبدل أن تقوم الطوائف صاحبة النفوذ بحرب أهلية تسقط الحكومة أو تنتهى بانتصار الحكومة ، وبإذعان هذه الطوائف ، تواضع أهل هذه الأمم الديمقراطية على تصوير هذه الثورة بصورة أقرب ما يستطاع إلى الهدوء . وهذا هو ما دعا إلى وصف الانتخابات بالحرب الانتخابية وبالمعارك الانتخابية ، فهى فى الواقع حرب بين طائفتين أو عدة طوائف كل واحدة تريد الاستيلاء على الحكم والاستئثار بالأمر ، فإذا ما انتهت هذه المعارك بانتصار طائفة تولت الحكم كما لو كانت قد حدثت ثورة دموية بالعنف انتهت إلى انتصار فريق وهزيمة فريق آخر .

هذا ما يحدث فى الأمم القوية الخلق ، وهو الذى يجعل الحياة الديمقراطية فيها تبقى ابدا ، لا يستطيع أحد أن يعصف بها ، لأن الذى يعصف بالحياة النيابية يجب أن يكون أقوى أبداً من الأمة نفسها . أما فى الأمم الضعيفة فأثر السياسة فى الأخلاق يختلف بل يتفاوت عن أثرها فى الأمم القوية تفاوتاً بيناً . فى الأمم الضعيفة الخلق تعتبر الأمة الحاكم سيداً لا وكيلاً مأجوراً ، ولذلك تفشو فى طوائفها أخلاق المحسوبية والمحاباة والرياء ، فإذا قام من أبنائها أشخاص أقوياء الخلق اعتبروا الحاكم وكيلاً عنهم وأرادوا محاسبته كوكيل ، فثار الحاكم عليهم فلم يجدوا النصير الذى يستطيع أن يمكنهم من التغلب على الحاكم ، بل رأوا على العكس من ذلك نظرات اللوم توجه إليهم على أنهم ارتكبوا وزراً يجب عليهم أن يؤدوا ثمنه وأن ينالهم جزاؤه .

لما تحرجت الأحوال فى مصر فى آخر عهد المغفور له الخديو الأول إسماعيل باشا وازداد تدخل الدول بسبب الدين العام ، ألفّت الحكومة المصرية مجلس نواب اختير من سراة البلاد وأعيانها ليكون إلى جانب الحكومة يعاونها فى موقفها الدولى الدقيق ، وآن لهذا المجلس أن يجتمع ووقف رئيسه يريد أن يضع التقاليد البرلمانية ، فكان من أول ما نكره لنواب الأمة أن يجلس المؤيدون منهم للحكومة فى مقاعد اليمين من المجلس ، وأن

يجلس معارضوها فى مقاعد اليسار . هنالك تزاحم النواب جميعاً بالمناكب إلى مقاعد اليمين ، يريد كل واحد منهم أن يكون فى أشد المقاعد تأييداً للحكومة . ولما سئلوا فى ذلك أنكروا أن يكون لحكومة الجناب العالى الخديوى معارض ، وأنهم جميعًا خدام الحكومة . هذه هى قصة يقرأها المصرى ابن اليوم فيعجب ، ولكن عجبه لا يبلغ عجب الإنكليزى إذا قرأها . فالإنكليزى يخالف صاحبه فى الرأى السياسى مخالفة صارخة ويكون الواحد منهم محافظًا من غلاة المحافظين والآخر اشتراكيًا من غلاة الاشتراكيين ، ثم لا يغير ذلك من علاقاتهم الشخصية ولا من صداقتهم ، وقد يتناقشون وتبلغ بهم الحدة غايتها ، ثم لا يكون لذلك أى أثر فى معاملاتهم لأن كل واحد منهم يؤمن بأن صاحبه يصدر عن عقيدة صادقة يعتبرها تحقق المصلحة العامة وإن أضرت بمصلحته الذاتية . وكفى بالمرء فى الحياة فخاراً أن لا يصدر فى أعماله إلا عن عقيدة وإيمان .

إذا وجد فى أمة ضعيفة عدد من أبنائها يصدرون فى أعمالهم عن عقيدة وإيمان ، ولا يردهم إهدار مصالحهم عن المضى فى العمل بعقيدتهم ، والدعوة إلى إيمانهم كان هؤلاء النواة التى تقوى من ضعف الأمة وتمتّن من خلقها . أما وقد ضربنا المثل بإيطاليا فى أول هذا الفصل ،فإنه يجب أن نشير إلى أن عقيدة موسولينى وإيمانه بها إلى حد استعداده التضحية بحياته فى سبيلها ، هى التى ثقلت إيطاليا من موقفها الذى كان يهدد وجودها بعد الحرب الماضية مباشرة إلى الموقف الذى تقفه اليوم فى السياسية والأخلاق . فالشخصية القوية تجذب إليها من يؤمنون بمثل إيمانها وتدفع إليهم قوةً وبأسًا وتزيدهم إيمانًا وثباتًا . وما دامت المُثل العليا أكبر قدراً عند هؤلاء من الحياة ذاتها ، وما داموا يعرفون كيف يتمنون الموت صادقين فى سبيل عقيدتهم وإيمانهم ، فليس يسيراً أن تتغلب عليهم قوة من القوى .

ونختم هذا البحث بالإشارة إلى ما كان من المهاتما غاندى فى الهند وفى العالم بأسره من أثر كبير فى السياسة وفى الخلق جميعًا . فقد بلغ من أمر هذا الأثر أنه طوّر حياة الطوائف فى الهند وطوّر علاقات إنجلترا بها ، ومن قبل أن يكون لغاندى هذا الأثر فى الهند كان له مثله وأكبر منه فى جنوبى أفريقيا .

من هذا كله يتضح ما بين السياسة والأخلاق من تلازم فى الأمم القوية وفى الأمم الضعيفة ، وهذا التلازم هو الذى يدعو إلى حيرة من يريدون أن يجعلوا للسياسة أثرها فى الأخلاق ، وللأخلاق أثرها فى الحياة السياسية . والواقع أن فى هذه التفرقة كما فى كثير من مثلها ما يدعو إلى الوقوع فى الخطأ . أما إدراك ما بين الأمرين من تلازم وإدراك ما بينهما وبين الحياة الاقتصادية والعلمية ، والحياة العامة إجمالاً من تلازم فهذا الذى ييسر الوقوف على الحقيقة فى حياة المجتمع .

الحرية ومدلولها الإنسانى (*)

كنا نقرأ قبل الحرب العالمية الأخيرة تعاريف للحرية نعتبرها من البديهيات التى لا تحتاج إلى بحث أو تحليل . ولعل كثيرين ما يزالون يذكرون تعريفًا كان الناس يتداولونه على أنه حقيقة مقررة ، وما يزال الناس فى بعض الأمم يذكرونه إلى اليوم ، ويرون فيه من الحق شيئًا كثيرًا . ذلك أن الحرية تتلخص فى أن يفعل الإنسان ما يشاء على ألا يعتدى على حرية غيره . فى هذه الدائرة له أن يفكر كما يريد ، وأن يعمل كما يحلو له . هو ملك نفسه ومن ثم كان له التصرف فى نفسه بما يشاء . وما دخل فى ملكه صار من حقه وله أن يتصرف فيه بما يشاء لا حد لتصرفه هذا إلا حرية غيره. فليس يجوز أن يصيبها من جراء تصرفه مساس ، لأنه حرم مقدس ، كما أن حريته هو حرم مقدس.

ولقد دقق الكتّاب والفلاسفة فى تحديد هذا التعريف . ذكر هربرت سبنسر وكان من أشد المدافعين عنه ، أن الذى يسير فى الطريق فيشم بنزين سيارة يجرى بها غيره يفقد من حريته بمقدار ما يدخل خياشيمه من هذا البنزين . وكان من الأمور المتفق عليها قانونًا أن للمالك من حرية التصرف فى ملكه ما يبيح له أن يفسده أو يعدمه . ونظرية الحرية فى العقود من النظريات التى لم تكن تعرف حدًا من الحدود . وما يذكر اليوم من حدود الآداب والنظام العام كان غير معترف به فى هذا الباب إلا على أنه استثناء ، وشذوذ يجب أن يطبق فى دائرة الشذوذ والاستثناء . ولما كانت قوانين التملك والتعامل مقدسة إلى ما قبل الحرب العالمية ، فقد بقى هذا التعريف للحرية مقدسًا هو

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ نوفمبر ١٩٣٦

الآخر فى نفوس الناس جميعًا ، خلا نفوس أولئك الثائرين الذين كانوا ينادون بالمبادئ الاشتراكية وما إليها ، والذين لم يتح لهم فى الحياة العملية حظ يذكر من النجاح . وإذا قلنا النجاح قصدنا به تولى الأمر لتطبيق المبادئ على الجمعية بوجه عام .

على أن هذا التعريف للحرية وحق الفرد فى التصرف المطلق بدأ ينكمش بعد الحرب العالمية، وبدأ الناس ينظرون للحياة الفردية والحياة الاجتماعية بعين غير التى كانوا ينظرون بها من قبل ، ويرجع السبب فى ذلك إلى انهيار المبادئ التى كانت مقررة للتملك وتوزيع الثروة ، والتى كان معمولاً بها فى أنحاء العالم كله على أنها المبادئ المتفقة مع سنة الطبيعة ، والكفيلة بتحقيق أكبر حظ مستطاع من النعمة للإنسان . من يومئذ جعل الناس يفكرون فى مقاييس جديدة للحياة تنتظم شئون الفرد وشئون الجماعة وهم ما يزالون مختلفين ، وما يزال خلافهم يؤدى إلى الاضطراب والثورة المسلحة حينًا والكمينة حتى تتسلح حينًا آخر .

ويجمل بنا إذا أردنا أن نعرف الأسباب التى أدت إلى انهيار هذه التعاريف للحرية أن نذكر أن التعاريف لا تزيد فى الحياة الاجتماعية على تصوير الواقع ، وترتيب النتائج التى تسمح بها حياة الجماعة فى حدود هذا الواقع . وسيظل الأمر كذلك ما بقى العلم الاجتماعى وقوانينه أدنى إلى الفن منه إلى العلم ، وما دمنا لا نستطيع أن نحدد سنن العلم الاجتماعى بالدقة التى نحدد بها سنن الطبيعة الثابتة ، وإن قومًا ليذهبون إلى أننا لن نستطيع أن نحدد سنن الاجتماع بمثل هذه الدقة ، لأننا لن نستطيع وإن حاولنا أن نخضع الاجتماع للملاحظة الموضوعية المجردة من كل عقيدة أو هوى ذاتى. فالعقائد والأهواء بعض غرائزنا الذاتية ، والعقائد والأهواء من آثار الاجتماع ومن موروثاته ، وهى من ثم بعض سنن الاجتماع ، فمن العسير علينا أن ننظر إليها ونحن بعيدون عنها كما ننظر إلى الأفلاك والأجرام ، ومن العسير كذلك علينا أن نثبت لها سننًا لا تتغير نحن خاضعون لها بتغير نظرنا وملاحظتنا بتغيرها .

على أننا مع ذلك بحاجة إلى التماس ما يتصل بهذه السنن مما يكيف حياتنا الفردية والاجتماعية لنفيد من الحياة خير ثمراتها الروحية والعقلية والمادية ، ودأبنا فى التماس المعرفة هو بعض هذا الخير ، وتتبع ما ظنته الإنسانية حقائق فى مختلف

العصور ، وما وضعت له التعاريف على أنه حقائق بعض ما يدنينا من هذه المعرفة ، فلنلتمس على هدى هذه التعاريف معنى للحرية الإنسانية غير ما ألفناه . وغاية ما نطمع فيه أن يتفق هذا المعنى وصورة الواقع فى زمننا ، وأن يكون له نظائر فى الماضى تؤيد ثباته وتجعل له شيئًا من الصحة عند من يخلفنا .

ويخيل إلى أن الحرية الإنسانية فى أحسن صورة لها تنحصر فى أن يكون الكلام أداة الناس إلى التفاهم والنضال والغلب وإلى تقدير ما يعتقدونه الخير للفرد والجماعة ، وفى إذعان المغلوب بسلطان الكلام بعد أن تلزمه الحجة كإذعان المغلوب بالقوة المادية والحيوانية . وبعبارة أخرى ألا يلجأ الإنسان فى النضال الإنسانى إلى غير السلاح الإنسانى . إلخ ..... وهو الكلام . فمن التعاريف التى حفظها الناس أن الإنسان حيوان ناطق ، نطقه أثر من آثار تفكيره ، فإذا هو اقتصر على أن يجعل النطق سلاحه فى الحياة كما يجعل الحيوان نابه وظفره وقوة عضلاته سلاحه فى الحياة ، فهذه غاية الحرية . أما إذا ما لجأ الناس فى نضالهم إلى الأسلحة المادية والحيوانية ، فقل على الحرية السلام، لأن الحرية تصبح كلمة يحترمها الناس ما لم تعارض هواهم . فإن عارضت هذا الهوى نزعوا ثوب إنسانيتهم وانقلبوا حيوانات تناضل بالظفر والناب أو بما تناضل به الحيوانات ذات الظفر والناب من سيوف ومفرقعات وغازات وما إليها .

إلى أن يستطيع الناس أفرادًا وجماعات وأممًا أن يجعلوا الكلام أداتهم إلى التعامل فى الحياة ، وأن ينبذوا القوة الحيوانية والقوة التى يناضلون بها الحيوان كأداتهم فى التعامل ، فستبقى الحرية إسمًا شعريًا يختلف الناس على مدلوله ويحدده الخيال أكثر مما يعرف الناس له حدودًا فى الواقع . فالحرية يحميها القانون كما يقولون ، لكن القوانين إنما يضعها القوى وينفذها بقوة السلاح ، وهو يحترمها بمقدار ما يستطيع الآخرون مقاومته إذا اعتدى عليها ، فإذا ضعفت المقاومة نفذها على هواه ووضع قوانين غيرها ، ووجد لتسويغ وضعها منطقًا . يصدق ذلك على أفراد الأمة الواحدة فى تعاملهم فالقوى يملى إرادته حين التعاقد مع الضعيف كما يشاء . ويصدق على الهيئات المختلفة فى الأمة الواحدة حين يضع الأقوياء ذوو الغلبة التشريع الذى يرونه كفيلاً ببقاء غلبتهم ، ويصدق على الأمم فى معاملاتها حين يقهر القوى الضعيف باسم تحضيره أو بأى اسم آخر .

والإنسانية اليوم فى مرحلة من مراحل حياتها غلبت فيها الحيوانية ، وأصبحت لقوة الأذرع والمدمرات الكلمة الأخيرة . فهذه الثورات الأهلية التى ما فتئت تقوم منذ الحرب وهذه الحروب بين الأمم على رغم عهد العصبة التى أنشئت باسم عصبة الأمم لضمان السلام ، وهذا الاضطراب فيما يسمونه التوازن الدولى وهذا كله نذير بأن الإنسانية ما تزال بعيدة عن أن تحتكم إلى العقل وإلى حجته ومنطقه ، وما تزال حيوانيتها أشد غلبة عليها من إنسانيتها ، لذلك كانت حريتها حرية حيوانية وكان حديثها عن الحرية حديثًا حيوانيًا ، وكانت المعانى الإنسانية للحرية ما تزال ألفاظًا يتخذها أصحابها ستاراً لأغراضهم الحيوانية .

وأنت واجد دليلاً على ذلك فى فهم الناس معنى الحرية ، فالحرية عندهم مادية حيوانية بحتة . وأيضًا أن يأكل أحدهم ما يشاء ، ويشرب ما يشاء ، ويلعب كما يشاء ، ويتملك قدر ما يشاء . أما الحرية الفكرية ، وأما حرية العقيدة ، فكلام يقولونه ولا يكادون يسيغونه ، وهم لذلك يحاربونه بكل وسائل الحرب المادية مسلحة وغير مسلحة ، والرأى والعقيدة عندهم يجب أن يتصلا بمصلحة أو سلطان ، فأحدهم لا يرى الرأى لغيره أو للجماعة أو للإنسانية كلها ، قبل أن يفكر فيما يجره هذا الرأى من خير ، وقبل أن يفكر فى وسيلة تغليب هذا الرأى بالقوة المادية إن عجز عن تغليبه من طريق الحجة والإقناع ، بل هو يتخذ الحجة وسيلة لتأليب القوى المادية على أنها أدنى الوسائل إلى إلزام الحجة . وإذا كانت صورة السيف فى قول أبى تمام : "السيف أصدق أنباء من الكتب" قد أصبحت لا تصف حياة عصرنا بطياراته ومفرقعاته ، فما يزال هذا المعنى صاحب السيادة فى الإنسانية ، وما تزال القوة المادية صاحبة الكلمة الأخيرة .

إذا أردت أن تكون حراً فى هذا العالم الإنسانى الذى نعرفه ، فكن إذن قويًا ، ولتكن قوتك المادية حاضرة دائمًا إلى جانب حجتك الكلامية لتنصرها ، حجتك الكلامية قوية بها ، ضعيفة من غيرها ، ولكن لا تتكلم ، إذا كان هذا رأيك عن حرية الآخرين. وإذا تحدثت عنها على أنها سخرية يجب أن يؤمنوا بحقيقتها فى كنفك أنت . وهم لا يأبون هذا الإيمان إذا رأوا القوى يطعمهم ويكسيهم . فهم بعد أدنى إلى الحيوان منهم إلى الإنسان والطعام عندهم كل شيء ، والمعدة عندهم باب العقل ومصدر الإيمان .

هذه حرية رخيصة ، لكنها حرية هذا العالم الذى نعيش فيه ، فأما الحرية الصحيحة فهى التى صورتها من قبل ، هى الحرية الإنسانية التى تجعل من الكلام أداة التعامل الإنسانى ، فإذا وصلت الإنسانية إلى هذا الإدراك لمعنى الحرية كان للحرية معناها الصحيح .

أما إلى يومئذ فالحرية كلمة متغيرة المدلول مضطربة الحدود ، وحدودها القانون الذى يضعه الأقوياء ، وقوامها لذلك القوة المادية التى تؤازر الحجة والبرهان وتجعل من ضعفها قوة .

القسم الثالث

- ١ -

آراء فى اللغة والأدب

(السياسة الأسبوعية)

(مجلة الهلال)

(١٩٢٧ - ١٩٣٨)

القاموس ودائرة المعارف

حاجة اللغة العربية إلى جديد منهما (*)

تزداد المؤلفات التى تصدر فى البلاد التى تتكلم اللغة العربية كثرة وتنوعًا . فإلى جانب كتب الأدب ، وثمرات الفكر ، والمباحث النفسية ، والخلقية تظهر اليوم كتب كثيرة فى علوم معينة كالقانون ، والطب ، والطبيعة ، والفلك وغيرها . وأكثر المؤلفين الذين يضعون هذه الكتب يعتمدون فى صورهم وخيالاتهم وفى تفكيرهم ومباحثهم وفى العلوم المختلفة التى يكتبون فيها على ما أذيع من هذه الأفكار ، ووضع من هذه الكتب فى أوربا وأمريكا حيث النشاط الأدبى والعلمى بالغ أقصى حدوده . وأكثر هؤلاء المؤلفين فى مصر وفى غير مصر من البلاد التى تتكلم العربية لا يدعون أنهم فى اللغة العربية وفقهها جهابذة أعلام . والكثيرون منهم يجأرون بالشكوى من أن القواميس والموضوعات العربية المتداولة اليوم لا تتسع لكثير من الصور والأفكار والمعارف التى تجول بخاطرهم ، فيندفعون حين تدوينها إلى التماس أقرب الألفاظ العربية أداءً لها . وهم لا ينكرون ما يتهمهم به أنصار القديم من أنهم لو كانوا أكثر باللغة العربية إلمامًا وإحاطة فربما كانوا فى اختيار الألفاظ التى تستعصى عليهم مدلولاتها أكثر توفيقًا . لكنهم يذهبون فى الجواب على هذه التهمة مذاهب شتى أدناها لتصوير الحقيقة أن اللغة العربية على ما هى اليوم عليه فى بطون المعاجم . وكتب الأدب متشعبة المناحى مترامية الأطراف حتى لتحتاج دراستها إلى سنين طويلة ، تنتهى بأن يقف الباحث فيها من علومه عند هذا البحث فيصبح لغويًا ضليعًا من غير أن يفيد الأدب أو التفكير أو العلم فائدة تذكر ، كما أن ألفاظها على نحو ما هى مرصودة فى هذه المعاجم وكتب

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٤٣ ، بتاريخ ٥ فبراير ١٩٢٧

الأدب ليست محددة المعانى ، بل يحتمل كل منها ألوانًا من ذلك غريب بعضها من بعض ، لاتصال كل منها بقبيلة أو بطن غير ما يتصل به الآخر . والعلم والفكر بل الأدب نفسه بحاجة فى هذا العصر إلى تحديد دقيق لكل لفظ يراد به أن يؤدى معنى معينًا . وكثيرًا ما أدت هذه الألوان من المعانى المختلفة للفظ الواحد بالكتّاب والمفكرين والعلماء إلى اختلاف فى الاختيار قد يضل القارئ معه فى تحديد غرض الواحد منهم ؛ وبخاصة إذا كان ما زال طالبًا فى دور التحصيل وكان لذلك بحاجة إلى الدقة والضبط فى الألفاظ التى تحتملها المعانى ، حتى إذا جرت أمام نظره كلمتان مختلفتان استعملهما كاتبان أو عالمان كان له أن يعتقد أن كل لفظ يؤدى معنى غير الذى يؤديه اللفظ الآخر .

وهذا الازدياد فى التأليف والنشر حمل كثيرين على التفكير فيما إذا لم يكن واجبًا على الذين يتكلمون العربية أن يجددوا لهذه اللغة قاموسًا يحدد معانى الألفاظ التى يستعملها الكتّاب والمفكرون والعلماء ويكون مرجعًا لكل طالب ولكل كاتب ، فالقواميس العربية المتداولة اليوم بعضها قديم قاصر عن أن يفى بحاجات هذا العصر والبعض مما جدد المحدثون قاصر عن أن يفى بالغرض الذى يطلبه الكاتب والعالم مشوب إلى جانب بأغلاط أو على الأقل بتحاريف أملاها على واضعة الوسط الذى يعيش فيه واللهجة التى يتكلم بها أهل هذا الوسط . وهؤلاء الذين يطالبون بتجديد القاموس يعتمدون على أن مطلبهم ليس بدعة ، وأنه إنما يقصد به إلى تقييد ألفاظ اللغة وضبطها حتى لا تتسرب إليها ألفاظ قد تفسدها ، خصوصًا ونحن فى عصر تغلبت اللغات غير العربية بأدبها وعلمها واستهوت بذلك أفئدة الأكثرين . وقديمًا كان هذا سببًا من الأسباب التى أدت ببعض العلماء إلى وضع معاجمهم . قال صاحب لسان العرب فى مقدمة قاموسه تعليلاً لإقدامه على هذا العمل الخطير : « وذلك لما رأيته قد غلب فى هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد صار اللحن فى الكلام يعد لحنًا مردودًا ، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودًا . وتنافس الناس فى تصانيف الترجمانات فى اللغة الأعجمية ، وتفاصحوا فى غير اللغة العربية . فجمعت هذا الكتاب فى زمن أهله بغير لغته يفخرون وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون» .

ولا ريب فى أن صاحب لسان العرب كغيره من واضعى المعاجم لم يقف عند ما وضعه الذين سبقوه فى تعريف الألفاظ وتحديدها ؛ بل زاد عليهم أن جاء بما طرأ على هذه الألفاظ من تطورات ظهرت فى الشعر والنثر حتى عصره . صحيح أنه لا يقرر هذا ولا يعترف به ، بل هو يذهب إلى تبرير عمله بما رأيت وباعتبار آخر ذكره فى مقدمته كذلك حين قال : «لم أجد فى كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى ولا أكمل من المحكم لأبى الحسن بن على بن إسماعيل بن سيده الأندلسى رحمهما الله وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق ، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيات الطريق . غير أن كلا منهما مطلب عسر المهلك ومنهل وعر المسلك ؛ وكأن واضعه شرع للناس مورداً عذباً وأجلاهم عنه ؛ وارتاد لهم مرعى مربعًا ؛ فأهمل الناس أمرهما وانصرفوا عنهما ؛ وكادت البلاد لعدم الإقبال عليهما أن تخلو منهما ، وليس لذلك سبب إلا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب . ورأيت أبا نصر بن إسماعيل بن حماد الجوهرى قد أحسن ترتيب مختصره وشهره بسهولة وضعه شهرة أبى دلف بين باديه ومحتضره ، فخف من الناس أمره فتناولوه وقرب عليهم مأخذه فتداولوه وتناقلوه ، غير أنه فى جو اللغة كالذرة وفى بحرها كالقطرة ، وإن كان فى نحرها كالدرة ، لكن ذلك لم يمنعه من التصريح فى المقدمة كذلك بأنه اعتمد على المعاجم الخمسة التى كانت معروفة فى عصره ، وأنه بوّب فيها ورتب ونظم وهذب وزاد وشذب بما لا زيادة بعده لمستزيد بما يفى حاجة كل طالب للعلم ومريد .

ومثل هذا العذر الذى تجده فى مقدمة لسان العرب تجده كذلك فى محيط الفيروزبادى فهو قد أخذ من صحاح الجوهرى ترتيبه ونظامه ، لكنه توسع فى مادته بما أحاط بأدب أهل عصره وعلمهم . واللسان والمحيط ظهرا فى القرن الثامن الهجرى ألف صاحب اللسان معجمه فى مصر ، وصاحب القاموس قاموسه فى اليمن . ومن بعدهما لم تظهر معاجم حجة فى اللغة العربية يمكن الأخذ بها أو الاعتماد عليها لأن حالة المسلمين السياسية كانت منذ أواخر القرن الثامن الهجرى على أبواب الانقسام والتدهور . وإذا اضطربت الحياة السياسية فى بلد من البلاد وكثرت تقلباتها كان عسيراً أن ينجح عمل من الأعمال الكبيرة التى تحتاج إلى أناة وصبر ووقت طويل .

يورد الكتّاب والمؤلفون المحدثون إذن نفس الحجج التى أوردها صاحب اللسان فى مطالبتهم بوضع قاموس للغة العربية جديد . فقد غلب على اللغة العربية فى هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان أكثر مما غلب عليها فى القرن الثامن الهجرى . وقد صار للذين يتكلمون باللغة العربية أنفسهم لهجات مختلفة وأدوات للتعبير متباينة ، حتى ليكاد المصرى لا يفهم المراكشى ، وليصعب على التونسى أن يدرك مرمى عبارات اليمنى . ثم إن معاجم العربية المعروفة اليوم لا تفى بحاجات العلماء والمتأدبين لما هى عليه من سوء الترتيب ، وتخليط التفصيل والتبويب ، كما أن المرتّب منها مما وضعه الآخرون موجز إيجازاً يجعله فى جو اللغة كالذرة وفى بحرها كالقطرة . وهذا لسان العرب الذى كان مثلاً فى حسن التبويب يوم وضع أصبح اليوم مضطربًا أمام الباحث العصرى أشد الاضطراب ، قاصراً أشد القصور عن أن يفى بحاجته . والقاموس كاللسان فى ذلك سواء بسواء . وليس ذلك لعيب فى هذين المعجمين ، ولكن لأن اللغة العربية لغة حية . والقواميس التى تبقى على الأجيال لا تتغير قيمتها هى قواميس اللغات الميتة التى صارت أثرًا دارسًا يبحث الناس فيه شئون ماضية ، ولا يتصل بحياتهم الدائمة التطور النزّاعة أبداً إلى الكمال ، فأما قواميس اللغات الحية فلا تضبط هذه اللغات ضبطًا نهائيًا ، وإنما هى تسجل تغيراتها الدائمة ، وتعاونها بذلك على التطور أكثر مما تقف بها دونه . فالقاموس واللسان وغيرهما من المعاجم إنما تسجل تطور اللغة العربية إلى العصر الذى وضعت فيه ، وتسجل كذلك صورة تفكير أهل ذلك العصر . وفكرة التبويب والتفصيل لم تكن بلغت يومئذ شيئًا مما بلغته فى عصرنا الحاضر ، بل كانت ما تزال واقفة فى صورتها ومعناها عند ما وضعه الجوهرى فى صحاحه فى القرن الرابع . ولذلك نرى أكبر عناية هذه المعاجم منصرفة إلى صرف المواد مفرداً وجمعًا وفعلاً ومصدراً ، وهلم جرا . وكان الشعر الجاهلى هو المرجع الأساسى فى الحجة . فأما التبويب المفصل الذى ترتب على تقدم العلوم فى القرن الأخير ؛ وأما وضع القواميس على طريقة علمية تكفل لها أن تقدم للمطّلع الغذاء الذى يطلب فى ضبط وسرعة ، وأن تضع للكلمة التعريف الجامع المانع لكل وجوه استعمالها على صورة تلذ المطّلع ولا تمله فذلك ما لم يكن تطور العلم واللغة قد وصل بعد إليه . وذلك ما يريد الكتّاب والمؤلفون اليوم أن يجدوه فى قاموس جديد يعاونهم فى عملهم من غير أن يكدهم أو يضيع وقتهم .

وقد عالج هذا العمل فى الماضى أفراد أنجزوه على خير ما يستطيع فرد إنجازه . وهذا اللسان وهذا المحيط دائمًا شاهدان بفضل صاحبيهما فضلاً على اللغة عظيمًا . وكالفيروزبادى وابن المكرم قام فى البلاد الأوربية من جرد قواميس لغتها . وما يزال أفراد فى مصر وفى غير مصر يعالجون الاضطلاع بهذا العبء العظيم . وتلك جهود تستحق لا ريب أجزل الثناء والحمد . على أن تشعب المعارف الإنسانية وما انتهى إليه من فكرة الإحصاء وما تحتاج إليه طريقة المعاجم الجديدة من الدقة الجامعة المانعة . كل ذلك جعل قيام الجماعات بهذا العمل العظيم أكثر ضمانًا لنجاحه . ومنذ النصف الثانى من القرن السابع عشر عهد إلى الأكاديمية الفرنسية وضع قاموس هذه اللغة . ومن ذلك الحين ظلت لجنة القاموس دائمة تنظر فيما يطرأ على اللغة وألفاظها وعباراتها من تطور لتسقط من القاموس ما يهمل من الألفاظ ويصبح حوشيًا ، ولتدخل عليه ما يسيغه نوق العلم والأدب من ألفاظ تنتحل أو تكون عامية فلم يقرها القاموس فى الماضى . وهذا العمل لا ريب كفيل ببقاء اللغة صافية الصقال أبدًا . فكل لفظ يهجر فتنفر الأذن من سماعه يرد إلى حوزة الماضى ويدخل فى تاريخ اللغة . وكل لفظ يجدّ وتزهو جدته ، ويلذ للأذن سماعه ولا ينفر دون اللغة ولا فقهها من إقراره يخلع عليه ثوب الحياة ، ويدخل فى حظيرة القاموس .

وما أشد حاجة اللغة العربية اليوم إلى مثل هذا إذا أريد بها أن تصل من قوة الحياة إلى ذروتها . فلو أنك جمعت اليوم ما يكتبه الكتّاب ويترنم به الشعراء من الألفاظ لوجدته أقل من نصف بل من ثلث ما فى القواميس ، ولوجدت كثيرًا منه لا تعرفه القواميس القديمة ، ولا يريد أنصارها أن يعترفوا به أو يقروه . ومعنى ذلك أن أكثر من نصف ما تصرفه من وقتك فى مراجعة هذه المعاجم ذاهب هباءً فى مراجعة أشياء لا حاجة بك إليها ولا فائدة لك منها ، بينما قد يضيع من وقتك كذلك حظ عظيم ثم لا تعثر فى القاموس على ضالتك ، لأن القاموس وقف عن أن يتطور باللفظ الذى تبحث أنت عنه ويسبغ عليه المعانى التى أسبغها عليه العلم والأدب فى العصور الأخيرة . ولذلك نرى كثيرين يرغبون عن المعاجم ومراجعتها ، ويكتفون بما اختزنته ذاكرتهم من اللغة وألفاظها يصرفونها ، ويستنبطون من اشتقاقاتها ما ينكره عليهم السنيون فى اللغة . ولو أن القاموس بُوِّب ورُتِّب وهُذِّب بما يقابل حاجات العصر الحاضر لما كان لهؤلاء عذر ،

ولما وجدوا لهم أتباعًا ينصرونهم ويؤزرونهم ، ولما رأيت ثورة تقوم على اللغة باسم التجديد تارة وباسم التطور أخرى ، وهى فى الواقع ليست تجديداً وليست تطوراً ، وإنما هى خروج صريح على تلك القواعد العتيقة الكثيرة الشعب ، والتى لا ترجع إلى دائرة معينة ولا إلى حدود معروفة .

والعجب أنك لو رجعت إلى القرآن وما اشتمل عليه من ألفاظ لما وجدت شيئًا من الحوشى ولا الغريب ولا عثرت على لفظ شاذ مما تجد المألوف من مثله فى المعاجم ، بل كل كلماته مصقولة أصفى الصقل بالغة غاية الفصاحة ، وكل عباراته آيات فى كمال البلاغة . وبما كان لك أن تستنتج من هذا أن لغة قريش لم تكن لتحتوى هذي الستين أو الثمانين ألفًا من الكلمات التى جاءت فى المعاجم ، وأن هذا العدد العظيم الذى يرى بعضهم فيه مظهراً من مظاهر ثروة اللغة العربية ، إنما كان مجموع لغات قبائل العرب المختلفة .

أفلا يحسن وهذه هى الحال أن يكون أول عمل واضع القاموس الجديد أو واضعيه أن يهملوا منه ألوف الكلمات الحوشية والبائدة ، وأن يقتصروا من الكلمات على ما لا يزال مستعملاً أو ممكن الاستعمال حسب حاجات العصر ومطالبه ؟ فإذا تم ذلك ثم رتبت هذه الكلمات ترتيبًا علميًا ، ووضعت لها تعاريفها الجامعة المانعة ، وبيان المعانى التى تؤديها وعنى فى اختيار الشواهد عليها بما ورد فى كلام فحول الكتّاب إلى العصر الأخير بما يستهوى السمع والفؤاد وتعيه الذاكرة لجماله أو لطرافته ، إذن لرأيت هذا الانتقاص من كثيرين على اللغة يخف أثره رويداً رويداً ، ورأيت هذا القاموس يصبح صلة صالحة بين الأدب والتفكير والعلم الحاضر والأدب والتفكير والعلم القديم ، فزال ما تشعر به حين تقرأ كثيرين من الكتّاب العصريين من انقطاع صلتهم بمن سبقهم ومن انتقال الذوق والتفكير الغربى إلى هذا الشرق العربى من غير أن تصله بماضى هذا الشرق أى صلة .

مثل هذا القاموس إذا وضع ثم أديم النظر فيه لاستبعاد الكلمات التى تهمل وتصبح عتيقة من بين ألفاظه وزيادة ما يشتق أو ينتحل من ألفاظ جديدة ، يكون صورة حية للغة العربية المتجددة حياتها ما تجدد الزمن . فأما هذه القواميس الحالية فتبقى مراجع فى الأدب القديم وأسانيد للعصر الذى وضعت فيه . ويومئذ تكون اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية فى مجاراة الزمن من غير أن يضيع اتصال حاضرها بماضيها .

* * *

وكقواميس اللغة العامة قواميس العلوم الخاصة ، فقد وضعت فى الماضى تواليف لتراجم الأعلام كما وضعت قواميس للطب ولغير الطب من العلوم . وهذا النوع من القواميس يكاد يكون قد أهمل إهمالاً تاماً من زمان بعيد ، ويذهب أكثر العاملين على وضع معاجم هذه العلوم اليوم إلى تأليف القواميس التى تحيط بألفاظها فى لغة أوربية ، ومقابل هذه الألفاظ فى اللغة العربية ؛ وحجتهم فى هذا أن هذه العلوم لم يؤلف فيها باللغة العربية ما يكفى ليقر ألفاظها إقراراً يستطاع معه وضع تعريف عربى جامع مانع لها . وقد يكون لهذا العذر وزنه وقيمته . لكن التآليف فى الواقع تزداد عاماً بعد عام فى مختلف العلوم . والمطلع على هذه التآليف يشعر بحيرة غير قليلة أمام كثير من الألفاظ المعربة التى ترد فيها ، والتى لا توجد فى القواميس القديمة معرّفة تعريفاً علمياً ، ولا توجد فى المختصرات التى وضعت حديثًا على أنها معاجم للغة ، وقد شعر بعض المؤلفين بهذا العسر الذى يلقاه القارىء فأشاروا فى هوامش كتبهم إلى المقابل الأوربى للفظ العربى الذى استعملوه أو أفردوا لذلك ثبتًا خاصًا فى آخر الكتاب . ولئن ذكّرنا ذلك بشىء فى الكتب الأوربية فإنما يذكرنا بوضع ثبت من مثله فى أواخر الكتب القديمة كروايات شيكسبير لتفسير الكلمات التى دخلت فى حوزة التاريخ ، وأصبحت «إنكليزياً قديماً» لا يستعمل فى الوقت الحاضر ، وكغير روايات شيكسبير من الكتب القديمة . وقد يكون عجيباً أن تضطر للالتجاء إلى ما يلجأ إليه الأوربيون لتفسير القديم الدارس من كلمات لغاتهم بتفسير يزيد استحداثه فى اللغة العربية إبهامًا ، لكنما عذر المؤلفين فى ذلك أن ليس لدينا قواميس فى العلوم التى يكتبون فيها ، وليس لدينا قاموس عام لضبط الألفاظ العربية المستعملة .

نحن نعلم أن وضع قاموس أو قواميس لن يحول دون استحداث كلمات جديدة . فلكل كاتب ألفاظه ، كما أن لكل كاتب أسلوبه . وقد يلجأ الكاتب إلى ما لم يرد فى أحدث القواميس مما تجرى به ألسنة العامة ، لكن ذلك لا يغير فى اللغة شيئًا إلا أن يكون الكاتب فحلاً وأن يكون حسن الاختيار والانتحال فيقدر على إدخال هذه الألفاظ فى اللغة وفى القاموس ، وهذا هو ما أشرنا إليه من تطور كل لغة حية ، وهذا هو ما يرجوه كل محب للغة العربية حريص على أن تبقى جدتها وطلاوتها ، وعلى أن تحتمل كل ما يطلب إليها التفكير والعلم احتماله .

* * *

وحالنا فى القاموس كحالنا فى دائرة المعارف ، فقد عولج وضع دوائر للمعارف فى العصور القديمة . فلما كان القرن التاسع الهجرى وضع آخر هذه الدوائر من مثل صبح الأعشى للقلقشندى ، ثم كانت بعد هذا القرن فترة الانحلال فى الشرق العربى وحكم العثمانيين إياه . ولما بدأت النهضة فى أوائل القرن الماضى وجاهد من جاهد لإنهاض اللغة العربية كان من أثر ذلك أن فكر بعض الأفراد فى وضع دائرة للمعارف . فوضع البستانى دائرته معتمداً أكثر الأمر على بعض دوائر المعارف الأوربية ، ووضع الأستاذ محمد فريد جدى أخيراً دائرته العربية الإسلامية ، لكن دوائر المعارف بعد ما اتسع نطاق العلم إلى الحد الذى بلغه فى هذه الأجيال الأخيرة لا يمكن أن تكون عمل فرد من الأفراد ، وإن أوتى ما أوتى من سعة الاطلاع وشدة الصبر والجلد على التأليف والمطالعة والمراجعة ، لذلك كانت هاتان الدائرتان أقصر من أن تفيدا المُراجع فيهما ما يريد الوقوف عليه . ودوائر المعارف فى الوقت الحاضر ضرورة لازمة لكل من يريد البحث والاطلاع . فقد كثرت المعارف الإنسانية كثرة أصبح عسيراً أن تحيط بها جماعة محدودة . وصار العلماء والكتّاب والمفكرون فى أمس الحاجة حين بحثهم وتفكيرهم إلى الوقوف على آخر ما وصل إليه العلم والبحث الإنسانى ، لذلك وضعت دوائر معارف مختلفة فى كل لغة من اللغات الحية اشترك فى وضعها على طريقة علمية صحيحة طائفة من الفحول والجهابذة كل فى الفن أو فى العلم الذى اختص فيه . فإذا أردت أن ترجع إلى أى موضوع من الموضوعات لتعرف صلته بموضوع آخر وجدته فى دائرة المعارف موجزاً حقًا ، ولكن إيجازاً شافيًا وعلى صورة من التدقيق تسمح لك أن تبلغ من العلم به غايتك ، وأن تكون فى تفكيرك وبحثك على معرفة وهدى .

وكدوائر المعارف العامة هناك دوائر المعارف الخاصة التى تختص بعلم من العلوم أو فن من الفنون . ولقد افتن أهل كل علم فى هذه الدوائر غاية الافتنان ، حتى لتجد فى كل منها عدداً غير قليل تعثر فيه على ضالتك حين تنشدها مشروحة أو فى الشرح مبينة خير بيان .

وقد يقصر بنا المقام اليوم عن التوسع فى موضوع دوائر المعارف فنكتفى بما قدمنا ، ونختم هذا الفصل برجاء نوجهه إلى أهل الشرق العربى كافة ، وإلى الكتّاب والمفكرين والعلماء منهم خاصة ، هم لا ريب يشعرون فى موضوع القاموس

ودائرة المعارف بما نشعر به أنه قد حان الحين للتآزر فى وضع قاموس للغة العربية جديد ؛ ودائـرة معـارف جديدة كذلك . أفلا يجب التفكير إذن فى الوسيلة للتنفيذ ؟ إنّا لا نرتاب فى أنهم جميعًا يجيبون على سؤالنا إيجابًا ، فهل لكل أن يقترح طريقة هذا التنفيذ بما يراه مؤديًا لأقوم غاية ؟ . أما نحن فنرجىء جوابنا اليوم ونأمل أن يكون لهذا الموضوع صدىً تتجاوب به البلاد العربية جميعًا ، فيهتدى به من يعنون بالأمر ، ولعل تجاوب هذا الصدى يكون البشير والخطوة الأولى فى سبيل التنفيذ .

عصر ترجمة
أم عصر تأليف (*)

لما عرضنا منذ سنة مضت لحاجة قراء العربية وكتّابها لمعجم ولموسوعة يتفقان بحاجات هذا العصر العقلية والنفسية ، قابل كثيرون من ذوى المكانة الفكرية فى مصر وغيرها من البلاد العربية اقتراحنا بالتحبيذ ، ونشر الأستاذ إسماعيل بك مظهر عدة مقالات فى هذه الجريدة عن الطريقة العملية لتنفيذ الاقتراح ، وبدأت وزارة المعارف المصرية تحله منها محل النظر والاعتبار . على أن مسألة أخرى ثارت إلى جانب هذه المسألة التى عرضنا لها ، تلك أن عصرنا الحاضر عصر ترجمة لا عصر تأليف . بذلك قال أستاذنا لطفى بك السيد ، وقال غيره من كبار أهل الرأى . ولذلك اقترح إسماعيل بك مظهر ترجمة الموسوعة البريطانية إلى اللغة العربية لعدم تيسر تأليف موسوعة يقوم على تحريرها جماعة من كتّاب العربية وعلمائها وفلاسفتها .

والحق أنك إذا عرضت أمام نظرك ما ظهر ويظهر فى الشرق العربى من التواليف لألفيت كثرتها العظمى مترجمة ، ولرأيت المؤلّف منها قليلاً ، ثم لرأيت هذا القليل معتمداً أكثره على مصادر أوربية بحتة . ثم أنك إذا عرضت لأجلّ هذه التواليف خطراً وأكثرها تناولاً للموضوعات الدقيقة لوجدتها مترجمة جميعًا . وربما لا يغلو من يقول إن المؤلفات التى ظهرت فى اللغة العربية ويمكن نسبتها نسبة حقيقية إلى صاحبها باعتبارها معبرة عن رأى أو وجهة نظر خاصة له ونادرة ندرة تجعل هذه المؤلفات ولا حكم لها ، فمن الحق إذن أن نقول إن عصرنا الحاضر عصر ترجمة لا عصر تأليف .

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١١٠ ، بتاريخ ١٤ أبريل ١٩٢٨

لكن عصور الترجمة هى أبداً عصور انتقال وتمهيد لعصور التأليف ، ولا يمكن لذلك أن يطول أجلها ، فهل ترانا قطعنا فى عصر الترجمة شوطًا بعيداً ؟ . وهل ترانا أشرفنا على عصر التأليف فظهر لنا من بوادره ما يدعو إلى التفاؤل بأنّا على وشك الدخول في غماره ؟ . وهل ترانا إذا دخلنا فى غمار عصر التأليف ينقضى عندنا عصر الترجمة ، أو أنّا نكون فى عصر يجمع بينهما ؟ . وإذا قضت التطورات الفكرية قضاءً محتومًا بتخطى الشرق العربى هذا العصر الجامع بين الترجمة والتأليف فهل تراه يعمّر طويلاً ؟ .

هذه مسائل ومباحث تحتاج تعاونًا فى معالجتها أرجو أن أجده من قراء هذه الجريدة . وأنا لذلك أغامر بفتح أبوابها معتقداً أن التعمق لن يقف أثره عند البحث وكفى ، بل هو سيوجه تفكير ناشئة هذه البلاد وبلاد الشرق العربى توجيهًا خاصًا يجعل الخطى الكثيرة التى نخطوها فى نواحى ثقافتنا المختلفة تسدد كلها إلى غاية واحدة هى غايتنا جميعًا من تركيز ثقافة تتفق وتاريخ هذه البلاد المتجاورة وألوان تفكيرها وإحساسها . وتسديد الخطى كلها إلى هذه الغاية له أثر أكبر الأثر فى تقريبها منا وإسراعنا إلى بلوغها .

* * *

الطابع الغالب فى عصرنا أنه عصر ترجمة لا عصر تأليف . هذا ما يجرى على ألسنة الجميع وتجرى به أقلامهم ، والطابع الذى غالبًا على العصر الذى سبقنا أنه عصر ترجمة أيضًا ، فهل صورة هذا الطابع فى العصرين واحدة ؟ وهل نحن نسير سيرة الذين سبقونا فى الترجمة ونحنو حنوهم ؟ . وإن كان بين صورتى الطابع خلاف فما صورة هذا الخلاف ؟ .

ما أظننا بكثير حاجة لندل على وجود خلاف بين الصورتين . ويكفى أن نذكر أن عصراً سبق أيام رفاعة رافع وعلى مبارك كانت الترجمة فيه مقصوداً بها وضع الكتب المدرسية قد أعقبه ركود فى الترجمة اكتفاءً بالكتب التى وضعت فى ذلك العصر ، ثم تلاه عصرنا الحاضر وليست غاية الترجمة منه هذه الكتب المدرسية التى كانت غاية ذلك العصر منذ أكثر من نصف قرن سلف . فالمترجمون الذين ما يزالون بين أظهرنا ،

والمترجمون الذين سبقونا إلى عالم السكينة بعد أن شاركونا نضال الحياة ، إنما كانوا وما يزالون يترجمون كتبًا يريدون بها بث الأفكار الحديثة ، والتقريب بين الشرق والغرب تقريبًا نفسيًا يمكنهما من التفاهم والتعاون والعيش بسلام . فالمرحوم فتحى باشا زغلول لم يقصد بترجمة ما ترجمه عن جوستاف لبون وسير جون لوك ، وغيرهما من كتّاب الغرب وضع كتب مدرسية لفائدة الطلبة ، وإنما كان يقصد نقل صور التفكير الغربى إلى الشرق للغاية التى أسلفنا . والأستاذ لطفى بك السيد لم يقصد بترجمة «الأخلاق لأرسطو» وضع كتاب مدرسى ، وإنما قصد به تمكين المشتغلين بالفلسفة من الرجوع إلى المعلم الأول لاعتباره هذا الرجوع «الطريق القريب والآمن الخالى من العقبات إلى تمكين الفلسفة من بيئاتنا العلمية ، لتنتج فى الذكاء المصرى قوى الكشف عن أسرار الطبيعة والاختراعات المتنوعة وصحة الحكم على الأشياء» . وهذا الاختلاف فى الغاية من الترجمة قوى فى الدلالة على اختلاف صور طابع عصرنا عن العصر الذى سبقه ، فليس انتقال ميدان الترجمة من الناحية المدرسية إلى الناحية العامة بالشىء اليسير .

وللخلاف بين صورتى طابع عصرنا والعصر الذى قبله وجوه كثيرة أخرى . خذ مثلاً ناحية الأدب . فلقد كانت الترجمة فى هذه الناحية معدومة أو فى حكم المعدومة فى العصور السابقة ، بينما هى تشغل اليوم من ميدان الترجمة قسمًا عظيمًا . ثم إن ترجمة كتب الأدب من روايات وأقاصيص كانت فى الماضى منحطة انحطاطًا شائنًا فإذا بك اليوم ترى منتجات جميلة حقًا . وهل ترجم أحد فى العصور الماضية مثلما ترجم السباعى أو ما صاغ المرحوم المنفلوطى ، أو ما ترجم الزيات أو غير هؤلاء من الكثيرين الذين نقلوا إلى الأدب العربى فى أحسن صورة ألوانًا جديدة من التفكير والشعور والعاطفة كانت مجهولة تمام الجهل فى العصر الماضى . صحيح أن الترجمة فى ناحية الأدب تتمشى مع انتقال الترجمة من الميدان المدرسى إلى الناحية العامة ، لكن لهذا الانتقال دلالة أخرى . تلك أنّا لم تبق حاجتنا محدودة بالوقوف على معارف الغربيين ومقرراتهم العلمية ، بل هى تناول الاشتراك معهم فى الحس وفى العاطفة وفى الاستمتاع بصور الحياة وألوان جمالها المختلفة .

وجه آخر للخلاف وهو أن الترجمة فى العصر السابق كانت نقلاً حرفيًا لا محل لتصرف المترجم فيه . أما اليوم فكثيراً ما نرى المترجمون يعدلون عن الترجمة البحتة

إلى نوع من الجمع بين الترجمة والتأليف ، وأورد هنا إيضاحاً بسيطاً لما أقصده من هذه العبارة . فالمترجم يقف جهده على نقل الكتاب أو المقال الذى أمامه من غير تصرف فيه . أما التأليف فيعمد فيه المؤلف إلى تقرير نظرياته الذاتية ، ومناقشة نظريات الغير مناقشة قد يحتاج معها إلى إيراد شىء من أقوالهم . وهذا الجمع بين الترجمة والتأليف مما نشهده فى العصر الأخير هو فى الواقع مفاضلة بين رأيين لمؤلفين أجنبيين يترجم المترجم كلاً منهما ترجمة حرفية أو ترجمة اقتباس ، ويبدى ميله لتفضيل رأى أحدهما أو معارفه على رأى الآخر أو معارفه . ولقد يسمى أصحاب هذا المجهود مجهودهم تأليفاً ، وقد لا تكون هذه التسمية من جانبهم غلواً ، لكن الحقيقة أنه جمع بين الترجمة والتأليف ، أو هو التواء الأولى للتأليف الصحيح الذى تبرز فيه شخصية المؤلف واضحة قوية آخاذة بحيث تصبح شخصيات غيره من الكتّاب والمؤلفين الذين يناقشهم موضع تقييمه ، وبحثه تقييماً ، وبحثاً عظيمين لا مجرد مفاضلة ربما يعدل عنها صاحبها إن هو ازداد اطلاعاً وبحثاً وتفكيراً .

هذه الأوجه وغيرها من ألوان الخلاف بين صورتى طابع الترجمة الذى يطبع عصرنا والعصر الذى سبقه ، يدل على أنّا نشرف على عصر التأليف من جهة وعلى أن الترجمة فى وقتنا الحاضر ترمى إلى غاية أسمى بكثير من الغاية التى كانت ترمى الترجمة إليها من قبل ، فهى ترمى إلى وجود صور التفكير الإنسانى فى مختلف نواحى العالم أمام النظر المصرى ليحيط بها ، ويفيد منها لثقافته وليزيد بها فى سلطانه الذهنى والخيالى بما يجعله أقدر على دقة إدراك الكائنات .

وإشرافنا على عصر التأليف يبدو قوياً إذا نحن نظرنا لبعض المؤلفات القيمة التى ظهرت أخيراً ، والتى لم يكن لها فى الماضى نظير من يوم أن انقطع شىء اسمه التأليف المبدع للأفكار والأخيلة العلمية والأدبية الجديدة من بين جدران الأزهر . ولقد يصح لنا أن نشير من هذه المؤلفات إلى كتب المغفور لهما قاسم أمين والشيخ محمد عبده : الأول فى ناحية الاجتماع ، والثانى فى ناحية الكلام . ولئن كانت كتب قاسم أمين قد وضعت لحاجة اجتماعية وفنية هى تعليم المرأة وتحريرها من رق الأسر ، وكانت هذه الحاجة قد ضعفت بما كان من نجاح فكرة قاسم فى زمن قصير نجاحاً باهراً ، فإنك ما تزال إذ تقرأ «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» تشعر بنفس المؤلف فيهما ، وتشعر بذوق خاص

للحياة ولون خاص فى التفكير يقنعك هذا الرجل ، وبأن روحه هى التى نظمت كتبه . وأنت على الرغم من الكثير الذى تجده من صور الاستشهاد فى الكتابين لا تملك دون الإعجاب بهذه القوة فى تصوير الحياة تصويراً تبدو عليه العاطفة الصادقة ويدل على سمو نفسانى عظيم . أما كتب الشيخ عبده فما تزل فريدة فى بابها ، لأن زملاء الشيخ عبده من رجال الدين لم يتابعوه فى خطته ، والذين تابعوه منهم لم يظهر لهم من الآثار ما ظهر له ولم تعرف لهم غاية واضحة كالغاية الواضحة التى عرفت له . فرسالة التوحيد والرد على هانوتو وإصلاح المحاكم الشرعية وغير هذه من الرسائل الموجودة حتى اليوم بين أيدينا ، أنها تدل على نفسية خاصة نفذت إلى حياة العصر الذى كان المرحوم الإمام يعيش فيه ، وهى اليوم تتجلى فى تنفيذ ما أملى الشيخ به . أما رسائل أسفاره ، وإن تك رسائل قصيرة ، فتدل على نفسية متوثبة وصدر واسع وخيال جم يستطيع أن يحيط بكل ما فى الوجود من غير تعصب لشىء منه تعصباً ينتهى بصاحبه إلى الجمود .

وأخشى أن أغضب صديقى الدكتور طه حسين إذا أنا أشرت إلى مؤلفاته وبخاصة إلى مؤلفه الأخير «فى الأدب الجاهلى» . فهذا الكتاب الذى يعتبره صاحبه مقدمة بحث ، وليس بحثًا كاملاً يهتز كل سطر من سطوره بنفسية كاتبه ويتجلى فى كل صفحة من صفحاته روحه القوى يأخذك وإياه أخذاً ، بل يسوقك وإياه سوقًا يريد أن يملى عليك نظريته فى الأدب الجاهلى إملاءً ، وإنك لا تستطيع أن تتخلص من هذه القوة ولا أن تفر من هذا الإملاء ، لأن صاحبه يسوق إليك الحجة تلو الحجة والدليل تلو الدليل فى غير ملال ولا انقطاع ، ويسوقها إليك سوقًا حلواً محبباً إلى النفس تستوعبه فيزيدها استيعابه تشهيباً للمزيد منه . إن هذا الكتاب شأنه هو فتح كبير لعصر التأليف ومثال لذلك من أمثلة البحث حرى بأن يفتح أبواباً كثيرة للناشئة والطالبين .

وقد أطيل إذا أردت ذكر المؤلفات الجيدة التى ظهرت فيها شخصيات أصحابها بارزة قوية يتراجع بإزائها كل من يطمع فى إنكار حق التأليف بأكمل معناه لهم . لكن يجب أن نشير إلى نوع آخر من التأليف كان المصريون وغير المصريين من أهل بلاد الشرق العربى يضطرون لوضعه بغير اللغة العربية لأنه تاج دراساتهم . أقصد الرسائل التى يتقدم بها أصحابها فى البلاد المختلفة لنيل إجازة الدكتوراه ، والتى

لم تعرف منها مصر مؤلفًا باللغة العربية للجامعة المصرية سوى رسائل طه حسين وأحمد بيلى وحسن إبراهيم وتوفيق المرعشلى وذكى مبارك وفريد رفاعى وولفنستون وسكر . فمن بين هذه الرسائل الكثيرة التى وضعها أبناء هذه البلاد العربية بلغات أجنبية مؤلفات فى الحقوق وفى الطب وفى الهندسة وفى الاقتصاد وفى السياسة ، لأصحابها أن يفخروا بها حق الفخر ، بل إن من بينهم من أبدعوا فى العلوم محدثات لم تخطر لغيرهم ببال ، وليس يجهل أحد ما قام به من ذلك المرحوم عثمان باشا غالب والأستاذ الدكتور حسن بك الديوانى رئيس البعثة المصرية بباريس . وأعتقد أنه لو نقلت هذه الرسائل جميعًا إلى العربية لملأت فراغًا كبيرًا ولدعت مؤلفيها أنفسهم لتأليف غيرها بهذه اللغة العربية .

ولست أستطيع أن أنسى وأنا بصدد التأليف ما وضعه أساتذة القانون ورجال الطب من مؤلفات فى العصر الأخير يمكن الرجوع إلى كثير منها كحجج فى فروع العلوم التى تتناولها . وقد يتعذر تعداد ما وضعه هؤلاء الأساتذة من الكتب كما قد ينسى الإنسان من حضراتهم من له فى التأليف أثر كبير ، على أن ما ألفه الأساتذة أحمد أمين وعلى ماهر والمرحوم الدكتور أبو هيف والدكتور عبد السلام ذهنى والدكتور كامل مرسى وغير هؤلاء من رجال القانون فى متناول أيدى طلاب القانون اليوم ورجاله . ولست أستطيع أن أنسى ما كان يوشك أن يظهر للدكتور عبد الحميد بدوى والدكتور نشأت من مؤلفات قيمة غير رسالتهما لإجازة الدكتوراه ، لولا أن انتظما فى غير السلك الجامعى فاستغرق عملهما كل نشاطهما ، وكثيرًا ما جنت المناصب وكثيرًا ما جنى الاشتغال بالشئون الإدارية أو السياسية على تأليف مؤلفين كانوا يبشرون بأن سيكون لهم فى عالم العلم والتأليف قدم راسخة ، على أن ما ظهر بالفعل يدل على أنّا أشرفنا على عصر التأليف بل اقتحمناه اقتحامًا . وإن يك ثمة ما يعوق دون سرعة السير فيه فذلك لأن حاجات البلد السياسية والإدارية تصرف كثيرين من الذين يستطيعون التأليف عن القيام بها على وجه صالح .

أشعر بالقارىء يهيب بى : هاهنا تمهل . فهؤلاء الذين وضعوا رسائلهم بلغات غير اللغة العربية ، وهؤلاء الذين وضعوا كتبًا فى اللغة العربية ، إنما يعتمدون فى رسائلهم وفى كتبهم على الكتب الأوربية ، وإذن فهم يترجمون ولا يؤلفون ، وفيما خلا من ذكرت

أنهم أبدعوا فى العلم جديداً ، فهذه الكتب التى وضعت تحمل اسم مؤلف سواء فى الحقوق أو فى الطب أو فى التاريخ أو غيرها من فروع العلم والأدب لا تزيد على أنها ترجمة ، إن لم تك لكتاب واحد برمته فلكتابين أو أكثر من كتابين فى موضوع بذاته . فأما ذاتية المؤلف التى أشرت إليها فقلّ أن ترى لها فى كل هذه الكتب أثرًا . وإذا كان هذا المجهود فى الترجمة لا يقل فى بيان فضل صاحبه عن مجهود المؤلفين ، فهو لا ريب ليختلف جد الاختلاف عنهم فى طبيعته . فمن التجنى على التاريخ إذن أن نقول أنّا قد اقتحمنا عصر التأليف اقتحاماً ، وإنّا صار لنا مؤلفون كالمؤلفين فى ممالك أوربا المختلفة .

وهذا اعتراض فيه للنظرة الأولى وجاهة كبيرة وله بعد البحث شىء من الوجاهة ولكن أقل بكثير مما يبدو له عند النظرة الأولى . ذلك بأن كثيرين من المؤلفين فى أوربا لا يزيد عملهم فى التأليف على ما يفيده لفظ التأليف ، أى على جمع مشتت المعارف والنظريات فى موضوع معين بين جلدتى كتاب . وأنت تستطيع أن ترد أكثر ما فى هذه الكتب الأوربية المؤلفة إلى مصادره ، فأما ذاتية المؤلف فلا تبدو إلا فى مواضع قليلة ، وقد لا تبدو إلا فى مناقشات تفصيلية أقرب إلى التمحيص المنطقى منها إلى التأليف بالمعنى الضيق الذى يريد أن تكون ذاتية المؤلف واضحة وضوحًا آخذاً بلب القارىء ونفسه وذهنه وتفكيره .

ثم أن كثيرين من المصريين الذين وضعوا الرسائل والكتب تبدو لهم ذاتية لا تقل سطوعًا وإشعاعًا عن ذاتية كثيرين من المؤلفين الأوربيين ذوى المكانة والاعتبار .

وهذا يبدو بنوع خاص فى العلوم التقريرية كالحقوق ، أما العلوم التى لم تعرف فى مصر إلا من زمان قريب كالعلوم الطبيعية فإن الرسائل القليلة التي وضعت فيها لما تصل إلى الانتشار الذى يجعل الناس يحسون بذاتية أصحابها ، وليس الذنب فى ذلك ذنب هؤلاء ، وإنما يرجع الذنب إلى أن البيئة العلمية الصحيحة فى مصر لما تخلق ، فإذا هى خلقت رأيت لرسائل ومؤلفات المؤلفين مكانتها وقيمتها .

على أنى مع إقرارى لأصحاب هذه الرسائل والمؤلفات بأنهم اقتحموا غمار التأليف ، وبأن لبعضهم ذاتية لا تقل قوة وإشعاعًا عن ذاتية كثيرين من مؤلفى الغرب ،

أرى فى هذه المؤلفات نفسها ما يدل على أن عصرنا الحاضر عصر ترجمة لا عصر تأليف . فإن قاسم أمين والشيخ محمد عبده وطه حسين وغيرهم من المؤلفين ، إنما يلجأون إلى ترجمة أفكارهم نفسها حين يريدون إثباتها على الورق . ذلك أن المؤلفات العربية القديمة أصبح صلاحها كمراجع بحث علمى وتاريخى أكثر من صلاحها كأدوات لصياغة أفكار هذا العصر على النحو الذى يجعلها تسيل إلى النفوس والأذهان فى لين وسهولة تيسر استيعابها وتمثلها . وأنت إذا قرأت اليوم فى الفلسفة أو فى العلم أو فى الأدب كتب الأقدمين رأيت نفسك مضطراً حين تريد أن تترجم لأهل عصرك عما فى هذه الكتب إلى عناء لا يقل عما تحتاج إليه حين تريد أن تترجم لهم عما يجول بذهنك مما أنتجته قرائح أذهان أهل الغرب من هذا الجيل ، بل إن كثيرين ليقولون لك فى وضوح وصراحة : أنهم كثيراً ما يصطدمون أثناء كتابتهم أو تفكيرهم بلفظ يعبر عن معنى خاص أو بعبارة تحمل فى طياتها معانى جليلة ، وإذا هذا اللفظ أو هذه العبارة مرتسم فى نفوسهم بلغة أجنبية فهم يحاولون ترجمته إلى اللغة العربية ، وقد يختلف مبلغ نجاحهم فى الترجمة اختلافاً كبيراً . وليس يقف هذا الأمر عند ما يجدونه أثناء مطالعاتهم أو ترجمتهم هذه المطالعات ، بل هو يتعدى فى أحيان كثيرة إلى تفكيرهم الذى تظهر فيه ذاتيتهم ، هذا التفكير الذى ربما خالفوا به كل النظريات التي قرأوا فى الكتب الغربية . فهم إذن فى الواقع يترجمون أنفسهم إلى العربية فى كل مرة وجدوا أنفسهم بإزاء هذا الظرف ، وعصر هذا بعض ما فيه هو فى الواقع عصر ترجمة أكثر منه عصر تأليف ، وإن كان هذا المجهود الذى يقوم أولئك الأفراد به يزيد على الإشراف على عصر التأليف زيادة تبرر قولنا أنه اقتحام لهذا العصر ودخول فى غماره .

* * *

ما هو السبب الذى يجعلنا حتى فى تأليفنا ما نزال نترجم عن لغة أجنبية هى التى تتمثل بها أدق أفكارنا نحن ؟ السبب أن البيئة العلمية والأدبية لم توجد فى عصرنا ، لأن الجامعة المصرية ما تزال فى دور النشأة والتكوين ، فلم تتكون بعد لها الشخصية التى تجعلها مصدر ثقافة عربية تامة الخلق . فهؤلاء الذين أشرنا إليهم من الكتّاب والمؤلفين قد نهل كل منهم حظه من العلم فى موارد غربية ، ثم هو يعيش فى

عزلته يقرأ ويفكر ويكتب ، ليخلق البيئة التى نجاهد كلنا لخلقها ، وإلى أن تخلق الجامعة المصرية هذه البيئـة ، وإلى أن تقـوى البيئـة فتصبح ذات كيان ككيان بيئة السوربون أو أكسفورد أو هارفارد أو فيمار ، فإن الكتّاب والمؤلفين سيبقون مضطرين إلى العيش فى مثل هذه العزلة التى يعيشون اليوم فيها ، وإلى الترجمة عن أنفسهم على الطريقة التى يترجمون اليوم بها ، على أنه كلما كثرت ثمراتهم وصادفهم التوفيق فيها وخطوا بذلك خطوة إلى خلق البيئة الجامعية تذللت مصاعب كثيرة من التى يلقاها طلائع التأليف من أهل هذا العصر الذى نعيش فيه . فإذا كان اليوم الذى تكتمل فيه حياة هذه البيئة العلمية اكتمالاً صحيحاً فى مختلف فروعها ، فتتناول الأدب والعلم والحقوق والسياسة والاقتصاد وكل ألوان التفكير الإنسانى ، فيؤمئذ يكن عصر التأليف قد امتد إلى كل نواحى حياتنا العقلية امتداداً يسمح لنا بأن تكون لجامعتنا مذاهب واضحة فى النظر والتفكير والبحث تقف بإزاء مذاهب الجامعات الأخرى ، موقف تساو يمكنها من التعاون معها تعاوناً صحيحاً يزيد فى حياة الإنسانية قوة تدنيها من السعادة .

وأحسب السعى لبلوغ البيئة العلمية كمالها يقع عبؤه على عاتق كل المشتغلين اليوم بالحياة الجامعية فى مصر ومؤيديها . فأساتذة الجامعة كطلابها يجب أن يتجه سعيهم إلى هذه الغاية ، بل يجب أن تكون هذه الغاية كل ما يعمل له من يريد منهم خدمة الجامعة وخدمة العلم مخلفاً لهما مضحياً فى سبيلهما بكل ما يستطيع تضحيته فى حياته . وهذه هى الناحية التى أشرت إليه فى أول هذا المقال من تسديد الجهود إلى غاية واحدة هى غايتنا جميعاً من تركيز ثقافة تتفق مع تاريخنا وتاريخ البلاد العربية التى تجاورنا وتتفق مع ألوان تفكيرها وإحساسها .

على أنّا يوم نبلغ هذه الغاية سنكون كما نحن اليوم بحاجة إلى الترجمة . ذلك بأننا كلما ازددنا علماً ازددنا للعلم حباً وعلى كل ما يظهر من آثاره إقبالاً ، وإذن فستكون ترجمته يومئذ كمالاً لمذاهبنا لا ضرورة مثلما هى اليوم . وهل استطاعت أمة من الأمم أن تعيش فى عزلة عن العالم فى حياتها الاقتصادية حتى تستطيع هذه العزلة فى حياتها العقلية والنفسية ، هى كلما ازدادت بالعالم اتصالاً ازدادت على تقوية هذا الاتصال وتمتين روابطه حرصاً ، وهذا ما نسعى اليوم إليه بكل قوتنا ، وهو البشير بأن بعث الشرق قوى مكين .

تاريخ مصر وآدابها

لا يُدرّسان حتى اليوم فى الجامعة المصرية (*)

وضع ثلاثة من كبار أساتذة كلية الآداب ، هم الدكتور طه حسين والأستاذان أحمد أمين وعبد الحميد العبادى ، كتابًا عن أدب العرب أسموه فجر الإسلام . وقد نشرت مقدمة هذا الكتاب فى عدد السياسة الأسبوعية الماضى . ومن خلال ما كتبه الدكتور طه حسين فيها يتبين للقراء أن أساتذة كلية الآداب المحترمين قد اعتزموا أن يقيموا الآداب العربية على أسس علمية متينة تجعل منها صورة صحيحة لحياة العرب الاجتماعية ، والسياسية ، وصورة لعلاقتهم بغيرهم من الدول ، وتأثرهم بها وما كان من أثر ذلك كله فى الأدب العربى وما كان من أثر الأدب العربى فيه . وذلك لا شك مجهود عظيم صالح يحمد للذين قاموا به أجزل الحمد ، وما بالك بمجهود يراد به تجديد الأدب العربى على صورة تجعلنا نرى فيه حياة الأمة العربية ماثلة فى كمال وجودها لا مجرد قطع فنية جميلة فى الشعر والنثر .

والحق أن دراساتنا الماضية للآداب العربية تجعلنا ننظر إليها أغلب الأمر نظر غير العارف بها إلا بمقدار ما قيل له عما فيها من جمال ، بل إن الكتب التى وضعت فى العصر الماضى وفى العصر الأخير لتاريخ أدب العرب لأبعد ما تكون دلالة عن صلة هذا الأدب بحياة الأمة التى نشأ فيها . أذكر يومًا وكنت ما أزال تلميذًا بالمدارس الثانوية كنت فيه ضيفًا على أحد أعمامى ، وفيما أنا أراجع بعض الكتب عنده وقعت فى هامشه على عبارة أرشدتنى إلى أن من يريد أن يكون أديبًا وأن يثقفه فى العربية فعليه بقراءة كتب مجمع الأمثال للميدانى ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ،

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١٤٦ ، بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٩٢٨

والبيان والتبيين للجاحظ ، ولا أذكر أى ثلاثة كتب أخرى ، فأسرعت إلى بائع كتب طلبت إليه هذه المجموعة النفيسة لأصبح أديبًا مطلعًا على أدب اللغة العربية فى خير مصادره . ولست أنكر أنى وقفت من قراءة هذه الكتب منذ تلك الأيام البعيدة على محصول لغوى غير قليل ، ولكنى إذ أذكر اليوم ما قرأته بعد ذلك عن تاريخ آداب اللغات الأخرى فى كتب مدرسية صغيرة الحجم أشعر بأنى وقفت منها على حياة تلك اللغات أكثر مما أوقفتنى هذه الكتب الستة العظيمة على أدب العرب وحياة اللغة العربية .

وما يمكن أن نقوله عن هذه الكتب يصدق على غيرها . فكتاب أمالى القالى وكتاب الأغانى وأمهات كتب الأدب العربى على دسم ما فيها من غذاء أدبى لا تسير بك فى طرق صالحة لدراسة تاريخ أدب العرب إلا إذا أنت انقطعت انقطاعًا تامًا لهذه الدراسة وجعلت منها شغلك الشاغل . وربما كان لأهل تلك العصور من العذر ، فضلاً عن أن طريقة البحث العلمية لم تكن معروفة عندهم وأن الحياة كانت ما تزال هيئة ميسورة ؛ وأن هذه العجلة التى يمتاز بها كل ما فى هذا العصر الحاضر لم تكن بعض ما عرفوا ، فلم يكن الواحد منهم يرى بأسًا من أن يقضى السنوات تتلوها السنوات فى دراسة هذه الكتب ، وأن يجمع من متفرق ما فيها ما يكوّن عنده فكرة صالحة من تاريخ أدب العرب . أما نحن فلسنا نستطيع أن نقف من الأدب ولا من غير الأدب هذا الموقف لأن وقت أكثرنا لا يتسع لمثل تلك البحوث المطمئنة ، ولأن مجموعة معلومات الإنسان قد بلغت من الكثرة حتى لتراك عاجزًا عن أن تقف على ما يكفيك منها إذا أنت لم ترتبه وتنتله ؛ وهى فى ذلك لا تخرج عن أبسط شئون الحياة ، فالرجل الذى لا يملك إلا أشياء معدودة يستطيع أن يبعثرها فى بيته كيف شاء ، وهو لن يضل عن مكان شىء منها لقلتها ، فأما الغنى والمترف والكثير الحاجات فلن يستطيع الاهتداء إلى شىء مما عنده ما لم يكن عنده ترتيب ونظام .

حسن إذن ما قام به أساتذة الجامعة المصرية لتاريخ الأدب العربى والحياة العربية فى فجر الإسلام ، وأكثر رجائنا أن تعاونهم الظروف على القيام بما اعتزموا القيام به من تاريخ ضحى الإسلام وما بعد الضحى . وستكون لدينا الفرصة من بعد لنتحدث إلى قرائنا عما ينشرونه من الكتب فى هذه الفترات المختلفة من حياة الإسلام وآدابه . أما هذا الفصل فليس موضع حديث عن تاريخ العرب ولا أدب العرب ،

وإنما قدمنا بهذه المقدمة لنسأل حضوات المحترمين أساتذة الجامعة ، ولنسأل وزارة المعارف : ما شأن الحياة المصرية والأدب المصرى فى عصورهما المختلفة ؟ وألا يستحقان عناية أكبر العناية ، عناية توازى على الأقل عنايتنا بآداب اللغة العربية وبتاريخ العرب ؟ .

لقد تناولنا الحديث فى هذا الموضوع منذ سنوات ، وطلبنا إلى أدبائنا وكتّابنا أن يفكروا فيه ويعنوا به ، وطلبنا إلى الجامعة المصرية يوم لم تكن أُلحقت بالحكومة أن تخصص له منها مكانًا . ولقد لبى نداءنا المرحوم الأستاذ الشيخ محمد الخضرى وجعل يقلب فى دار الكتب وغير دار الكتب عما لم تشمله مكتبته الخاصة من دواوين الشعراء المصريين ، ولقد أطلعنى رحمه الله فى أخريات أيامه على كراسات عدة فيها ما اختاره من الشعراء المصريين أمثال البهاء زهير وابن نباتة وغيرهما ، وأشهد لقد كان لشعرهما طابع خاص وروعة مصرية تميزه عن غيره من الشعر العربى ، كما يتميز الشعر الأندلسى عن شعر أهل جزيرة العرب . ثم إنى لأشهد أن هذا الشعر العربى المصرى كانت تجرى فيه روح النيل العذبة السائغة وتضوع منه هذه الوداعة والهوادة التى يسبغها النهر الإله على ما حوله ، لكن الشيخ الخضرى انتقل إلى جوار ربه قبل أن يتم هذا العمل ، بل قبل أن يعدو فيه البداية ، وبقيت مصر وآدابها لا يفكر فى التخصص لهما أحد ولا يفكر فى أن يصلهما بغيرهما على الطريقة التي سار عليها أساتذة الجامعة فى كتاب فجر الإسلام أحد .

والحق أن الشعر العربى المصرى وحده ليس هو الغاية التى رمينا ونرمى إليها من دعوتنا إلى إحياء الأدب المصرى وتاريخه . فللأدب كل أمة ولتاريخ هذا الأدب نواح كثيرة تتصل بحياة الأمة فى أبعد أعماقها ؛ والأدب يعد زهرة هذه الحياة . وإذا كانت مصر قد تأثرت بالآداب العربية فى القرون الأولى للإسلام وكانت دراسة هذه الآداب العربية وتاريخها مما يفيد الباحث فى الحياة المصرية وآدابها ، فإن ما تلا قرون الإسلام الأولى من تاريخ مصر قد استقل أو كاد ، وقد كانت له شخصية مصرية لا نعرف اليوم منها صورة واضحة ، لأنها لم تبحث ، ولم تدرس ، ولم يكتب فيها من الكتب ما يلائم طرائق البحث العصرية . فضلاً عن ذلك فإن مصر قد أثرت فى حياة الإسلام فى القرون الأولى وفى أدبه على النحو الذى نرجو أن نراه واضحًا فى كتاب فجر الإسلام وفى الكتب التى تليه ، لكن دراسة تأثير مصر فى الحياة العقلية والسياسة والأدبية

لعرب ذلك العصر تقف عند دقة وصف حياة العرب أنفسهم لتظهرنا منهم على صورة صحيحة واضحة ، فأما حياة مصر العقلية والسياسية والأدبية فى قرون الإسلام الأولى ومبلغ ما تأثرت به مصر من حضارة الإسلام ، وما بقى عندها من حضارة المسيحية ومن حضارة الرومان ، وما كان لا يزال باقياً فيها من آثار الحياة الفرعونية القديمة ، فذلك لا يمكن الوقوف عليه إلا بإفراد البحوث الخاصة بمصر وبحياتها فى تلك القرون البعيدة التى يفصلنا عنها اليوم ألف عام أو يزيد .

لسنا ندرى هل كان خلق مدرسة الآثار بالجامعة المصرية بعض ثمرة دعوتنا هذه . وسواء أكان الأمر كذلك أم لم يكن ، فإن مدرسة الآثار تقف مهمتها عند حل الرموز الهيروغليفية وغير الهيروغليفية تمهيداً لمباحث علماء التاريخ ، ثم إن ما كشفت عنه مدرسة الآثار ، بل ما كشفت عنه دراسة الآثار المصرية فى مصر وفى أوربا من ناحية تصوير الحياة المصرية القديمة ما يزال على كثرته وجماله وجلاله غير كاف ليصور الحياة المصرية القديمة تصويراً تاماً واضحاً دقيقاً ، أو هو بتعبير أدق مازال محصوراً فى نطاق البحوث التاريخية العلمية ، فلم تكمل صورته الكمال الذى يلهم الفن والأدب بما يمكّن لهما من بعث الروح القوية التى تقيم لنتائج هذه البحوث جسماً وكياناً يراه العلماء وغير العلماء ، ويصلون فى مشاهدتهم إياه وفهمهم له إلى حد تمثله كأنه بعض الصور التى تخالط حياتهم وتتصل بخيالهم وبتفكيرهم ، بل إنى لأشهد أن فى كتاب إيزيس وأزوريس لمؤلفه الإغريقى بلوتارك من الروح والحياة برغم بساطة موضوعه ما لا أجده فى كثير من الكتب الحديثة عن تاريخ مصر الفراعنة . ولعل ذلك إنما يرجع لقرب عهد الإغريق الأقدمين بمصر القديمة وما بين عقائد هؤلاء وأولئك من شبه ، وتصورنا نحن حياة الإغريق القديمة لكثرة ما قرأنا المباحث الدقيقة عنها تصوراً يقرب إدراكها وتمثلها .

على أن لمدرسة الآثار المصرية وللباحثين فى الآثار المصرية الأوربيين من العذر أنهم ينقبون عن حياة بيننا وبينها ألوف من السنين ، وتحجبنا عنها أديان وحضارات مختلفة فى تشابهها . وهم قد عثروا من آثار هذه المدنية على كثير غير ما ذكره صاحب كتاب إيزيس وأزوريس . وكل كشف جديد له قيمته الكبيرة يدفع المكتشفين إلى أن يقولوا مثل ما قال كارنارفون وكارتر عند اكتشافهما مقبرة توت عنخ آمون :

إن التاريخ القديم عرضة على إثر هذا الكشف لأن يكتب بصورة جديدة ، وأعمال التنقيب المستمرة تجعل الكثير من علماء الآثار يعتقدون أن كثيراً مايزال طى رمال مصر وجنادلها ، وأن هذا الكثير قد يغير من الصورة الحاصلة الآن فى نفوس العلماء عن تاريخ مصر الفراعنة . وما دام ذلك هو الحال فهو عذر إلى حد ما عن عدم وصول هذه البحوث العلمية فى التاريخ القديم إلى حد الكمال الذى يلهم الفن والأدب بما يمكّن من إقامة كيان لهذه الحياة القديمة يراه العلماء وغير العلماء .

لكن ما تعاقب على مصر منذ الفراعنة إلى عصرنا الحاضر من أديان ومدنيات وما تأثرت مصر به وما أثرت فيه هو أكثر وضوحًا من عصر الفراعنة ، بل إن ما كتب عن تاريخ الرومان وعن تاريخ العرب بعد ذلك ليشتمل على الكثير الخاص بمصر وحياتها العقلية والسياسية والاجتماعية والأدبية بما يستطاع معه دراسة هذا التاريخ مستقلة واستيفاؤه على أكمل الوجوه .

وهذه الدراسة وهذا الاستيفاء لتاريخ مصر فى عصورها المختلفة عصر الفراعنة ، وعصر اليونان والرومان ، وعصر الإسلام ، والعصر الحاضر لا يكون بأن نُترك نحن جماعة المشتغلين بالحياة ، أو نترك الطلبة المشتغلون بمختلف ألوان الدرس ، نُنقّب عنها فى الكتب على ما كان يفعل الذين يريدون الوقوف على تاريخ أدب العرب . ولو أنّا وجدنا الوقت والمقدرة لهذا التنقيب لما أفاد كل منا إلا لثقافته الخاصة ، ولما أفاد من ذلك كثيراً ، وإنما تكون هذه الدراسة على الطرق العلمية الصحيحة بأن ينقطع لها أساتذة يدرسونها فى الجامعة تمهيداً لتدريسها فى المدارس الثانوية . هؤلاء الأساتذة الذين ينقطعون لمراجعة المراجع المختلفة والتقريب والمقارنة بينها ، واستنباط الحقائق التاريخية الخاصة بمصر من خلالها ، هم الذين يستطيعون الاضطلاع بهذا العبء الشاق . وهؤلاء الأساتذة كان يجب أن يكونوا أول الذين جلسوا على مقاعد التدريس فى الجامعة المصرية منذ إنشائها أهلية فى سنة ١٩٠٨ . ولما كانت ظروف ذلك الوقت لم تظفر بخلق مقاعد التدريس هذه فإن عيبًا أكثر العيب ، بل عاراً أكبر العار ، أن تظل الجامعة الحاضرة المتصلة بالحكومة اتصالاً وثيقًا تدرس فيها آداب فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وغيرها ، ويدرّس فيها تاريخ هذه البلاد ، ثم إذا تاريخ مصر لا يدرس ولا يبحث فيه الباحثون . وإذا بنا كلما أعوزنا الأمر للبحث عن شيء نضطر

فى أغلب الأحوال للرجوع إلى مصادر أجنبية عنا قلّ أن تنقع غلة أو تروى ظمأ لمن يريد الحقيقة التاريخية الصحيحة .

ولسنا نقول إن عاراً أكبر العار أن لا تكون بالجامعة المصرية مقاعد لتدريس التاريخ المصرى والأدب المصرى ؛ متأثرين بفكرة من الكرامة القومية وحدها ، بل نحن ثائرون أيضاً لامتهان كرامة العلم نفسه بإهمال بلد عريق التاريخ واضح نواحى الأدب بدراسة تاريخه وأدبه . ولو أن المسألة لم يكن فيها إلا الكرامة لكفى . فليست أمة من الأمم تقدس ثرى وطنها حبًا فى هذا الثرى لذاته ، أو أنه ينبت لها طعامها وشرابها ويقدم لها رزقها يومًا بيوم . كلا ! ليس الوطن هو هذا الشىء المادى وحده ، وليس هذا الشىء المادى هو أغلى ما فى الوطن أو أثمنه ، إنما أثمن ما يمثل الوطن هى هذه الأجيال التى سبقتنا والتى خلقت لنا من مجهوداتها هذه الحياة ، وما فيها من نعم العلم والفن والإلهام والإبداع والاختراع . هى هذه الأرواح التى عاشت قبلنا فى الجو الذى نعيش وعمّرت قبلنا ثرى هذا الوادى فزادته على خصبه خصباً ، ونشرت على جوانبه وفى كل أنحائه آلهة الحق والحكمة والعدل والشعر والموسيقى وكل ما يجعل الحياة إنسانية جديرة بأن نحياها ونستمتع بها وننهل من لذائذها المادية والعقلية والعاطفية والروحية ، نعم هذا التاريخ القديم هو الذى يمثل الوطن حقًا . وكما يقدس الفلاح مزرعته الصغيرة لمّا عرف ما فيها من خصب وقوة إنتاج ، واستكنه بواطنها وأركانها ، فلمس بيديه كل ذرة من طميها لمس محبة وتقديس . كذلك يقدس الرجل وطنه كلما عرف ما فى تاريخ هذا الوطن من مجد وعظمة ، وما أفاء عليه أهل هذا التاريخ من آثار الفضل والعلم ، بل إن آلام الوطن لتزيدنا للوطن حبًا وبه تعلقًا وتقديساً . وكلما أحبت أمة وطنها أحبت فى الإنسانية أوطاناً تتعاون معها لخدمة الخير والحق والجمال . ونحن فى مصر وأسفاه لا نعرف من تاريخ وطننا هذا على صورة صحيحة إلا ما أصابه من تحكم الغير فيه . ولهذا نرى نفوسنا جميعاً وفيها ثورة حبيسة تود لو تنفجر وتخشى أشد خشية آثار هذا الانفجار ، فأما ما سوى ذلك منت تاريخ الفاتحين الأجانب الذين أذلوا آباءنا وأجدادنا إذلالاً ترك نفوسنا متأججة بلهب تكظمه الجوانح خشية عواقبه ، أما تاريخ ما أثبت آباؤنا وأجدادنا على صفحات الحياة من علم وفن وفلسفة وحكمة ، فذلك إنما نتخيله تخيلاً ونتخيله مبعثراً فى ظُلم الماضى تنفذ إليه

أبصارنا من خلال التاريخ الذى وضع لأمم غير أمتنا فتعرونا لذلك نشوة لكنها سريعة الزوال ، ويظل شعورنا الوطنى مشوباً بما عرفنا من خيبة آمال ماضية لا يعوضها فى نفوسنا مجد ما صنع بناة الوطن فى ماضيه الطويل .

ولنضرب مثلاً من تاريخنا فى الفن والأدب وهما رحيق زهرة حياة الأمم . ولنكتف من الفن والأدب بما كان لمصر منهما منذ الغزو الإسلامى وقيام العربية وآدابها فى مصر . فأى أدب عربى تراثا نعرف ؟ أليس هو أدب الجاهلية ثم الأدب الإسلامى فى الشام والعراق ، وبعض الأدب الأندلسى ؟ فأما الأدب العربى المصرى فقلّ من يعرف عنه شيئًا . وأستطيع أن أؤكد أن أدباءنا أنفسهم ليس منهم من تكونت فى نفسه صورة كاملة الحياة لهذا الأدب العربى المصرى . والفن المصرى منذ الغزو الإسلامى ليس أحسن من الأدب حظًا . هذا عند الذين يميلون ميلاً خاصًا للفن وللأدب فى مصر . ما بالك بسواد المتعلمين من هذه الجماهير العظيمة التى يلقى على عواتقها أعباء النهضة بمصر . هذه الجماهير من المتعلمين لا تكاد تعرف من أمر مصر إلا ما تقع عليه العين ، فأما تعليمها فلا يتعدى التعليم الذى يعدها لمهنة معينة ، ولولا قراءات بعض أفرادها الخاصة لكانت معلوماتهم العامة ، فيما سوى مهنتهم لا تزيد على معلومات السواد من غير المتعلمين . فأية صورة تكون للوطن فى نفوس هؤلاء وأولئك ؟ ألا تكون الصورة المادية التى تقع تحت النظر والحس والصورة التاريخية الشوهاء المشوبة بشهوات السياسة مما يلقونه للتلاميذ والطلبة فى المدارس ، هذا على أن محالاً أن تكون هذه الأمة قد قضت ثلاثة عشر قرنًا كانت الحياة العقلية والحياة العاطفية والروحية مجدبة فيها ، وكان أهلها لا يعلمون شيئًا أكثر من أن يكونوا عبيداً لحكامهم على نحو ما يريد بعضهم أن يصور مصر لأبنائها ، فإذا كان ذلك واضحًا كل الوضوح ، أفلا يكون عاراً أكبر العار على أهل هذه الأمة ألا يوجهوا جهودهم إلى الناحية التى يجب أن تسبق إلى التوجه إليها جهود الوطنيين المخلصين ، أو لم يكن واجبًا على الجامعة المصرية قبل أن تفكر فى دراسات تاريخ اليونان والرومان والعرب ، أن تدرس تاريخ مصر لأبناء مصر ؟ . وأى واجب أكبر من واجب إحياء الوطن فى نفس كل فرد من أبنائه بتصوير تاريخ الوطن وآدابه صورة صحيحة كاملة يرتشفها الصبى من نعومة أظفاره ، وتنمو فى نفسه رويداً رويداً مع نمو جسمه وعقله ليكوّن صورة صحيحة لمصر فى شكلها المجيد الجميل لا فى صورتها الخاضعة الذليلة .

إلى جانب ثورتنا للكرامة القومية ولمصلحة الوطن ومجده ، فنحن ثائرون لكرامة العلم ولمصلحته أيضاً . ومع ما نقر به من الفضل للأجانب الذين يعنون ببعض جوانب تاريخ مصر وآدابها ، وما نحمده لهم من جهود ضخمة يقومون بها ، فإنّا نعتقد أن الأشجار التى تستنبت فى غير الطقس الطبيعى الذى تنمو فيه لا يمكن أن توازى فى جودتها وقوتها مثيلاتها التي تنبت فى بلادها وطقسها ، بالغة ما بلغت العناية التى نخلعها على هذه الأشجار المستنبتة . كذلك لن يستطيع أجنبى أن يحيط بتاريخ أمة من الأمم ، وأن ينفذ إلى أعماق الحقيقة فيه ما يستطيعه أحد أبناء هذه الأمة . ذلك أن روحه وعقله وعاطفته تتصل بهذا التاريخ ما لا تتصل به روح الأجنبى عنها ، فهو يفيد من عبارة يقرؤها ، أو صورة يراها ، أو قصة تروى له ما لا يستطيع غيره أن يفيد من ذلك ولو أجهد نفسه ، وبلغ المشقة من جهده ، بل إنك لتجد الباحث فى تاريخ أمته ينتقل بعقله وعاطفته وحسه إلى عصر من العصور ، وإن بعد فى التاريخ حتى ليصبح كأنه أحد رجاله ، لأن هذا العصر قد وصله ميراثًا عن آبائه فأصبح فى دمه وروحه وفى كل وجوده . وليس ريب فى أن العلم يفيد من مباحث من تكون هذه حاله أضعاف ما يفيد من مباحث غيره . وأنت وإن قرأت كتاب كارليل عن الثورة الفرنسية فلن ترى فيه من الدقة ما تجده فى كتاب تين أو جيزو ، أو غيرهما من كتّاب فرنسا نفسها ، هذا على تجاور إنكلترا وفرنسا واتفاقهما حضارة إلى حد كبير . وإنى لذلك أحسب أنّا إذا خصصنا من أساتذة العلم فينا من يقوم بمباحث التاريخ المصرى ، فإنه لا شك بالغ منه ما لا يبلغه الباحث فى التاريخ العربى نفسه على صلة ما بيننا وبين العرب صلة دين ولغة ورحم . كذلك أحسب أنّا لو ألقينا على أساتذة منا عبء البحث فى الآداب المصرية العربية أو غير العربية ، فهم لا ريب واصلون إلى استجلاء صور وعواطف ومعان فيها هى كل ما قصد قائلها ، على حين لا نستطيع أن نصل إلى كل ذلك فى دراستنا آداب عرب شبه الجزيرة أو عرب الأندلس ، لأنّا ورثنا مصر ولم نرث شبه الجزيرة ولا ورثنا الأندلس ، فمن الجناية على العلم أن يكون فى مقدورنا أن نؤدى هذه الخدمة الجليلة ، ثم نتواكل لأنّا نجد الميدان فيها جديداً يحتاج إلى أكثر من الجهد الأول الذى يقتضيه درس آداب العرب التى درست من قبل فى صورة مختلفة صالحة أو غير صالحة . ومن الجناية على الأدب المصرى رحيق زهرة الحياة المصرية فى عصورها المختلفة أن نذره

دفينا بينما نقلب بين أيدينا آدابًا ، مهما يكن فيها من شذى يتضوع ، ومهما يكن لها من أنغام مطربة ، فليس هو هذا الطرب المصرى الحلو السائغ ، ولا ذلك الشذى الذى يتضوع من خلال الوادى الدائم الخضرة والرواء .

الكرامة القومية وكرامة العلم متفقان إذن فى إلقاء التبعة علينا لتقصيرنا فى حق تاريخ مصر وأدبها ، وكلتاهما تناديننا أن نلقى عنا غبار هذا العار الذى ترديناه وما نزال مترديين فيه ، وبذلك أيضًا تنادينا الأجيال الماضية التى صنعت الوطن ومن ذكرياتها تتكون صورته الحية الماضية . أفيحلو لنا أن ينسانا أبناؤنا ، وأن ينسوا عظيم جهادنا لنزيد على ماصنع أسلافنا لمجد بلادنا ؟ هانحن أولاء لا نذكر من الذين سبقونا غير أولئك الأجانب عن مصر ممن أغاروا عليها وألزموها لهم الطاعة ، فإذا ذكرنا أحدًا من مواطنينا الأقدمين الذين تصبب جبينهم عرقًا فى خدمة هذا الوطن لم نذكر إلا أولئك الذين نالوا رضا الحاكم عنهم ، وتقريبه إياهم ، وتنصيبهم ولاة يحكمون باسمه ، وينفذون فى أبناء جلدتهم أوامره . ولعل قصور الذكر على هؤلاء هو الذى يدفع الكثيرين منا للطمع فى مناصب الدولة ولجعل الوزارة غاية وأمنية للتمنى من أهل هذه البلاد . هذا على أن الحياة السياسية ليست أقوى جوانب الحياة سلطانًا ولا أكثرها ظهورًا ولا أبقاها أثرًا ، لكنها هى الباقية أمامنا ماثلة فى تاريخنا صورة لما يطمع الإنسان فيه من بقاء ، وما يصبو له أثناء حياته من سلطان ، فأما الحكماء والمفكرون والعلماء والأدباء ممن نسينا بنسيان تاريخ بلادنا وأمتنا ، فلا يجد أحد فى نفسه الدافع لاحتذاء مثالهم لأنه لا يعرفهم برغم أنهم فى الحق أبقى فى حياة الأمة وتاريخها أثرًا ، وأبعد إبان حياتهم سلطانًا أثرهم أثر الروح المحركة الدافعة إلى الحياة نشاطها ، لا أثر القوة القاهرة المكرهة الناس على ألوان من النظام تقتضيها ضرورات الحاضر لتزول بزواله فتحل محلها ألوان أخرى تقتضيها ضرورات حاضر جديد . ولو أنّا نفضنا عنا عارنا وبحثنا تاريخ بلادنا لرأينا العاملين فى مختلف نواحى حياة البلد غير السياسية أحب لعملهم وأحرص على إتقانه ، وعلى البلوغ به أقصى ما تمكنهم ملكاتهم وعبقريات العبقريين منهم . ولرأينا تاريخ مصر أصبح كتاريخ غيرها من الأمم يذكر فيه ما يذكر فى إنكلترا : شكسبير وملتن وشلى وسبنسر قبل أن يذكر أى ملك من ملوك إنكلترا أو وزير من وزرائها ؛ وما يذكر فى فرنسا : رابليه ومونتنى وراسين وموليير

وأناتول فرانس قبل أن يذكر نابليون ، وقبل أن تذكر ملوك فرنسا ورؤساء جمهوريتها . نعم لرأيت هذا العالم المستطلع لعلمه يطمع في أن يكون له من ذكر على الزمان ما لباستير ؛ وهذا الفيلسوف المنقطع لتفكيره ما لكانط وسبينوزا وبرجسن وغيرهم ، ثم لرأيت من أثر ذلك نشاطًا فى حياة الأمة العقلية والعاطفية والفنية والأدبية لم تعرف مثله ، لأنها لما تعرف تاريخه ، ولأن أبناءها يحسبون لذلك أن صور النشاط هذه مقضى عليها بأن تدفن مع حياة أصحابها إلى غير عودة .

والإنسانية أيضًا تنادينا بما ينادينا به الوطن والعلم والأنانية الفردية ، وإذا كان الوطن هو الأجيال التى سبقتنا والأرواح التى عاشت فى الجو الذى نعيش فيه ، فبعثت فى أنحائه آلهة الحق والحكمة والعدل والشعر والموسيقى وكل ما يحبب الحياة ويزيد لذائذها المادية والعقلية والروحية ، فالإنسانية تشتمل مجموع الأوطان ، وكلما وضع تاريخ واحد منها زادت الإنسانية ثروة وقوة وسعادة . أليس كل وطن يتطلع إلى غيره من الأوطان التى عرفت تاريخها علّه يجد لحاضره فى تاريخ غيره ما يعينه على الحياة ويمتعه بها . ألسنا فى مصر نذكر أفلاطون وفرجيل وشكسبير وجيته وفكتور هيجو ؟ أو لسنا نُمتّع من هؤلاء على أنّا أفراد من بنى الإنسان لهم نصيب فى كل ما خلف بنو الإنسان ؟ أصحيح مع هذا أن تاريخنا خلا من رجل أو رجال أمثال هؤلاء ، أم الحق أنّا لم ندرس هذا التاريخ ولم نبحث عما فى طياته من نفائس ، وأن جامعتنا المصرية المكلفة قبل غيرها بالقيام بهذا العمل قد قبلت لنفسها أن تظل وظيفتها مقصورة على الاستعارة من عمل الغير فى حين أن أول وظيفة جامعية ، إنما هى البحث والدرس والتنقيب ؟ .

لقد أُتهمت بالقسوة فى حملتى هذه على الجامعة ، وأشعر حقًا أننى قاس على معهد أُجلّه وأحبه جم الحب . على أن لى من قسوتى هذه عذران : أولهما أن دعوتى التى أدعو اليوم إليها ليست بنت اليوم ولا بنت عام مضى ، فلقد دعوت إليها مرات ومنذ أعوام فى رفق يقصد منه التنبيه والتذكير ، ثم دعوت فى شدة من يرى الحاجة واضحة ملموسة له ، ولكل مفكر ثم لا يقوم القادرون على سدها بالواجب عليهم . وثانيهما أن الدعوة لأمر واضح عار إهماله أو إغفاله ، ولو أن محاولة من المحاولات ابتدئ بها لسد النقص وإزالة العار ، لشعرت بتعنت فى قسوتى لا يليق أن يتصف به

منصف عادل ، لكن محاولة لم تحصل . والجامعة المصرية وكلية الآداب فيها بنوع خاص ما تزال إلى اليوم دولية تعرف شئون العالم القديم والحديث خلا مصر . فمن أراد أن يعرف مصر وأن يدرس تاريخها وآدابها فليهاجر من مصر إلى بلاد أخرى مصر أكرم عليها مما هى على الجامعة المصرية ، ولذلك تدرّس تاريخ مصر القديم والحديث ولو دراسة ناقصة .

ولئن قسوت على الجامعة المصرية بهذا القدر كله ، فيجب أن أقسو أكثر من ذلك على أغنيائنا الذين يحسبون أن الله أوسع لهم فى الرزق ، ليزيدوا لأنفسهم فى الرزق سعة ، ولينسوا أن فى مصر أناساً غيرهم . كلا سادتنا الأغنياء ذوى الثروة الواسعة والجاه العريض الطويل ، لقد أوسع الله لكم فى الرزق لينفق ذو سعة من سعته ، وخير الإنفاق ما اتصل بالعلم . وأمثالكم الأغنياء فى الأمم الأخرى ينشئون فى جامعات بلادهم مقاعد للتدريس ويحبسون عليها من المال ما يقوم بنفقاتها . فهلاّ اقتدى بهم منكم أحداً ! وهلا يحب أحد منكم تاريخ هذا الوطن الذى أغناه ومد فى جاهه وسلطانه ! لقد تبرع أول إنشاء الجامعة أولو الفضل يذكرون على التاريخ ، ولن تنسى الجامعة ذكرهم ، لكن الجامعة تكبر وتزداد حاجة إلى الإنفاق وإلى خلق حلقات دروس جديدة فمن ذا منكم تهزه ذكريات الآباء والأجداد لينشىء فى الجامعة حلقة تدرس فيها ذكرى الآباء والأجداد ؟ . من ذا منكم يريد أن تسمو دائرة الوطن فوق ثرى الوطن ، وأن تتفسح ليشمل مجد تاريخه الجليل العظيم ؟ . هيا هيا أجيبوا الدعاء ، إن الوطن يناديكم فلبوا نداءه . وإنه ليقول لكم : لقد كنت فيما مضى شقيًا بأبنائى ، فهل أكون بهم سعيداً اليوم وغداً ؟ .



ركود الأدب

في هذا العصر (*)

عندما سافرت إلى باريس في سنة ١٩٢٦ بعد غيبة أربع عشرة سنة عنها ، كان أول ما دار بخلدى أن أسأل عن كبار كتاب فرنسا والأئمة المعدودين منهم فيها ، فلقد كان أناتل فرانس وبيير لوتى وبول بورجيه وجول ملتر وإميل فاجيه وبعض من فى طبقتهم هم أعلام الأدب الفرنسى المشهود لهم بالسبق والتفوق فى زمن ما قبل الحرب . وهؤلاء جميعًا ، عدا بول بورجيه ، قد انتقلوا من هذه الدار الدنيا ، فمن ذا خلفهم فى مكان الزعامة الأدبية ؟ ومن هم الكتاب الذين أصبح لهم من المكانة ما كان لهؤلاء ؟ .

وقد ألقيت سؤالى هذا على كل من صادفت ممن أعتقد أن له بالأدب عناية ومحبة . فالمصريون المشتغلون بدراسة الآداب والفرنسيون المشتغلون بالفن وبالأدب والصحفيون المعنيون بكل شىء كانوا جميعًا قبلتى فى سؤالى . وكم كانت دهشتى عظيمة حين رأيت كل واحد من هؤلاء يتردد قليلاً قبل أن يجيبنى ، وكنت أكثر دهشة أن رأيت الكثيرين منهم يقفون أمام أسماء الذين ماتوا ممن ذكرت موقف خشوع وإجلال ، ثم يقولون وعليهم مثل دهشتى : إن أحداً لم يخلفهم أو أن فرنسا لن تعدم أبداً أدباء كباراً مثلهم ، وإن لم ينالوا من المجد وبعد الصوت ما نالوه . كانت دهشتى عظيمة لأننى عرفت الفرنسويين من كل الطبقات قبل الحرب عشاقًا للأدب متعصبين لنوع منه مقدسين علمًا من أعلامه ، فما كنت تكاد تلقى مثل السؤال الذى وجهته أنا سنة ١٩٢٦ حتى يجيبك عليه من يسمعه أسرع إجابة ، وحتى يسرد لك من مؤلفات كاتب يجله الشىء الكثير ، بل لقد كانت تقوم المنازعات حادة حامية بين طائفة من

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١٥٤ ، بتاريخ ١٦ فبراير ١٩٢٩

الشباب وطائفة أخرى ، لأن الأولى تقدس كاتبًا معينًا وترفعه إلى مقام العظمة فى الأدب ، بينما تتعصب طائفة أخرى لكاتب غيره وترى إرضاء لتعصبها أن تطعن على قديس الطائفة الأولى كما تطعن هذه الطائفة الأولى على قديسها . ولقد التمست أسباب هذا الفتور من ناحية الأدب ، وهذا الانصراف عن عبادته وعبادة أربابه فلم أظفر بجواب جديد . ولعل أكثر الأجوبة ترددًا على الألسن هو قولهم : إن الأدباء والكتّاب قد وضعوا مؤلفاتهم موضع التجارة وتنافسوا فى الإعلان عنها بمختلف الوسائل ،كما يعلن أى محل تجارى عن بضاعته . فندر التقدير النزيه لهذه الثمرات الفكرية والذهنية بحُجُب من الإعلان ، وصار أمهر الكتّاب إعلانًا عن نفسه أكثر الكتّاب انتشار بضاعة ، وذيوع صوت ونباهة ذكر ، لكن الجمهور مع هذا يقدّر بفطرته أن الإعلان ليس من وسائل الحكم ، وهو لذلك يتقبل البضاعة التي تعرض له ، وهو يعلم أنه يقدّر الإعلان عنها أكثر مما يقدّرها .

ولعل ما يصدق على الأدب الفرنسى يصدق على غيره من آداب الأمم الأخرى ، ويصدق على الأدب المصرى ، وعلى الأدب العربى عامة . فلقد أصبح للإعلان شأن كبير فى قدر الشعراء والكتاب والأدباء فى بلاد العالم المختلفة جميعًا ، وأصبح الأدب بضاعة دخلت سوق التجارة فتأثرت بأساليب التجارة جميعًا . وصرت ترى ناشر الكتب أو مؤلفها شأنه شأن صاحب مصانع الأنسجة أو البيرة أو الأتومبيلات يعتمد على الإعلان عن بضاعته ، ويعتقد فى الإعلان سببًا من أسباب انتشارها ورواجها ، ومع أن الأدب هو بطبعه الإعلان الطبيعى عن نفسه ، ومع أن قيمته تسهل معرفتها الحقيقية بما يصدره النقاد من الرأى فيها وبما يتذوقه الجمهور منها ؛ فقد صرنا نرى من الإعلان فى الصحف وفى غير الصحف عن الأدباء وكتب الأدب ما نرى عن المتاجر والمصانع المختلفة ، وجنى ذلك على تقدير الجمهور للأدب وللأدباء فى فرنسا وغيرها .

أفيكون معنى هذا أن بضاعة الأدب ما تزال قيّمة كما كانت قيّمة فى أزمانها الكبرى ، وأن الإعلان وحده هو الذى جنى على الأدب ، وجعل الناس ينصرفون عن السمو فى تقديره إلى مثل المكانة التى كانوا يسمون إليها فى الماضى ، وصاروا يعتبرونه سلعة من السلع لا أكثر ، أم أن هناك لهذا الانصراف أسبابًا أخرى ، وأن الأدب نفسه بعض هذه الأسباب ؟ .

أحسب أن هذا الفيض من الإعلان عن الأدب والأدباء ليس كافياً وحده لينتج الأثر الذى أشرنا إليه ، بل لعل الإعلان هو نتيجة الأثر أكثر مما هو سببه ، لعله حدث بسبب انصراف الناس عن الأدب ليردهم إليه أكثر مما صرفهم عن الأدب ، وكانوا عليه من قبل مكبين ، فأما سبب هذا الانصراف فيرجع إلى أن النفوس شعرت بعد الحرب الكبرى بفراغ هائل فيها كما شعرت فى نفس الوقت باستهتار بالحياة أدى بها للتهالك عليها . وما تريد بالإنسانية خارجة من أفظع مجزرة شهدها التاريخ ، وقد ظلت خلالها أربع سنوات تباعًا ترى الألوف ومئات الألوف والملايين يحصدهم الموت حصداً وهم فى ريعان الفتوة وزهرة الشباب ! . أى قيمة للحكمة فى نظرها ولهذا القصد فى الحياة ننهل منها على مهل إذا كنا نجهل كل الجهل ما ستصير إليه فى غدنا : هل سنظل فى فُتوتنا وقوتنا نستمتع بالعيش ونعيمه ، أو إنّا سنصبح لا شيء كما أصبحت ملايين غيرنا ؟ . إذن فعلى الحكمة وعلى العقل العفاء ، ولنترام بكلنا فى أحضان المسرات ننال منها فى أقصر وقت أكبر حظ ما دمنا غير موقنين بأنّا سنأخذ حظنا منها كاملاً إذا نحن تناولناه على مهل وبمقدار ما تطيقه قوانا الإنسانية .. وكان من أثر هذه الحالة النفسية على الأدب أن اضطر كثير من الكتّاب لإرضائها وإمتاعها بما تريد الاستمتاع به من شهوات صغيرة ، ولكنها مختلفة متفرقة لأنها تقصد إلى إرضاء شهوات النفس جميعها . وهذا النوع الصغير من الأدب هو الذى تهافتت الجماهير عليه لا قدراً منها له ولا إعجاباً منها به ، ولكن لأنه يسد مطامعها ونهمها للمتاع كما تهافتت على غيره من بضاعة ربما كان فيها إضرار بها ، ولكنها تهافتت عليها لأنها قد لبت حاجتها إلى نسيان آلامها وهمومها لتتمتع بسعادة مؤقتة زائفة ، ولكنها على كل حال سعادة ربما لم يتح لها أن تنال غيرها قبل هذا الغد الذى يجيء لها با لا ندرى المرض أو العاهة أو الموت أو البؤس الدائم .

ولئن كان مرض التهالك هذا قد خفت وطأته عن الإنسانية بعض الشيء لابتعاد أشباح الحرب المزعجة عنها رويداً رويداً ، فإن آثارها ما تزال بادية فى الأدب على مختلف صوره . فأنت لا تجد اليوم إلا الأدب الصغير فى كل ما تقرأ ، ولو بلغ هذا الذى تقرأ أعظم مبلغ من دقة التعبير وجمال اللفظ وحسن العبارة والسلاسة والسهولة . والأدب الصغير أقصد به – فى أدب اليوم – هذا الأدب الذى يتناول جانبًا ضيقًا

وصورة محدودة من صور الحياة ليقف عنده واصفًا أو محللاً . وهذا الجانب الضيق وتلك الصورة المحدودة اللذان أصبحا موضوع أدب عصرنا الحاضر لا يخلو شيء منها من تصوير حالة مرضية للنفس ؛ أو على الأقل حالة استثنائية لا يمكن أن تكون هي حالة الصحة والقوة . وقد يصح أن يكون الأدب متأثرًا في هذه النزعة بالمباحث العلمية التي تقصد إلى دراسة الحال الباثولوجية لتصل منها إلى تصوير حال من الصحة تصويراً دقيقًا في بحثه ، لكن تأثرها هذا لا يزيد على أنه تأثر باثولوجي «مرضي» بدليل أنها لا تريد أكثر من وصف الحالة المرضية أو الاستثنائية من غير تفكير من جانبها في أن ترتب على ذلك نتيجة علمية أو غير علمية ، ومن غير أن تقدم بذلك إلى الجمهور ما يرضي طلعته النفسية إلى أمل أو رجاء في الطمأنينة والسعادة .

والجمهور في عصرنا يزداد حاجة يومًا بعد يوم للوصول إلى هذا الأمل ، وأن يطمع في تحقيق هذا الرجاء . لقد كان في أسلافه ما يحقق رجاءه هذا في الإيمان ، وما يبعثه الإيمان إلى النفس من هدوء وسكينة . وكان بعد ذلك لآبائه حين رأوا في العلم مفتاح ما أغلق على عقولهم من نظريات كانت مقررة ، ولكن على غير أساس ، وكان مطالبًا بأن يعتقد صحتها ولو لم يفهمها . أما جمهور اليوم فيشعر بما أقام له العلم من حضارة مادية قوية الأساس تزيده كل يوم رخاء وتزيده في نفس الوقت طمعًا في المزيد من هذا الرخاء . لكن هذه المدنية الاقتصادية أو المادية تركت جانبه النفسي لا شيء يرضيه ولا يبعث إليه الطمأنينة . والنفس بحاجة إلى رخاء في غذائها الفكري والعاطفي حاجة الجسم إلى رخاء في نعيمه المادي . وهذا الرخاء النفسي هو ما ينقص أبناء هذا الجيل وهو ما يجعل الأدب صغيراً ، لأنه لا يرقى إلى تقديم حاجات النفس في فيض يكفل لها سعادتها وسكينتها لتعيش راضية مرضية .

ولقد تابع الأدب المعرفة الإنسانية في أدواره المختلفة ، فكان يزداد فيضًا وسموًا كلما كانت هذه المعرفة كافية الحاجات النفسية والعقلية للإنسان . ولسنا نذهب بعيدًا للتدليل على هذا وتاريخ الأدب القريب يضع تحت أنظارنا من أمثلته الشيء الكثير . فحين كان التجريد الفلسفي هو المتحكم فيما بعد عصر الرينسانس في أوربا كان الأدب الوجداني صاحب الحكم سواء منه الكلاسيك والرومانتيك ، ولما آن للتجريد أن يذر المكان الأول للفلسفة الواقعية والعلم الواقعي رأينا الأدب الواقعي مصوراً في

«الناتور السم» يظهر ويقضى إلى حد كبير على ما كان للأدب الوجدانى الأول من سبق وتقدم . وظل ذلك هو الشأن إلى ما قبل الحرب مع خلاف فى التصوير بين «الناتور السم» و «الريالسم» . فأما اليوم فالكتّاب والأدباء يشعرون كما يشعر الجمهور بشىء من الحيرة والقلق فى الطريق التى يسلكون ، ليصلوا إلى الأدب الكبير الذى يمثل النفس الإنسانية الحاضرة ويفيض عليها بما تحتاج إليه من غذاء معنوى . وهذا القلق وهذه الحيرة لدى الكتّاب هى سبب ركود الأدب فى عصرنا الحاضر ؛ وهى التى تدعوهم للأخذ بالأدب الصغير يبحثون خلاله عن حوادث النفس الغامضة فى انتظار اليوم الذى يجلى فيه الأدب الكبير على الناس جوانب النفس المضيئة .

متى يعود عهد الأدب الكبير ، وفى أى ناحية من نواحى العالم سيطلع هذا الأدب على الإنسانية ؟ هذا موضع بحث مستقل نود لو يشارك قراء السياسة الأسبوعية فيه ، كما نود أن يتناولوا هذا البحث الذى أوجزناه فى كلمتنا هذه بالتمحيص والبحث .

الأدب المصرى (*)
وأثره فى حياة الأسرة

أثر الأدب فى الحياة

إن الأدب هو ميراث الإنسانية الخالد وأثر العقول الباقى على الدهر . وليس هناك فيما يذكر التاريخ أو يعلمه الناس تطور حدث أو حركة قامت إلا كانت أثراً من آثار الأدب ونتيجة لازمة لما يقوم به الكتّاب والأدباء من تنوير الأذهان ، وتثقيف العقول ، وإعداد النفوس للحركة والوثوب .

وليس يعدو الحقيقة من يقول إن الأدب هو أنفذ حكمًا وأبعد سلطانًا من سائر مظاهر الحكم والتسلط . ذلك أن دولة الحكام والفاتحين إنما تقوم على القانون أى على القوة ، وأما دولة الأدب فإنها تقوم على العقائد وتنمو فى كنف المبدأ والشعور ؛ من أجل هذا فإن الدولة الأولى لا تلبث أن تزول بزوال القائمين بها ، أما الدولة الثانية فإنها لا تزول أبد الدهر ولن يأتى عليها زمن أو تغير من جدتها ومكانتها الحقب والأجيال .

والمثل على ذلك الثورة الفرنسية ، فقد كانت أثرًا ظاهراً لما قام به الأدباء والكتّاب الفرنسيون الذين سبقوا الثورة من أمثال فولتير وروسو وغيرهما ، فقد هيأ هؤلاء الكتّاب الأذهان للثورة ، وأعدوا النفوس لها حتى إذا اختمرت الفكرة ، ونضج الثمر هبّت الثورة جامحة عنيفة فبرز على رأسها فى أدوارها المختلفة الزعماء من أمثال مارا ودانتون وروبسبير الذين أرادوا السلطان ، ثم خلفهم عليها رجل فرنسا العظيم نابليون ،

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١٥٢ ، بتاريخ ٢ مايو ١٩٢٩ وهو خلاصة محاضرة ألقاها الدكتور هيكل فى الجامعة الأمريكية .

ولكن ذهب هذا كله وضعف بمضى الزمن ما كان لزعماء الثورة من أثر فى النفوس ، ولم يبق جديداً قوياً محتفظاً بما فيه من روعة وجلال غير ذلك الميراث الذى خلّفه الأدباء .

ويصدق هذا المثل على دولة الإغريق فلا يزال الناس يذكرون أفلاطون وسقراط واسكيوس وغيرهم من أدباء الإغريق وفلاسفتها ، ولكنهم لا يكترثون كثيراً لذكر الأبطال والفاتحين ، كذلك يقال عن دولة الرومان وغيرها من الدول التى كان لأبنائها من الأدباء أثر محمود فى الأدب ومقام جليل فيه .

كذلك كان القرآن أكبر معجزة للنبى محمد لما حفل به من روعة البيان المعجز .

تطور مصر السلمى

ومنذ خمسين سنة أو أكثر تتطور مصر وتخطو إلى الأمام بفضل الأدباء والكتّاب فيها ، ولقد ترى اليوم فى تركيا وفى فارس وفى أفغانستان تطوراً ، ولكنه تطور حف بالقوة ونتج عن الضغط والإكراه ، وإنه لما يعلى شأن مصر ويكبر من نهضتها أن تصل فى هدوء واطمئنان إلى ما تحاول القوة أن تصل إليه الآن فى الأمم التى أسلفنا ذكرها ، وإذا ذكرت مصر ذلك واستشعرت الراحة إليه فإنه لن يفوتها أن تذكر إلى جانبه أن الفضل فى ذلك إنما يرجع إلى الأدباء والكتّاب .

عرفت مصر أدباء نذكر منهم المغفور له الشيخ محمد عبده وقاسم بك أمين وحفنى بك ناصف ، ولكنها لم تعرف أديبًا خلص للأدب وحده وتجردت حياته من كل شىء عدا الأدب ، ذلك أن هؤلاء الأدباء الذين ذكرناهم ، والذين هم فى طليعة كتّاب النهضة لم يكن الأدب حرفتهم ، وإنما كانوا معروفين بأعمال أخرى ، وكان الأدب حميلة على هذه الأعمال ؛ فقد كان الشيخ عبده معروفًا بأنه مفتى الديار ، وكان قاسم بك أمين قاضيًا ، وكذلك كان حفنى بك ناصف ، ومع ذلك فقد غلب الأدب عليهم وأصبح الذين يحبون أن يتعرفوا على آثار هؤلاء الأشخاص لا يبحثون عنها فى وظائفهم الأصلية وإنما يلتمسونها فى آثارهم الأدبية ؛ وهذا فخر للأدباء ليس مثله فخر .

ولم يتغير وضع الأدب فى يومنا هذا عن ذلك الوضع القديم ، وهو ما يسميه الفرنسيون «بالصناعة الثانية» ، فقد لا ترى اليوم أديباً أو كاتباً كان الأدب صناعة له منذ البدء ، فقد نرى من بين أدباء اليوم من نشز عن دولة السيف وأوى إلى دولة الأدب ، وقد نرى منهم المعلمين والقضاة وغيرهم من سائر الطبقات .

الأدب والأسرة

يوم قام المرحوم قاسم بك أمين يجرد من قلمه ولسانه حملة على جمود المرأة واستهتار الرجال بحقوقها . لم تكن المرأة حينئذ غير عرض مهمل لا يراد منها إلا خدمة الرجل وليس لها أن ترنو بعينها إلى خارج الدائرة التى حُصرت فيها ، فليس لها أن تشارك الرجل تدبير أمره ولا أن تتسامى حتى تكون نظيره فى تفهم الحياة وتذوق مزاياها ، وكان أكبر ما يراد منها أن تنتج النسل وتؤدى وظيفة حفظ النوع ثم تستقر فى جانب من البيت حتى تهرم وتفنى .

يوم قام قاسم بك يفعل هذا ويوم قام غيره من الكتّاب يعالج ناحية من نواحى الإصلاح العام كان الأدب المصرى قد جاوز الطور الأول من مراتب الأدب ، ذلك أن مراتب الأدب ثلاث : فأما الرتبة الأولى ، فهى أن ينصب الأدب على الأغراض الشخصية من مديح أو هجاء أو غزل أو وصف ، وأما الرتبة الثانية ، فهى أن يكون هم الأديب إصلاح عام وخير شامل يمس مجموع الأمة ويتعلق بنهاءة الإنسانية وسعادتها . وهذه هى المرتبة التى بلغها الأدب فى عصر قاسم بك وما جاء بعده من عصور .

وكان لهذه الخطوة التى خطاها قاسم بك وزملاؤه من الكتّاب أثرها فى حياة الأسرة المصرية وفى حياة المرأة خاصة ، فقد نذكر أنه لم يكن فى مصر منذ أكثر من ثلاثين سنة غير مدرسة واحدة لتعليم البنات هى مدرسة السنية . واليوم لا يستطيع الإنسان أن يحصر مدارس البنات أو يعيّن أنواعها من غير مشقة وعناء .

وكان من أثر هذا التطور أن تقارب ما بين الرجل والمرأة وبرزت ظاهرة الثقة بينهما حتى أصبح شأن الأسرة اليوم غير شأنها بالأمس ؛ فللمرأة اليوم نصيب وافر فى سياسة الأسرة وتدبير شأن البيت وتربية الأطفال .

وكان من أثر هذا التطور أيضًا أن برزت فى مصر بعض الأديبات المبرزات من السيدات نذكر منهن المغفورة لها السيدة عائشة عصمت هانم التيمورية وباحثة البادية ، كما نذكر الآنسة مى ، ولو أن فى الوقت فسحة لتلوت على حضراتكم شيئًا من أدب أولئك الأديبات على أنى لا أخطيء إذا قلت أن ليس من بينكم إلا من قرأ لهن وحفظ عنهن .

ولقد كان للأدب النسوى أثره فى نفوس الرجال ، فقد غيّر من نظرهم إلى المرأة واضطرهم إلى تقديرها وإكبارها .

وكان لهذا التطور الأدبى فضله على الأسرة فيما يتعلق بالرابطة الزوجية ؛ ولقد أذكر أن ولاة الأمور يعالجون منذ وقت طويل وضع تشريع يجعل الطلاق من حق القاضى فهم يريدون بذلك أن يقللوا من حوادثه ويجعلوا حياة الأسرة تماسكًا وارتباطًا ، ولكن لا على الحكومة أن تنصب لذلك فقد كفاها الأدباء مؤونته ، ووفروا عليها عناءه بما ثقّفوا به الأمة وهذّبوا به الشعب ، وأحاطوا به الرابطة الزوجية من تقديس وإجلال ، ولقد نذكر تأييداً لذلك أنه منذ ثلاثين سنة كانت نسبة الطلاق ثلاثًا بين كل أربع متزوجات ، أما اليوم فمن بين كل أربع متزوجات لا تقع حادثة طلاق واحدة .

أثر الأدب السيئ

هذا هو أيها السادة أثر الأدب الحسن فى تحكيم روابط الأسرة وإعلاء شأن المرأة ، ولكن للأدب كما لغيره ناحية سيئة ، ذلك أن الأدباء الذين دأبوا على التغنى بالحرية والإشادة بها قد أساءوا من حيث لا يقصدون إلى طائفة لم تثقفهم العلوم ، ولا أعدتهم النشأة فحسبوا أن الحرية معناها الإباحة فكان من جراء ذلك أن تخطوا الحدود .

ولكن ليس فى هذا ما يحزن أو يسوء ذلك أنه لابد أن يحدث ذلك فى كل حركة من حركات الإصلاح ، ولابد كذلك أن يحدث لهذا الجموح رد فعل يكون من ورائه الاستقرار . وقد لا نخطئ إذا قلنا أن رد الفعل قد بدأ منذ اليوم ولن يمضى غير يسير زمن حتى نصل إلى الغاية التى يرضاها الأدب ويقصد إليها الأدباء .

ويوم نصل إلى هذه المرتبة ويـوم أن يأخذ كل شيء مجراه ، يومئذ يكون الأدب قد تخطى مرتبته الثانية وبلغ المرتبة العليا ، تلك هي مرتبة التأثر بما في الكون من جمال وتجلية هذا الجمال على الناس من غير نظر إلى قيد أو شرط ومن غير تقيد بزمان ومكان . وقد لا أكون مخطئًا إذا قلت إننا في بدء هذا الدور ، وأن الباحث المستقصي لا يعجزه أن يلمس اليوم نتفًا من هذا الأدب في آثار الكتّاب والأدباء .

الترجمة للمعاصرين (*)

سعد زغلول باشا وكتاب التراجم

منذ جمعت كتاب التراجم ونشرته على الجمهور جعل بعض أصدقائى ومعارفى يسألوننى عن السبب الذى من أجله لم أترجم فيه للمغفور له سعد باشا زغلول مع أننى ترجمت فيه لثروت باشا . وكان بعضهم يرمينى بأننى لا أقدّر الروح التجارية تقديراً صالحًا ، ويذهب إلى أن الترجمة فى الكتاب للزعيم الراحل كان من شأنها أن تزيد فى إقبال الناس عليه أكثر من إقبالهم الحاضر . ويفسر ذلك بأن طائفة من الشبان ومن غير الشبان ستتهمنى بأننى لم أنشر ترجمة سعد لسبب حزبى . كأنما تبقى الحزبية قائمة بين من لا يزالون فى هذه الحياة وبين من غادروها إلى حيث لا تعرف للحزبية معنى ، وإلى حيث تنطفىء شهوات الحياة جميعًا فلا يبقى من الإنسان غير ذكره . ولم يقف الأمر فى هذا التساؤل عند دائرة أصدقائى ومعارفى ، بل لقد أشارت إليه مجلة المقتطف الغراء فى الكلمة الطيبة التى نشرتها عن الكتاب مما أشكرها عليه من أعماق نفسى أجزل الشكر . على أن المقتطف أدركت السبب فى عدم الترجمة لسعد ، وأشارت إلى ما ذكرته فى مقدمة الكتاب حين بينت السبب الذى ترجمت من أجله للمغفور له ثروت باشا فقلت : «ربما كان الترجمة لرجل كثروت باشا عاش بين أظهرنا وكان له دور فى حياة مصر أثناء وجودنا مما يتعذر أداؤه بما تقضى به الدقة التاريخية وما توحيه من تمحيص ونقد . وكنت أنا شاعراً كل الشعور بهذه الدقة أثناء كتابتى هذه الترجمة ، لكنى إنما تخطيت هذه الاعتبارات لأنى أردت أن أضع أمام القارئ صورة ولو تقريبية لحياة مصر السياسية فى هذا العصر الأخير ، وما دمت قد بدأت

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٢٠٦ ، بتاريخ ١٥ فبراير ١٩٣٠

هذه الصورة منذ عهد إسماعيل باشا الخديو ، فقد رأيت واجبًا إتمامها إلى عصرنا الحاضر ، ثم ما دمت بدأتها بترجمة من كان لهم فى حياة مصر السياسية أثر ظاهر ، فمن حق ثروت باشا أن يكون ختام هذه السلسلة من عظماء الرجال الذين تناولت . على أنى رأيت أن أقف فى ترجمته عند الوقائع الثابتة ، وأن أتجنب المغامرة فى الفروض والظنون ، حتى لا يتعرض ما أكتب عنه لنقد يفسده وإن أمكن أن يُظهر فيه نقص كبير» .

ومع ذلك فإن فكرة الترجمة لسعد لم تغب عن بالى ، وأنا أجمع التراجم وأعدها للطبع . وقد فكرت وقتًا ما فى أن أنشر عنه ما كتبته فى السياسة الأسبوعية على أثر وفاته . ولقد رجعت إلى هذا المقال فألفيته مقالاً صحفيًا لا يستقيم للنشر فى كتاب غير متأثر بأهواء الساعة وعواطف الكاتب والجمهور ، ثم فكرت فى الترجمة له على نحو ما ترجمت لغيره من رجال التاريخ الحديث فى مصر ، فألفيت نفسى أمام مشكلة لخصتها المقتطف حين ذكرت أن الترجمة التى وضعتها للمغفور له ثروت باشا ، بالرغم من تقديرى إياه وإكبارى عظيم مجهوده الضخم فى خدمة بلاده هى دون سائر التراجم دقة وإحاطة بحياة الرجل . وليس الذنب فى ذلك ذنبى ، وإنما هو ذنب الترجمة لمعاصر عاش بين أظهرنا فلم يصهر التاريخ بحكمه العادل القاسى فى عدالته خلاصة ما أتم فى حياته من خير وشر . ولم تلق الحوادث والأسانيد فيضًا كافيًا من الضياء يجعل المؤرخ والمترجم يريان كل دقيقة وجليلة فيما أتم المترجم له من عمل ، وفيما كان يرمى إليه من وراء هذا العمل ، ثم فيما ترك عمله من أثر صالح أو غير صالح حقق الغاية التى كان يرى إليها أو قصر دون تحقيقها . ولهذا السبب نفسه لم أترجم كذلك للمغفور له رشدى باشا برغم ما كنت أشعر له من محبة ولجمّ علمه ومتوقد ذكائه من إعجاب أشد الإعجاب . ولهذا السبب أيضًا لم أترجم لأحد من المعاصرين غير ثروت باشا ، ولم أترجم لثروت باشا إلا للغرض التاريخى الذى بينته فى مقدمة الكتاب ، ومع الاحتياط الذى احتطت له حين اعترافى بما فى ترجمة ثروت باشا من نقص قد يكفل مضى الزمن والتدقيق التاريخى إكماله .

وقبل أن أنتقل لتوضيح رأيى فى التأريخ للمعاصرين أبادر فأذكر أسبابًا ثانوية إلى جانب هذا السبب الأساسى جعلتنى أنتهى إلى عدم الترجمة لسعد . فهذا الذى

أشار إليه بعض أصدقائى من أننى لا أقدّر الروح التجارية كان بعض هذه الأسباب ، ذلك بأنى أيقنت وأنا أفكر فى هذا الموضـوع ، أنى أن ترجـمت لسـعـد أُتهـمت عند أصدقائى ومعارفى أنفسهم وعند الجمهور كله بأننى قصدت من كتابتى إلى الاتجار وإلى تمليق عواطف الشباب والجمهور كله بغية الترويج للكتاب . وأعترف بأن شبهة كهذه كافية إن تقوم فى ذهنى لتصدنى عن إتيان أى عمل يثيرها . وهى كذلك بنوع خاص ما تعلقت بما أكتب . فإن تقديرى لشرف صناعة القلم وإكبارى لكل ما يتصل بهذه الصناعة بالبحث عن الحقيقة فى العلم أو التاريخ أو الفن أو الأدب ، يدفع إلى نفسى الاشمئزاز من فكرة الاتجار بها أشد اشمئزاز . وربما كان لى عن تخطى هذا الاعتبار مندوحة لو أننى كنت قد ترجمت لسعد من قبل فاقتصر عملى حين جمع كتاب التراجم على أن أنشر هذه الترجمة مع غيرها مما سبقت إلى نشره . فأما أن أترجم له لأتعـرض لتـهـمـة الاتجـار فـذلك مـا لا قـبل لى به ولا سلطان لى على نفسـى وعلى عواطفى فيه . وإلى جانب هذا السبب سبب ثانوى آخر ، فلو أننى تخطيت هذا الاعتبار وتخطيت السبب الأساسى الذى يجعل الترجمة للمعاصرين معرضـة للنقص وعرضت إلى حياة سعد من ناحية العاطفة القومية ، وحاولت أن أصور منه جانب الزعامة وحده ! إذن لاتهمت فوق تهمة الاتجار بتهمة الرياء والتمليق لحزب سياسى بينى وبينه خصومة متصلة ، وإن كان غرضى الصحيح قوميًا ساميًا . إن أنا عرضت إلى حياة سعد كمؤرخ يزن أعمال الرجل كلها حسنها وسيئها ، وخيرها وشرها ، وليس بين الناس رجل تخلو أعماله من الحسن والسيء والخير والشر ، سارع قوم إلى اتهامى بأن الخلاف الحزبى فى الرأى هو الذى دعانى إلى أن أشوب زعامة سعد بشائبة تجنى عليها وتصغر من شأنها . فأنت ترى أن هذه الأسباب جميعًا لم يكن مستطاعًا من جانبى تخطيها إلا بأن أرضى طائعًا تهمة الاتجار أو التمليق أو التحيز .

وللمزيد فى بيان قوة هذه الاعتبارات أضرب بعض أمثال لما حدث فى شأن من ترجمت لهم من رجال التاريخ الذين مضت على وفاتهم عشرون سنة أو تزيد ، والذين ترجمت لهم بكل ما وسعه جهدى من نزاهة وسمو فوق كل اعتبارات الوقت ، ولم أسلم مع ذلك من أن يوجه لى فى أمرهم شىء من اللوم لأسباب لا تتصل بالحقيقة ولا بنزاهة التاريخ فى شىء . فقد ذهب جماعة إلى أننى حين ترجمت لمصطفى كامل غاليت فى

تقدير مجهوده الوطنى ، وحاولوا إقناعى بأن التاريخ المنصف لا يتفق وإياى فى هذا التقدير . وذهب آخرون إلى أننى بما حاولت من الإفاضة فى بعض الأسباب التى أدت بمصطفى كامل إلى جهاده الوطنى ، ألقيت على صفحة هذا الجهاد شيئًا من الظل ، وكان يجب للتاريخ وللحق أن تبقى طاهرة نقية . وهؤلاء وأولئك لا أشك فى تأثرهم حين أبدوا لى ما أبدوا من هذه الملاحظات باعتبارات ذاتية تجعل كل واحد منهم صادقًا فى ملاحظته من وجهة نظره هو لا من وجهة نظر الحق والتاريخ . وهم يبدون هذه الملاحظات الذاتية وقد انقضت على وفاة الزعيم الشاب اثنتان وعشرون سنة تطورت فيها شئون مصر السياسية أكبر التطور . كذلك ذهب جماعة إلى أننى حين ترجمت لبطرس غالى حابيته أشد المحاباة حين تحفظت فى تقدير ما كان ينسب إليه من تعصب طائفى لبنى دينه ، على حين رأى أهل الطائفة أننى لم أنصفه فى هذه الناحية ولم أنصفه فى نواح غيرها ، حتى لقد وعدنى بعض الذين أفادونى بمعارفهم فى ترجمته أن يردوا إلىّ زيارتى إياهم ، فلما ظهرت الترجمة فى السياسة الأسبوعية عدلوا عن زيارتى . هذا وقد انقضت على وفاة بطرس عشرون سنة كاملة ، فإذا كان ذلك هو الشأن فى أمر رجال دخلوا حوزة التاريخ بالفعل ، وأصبحت شهوات الشباب الحاضر لا تتصل بهم لأنه لم يعرفهم . فكيف يكون الشأن إذا تعلق الأمر برجال ما يزالون ماثلين فى الأذهان مثولاً واضحًا ، وما يزال التعصب لهم أو عليهم ماثلاً دون حكم التاريخ فى أمرهم حكمًا بعيدًا عن نوازع الهوى واندفاع العواطف .

والحقيقة أن التأريخ للمعاصرين ، فضلاً عن تعرضه للريبة من جانب الذين يقرأونه وبخاصة إذا كان واضعه متصلاً بالحياة السياسية اتصالى ، هو معرّض كذلك إلى النقص من الناحية العلمية الصحيحة . فأنت لكى تكتب تاريخ رجل من الرجال أو عصر من العصور يجب أن تقف بعيدًا عنه منقبًا مع ذلك فيه تنقيبًا غايته الوصول إلى الحقيقة جهد ما نستطيع نحن بنى الإنسان أن نصل إليها . ومن العسير أن يتهيأ ذلك للشخص فى شأن من عاش فى عصرهم ، وهو أكبر عسرًا ومشقة بالنسبة لمن اتصل بهم وعمل فى ميدان واحد معهم أو بإزائهم . ذلك بأنك فى شأن الأشخاص مثلك فى شأن الكائنات كلها ، كلما ابتعدت عنها أحطت منها بأكثر مما تحيط به وأنت قريب منها أو متصل بها . إن أسباب المعرفة والوصول إلى الحقيقة فى التاريخ لا تتجلى

دفعة واحدة إثر انقضاء الحادثة التى يراد تأريخها ، أو وفاة الشخص الذى يراد الترجمة له . فكثيراً ما تبقى الأسانيد مكتومة عشرات السنين ، وكثيراً ما تضلل شهوات الوقت فيما يعرف من تلك الأسانيد . وها هى الحرب الكبرى قد انقضت ومر على انقضائها اثنتا عشرة سنة ، وعلى ابتدائها ست عشرة سنة ، ومع ذلك ما يزال مؤرخوها يناقض بعضهم بعضًا مع محاولة كثيرين منهم أن يتجردوا جهدهم من الاعتبارات القومية والشهوات الوقتية ، وأن ينظروا لهذا الحادث الجليل فى تاريخ الإنسانية بعين علمية بحتة ، لا تتأثر بالهوى ولا تعنى بغير البحث عن الحقيقة . والشأن فى الرجال الذين لعبوا دوراً كبيراً فى الحرب الكبرى وفى الترجمة لهم كالشأن فى الحرب الكبرى وفى تاريخها سواء ، ذلك بأن الوقائع نفسها لمّا تمحص ، وبأن الحوادث ما تزال يخيم عليها ضباب من شئون ثانوية قد تبدو للبعض جوهرية ، وليس فيها من الجوهر شىء . فأما حوادث الماضى والوقائع التى يصح أن يطلق عليها اسم الحوادث والوقائع التاريخية فمعروفة اليوم كلها لمن أراد استقصاءها معروف كذلك الأسباب والدوافع التى أدت إليها . فإذا صح مع ذلك لاثنين أو أكثر من المؤرخين أن يختلفوا فى تقدير هذه الحوادث والوقائع وأثرها فإنهم لا يختلفون فيها هى بالذات ولا يختلفون فى الأسباب التى أدت إليها .

قد يقال إن كثيرين من الكتّاب لا يتحرجون كل هذا التحرج ، ويكتبون ما يعنّ لهم وما يتصل به علمهم عن حادث من الحوادث أو شخص من الأشخاص على أثر وقوع الحادث وبعد وفاة الشخص ، بل فى أثناء حياته فى كثير من الأحيان . وهذا صحيح ، لكن هذه الكتابة لا تزيد فى الحقيقة على أن تكون خواطر لصاحبها أو رواية حوادث معينة شهدها . وكبار الرجال الذين يتعرضون لهذا النوع من الكتابة يقفون دائمًا عند ما كان من عملهم هم أو ما كان متصلاً بهم مباشرة ، بحيث يكونون فيه شهود عيان إن لم يكونوا قائمين بالعمل فعلاً ، وفى هذه الحالة يكون ما يكتبونه عن الوقائع من بين أسانيد التاريخ الواجبة التمحيص ، وما يضعونه من التقديرات والأحكام من باب الوزن الذاتى للحوادث وزنًا لا يخلو أغلب الأحايين من أن يتأثر بميل خاص ، أو بفكرة دفاع الشخص عن نفسه ، أو عن سياسة معينة كان منفذًا لها أو عاملاً فيها . وهذا كتاب فريسنيه رئيس وزارة فرنسا سابقًا ووزير الخارجية إبان حوادث الثورة العرابية

والذى أصدر أمره بانسحاب الأسطول الفرنسى من مياه الإسكندرية تاركًا الأسطول الإنجليزى يتولى وحده ضرب المدينة لينتهى باحتلال مصر كلها . نقول هذا كتاب فريسينيه عن «المسألة المصرية» يشعر القارىء بأنه دفع من وزير الخارجية عن نفسه وعن سياسته أثر مما هو تاريخ موضوعى غير معنى إلا بالبحث عن الحقيقة لذاتها . وهذا كذلك كتاب لورد كرومر «مصر الحديثة» وكتابه الآخر «عباس الثانى» فيهما تصوير للوقائع التى حدثت فى عهد العميد البريطانى الذى شهد أول الاحتلال ، ولكنه تصوير مقصود به إلى غاية سياسية أكثر مما قصد به وجه التاريخ وحده . وذلك هو الشأن كذلك فى كتاب لورد ملنر «إنكلترا فى مصر» وكتاب السير أوكلند كلفت وغيرهم وغيرهم . وهذه الكتب وأمثالها لا يمكن أن تعتبر من التاريخ إلا على أنها وجهة نظر سياسية معينة فى فترة معينة من الزمن . فأما المؤرخ المنصف الذى يبتغى الحقيقة للحقيقة فلا يمكنه أن يطمئن إلى وجهة النظر هذه أو إلى وجهة نظر غيرها ، كما لا يمكنه أن يطمئن إلى تصوير الوقائع لتعززها من غير أن يقارن ويناقش ويرجع إلى الأصول والمصادر الرسمية وغير الرسمية . فإذا هو تكونت لديه بعد ذلك فكرة وثيقة عن حادث من الحوادث أو شخص من الأشخاص ثم كتب عنه ، كان مؤرخًا أو مترجمًا عن إخلاص للحقيقة وللعلم ، وكان من حقه أن يقف إلى جانب التاريخ أو التراجم التى وضع مطمئنًا إلى أنه لم يتأثر فيها بشىء غير حب الحقيقة والحرص على الكشف للناس عنها ، غير آبه بما يناله من رضاء الناس عنه أو ما يثيره حوله من سخطهم عليه .

* * *

هذه هى الاعتبارات التى أدت بى إلى ألا أترجم لسعد أو لرشدى أو لغيرهما ممن كان لهم دور مشهود فى تاريخ مصر الحديث وفى نهضتها القومية الأخيرة ، وأرجو أن يجىء الزمن الذى تصل فيه مصر من جهادها إلى غاية استقلالها فتهدأ ثائرة النفوس ، وتتجه البلاد إلى صور النشاط المعمر فى مختلف مرافقها الداخلية ، ويبدأ الكتّاب يضعون مذكراتهم عن الأشخاص الذين اتصلوا بهم ، وما أدى هؤلاء الأشخاص لبلادهم من خدمة ، والدوافع النفسانية التى كانت تجيش بخواطرهم حين انتهاج خطة معينة . عند ذلك يتاح للمترجم أن يترجم لمن شاء من رجال النهضة

الحديثة فى جو من السكينة النفسية له ولقرائه يمكنه من أن يكون قاضياً منصفاً يزن الأعمال كلها بميزان الدقة التامة ، وأكون يومئذ سعيداً أن وفقت إلى أن أترجم لسعد ولرشدى ولغيرهما ممن عاصرونا ، وأن أعود فأترجم لثروت من جديد تراجم تتفق مع الحقيقة العلمية للتاريخ على ما أفهمها ، وتتفق والمكانة السامية التى يجب أن ترقى إليها صناعة القليم على أنها الصناعة الأولى والدقيقة التى تبحث عن الخير والحق والجمال .

كيف ولماذا

أكتب « حياة محمد » (*)

فى مكان آخر من هذا الملحق يرى القارىء رسالة للدكتور حسين الهراوى يتحدث فيها عن المستشرقين وما كتبوا من حياة محمد عليه السلام ، ويتساءل فيها إن كان هؤلاء المستشرقون قد أفادوا المسلمين أو أضروهم ، وينتهى إلى القول بالضرر لما يقول المستشرقون مما لا نرضاه نحن المسلمين . ويذهب إلى أنه يجب فى هذا الموضوع أن نرجع إلى كتب السلف من العرب ، وهو قد كتب هذه الرسالة وبعث لنا بها بمناسبة البحث الذى أقوم به فى حياة محمد ، واتخاذى الكتاب الذى وضعه إميل درمنجم علة هذا البحث . وما من ريب فى أن من المستشرقين الذين كتبوا عن محمد وعن الإسلام من تأثروا فى كتابتهم بدافع من التعصب المسيحى ، وإن هم ألقوا على ما كتبوا صبغة البحث العلمى . ولا ريب كذلك فى أنهم على الأغلب لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى دقائق أسرار الحياة العربية لتأثرهم بالبيئة الغربية التى يعيشون فيها ، والتى ورثوا من تراثها فى التفكير والبحث ما لا يسهل لهم معه أن يحسوا بإحساس رجل الصحراء والعائش فى الجو المكشوف . وللبيئة الطبيعية كما للبيئة الوراثية على التفكير ، وعلى التصور أثر عميق لا سبيل إلى إنكاره . يضاف إلى هذا أن أكثر هؤلاء المستشرقين كتبوا فى الوقت الذى بلغت الثقة المطلقة فيه باقتدار العلم على كشف الأسرار والغوامض جميعاً ما جعلهم يبالغون فى تصوير النتائج التى انتهوا إليها مبالغة أثبتت المباحث التى جاءت من بعدهم أنها كانت قائمة على تفاؤل لا يعرف الحذر . على أنه مهما يكن من ذلك كله ، فلا ريب فى أن المستشرقين قد سبقونا فى الأبحاث الخاصة بالشرق وتاريخه

(*) ملحق السياسة رقم ٢٨٠٥ ، بتاريخ ٢٣ يناير ١٩٣٢

فى مختلف نواحيه وفتحوا من الأبواب ما قصرنا نحن فيه تقصيراً لا يكفى لستره أن نقول إنهم أساءوا فى كيت أو أساءوا إلى كيت ، ثم إن ما نقوله من ذلك لن يثنيهم عن المضى فى هذه المباحث التى تزداد كل يوم تشعبًا وتزداد عدداً وانتشاراً وتترك فى البيئات المختلفة فى بقاع العالم كله أثراً لا يمحوه قولنا إنهم تعصبوا أو أنهم لم يكونوا من النزاهة بما يقتضيه العلم ؛ والاكتفاء بهذا القول دون التعرض لأبحاثهم بالعرض والنقد ، ودون الظهور إلى جانبهم فى الميادين التى يظهرون فيها بمثل نشاطهم وقوتهم وإكبابهم ، إنما يكون مثلنا إذا نحن وقفنا عنده مثل النعامة التى تخفى من عدوها رأسها وتحسب أنها أصبحت منه بمنجاة .

أما ما أقوم أنا به من بحث فى حياة محمد فلم يكن الدافع الأول إليه كتاب درمنجم أو كتاب أى مستشرق من المستشرقين . وليس درمنجم من المستشرقين المنقطعين للبحوث الإسلامية فيما أعلم ، إنما هو كاتب تناول حلقة من سلسلة تنشر قصصاً لحياة العظماء . وكنت أنا بسبيل البحث فى حياة النبى العربى بحثًا لم أفكر فى تدوين شىء منه قبل استكماله على الوجه الذى أحبه . وكان كتاب درمنجم أحد الكتب التى قرأت أثناء هذا البحث ، وكان هذا الكتاب جديراً بأن يوضع جانبًا مع ما أقرأ من كتب أخرى فى موضوع بحثى لو لا أنى وجدت فى اتخاذ كتاب ككتاب درمنجم أو كتاب آخر من نوعه علة لتدوين بحث موجز فى هذه الحياة الحافلة ، مما يعاون على الغرض الذى إليه أقصد ويتفق والسبب الذى دعانى إلى هذا البحث .

وقد جال بخاطرى أن أكتب فى حياة محمد منذ نشطت حركة التبشير والمبشرين فى مصر منذ أوائل الشتاء الماضى . ذلك بأننى رأيت حملات الصحف على المبشرين لا تكفى وحدها للقضاء على حركتهم ، ورأيت أن أحداً لم يتقدم لمنازلتهم من الطريق الناجع المثمر ، طريق بيان عظمة الإسلام وجلال الحق فيه ، وجمال الدعوة التى يدعو إليها . وقد اعتقدت أن أمثل طريق للوصول إلى هذه الغاية الروحية والإنسانية السامية أن تكتب سيرة صاحب الرسالة على نحو يتفق ، والوسيلة العلمية التى ينشأ أبناؤنا عليها حتى إذا قرأوا هذه السيرة أدركوا عظمة النبى وعظمة رسالته ، ورأوا الحماقة الكبرى التى يهوى إليها من ينتقل من دين الهدى إلى دين غيره . وقد كنت أتمنى لو أننى وجدت هذه السيرة مقدمة لقرائها على هذا النحو . ومع أننى اغتبطت أعظم

الغبطـة حين اطلعت على كتاب «محمد المثل الكامل» ، وعلى غيره من مثله من الكتب ، إلا أننى رأيت أن هذه السير إن أرضت طائفة كبرى من المسلمين ، فقد يظل الذين تعلموا على نهج علمى دقيق وهم بحاجة إلى ما يرضيهم على النحو الذى يصبو إليه تفكيرهم . ذلك فكرت فى أن أدرس هذه الحياة العظيمة التى وجهت العالم منذ أربعة عشر قرناً وجهة جديدة كان لها أثر عميق فى الحضارات التى توالت عليه سواء فى الأمم التى اعتنقت الإسلام أو الأمم التى ظلت على نصرانيتها . وقد فضلت أن أرجع إلى أقرب السير من عهد محمد اعتقاداً منى بأنها أبعد عن العبث ، فعكفت على سيرة ابن هشام ، وجعلت من مراجعى الأسرار اللدنية وأسباب النزول للنيسابورى ، وزاد المعاد لابن القيم الجوزى . على أننى ما لبثت بعد مطالعات متصلة أن أدركت أن العمل الذى أحاول أن أعرض له جدير بأن يكون الأساس فى عمل حياة كاملة ، وأنه لابد من تمحيص طويل فى شئون مختلفة لمن أراد أن يصل إلى الغاية التى فكرت أنا فى الوصول إليها . فعدت أستشير كتاب الأصنام للكلبى ، وكتاب فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ، وكتاب تاريخ اليهود فى بلاد العرب للأستاذ إسرائيل ولفنسون . وهنا أيضًا رأيت مطارح البحث تتسع أمام نظرى . فلما قرأت كتاب درمنجم عن «حياة محمد» وهو كتاب قصص موجز ، رأيت أن أتخذ منه وسيلة للبدء ولو بدءاً موجزاً فى تحقيق غايتى المزدوجة الغرض ، فأكتب عن النبى العربى بما يكشف من جوانب عظمته الحقة ما يرد كيد المبشرين ولو بمقدار ، وأرسم فى نفس الوقت بما أكتب طريقة هذا البحث المستفيض فى حياة الرسول مما اعتزمت أن أوجه إليه همى فى المستقبل إذا أنا مكننى الحظ من القيام به على الوجه الذى إليه أقصد ، وإنما اتخذت كتاب درمنجم وسيلة لأننى مع رجوعى فى كل ما أكتب إلى السير العربية ، وإلى الكتب التى ذكرت أشعر دائماً بأن أشياء كثيرة تنقص بحثى . فهذه الكتب العربية تكتفى أكثر أمرها بسرد الوقائع من غير أن تردها إلى أصولها ومن غير تحليلها التحليل الذى أطمع أنا فيه . ومع أننى عززتها بكتاب «الشفا» للقاضى عياض وبمجموعة وافية عن تاريخ مكة فإن وقتى لم يتسع لدراسة هذه المكتبة كلها من ناحية ، كما أننى كنت أجدنى فى كثير من الأحيان فى شك من بعض ما أطالع ، وأجدنى فى أحيان أخرى إزاء مسائل ما أشك فى أنها من وضع بعض الكتّاب الذين دسوا عن حسن نية أو عن سوء نية ،

طائفة من الخرافات التى لا يمكن أن يصدقها العقل المثقف والتى قد تتفق وديانات المعجزات ، ولكنها لا تتفق ودين الفطرة . وهؤلاء الكتّاب وجدوا فى بعض الأوساط آذانًا مستعدة للسمع وقلوبـًا ساذجة مستعدة للتصديق ، مع أن عملهم هذا هو ما حاربه وما يجب أن يحاربه الإسلام دائمًا أشد الحرب وأقساها . لهذا رأيت خير وسيلة أعصم نفسى بها من الخطأ وأغالب بها ما يخالجنى من عدم الرضا عما أصل إليه بعد البحث فى هذه الكتب العربية المختلفة التى قدمت أن أكتفى بالقول بأنى أعرض كتاب درمنجم وأنقده حتى يبقى الباب أمامى مفتوحًا ، وإن كنت فى الواقع أنحو نحواً يخالف درمنجم . وكنت إلا فى قليل من الأحايين لا أعتمد على شىء مما كتب ، وإنما أعتمد على مراجع كثيرة أخرى منها العربى وغير العربى مما أحسبه يرضى هذا البحث المبدئى الذى أريد تصويره .

هذا وقد تحريت أن أنفى من بحثى كل ما شملت فيه أية صورة يملى بها روح وثنى ثم يحاول أن يدسها فى حياة محمد عليه السلام ، فذلك أكبر الإثم فى نظر الإسلام ، ولأنه إنما يوحى به روح كريه إلى الله ورسوله ، لكن هذا الروح متشبث مع الأسف ببعض النفوس فى كل العصور . أليس يذكر التاريخ أن النبى لما وافاه الأجل ضج بعض المسلمين وقالوا إنه لم يمت وأرادوا الحيلولة دون دفنه حتى قام فيهم أبو بكر يصيح بهم : «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت» ؛ ثم تلا قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّـهَ شَيْئًا ﴾ . فإذا كان ذلك شأن بعض الصحابة الذين استمعوا إلى النبى وإلى ما أوحى إليه ، وعرفوا بأنه عبد الله ورسوله وأنه بشر مثلهم يوحى إليه ، فليس عجيباً أن يكون من بين الذين انتقلوا إلى دين الإسلام عن النصرانية من يسبغ على محمد من صفات تتنافر والإسلام ، وإن اتفقت مع عقيدة من يقولون بربوبية عيسى مما ينكره محمد وينكره الإسلام أشد إنكار .

ولكى لا يفوت على غرضى ولأتقى الزلل ما استطعت جعلت مرجع الحكم فيما أروى من ترجمة هذه الحياة العظيمة إلى القرآن الكريم بمقدار ما يصل به علمى إلى فهمه . فكل ما لا يتفق وأحكامه وما نزل به نفيته من غير تردد أيًا كانت الرواية التى

يستند إليها ، وكل ما أيده القرآن فى وقائعه أو فى روحه أو فى معناه أخذت به مطمئنًا تمام الطمأنينة له ، وطمأنينتى هذه ليست طمأنينة مسلم وكفى ، بل هى طمأنينة رجل يرى أن العقل والروح يجب أن يتضافرا لإدراك كنه الحياة ، ويجب أن يكون تضافرهما من طريق التأمل الطويل واستيحاء ما فى الكون كله ، والسمو جهد الطاقة فوق حوائل الزمن والمكان الكمال الإدراك بما تواتى الإنسان طاقته من إدراك درجات هذا الكمال . ولست مع هذا أزعم فى هذا المبحث المبدئى الذى أقوم به ، ولا فى البحث المطوّل الذى صحت نيتى عليه ، والذى أرجو الله العون فيه أنى واصل إلى مدى الغاية التى تتبدى أمام نفسى . وهذا البحث المبدئى أقصر بطبيعته من أن يحقق كثيرًا من هذه الغاية . لكنى مع ذلك أشعر بغبطة كبيرة تجزينى خير الجزاء عن مجهودى إذ أشعر بأنى إنما أؤدى واجبًا لنفسى ولإخوانى وللإنسانية . وأكبر غبطتى أن حياة محمد حياة إنسانية بلغت كمال الحياة الإنسانية . وقد أسبغ الله عليها رسالة الحق هدى للعالم وإيمانًا ونورًا ، وأسبغ عليها هذه الرسالة لكمال الإنسان فى نواحى حياته جميعها ، وفى اتصاله بوحدة الكون كمالاً يتسق فيه العقل والروح والعاطفة على صورة من الانسجام لم تعرفها الرسالات الأخرى ، صورة يلخصها حديث النبى عليه السلام : «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق . إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى» .

الاجتهاد والتقليد (*)

منذ انقلبت الخلافة الإسلامية من الشورى إلى التوارث ، ومن النيابة عن المسلمين إلى الإمارة عليهم ، ومن التحدث باسمهم إلى الاستبداد بهم بدعوى الحق المقدس المستمد من عند الله . ومن يومئذ بدأ فقهاء المسلمين ومجتهدوهم يشعرون بيد السلطان تثقل عليهم شيئًا فشيئًا . وبرغم ما كان لهم من احترام ومكانة ، فقد بدأ يظهر من بينهم من يحرص في فتواه على رضى صاحب السلطان . ولما كانت النظرية الاستبدادية التي تجعل للخلافة والملك والسلطان عرشًا كعرش الله جل شأنه ، وتسبغ على الخليفة وعلى الملك وعلى السلطان قداسة روحية مستمدة من أمر الله ، فقد نشط هؤلاء الفقهاء يضعون القواعد ، وينظمون حياة الأفراد في كل كبيرة وصغيرة ، ويرتبون الجزاء على مخالفة هذا النظام ، ويسندون ما يقررون من ذلك كله إلى الدين ويحمّلونه بعض ما أتى الرسول والناس وبعض ما نهاهم عنه . ويشيرون إلى أن قرروا للسلطان من حق الجزاء في هذه الدنيا لا ينفي ما يجزى به الإنسان في الآخرة ، ويصورون هذا الجزاء الأخروى تصويرًا فيه من الدقة المادية ما في تصويرهم للجزاء الدنيوى . وهم فيما قاموا به من ذلك لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من عمل الإنسان وسلوكه ، بل لما يجيش بخاطره وما يهمس به بينه وبين نفسه إلا نظموها . فكيف يأكل الإنسان وكيف يشرب وكيف يستحم وكيف يمشي وكيف يتعاشر مع غيره وكيف يؤدى التحية وكيف يردها وكيف يقوم وكيف ينام وكيف يعامل أهله في بيته وكيف .. تستطيع أن تذكر أى شيء مما في أعمال الحياة وتجاربها سواء كان بين الإنسان وبين نفسه أو بينه وبين أهله

(*) «السياسة» ، ملحق العدد ٣٠٠٢ ، بتاريخ ٧ يناير ١٩٣٣

أو بينه وبين المجـمـوع أو بينه وبـين السلطان أو بينه وبين الله . كل ذلك نوقش وبحث واستمد له القواعـد والنظم من القـرآن ، فإن لم توجـد فى القرآن فمن الحديث ؛ فإن لم توجد فى الحديث فمن السنة ، فإن لم توجد فى السنة فمن الإجماع ، فإن لم توجد فى الإجماع فمن القياس . وقد استمر النشاط فى هذا السبيل عصوراً متوالية كان يقوم أثنـاءها الحين بعـد الحين مجتهـد لا يعنيـه كثيراً هوى صاحب السلطان ، فيقرر غير ما قرر السلف دون أن يخشى قيامة الفقهاء الرسميين عليه ورميهم إياه بالمروق والزندقة والإلحاد . فلما بدأت عصور الانحلال فى أواخر أيام الدولة العباسية ، وكثرت الفرق خيف أن يقوم بينها من يحاول هدم المذهب الرسـمى من ناحيـة ، وخيف من الناحـية الأخرى أن يقوم جماعة المعتزلة والمتصوفة بنهضات فكرية تهز فى النفوس الكرامة الإنسانية واحترام الذات ، وتدعو إلى الانتقاض على سلطان مزعزع ما أيسر ما تعبث به هزات النفوس . لذلك قـام جـمـاعـة من الفـقـهـاء وقـالوا إن الشـعـوذة فـشت باسم الاجتهاد ، وأن أفكار الرفض والإلحاد تروج تحت ستاره ، وقرروا لذلك إقفال هذا الباب باب الاجتهاد وضرورة تقليد السلف والأخذ بآرائهم وأحكامهم ، واعتبروا كل خارج على هذه الأحكام مارقًا كافراً جزاؤه جزاء من ارتد عن دينه ، ومثواه فى رأيهم جهنم وبئس القرار .

استراح كثيرون إلى هذا الرأى واطمـأنت له الدهماء . ذلك بأن المحاكاة غريزة فى النفس الساذجة والتقليد بعض فطرتها ، انظر إلى الطفل أول مـا يبدأ حركاته تراه يحاكى من هو أكبر منه محاكاة تامة . والناس يحاكى بعضهم بعضاً فى اللباس وفى التحية وفى وسائل العيش وفى كثير من وجوه الرأى ، والمرء أسير عاداته التى نشأ عليها محاكاة لغيره أو محاكاة منه لنفسه فيما سبق من أيامه . ولا شىء أشق على النفس من أن تنزع إلى الجديد ، فإذا قيل لها أن النزوع إلى الجديد إلحاد ومروق فكم تغتبط طوائف تحرص على ما وجدت عليه آباءها أشد الحرص ، وتخاف الجديد كما يخاف الأعشى الضياء . وكذلك اعتبر إقفال باب الاجتهاد فى عصور كثيرة ، امتدت على القرون رحمة من الله بعباده . وأصبح التقليد التام الأعمى أساس حياة الشعوب الإسلامية فى نظام حكمها وشريعتها وأخلاقها وآداب مجتمعها وطرائق تفكيرها ، وفى معالجتها للعظيم والحقير والجليل والتافه من كل شئون الحياة .

على أن المحاكاة المطلقة مستحيلة فى الطبيعة . والشيء إذا قلد كان المقلد أغلب الأمر دون الأصل وكان بطبيعة الحال غير ممكن أن يتفوق عليه . والأمر كذلك حتى فى مملكة الجماد والنبات ، فالبذرة الواحدة إذا زرعت فى أرض بعينها سنوات متتالية تأخذ البذرة من ثمرة هذا العام لتضعها نواة لشجرة العام المقبل انحط الصنف أكثر الأحيان ما لم تلقح الأرض بسماد جديد أو تلقح البذرة بطعم جديد . والتقليد عند الإنسان أقوى فى هذه الناحية أثراً . وهو كذلك بنوع خاص فى مبادىء التفكير والبحث والعاطفة والإحساس . والتقليد فى التفكير ليس على الحقيقة تفكيراً ، ولكنه محاكاة وترديد يمثل الإنسان ببناء لا أقل ولا أكثر . والتقليد فى العاطفة وفى الإحساس لا شيء من العاطفة ولا من الإحساس فيه . والمقلدون فى هذا وذاك مثلهم مثل الفونوغراف ينقل إليك الأصوات والنغمات والتأوهات بما قد يترك فى نفسك من الأثر شيئاً غير قليل أول سماعك إياه ، ثم يضعف بالتكرار والترديد أثره لأنه لا جديد فيه ولا إبداع ولا حس ، بل إن التقليد فى التفكير لينتهى حتماً آخر أمره إلى قتل الروح ، وإلى حصر دائرة العقل فى حدود أنانية ضيقة ، وإلى جعل صاحبه يرى الفكرة كأنها شيء مادى محدود ككل محسوس مادى لا على أنها صورة ذهنية قابلة للتجدد فى لا نهايات المكان والزمن إذا أريد بها أن تثمر كل آثارها . وهذا هو لسوء الحظ ما انحدر إليه التفكير الإسلامى بعد أن طالت به عصور التقليد ، وما انحدر إليه حتى فيما لا يحتمل التجديد ولا يحتمل التصوير المادى . ارجع إلى كتب المتأخرين من الفقهاء تجد فيها هذه المادية صريحة واضحة ممتدة إلى الروح وإلى الكون ، بل ممتدة إلى خالق الكون .. تعالى عما يصفون . فى كتب هؤلاء المتأخرين ترى وصفاً مادياً للعرش وتصويراً مادياً للملائكة الذين يحيطون به ، وللألفاظ المادية التى تخرج من أفواههم فى التسبيح بحمد الله وفى تقديسه ، بينما يعتبر هذا فى رأينا فى الإسلام الصحيح وثنية وتجديفاً غير لائقين بمسلم . يقول الكتاب الكريم : « وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » . فهل استطاع العلم الحديث على ما أبدع من أدوات البحث أن يصل إلى حدود السماوات إن كان قد استطاع أن يصل إلى حدود الأرض ، وهل يستطيع العقل المؤمن بالله حقاً أن يضع صورة مادية لهذا الكرسى ، وما إذا كان من عقيق أو زبرجد كما يحلو للمقلدين الماديين

أن يفعلوا ؟ . إن العقل المؤمن بالله حقًا يسمو بهذا المعنى الكريم إلى صورة ذهنية تحيط بكل المكان والزمان ، وبكل هذا الكون كوحدة من أزله إلى أبده . وقد رأينا شيوخًا من رجال الدين الذين ينعتون فى زمننا هذا بأنهم من كبار العلماء يثيرون المناقشة والجدال حول مسائل ما نشك فى أنهم يثيرونها للجدل ابتغاء الغلب اللفظى ، ولا تؤمن عقولهم فيما بينهم بين أنفسهم إن كانت لهم عقول تفكر فيما بينهم وبين أنفسهم بشىء منها . مثال ذلك هذا الجدل الذى ثار حول ما إذا كان الرسل عليهم السلام يحيون فى القبر حياة مادية يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون . ومثال ذلك هذا الجدل حول الشمس وما إذا كانت ساعة مغيبها تختبىء تحت عرش الله العظيم حتى يؤذن لها أن تشرق فى الصباح . إن مثل هذا الجدل الذى لا يقبل عاقل أن يشغل نفسه به لا مبرر له إلا هذه المادية الوثنية التى يهوى التقليد بأصحابها إليها ، والتى تجعل منهم عباد ألفاظ لا مؤمنين بدين ، وعباد صور مادية لا عباداً لله الذى تنزه عن المادة وعن الزمان وعن المكان وعن كل ما هو محدود من الصور . وقد يدهشك أن ترى هؤلاء الماديين يسوغون هذا النوع من التفكير فى مسائل روحية تفكيراً ماديًا ، بينما يقول الكتاب الكريم : « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، وذلك تنزيهًا للروح ولكل ما هو من روح الله عن أن تحيط به حدود أيًا كانت . لكنك ملتمس لهؤلاء الماديين عذراً فى جناية التقليد على عقولهم وحدّها فى آفاق ضيقة لا تستطيع أن تسمو فوق ما هى محصورة فيه من حدود الزمان والمكان ، بل البيئة وسلطان الحكم الذى تعيش تحت استبداده بها وتسلطه عليها تسلطًا يحول دون تحليقها وسموها إلى حيث يقتضيها الإسلام الوصول إليه من سمو ورفعة .

وقد شعر المسلمون منذ عشرات السنين بهذه الحال التى انحدروا إليها ، وجعل كلّ يفكر فى وسيلة مغالبتها والتغلب عليها ، وزادهم شعوراً بذلك غزو المدنية الغربية إياهم غزو إذلال واستغلال . وما كان لغير المثقفين المهذبة نفوسهم أن يصلوا إلى معرفة السبب لما هوت الأمم الإسلامية إليه . ويكاد الإجماع ينعقد على أن التقليد هو السبب فى هذا ؛ يكاد ينعقد الإجماع على هذا فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى من المغرب الأقصى إلى الهند وإلى جزر الملايا فى إندونيسيا ، ومن خلال هذا الإجماع تبدو الثورة على التقليد قوية عاصفة محطمة ، ولذلك يتراجع التقليد اليوم إلى أضيق الحدود

ليدافع عن نفسه ، ويحاول أن يتطور شيئًا فشيئًا ليقف من هذا الدفاع فى خطوط تعصمه من الهزيمة ولو إلى زمن . ولعله وفق إلى شىء من هذا بعد وقوفه موقف الحرب من تقليد آخر ليس خيراً منه من الناحية العقلية ، وإن يكن له من السلطان عليه أنه تقليد لحضارة الغرب الغالبة فى الوقت الحاضر . فإن هذه القيود قيود التقليد الذى هوى إلى أسفل منحدر مادى قد أخذت صورتين واتخذت وجهتين . أما الصورة الأولى فلم تستطع أن تخرج من التقليد إلى الاجتهاد ، وإنما خرجت من تقليد شىء إلى تقليد اعتقدته أقل سوءاً ، فقد خرجت من تقليد هذه المادية الوثنية اللابسة لبوس الدين إلى تقليد الحضارة الغربية وتقليد أساليبها العلمية فى حرية البحث . وانتهت من ذلك إلى الإيمان الأعمى بهذه الحضارة الغربية وإلى وجوب الأخذ بكل ما فيها ، ولما كان الأخذ بحضارة ما غير مجد ما لم تتأصل فى النفوس قواعد هذه الحضارة ومبادئها ، فقد اكتفى هؤلاء بالمحاكاة والنقل ، واعتقدوا فى ذلك خروجًا بأممهم وبالعالم الإسلامى وبالشرق من نكبته . لقد كنا نأكل فيما مضى كما يأكل المقلدون المسلمون ، فنأكل مما يأكل الغربيون ، ولنلبس كما يلبسون ، ولنقرأ ما يكتبون ، ولنكرر ما يقولون ، ولنصل من اللباقة فى ذلك إلى الحد الذى لا يستطيع الغرب منه أن يقول إنه تفوق علينا . وما دام باب الاجتهاد لم يقفل فى الغرب ، وما دام علماؤه وكتابه يمدون الشرق بالجديد من تفكيرهم وأدبهم وفنهم أيًا كان طراز هذا الأدب وأيًا كانت قيمته الذاتية ، فلهؤلاء المقليدين لحضارة الغرب مدد متصل يجعلهم يقفون من نقد المقلدين للقديم موقف الساخر منه لأنهم يواجهون نقدهم بالمدد الجديد الذى يقرأون ؛ ولأن حكم الغرب للشرق يجعلهم يتصلون بالحاكمين فى حياتهم ويحاكونهم فى تفكيرهم ، وهذا لذاته مبعث غرور تتحطم على جوانبه وجوه نقد خصومهم ، وإن بقى هؤلاء الخصوم معتزين بنقدهم مؤمنين بأنهم واصلون منه إلى اتقاء هزيمة محتومة ما كان لهم أن يتخلصوا منها ، لولا هذا المرمى الذى يصوبون إليه سهام نقدهم والذى يوجهون إلى أصحابه فى شىء من الغبطة والرجاء فى الظفر تهم المروق والإلحاد وعداوة الإسلام .

على أن هذه الحرب من ناحية ومن أخرى بين طائفتى المقلدين كان من شأنها أن تقوى عضد أولئك الذين ثاروا على التقليد القديم الذى هوى إلى أسفل منحدر بالعقل وبالعاطفة وبالشعور الإنسانى ، والذين حاولوا أن يفتحوا من جديد باب الاجتهاد الذى

أقفل فى وجه المسلمين منذ قرون . هؤلاء بدأوا يفكرون ماذا يصنعون بأكداس الأحكام التى تناولت كل دقيقة وجليلة من الحياة ، فنظمتها نظامًا عسكريًا خاضعًا لسلطان الحاكم خضوعًا أعمى يشل التفكير ويشل المعانى الإنسانية جميعًا فى النفس . قال جماعة منهم : «لو أن الله أراد أن يتقيد المسلم بأكثر من أحكام القرآن الكريم لأنزل على رسوله من الأحكام لتكون بعض القرآن ما شاء ، أما وقد وقف القرآن عند كتاب الله الذى يقرر ما أتى الرسول من عند الله وما نهى عنه» . ثم قال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » فإن ما سوى القرآن من الحديث والسنة لا يمكن أن يزيد على أنه قدوة ومثل كما أن الإجماع والقياس قواعد فى المنطق يمكن أن تختلف من زمن إلى زمن . وعلى أساس هذا التفكير تألفت من مسلمى الهند جماعة أهل القرآن ، كما أن هذا التفكير قد امتد فيما وراء الهند بل سبقها أحيانًا فى تعاليم السيد جمال الدين الأفغانى والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . وترتب على هذا التفكير بالطبيعة أن خضعت كل الأحكام للقرآن وحده . فإذا لم يوجد فى القرآن حكم لأمر ما جرى عليه حكم الحديث : «أنتم أعلم بأمور دنياكم» وأصبح النظر فيما سوى القرآن من الأصول يقصد به إلى إنارة طريق التفكير ولا يقصد به إلى أن يكون قيداً لا يستطيع العقل تخطيه . يقابل أهل القرآن من مسلمى الهند جماعة أهل السنة منهم ، إن هؤلاء أكثر تقييداً بتقاليد الماضى ، وإن كانوا يأبون أن يرتبطوا بأكثر من حديث الرسول وسنته . وبين هؤلاء وبين الحركة الإسلامية الرسمية فى مصر بعض وجوه الشبه ، فقد كانت الحركة الإسلامية الرسمية فى مصر مقيدة إلى عهد قريب بمذهب أبى حنيفة ، فلما آن لباب الاجتهاد أن يفتح ولو بمقدار سم الخياط منه تيسيراً للناس لم تجد وزارة الحقانية ولا وجدت وزارة الأوقاف بدعًا فى الإسلام أن تأخذ فى كثير من الشئون بأحكام المذاهب المختلفة بما يتفق وحاجات العصر . ولا بأس فى أن نضع من الأحكام عن طريق التشريع المدنى ما لا تراه يتعارض مع الدين . وهذه خطوة إلى ناحية الاجتهاد لا ريب ضيقة غاية الضيق ، وهى خطوة لم يهد إليها التفكير ولا العقل ، وإنما دفعت إليها ضرورات الحياة الملحة ، وهى لذلك لا تعتبر فى نظرنا شيئًا يذكر إلى جانب الحركة الفكرية التى وضع الأستاذ الشيخ محمد عبده أساسها . وإن كنا نعتقد حركة الشيخ محمد عبده حركة ضيقة النطاق ضعيفة القوة هى الأخرى بدليل أنها لم تثمر فى الناحية التى أرادت توجيه التفكير الإسلامى إليها ثمراً خصيباً .

وفى رأينا أنه لا مفر للعالم الإسلامى كى ينهض النهضة الخليقة بالدين القيم من أن يحطم قيود التقليد الأعمى وأن يفتح باب الاجتهاد . وأول ما يجب لذلك أن يقضى فى النفس الإسلامية على فكرة النظام الاستبدادى والحق المطلق فى الحكم ، فهذه الفكرة ليست إسلامية البتة ، وإنما الحكم فى الإسلام شورى . والحاكم فى الإسلام مُعرّض للنقد المستمر والتقويم المتصل . وعمر بن الخطاب الذى كان المثل فى الشدة والبأس والبطش هو الذى خطب المسلمين فقال لهم : من رأى منكم فى اعوجاجًا فليقومه . فإذا أيقنت الشعوب الإسلامية أن من حقها تقويم القائم بأمر الحكم واعتباره وكيلها ، وآمنت بأن الآية الكريمة : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ليس معناها الاستخذاء والمذلة ، ولكن معناها النظام الحر فى حدود الله يقيمها ولى الأمر منكم ؛ أى ممن وليتم ؛ ومن يتعد حدود الله حاكمًا كان أو محكومًا فقد أثم قلبه ؛ ومن أثم قلبه حاكمًا كان أو محكومًا ، فقد حق عليه الجزاء وإذا آمنت النفس الإسلامية بهذا واعتبرت كرامتها الإنسانية بعض ما أوجب الله عليها احترامه وأن العقل والقلب هما منار الهدى ، وأنهما لا يكونان كذلك إلا إذا دأبا مجتهدين فى سبيل الكمال ؛ وأن سبيل الكمال فسيحة تتناول العلم والفن والأدب والفلسفة والسياسة وكل ما فى الحياة . وأن هذا الدأب يقتضى الإنسان أن يخلق من التفكير ومن الحس كل يوم صورًا جديدة ترمى إلى هذا الكمال وإذا آمنت النفس الإسلامية بهذا فتح أمامها باب الاجتهاد واسعًا ، وإذا فتح هذا الباب تخطى منه العالم الإسلامى محطمًا قيود التقليد وأغلاله سائرًا على هدى الله إلى ما سار إليه المسلمون الأولون من باحات المجد والعظمة فى حدود الحرية المنظمة ، والخلق الفاضل ، والإيمان الصحيح .

التجديد فى الأدب وكيف أفهمه (*)

ما زال بعض الأدباء أو المتأدبين وبعض ناشئة الأدب الحديث يفهمون التجديد على غير وجهه . فهم يريدون منه الخروج عن الماضى ، والانفصال عنه انفصالاً تامًا واستعمال أدوات أخرى غير ما كان القدماء يستعملونه من أدوات وأصول . فيريدون من التجديد فى الشعر مثلاً أن يكون مرسلاً غير مقيد بقافية واحدة ، أو يريدون عدم استعمال ألفاظ معينة كانت تكثر فى أشعار القدماء ، ويودون التحرر من أوزان البحور التى جرى عليها الشعراء فى الجاهلية وبعد الإسلام ، وربما غالا بعضهم فأراد أن يبتدع الشعراء أوزانًا خاصة وقواعد خاصة يسيرون على نمطها فى العصر الحاضر دون أن تكن لهم صلة بماضى اللغة وقواعدها .

ثم هم يريدون من التجديد فى النثر أن لا يتقيد بفصيح اللغة ، وأن يكون أسلوبه أقرب إلى العامية منه إلى الأسلوب الفصيح الذى يلائم الذوق الأدبى السليم ، وربما أراد بعضهم من التجديد فى النثر أن يحاكى الأسلوب الغربى ، ويحاولون أن ينهجوا هذا نهج ، ولكنهم لا يوفقون . لأن لكل لغة أسلوبًا خاصًا وذوقًا خاصًا واتجاهًا فى التفكير يخالف اتجاه غيرها من اللغات .

وقد حدا الغلو ببعض الأدباء فى وقت من الأوقات إلى أن يريد التخلص من القواعد الأصلية كقواعد النحو والصرف داعيًا إلى الكتابة باللغة العامية ، أو بأسلوب يشابه أسلوبها ، أو يشابه الأسلوب الإفرنجى فى سكون أواخر الكلمات .

(*) من مجلة الهلال ، ٤١ ، جزء ٩ ، بتاريخ يونية ١٩٣٣

ومن الغريب أن يتهمنا بعض القراء بأننا ندعو إلى هذه الآراء أو إلى شيء من هذه الآراء ، وفاتهم - على الرغم مما نكتبه كل يوم - أننا لا نفهم من التجديد ما يفهمه هؤلاء المتأدبون . فإن الأساس الذى تقوم عليه مدرستنا الحديثة فى الجديد والتجديد هو الاعتماد على الماضى وإيجاد صلة بيننا وبينه ، أما قطع كل علاقة تربطنا بالماضى فذلك ما لا نفهمه فى بناء نهضتنا الجديدة .

وأظنك لا تجهل أن كل نهضة لابد لها من دعامة تقوم عليها ، وأن كبار المجددين فى الغرب لم يقطعوا صلتهم بالماضى كفيكتور هيجو وأناتول فرانس وغيرهما ، وأن النهضة الأدبية العباسية التى قامت على دعائم الماضى ، وهى نهضة جديدة بلا شك لها صبغتها المميزة لها ، وقد برز فيها التجديد موسوماً بسمات البيئة التي ظهر فيها وقد نبغ فيها طائفة من خيرة المجددين فى ذلك العصر ، ومن ذا الذى يقول بأن أبا نواس وأبا تمام والبحترى وابن الرومى والمتنبى وأبا العلاء المعرى ليسوا من المجددين فى عصرهم .

أننى أفهم أن التجديد هو أن يشعر الشاعر أو الكاتب بشعور العصر الذى هو فيه ، ويعبر عن ذلك تعبيراً صادقًا ممثلاً لصفات ذلك العصر الذى وضع فيه هذا التعبير بحيث يكون شاعر القرن الرابع عشر الهجرى ، أو كاتب القرن الرابع عشر له شخصية خاصة تخالف شخصية الشاعر ، أو الكاتب الذى ظهر فى القرون السابقة مع المحافظة على قواعد اللغة وحدودها . فلا يصح أن يأتى شاعر من شعرائنا فى العصر الحالى يحاكى فى شعوره وإحساسه شاعراً من شعراء الجاهلية ، أو شاعراً من شعراء الدولة الأموية أو العباسية أو غيرها ، لأنه لا يكون فى الحقيقة معبراً عن عصره ، بل هو مقلد لم يأت بشىء جديد وليست له شخصية تميزه . ومن هنا أستطيع أن أقول إنه ليس لنا شعر معبر عن العصر الذى نحن فيه ، وليس لنا شعراء يمتازون بصفات تخالف الصفات التى كان عليها بعض الشعراء فى العصور الماضية .

ولست أقصد بالصفات الخاصة أن يعمد شعراء العصر الحاضر إلى استخدام ألفاظ المخترعات الحديثة فى شعرهم ، أو يتناولوا هذه المخترعات فيصفوها ، ويسموا ذلك تجديداً . فإذا كان القدماء وصفوا الناقة أو السيف وصفوا هم القطار أو الطيارة

أو المدفع . وإذا كان القدماء استعملوا فى أشعارهم هند وليلى ودعد ، استعملوا هم سوسو وسوسن ومرغريت ومارى إلى آخره ، بل أقصد الصفات الخاصة إبراز كل ما يقع تحت الشعور بحكم البيئة والتعبير تعبيراً صادقًا عن الحياة التى تحيط بهذه البيئة ، والظروف التى تلابسها وتجعل لها صبغة خاصة بحيث يعد الخروج عن هذه الصبغة خروجًا عن تلك البيئة . فأنت تستطيع فى الوقت الحاضر وفى البيئة التى تعيش فيها أن تصف الناقة أو السيف أو غيرهما مما تناوله القدماء بأسلوب يتفق وشعور العصر الذى نعيش فيه والحياة العقلية السائدة فى هذا العصر ، وحينئذ يقال إنك وصفت هذه الأشياء بأسلوب جديد . أما إذا وصفت الناقة أو السيف ، بل إذا وصفت القطار أو الطيارة أو المدفع بأسلوب يتفق مع شعور القدماء وحياتهم العقلية ، فأنت مقلد ولم تأت بشىء جديد وقس على ذلك غيره من الأمثلة الأدبية .

فالتجديد ليس فى وسائل المواصلات أو فى المخترعات ، وإنما هو فى الشعور والإحساس وتقدم الحياة العقلية . وليس من شك فى أن النثر فى السنين الأخيرة قد أخذ بحظ غير قليل من التجديد ، وأصبحت له صفات تميزه عن النثر الآخر الذى ظهر فى العصور السابقة . أما الشعر فكما أسلفت لم يأخذ بحظ من التجديد الذى أريده . وأنا على يقين من أن مؤرخ الأدب العربى فى الأجيال القادمة لو قدمت له قصيدة من قصائد العصر الحاضر قد حذف ما فيها من أعلام لا يستطيع أن يعين العصر أو الجيل الذى قيلت فيه . بخلاف النثر ، فقد امتاز بقوته واتجاهه نحو النهوض ورقى الحياة العقلية فيه وخصبها وتشعبها وإنتاجها وظهور الثقافة فيه ظهوراً واضحاً بفضل نشاط الكتّاب وإقبالهم على المطالعة .

الكتاب والقراء (*)

كنت أتحدث يومًا لعله من أيام أكتوبر أو نوفمبر سنة ١٩٢٢ إلى المرحوم محمد باشا البدراوى عاشور أكبر أغنياء مصر . وكنا يومئذ فى شرفة الكنتيننتال ، وقد تناول حديثنا شئونًا مختلفة كان بعضها اقتراحًا عرضه عليه المرحوم عبد اللطيف بك المكباتى . ذلك أن يرصد بدراوى باشا مكافأة سنوية قدرها ألفًا من الجنيهات دائمة لا تنقطع أبدًا تعطى لمن يؤلف خير كتاب يظهر فى العالم أو توزع على اثنين أو ثلاثة من المؤلفين بنسب معينة . وسألنى بدراوى باشا رأيى فى هذا فقلت : «إن هذه الجائزة أكفل بتخليد اسمك ياباشا من كل ثروة تتركها ، فسيبقى بها اسم بدراوى باشا عاشور ما بقيت جائزة بدراوى باشا عاشور ، وهى بعد ريع قدر قليل جدًا مما أنعم الله به عليك» .

ابتسم الرجل لسماع ما قلت ابتسامة فيها سخرية من خلود الاسم الذى حدثته عنه ، وإيمان بأن الحياة لا شىء فيها غير المال وقال : «يظهر أنك كالمكباتى تعتقد فى الكلام الفارغ . فما فائدة المؤلفين ، وما فائدة الكتب حتى يرصد الإنسان لها ولهم ألف جنيه كل عام» !!! .

ولم أرد متابعة الحديث فى هذا الموضوع فانتقلت به إلى كلام آخر ، وإنما صرفنى عن متابعته علمى برأى «الباشا» فى التعليم والمتعلمين ، والكتب والكتّاب . فهو قد كان يؤمن بأن الزراعة فى مصر لم تستفد شيئًا قط من إنشاء مدرسة الزراعة ، وأن هؤلاء الأفندية الذين يتخرجون فى تلك المدرسة لا يعنيهم من أمر الزراعة شىء إلى

(*) مجلة الهلال ، العدد ٤٢ ، جزء ١٠ ، بتاريخ أغسطس ١٩٣٤ ، ص ١٢١٨

جانب ما يعنيهم من حسن الهندام ، واستقامة القوام ، والملابس النظيفة ، والمرتب الذى يجعلهم يعيشون عيش الرخاء ، إن لم يعيشوا عيش البذخ . وهو قد كان يثق لذلك بمعلومات ناظر زراعته ، بل خولى الزراعة أكثر مما يثق بمعلومات ذلك المتخرج فى مدرسة الزراعة العليا . ولم يكلف نفسه عناء التفريق يومًا بين المعلومات العملية الموروثة التى يتقنها من اشتغل منذ طفولته فى الزراعة ، والمعلومات الفنية التى تستحدث من حين إلى حين ، ولا سبيل إلى استخدامها إلا من طريق العلم والنظر . ولعله كان له من العذر عن ذلك أنه لم يرى لهذه المعلومات الفنية أية ثمرة عملية فى تقدم مصر الزراعى .

انصرفت عن مخاطبة بدراوى باشا فى الجائزة التى اقترحها عليه المكباتى بك للمؤلفين . على أن هذا الحديث كان يرد إلى خاطرى الوقت بعد الوقت لمناسبات مختلفة . فلما قرأت فى هلال أول يوليو سنة ١٩٣٤ مقال صديقى الدكتور طه حسين عن «الكتاب والقراء» عاد ذلك الحديث إلى ذاكرتى ، فقد رأى صديقى طه أن القراء فى مصر هم كل شىء ، وأن الكتّاب لا شىء إلى جانبهم ، وأن الكتّاب دائبو التفكير فى قرائهم إذا قرأوا وإذا فكروا وإذا حاولوا الإجادة وإذا وفقوا أو لم يوفقوا إليها . وأن القراء لا يحفلون بمجهود الكتّاب ، ويقرأون ما يقع لهم من الصحف والمجلات والكتب تلهية وتسلية ، وأن مرجع السبب فى ذلك إلى أن الكتّاب لا يجدون فرصة للإجادة بحكم اشتغالهم جميعًا بالصحافة اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية ، واضطرارهم لذلك لأن يكتبوا فى أوقات معينة لا مفر لهم من تقديم ما يكتبون إلى الصحف أو المجلات فيها ، وأن اليوم الذى يصبح الكتّاب فيه شيئًا أو كل شىء إلى جانب القراء ، إنما هو يوم تنحل عنهم هذه القيود التى تثقلهم ، ويوم ينصرفون للفن يحاولون البلوغ منه إلى الذروة . يومئذ ينتقم الكتّاب لأنفسهم من القراء ويصبحون شيئًا إلى جانبهم ، بل يصبحون هم كل شىء ويصبح القراء عيالاً عليهم .

عاد حديثى مع بدراوى باشا إلى ذاكرتى حين قرأت مقال صديقى طه فهذا المقال ينحصر فى عبارة وجيزة ، تلك أن الكتّاب لا يستطيعون أن يجدوا الرزق من حرفتهم ما لم ينفقوا فيها أكبر مجهودهم ، وما لم ينتجوا فيها كل ما يستطيعون سواء أكان ما ينتجونه غثًا أو سمينًا . وهم لذلك لا ينصرفون إلى الإجادة ولا إلى الفن

بقـدر انصرافهم إلى كثرة الإنتـاج كثرة تطوّع لهم الإرزاق من كدح أقلامـهم . أتراك لو أغنيتهم بعض الشيء أو أطعمتهم في بعض الرزق وأمل الجاه تدفعهم إلى الإجادة فيـمـا يثـمـرون ! أو لو أرصـدت جـوائز للأدب أو للفن كـالتي يقـتـرح المكبـاتي بك على بدراوي باشـا أن يرصدها يكون ذلك مـدعـاة ليغـيـر صـديقي طه من رأيه في الكتّاب ؟ وإذا كان لبدراوي باشـا عاشور من العذر عن استخفافه باقتراح صـديقه المكبـاتي بك أنه لم يكن رجل قلم أو رجل علـم وفن وأدب . أفـتـرى في انصـراف طائفـة من كـبـار أغنيائنا الذين يتذوقون الأدب والفن ، والذين يزج بعضـهم بنفسـه في غمار المؤلفين عن تحرير هذه الجوائز للفن أو للأدب ما يلقي عليهم مسئولية اضطرارهم الكتّاب إلى هذا الكدح العنيف في الصـحف والمجـلات لكسب الرزق بكـثـرة الإنتـاج ؟ . لئن صح هذا ليكونن طه مسرفًا حين يلقي على الكتّاب وحدهم تبعة تقدم القراء عليهم ، فقد كان السراة في كل الأزمان عماد الأدب والفن وحماتهما ، وكلما كان الأدب أكثر رفعة وكان الفن أكثر سموًا كانا بحاجة إلى هذه الرعاية وهذا التـأييد . فجمهور القراء بوجه عام وجـمـهـور القراء في مصـر وفي بلاد الشـرق بنوع خـاص لا يتذوق أسـمى مـراتب الفن والأدب ولا يقبل عليها إقباله على ما يلائم ذوقه . وقليل هم الكتّاب الذين يبلغون ذروة الفن ، ثم يؤاتيهم الحظ فيكونون المفضلين لدى القـراء ، ومـا أحسبني بحاجة لأسـوق المثل على هذا بأكثر من أن أذكّر صديقي طه بنقد جول لمتر لجورج أونيه .

والواقع أن الأدب الرفيع والفن السـامي كانا بحاجة أبدًا في كل العصـور ، وفي كل الأمم إلى تأييد من حبتهم المقادير سعة المال وبسطة الرزق وحـاجتهمـا إلى ذلك أمَس في الأمم التي لم تدل الجماهير فيها من الثقافة العليا حظًا كبيرًا . فالكاتب ورجل الفن بين أن ينزل إلى الجماهير ما كان إليها بحاجة ، أو أن يعمل ليرتفع بالجماهير إليه إذا هو استـغنى عنها سواء أكان استغناؤه قناعة منه بأيسر الرزق وإيمانًا منه برسالة الفن ، أم كان هذا الاسـتـغنـاء لثروة خـاصـة عنده . ومـا يعرف المتـأدبون عن تكسب الشـعـراء بالشـعـر عنـد العـرب بأن يلتمسوا من الأمـراء والملـوك الأعطيات ليس شـيـئًا آخر غيـر رعايـة هـؤلاء الملـوك والأمراء للشـعـر والأدب والفن اليـوم أرفع مكانة وأبعد أثرًا . ولولا السـراة والأمراء والملوك في أوربا لمات بعض النوابغ كمدًا ولمات بـعضـهم جوعًا . ففلتير مـدين لفردريك الثاني ، وجيته مدين لأمـير فيمار ، وروسو مدين لكثيرين وكثيرات

من رعاة الأدب ومحبيه فى عصره . ومن قبل ذلك كان لويس الرابع عشر هو الذى ازدهر بفضل رعايته أدب راسين وكورنى وموليير ومعاصريهم من رجال القرن السابع عشر فى فرنسا ، ولو أن هؤلاء تركوا للقراء القليلين فى فرنسا يومئذ قلتهم فى مصر اليوم لمالوا أغلب الأمر عن الشعر وعن الكتابة إلى ما يكسبون منه رزقًا حسنًا ، أو لكان إنتاجهم فى الشعر والأدب قليلاً لا يقاس إلى ما تركوا . هذا إلى أن ما أغدق أولئك السراة والأمراء والملوك على الكتّاب والشعراء ورجال الفن لم يكن بالشيء الكثير ، لكنه كان يغنيهم عن السعى للتكسب ، وحاجات رجال الفن والأدب قليلة بطبعها حين تقاس بحاجات غيرهم . وأعتقد أن الكتّاب ورجال الأدب فى مصر كانوا ينتجون خيراً مما ينتجون اليوم لو أنهم وجدوا مثل هذه الرعاية ، وحسبنا دليلاً على ذلك أن شوقى رحمه الله قد أنتج ما أنتج وقد كان أمير الشعر ، لأنه كان أولاً شاعراً موهوباً ، ولأنه لقى ثانياً عطف صاحب العرش عليه . وحافظ إبراهيم على ضيق ذات يده حين كان قاصراً جهده على قول الشعر . لقد كان يجد رعاية عظيمة من سراة مصر وكبار أعيانها إذ كانوا يقدّرون له فضله ، ويذكرون له سمو شعره ، ويرون واجباً معونته لأداء رسالته .

وأحسب الكتّاب والشعراء ورجال الفن فى مصر كانوا يجدون هذه الرعاية ، لو أن النزاع السياسى لم يطغ على كل شيء فى مصر طغياناً يخضع تقدير الأدب للاعتبارات السياسية ويجعل رعاية الكتّاب معلقة بأدبهم السياسى لا بجهودهم للأدب كفن . فلقد بلغ من طغيان النزاع السياسى أن لم يبق للأدب كأدب تقدير خاص ، وأن انصرف الكتّاب كلهم إلى الأدب السياسى إذ رأوه أكثر عائداً وأضمن للرزق . وكان من طغيان هذا الأدب أن فسدت المعايير الأدبية فى التقدير ، وأن ألقى الكتّاب أنفسهم فى غير حاجة إلى تحديد خاص يرفعهم إلى مصاف الأدب الكبير ما داموا يجدون جمهوراً من القراء يقبل عليهم لموقفهم السياسى . وفى ظنى أن هذا المعنى هو الذى أملى على صديقى طه رأيه الأخير عن الكتّاب والقراء ، وأنه هو الذى بعث إلى نفسه تلك المرارة التى جعلته يندد بالكتّاب وبالقراء جميعاً . وفى يقينى أنه كان يشاركنى فى إلقاء عبء اللوم على أولئك الذين ألقت عليهم المقادير مناصرة الأدب والفن فلم يناصروهما ، لو أنه لم يتأثر بالاعتبار الطارىء فى زمننا هذا والذى جعله يقول إن الكاتب يفكر فى قرائه ساعة يكتب وساعة يفكر وساعة يحاول الإجادة

على أن قصور السراة الأغنياء عن أداء واجبهم فى معاضدة الفن والأدب لم يمنع الكتّاب المصريين من أداء رسالتهم غير متأثرين بالقراء ومتأثرين قبل كل شىء بعقيدتهم ، وبمبلغ إيمانهم بالرسالة الملقاة على عاتقهم . فالأدب لا ريب رسالة ، والذين يتخذونه حرفة لكسب العيش وكفى ولولا ذلك لانصرفوا عنه ، ليسوا كتابًا ، وليسوا أدباء . إنما الكاتب الجدير بهذا الاسم هو من يدعو الناس إلى رأى بعينه ، أو أدب بعينه ، أو فن بعينه ، أو إلى ما تمتلىء نفسه بأنه المثل الأعلى فى الحياة والغاية الكبرى منها . ولقد يظلم الكتّاب المصريين من يقول إنهم جميعًا لا تخفق نفس واحد منهم بمثل أعلى ولا بغاية كبرى من الحياة . وهذا صديقى طه وهذا غيره من كتابنا يحملون أنفسهم عناء طبع كتب لهم ينشرونها فى الناس وهم يعلمون قلة ما تدر عليهم من خير وما يعود عليهم من ربح ، إنما يدفعهم إلى هذا النشر اقتناعهم بأن فيه خيراً للفن وللناس . وكثيراً ما يعرف أحدهم أن هذا النشر قد يجر عليه الأذى وقد يحرمه من مغانم كثيرة ، ثم هو يقبل مع ذلك عليه مستريحًا له مغتبطًا به ومستهينًا بالأذى والحرمان ومستطيبًا لهما فى بعض الأحيان ، لأنه كما قدمنا إنما يؤدى رسالة لا مندوحة له عن أدائها .

وما قول صديقى طه فى نشر قاسم أمين كتبه عن المرأة يوم كان هذا النشر يصادم جمهور القراء ويصادم الرأى العام كله ويصادم أصحاب السلطان فى مصر . وما قوله فيما كتب الشيخ محمد عبده وما نشر ؟ وكثيرون ممن لم تحمل كتابتهم طابع الرأى الثائر ولم تتعد حدود معروف الناس ، قد ثاروا بمذهب من المذاهب فى الأدب وفى غير الأدب . ويوم كتب المنفلوطى كتبه وهى كتب مستعار أكثرها ، قد كان ثائراً وكان يرضى شهوة الأدب فى نفسه أكثر مما يعمل على إرضاء قرائه ، وما أريد أن أذكر كتّابنا المعاصرين ، ولكنى أرى فيما هو جدير باسم الأدب مما ينشرون ما ينبعث عن إلهام وإيمان ليس يطبعهما شىء من حرص الكاتب على إرضاء قرائه .

هذا وإن الكتّاب لهم الذين يخلقون القراء خلقًا ، ولو أن عصراً من العصور خلا من الكتّاب لهوى إدراك القراء لما يقرأون من قديم الأدب وحديثه ، ثم لهوى إدراكهم لمعنى الحياة والغاية منها . لقد كنت أعيد أخيراً تلاوة رسالة الغفران للمعرى فى الطبعة التى طبعها الأستاذ كامل كيلانى فى سنة ١٩٢٤ والتى قدم لها صديقى طه ،

وقد تلوث فى ختام الطبعة ما كتبه الكتّاب عن الرسالة تلوث ما كتبه جرجى زيدان وطه والعقاد وعبد الرحمن صدقى وياقوت الرومى وفريد وجدى ودائرة المعارف الإسلامية ، كم بين آراء هؤلاء الكتّاب من خلاف وبين أساليبهم من تفاوت ؟ لكن من يقرأهم يدرك من رسالة الغفران ما لم يكن يدركه من تلاوة الرسالة ويدعوه هذا الإدراك إلى حسن تذوقها ، ولو أنك سألت أحداً من أهل الجيل السابق حين كانت الكتابة راكدة وحين كان الكتّاب مفتونين بتافه المحسنات اللفظية والبديعية عن رأيه فى رسالة الغفران لرأيته لم يقرأها ولم يقبل عليها . فإذا كان ذلك بشأن الكتّاب من القراء فى الأدب القديم الآن فما بالك بشأنهم منهم فى التفكير وفى ذوق الحياة . إنى لأذكر كيف كنت أجلس حين كنت طالباً إلى معهد من مقاعد حدائق الحيوانات بالجيزة ألتهم كتاباً من الكتب التهاماً ، وكيف كنت أظل بحديقة اللوكسمبور بباريس أقرأ جى دموباسان أو أناتول فرانس ، أو غيرهما من الكتّاب حتى يحول الظلام بينى وبين القراءة . وقراؤنا فى مصر اليوم هم من طرازنا حين كنا قراء وكفى ، وكتابنا المجيدون هم الذين يخلقون قراءنا ، وليس تمليقًا منى أو إسرافًا فى الثناء أن أقول إن طه الأديب قد خلق من القراء ألوفًا وعشرات الألوف ، وأنه إذ يقول إنه عبد قرائه يسخر من هؤلاء القراء ويريد تمليقهم ، أو لعله يتواضع تواضع أبى العلاء فى رسالة الغفران حين يذكر أنه ليس عالمًا ولا أديبًا ، وأن ما ينسب إليه من ذلك مكذوب عليه ، كما كذبت الغُرب على الغول ، وكما تكلمت على لسان الضبع وهى خرساء . إن يكن ذلك فهو تواضع محمود ، وإن كان من طه مثله من أبى العلاء تواضعاً لا يؤمن به أحد .

إنى أوافق صديقى طه على أن الكتّاب يجدون الفرصة للتوفر على الإجادة وللارتقاء بالكتابة إلى مراتب الفن السامية لو أنهم كانوا فى غنى عن تفكير فى قرائهم . فأما ما وراء ذلك فإننى أعتقد أن الكاتب الذى يؤمن برسالة الكاتب يخلق قراءه ولا يخلقونه ، وهو نفسه وسيلتهم إلى المثل الأعلى فى الحياة والغاية السامية منها ، وكل ما يجزى القراء الكاتب به فذلك تقديرهم لفنه واعتناقهم لآرائه .

بعد قاسم أمين (*)

لما دعا المغفور له قاسم أمين فى مستهل القرن العشرين إلى «تحرير المرأة» من رق الجهل ومن رق الحجاب ، لقيت دعوته أول أمرها معارضة أشد المعارضة من نواحٍ مختلفة ، عارضها القصر وصاحبه ، وعارضها رجال الدين ، وعارضها ساسة الوقت ، وعارضها الكتاب ، وعارضها مجموع الشعب معارضة عنيفة غاية العنف ، وصمد قاسم لهذه المعارضة ، ونشر بعد عام منها كتابه الثانى «المرأة الجديدة» فلم تخفف قوة حجته من شدة خصومه ، وإن بدا إقدامه يكسب له أنصارًا ، مع ذلك لم تثمر دعوة اجتماعية فى مصر ما آتت دعوة قاسم من ثمرات إيجابية . وبحسبك أن تذكر أن مصر لم يكن بها يوم رفع قاسم صوته بدعوته غير مدرسة واحدة مصرية للبنات بالعاصمة . وهذا اليوم عشرات مدارس البنات بل مئاتها قائمة فى أنحاء مصر كلها ، وأن تذكر أن وجه المرأة كان يومئذ عورة تستره عن الرجال ، وعن أقرب الأقربين منهم ما لم يكن محرمًا . وها نحن نرى المرأة تشارك الرجل اليوم فى مختلف ميادين الحياة سافرة غير مقنعة ، ونرى السيدات قائمات بألوان من الإصلاح الاجتماعى ، قائمات إلى جانب ذلك بكثير من أعمال البر والإحسان ، ذاهبات يذعن الدعوة إلى المساواة العامة بين الرجل والمرأة فى الحقوق السياسية ، دعوة يشاركهن الكثير من الرجال فيها . بحسبك أن تذكر هذا وأن تذكر إلى جانبه كيف فرض الدستور المصرى التعليم الإلزامى على البنين والبنات ، وكيف أفسحت الجامعة معاهدها للمتعلمات بعد أن كان قد صدر قرار فى سنة ١٩٢٢ بتحريم الدخول فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية على

(*) مجلة الهلال ، العدد ٤٣ ، بتاريخ نوفمبر ١٩٣٤ ، ص ٢٨

البنات ، لترى ما لقيت دعوة قاسم من إقبال سريع عليها ، وما صادفها من نجاح سريع لم يصادف غيرها من الدعوات الاجتماعية فى مصر بل فى الشرق كله .

وقد كان هذا طبيعيًا . فليس يسيغ عقل تلك القيود القديمة التى فرضها الماضى على المرأة بحرمانها من حق المعرفة ومن حق حرية الحركة فى الحياة . والقيود تبقى ما أمسكتها العادات والأوهام ، فإذا تسلطت عليها قوة الرأى ومنطقه تحطمت ، لكن قيود المرأة تحطمت بأسرع مما كان يتصور صاحب الدعوة نفسه . ذلك بأن حاجات الحياة المادية عاونت على هذا التحطيم ، فقد أخذ الشبان يفكرون بعد دعوة قاسم فى هذه الشريكة لحياتهم الغارقة فى بحار جهالتها وعبوديتها ، وينكرون منها أن تكون بهذا القدر من الجهل . ورأى الآباء الصيحة تعلو بهذا ورأوا الشبان يقرأون فى الصحف ويسمعون من فوق المنابر دعوة قاسم فأخذوا يفكرون . إن هؤلاء الآباء ينكرون تلك الدعوة ويرونها بدعة وإثمًا ، ولكن مستقبل بناتهم سيعرّض للأذى إذا لم يتعلمن . إذ ذاك ذكروا حكمة على بن أبى طالب «لا تقسروا أولادكم على أخلافكم فقد خلقوا فى زمان غير زمانكم» . وإذ ذاك بدأوا يبعثون بهاتيك البنات للمدارس ، وازداد عدد المدارس شيئًا فشيئًا بازدياد إقبال آباء البنات على تعليمهن . وبذلك خف صوت معارضى قاسم ، وسارت دعوته سيرها السريع ، وبدأ التفكير العام يتأثر بهذه الحالة الجديدة ، ثم كانت الحرب وما أثرت فى التقدير الخلقى والمعنوى للناس فى أنحاء العالم المختلفة ، فحطم ذلك من قيود الحجاب ما كان باقيًا ، واندفعت الفتاة فى سبيل الحرية ، وخيل إليها أنها ظفرت بها كاملة بمجهودها ، فالتفتت إلى ناحية الرجل مزدرية تعلن إليه هذا الفوز على قديم ظلمه ، وتعلن إليه حرصها على أن تأخذ بحقها من اضطهاده إياها فى الماضي . ولا تبالى بأن تباريه فى ذلك بألد الخصام ، ناسية أن الفضل فى حريته لرجل هو قاسم ، ولرجال نصروا من بعده دعوته ، وازدادت اندفاعًا فأرادت أن تثبت كذب قول الشاعر :

كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جر الذيول

ومن يدرى ؟ لعلها تظفر فى الحرب القادمة من القتل والقتال بالنصيب الأوفى !

كانت حاجات الحياة المادية إذن هى التى أسرعت بدعوة قاسم إلى الانتشار والنجاح . وكان الانقلاب الذى أحدثت الحرب هو الذى دفع بالمرأة لتطلب من صور الحرية كل ما يرسمه لها خيالها المتوهج الوثاب ، ولتنال من هذه الحرية حظًا عظيمًا . على أن خيالها لم يبدع لها من صور الحرية إلا ما عرفت منها فى أوربا ، فالأزياء الغربية والعادات الغربية والحياة المنزلية الغربية وألوان اللهو الغربية من رقص وما شابهه - كل ذلك كان ما صورته المرأة المصرية لنفسها فى سبيل حريتها ، لم يجل بخاطرها أن تبدع جديدًا أو تفكر على نسق غير النسق الغربى ، ولها من العذر عن ذلك أن الرجال أنفسهم فى مصر وفى الشرق لا يبدعون جديدًا ، ويعملون لينقلوا صورة الحياة الغربية إلى مصر والشرق كما هى . ولما كان النقل غير ميسور فى شأن حضارة من الحضارات ، لأن لكل حضارة أصولاً بعيدة الغور فى التاريخ الفكرى والاقتصادى لأية أمة من الأمم ، فقد اقتصر النقل عند الأمور الظاهرة ، ولم يتخطه إلى ما وراءها . ذلك هو الشأن بالنسبة للرجل ، وهو الشأن بنوع أخص بالنسبة للمرأة المصرية والمرأة الشرقية ، وقد يظل الحال كذلك زمنًا غير قليل .

والحق أن الفترة التى انقضت بين دعوة قاسم وهذه النهضة التى قامت بها المرأة أقصر من أن تجعل للمرأة الشرقية شخصية قائمة بذاتها معتمدة على ثقافة أصيلة فى نفسها . وما ثلث قرن من الزمان ينتقل فيه نصف الإنسانية الشرقية من رق الجهل ورق الحجاب إلى نور العلم وضياء الحرية ، وينتقل ليجد الرجال يستعيرون ثقافتهم وطرق معيشتهم من الغرب مع محاولة جعله شرقيًا إذا أمكن . إن طبائع الأشياء لتقتضى أجيالاً متعاقبة ، ليصبح مثل هذا الانتقال الذى نتحدث عنه أصيلاً قائمًا بنفس الجنس آخذًا منه مأخذ الإيمان حتى ليدافع عنه إذا أراد أحد الاعتداء عليه أو الانتقاص منه . وذلك لا يكون والأمر ما يزال مجرد تقليد ومحاكاة ، وهذا هو الحادث بالفعل فى مصر وفى الشرق ، فالمرأة تندفع فى سبيل النهوض والتقدم ، وتبلغ فيهما ما وجدت السبيل أمامها ممهدًا والظروف مؤاتية ، فإذا قامت عقبة فى سبيلها كانت أدنى إلى الخوف والتراجع منها إلى الإقدام والثورة ، فيقوم وزير للمعارف نصير للمرأة ، فيفتح أمامها الأبواب ، ويمنحها التسهيلات ، ويدع لها من الحرية ما يعتقد فيه خير المجتمع ، فتعتقد أنها انتصرت بعملها ومجهودها ، وأنها غالبت الرجال

وغلبتهم ، وأحرزت عليهم فوزاً محققًا ، ثم يقوم وزير آخر للمعارف محب للمرأة غير حريص على حريتها لحبه إياها ، فيوصد دونها الأبواب ويقيم فى سبيلها العقبات ، فإذا هى تتراجع ولا تقدم وتخاف ولا تثور ، ولها فى الحالين عذرها . فهى مؤمنة خطأ بأن الرجل ظالمها وخصمها ، فهى لذلك تعتبر كل خطوة تخطوها كسبًا تناله على حساب الرجل ومظلمة من مظالمه تتخلص منها ، وهذا فى تقديرها انتصار لها وفوز عليه . والواقع أن هذا التقدير من جانبها غير صحيح البتة ، فهى إن كانت قد نهضت فالفضل فى نهضتها يرجع إلى إيمان طائفة من الرجال بأن حريتها خير للإنسانية وأعود عليها بالسعادة ، وإن كانت قد نالت حظًا من الحرية فالفضل فيه راجع إلى مثل هذا الإيمان من جانب طائفة من الرجال ، وهى إذا كانت اليوم تأخذ من العمل العام بنصيب ، تشارك الرجال فى المناصب وتقوم من أعمال البر بما لم تكن تقوم به من قبل ، فذلك راجع إلى اقتناع الرجال بما فى هذا التضامن والإخاء وفى هذه المساواة من خير للمجموع . وسيبقى الأمر كذلك إلى أن تصبح المرأة المصرية والمرأة الشرقية قوة بذاتها يحسب الرجل حسابها ويخشى عاقبة ثورتها وغضبها ، وليس فى القول بأن هذا الوقت لم يئن بعد شىء من الغلو أو المبالغة .

متى يحين ذلك الوقت ؟ ومتى تتحقق الغاية التى قصد إليها قاسم من دعوته ؟. تحدث إلى صديق شاب كثير الأسفار يتردد على أوربا ويغشى الجماعة الأوربية فسألنى عن السبب الذى من أجله تبدو الأوربية المتعلمة التى نالت من الثقافة أعظم حظ بسيطة فى حديثها رفيقة فى اتصالها بالحياة غير مبالغة فى تقدير أنوثتها ولا فى تقدير علمها وفضلها ، بينما تنقص الشرقية المتعلمة هذه البساطة والأناقة وهذه السلاسة التى تبعث فى الجمعية حياةً وروحًا لا سبيل لمثلهما بغيرها ، ولم أحتج إلى كبير عناء فى الاعتذار عن المرأة الشرقية المتعلمة ، فهى محدثة التعلم مزهوة لذلك به وهو محدث الثروة مزهو بثروته ، وهى فى هذا الزهو لا تختلف كثيراً عن الرجال ، فهم كذلك محدثون فى ثقافتهم مزهوون لذلك بها . وآية ذلك أنك ترى الرجل أو المرأة لا يتحدث أحدهما إلا عن نفسه وعن عمله إن لم ينل من غيره ، والسيدات فى ذلك أبرع من الرجال . وقل أن تجد الجمعية المصرية التى تسمو فوق ذلك من الرجال والنساء . قل أن تجد الجمعية المصرية التى تتناول حديث الحياة ، وما فيها من علم وأدب وفن وذوق فى

المطعم والملبس وجمال فى الجو ، أو فى غير الجو ورياضة ذهنية أو بدنية ، يوم توجد هذه الجمعية تضم الرجال والنساء ، ويوم تكون المرأة مصدر الوحى وسر الحياة لهذه الجمعية تكون الغاية التى قصد إليها قاسم من دعوته قد تحققت .

وأرجو أن لا يكون بيننا وبين هذا اليوم زمن بعيد ، فهذا اليوم هو الذى تتهذب فيه العاطفة ، ويتهذب فيه الشعور ، وتصبح فيه المرأة حقًا ملاك المودة والرحمة فى الجمعية الإنسانية ، وتكون فيه ملهمة الرجل خير آثار الفن والأدب . ولئن رجوت أن لا يكون هذا اليوم بعيداً ، فذلك لأن النهضة النسوية كنهضة الثقافة العامة فى مصر والشرق ما تزال فى جزر ومد ليس من اليسير قياسهما ، وليس من اليسير تقدير المستقبل فى أمرهما . على أن المجهود الضخم الذى يبذل فى سبيل الوصول إلى ذلك اليوم ، وتطور الحياة الإنسانية السريع فى الشرق يدعو إلى كثير من الرجاء فى مستقبل غير بعيد ، مستقبل تثمر فيه دعوة قاسم خير ثمراتها ، وتكون المرأة الشرقية فيه روح الجمعية الشرقية ومصدر الوحى إليها وإلهامها .

صلة الأدب بالقانون (*)

- ١ -

من الأمور التى تلفت النظر فى عالم الأدب وجود كثيرين من رجال القانون بين الكتّاب الأدباء والشعراء أنفسهم . وأنت ترى هذا فى مصر وفى غير مصر من الأمم . فهل ثمة صلة بين الأدب والقانون تجعل هؤلاء المشتغلين بالتشريع ونصوصه وشروحه تهوى أفئدتهم إلى الكتابة وإلى الأدب ؟ . وإن يكن ذلك حقًا فما طبيعة هذه الصلة ؟ .

ويجمل بنا قبل بيان ذلك أن نذكر أن كثيرين من غير المشتغلين بالقانون تهوى نفوسهم إلى الكتابة وإلى الأدب . فمن بين الأطباء شعراء وكتاب وأدباء ، وذلك الشأن بين المهندسين وغيرهم من سائر الطوائف المثقفة ، ومن هؤلاء جميعًا من بين الأدباء والشعراء بالحرفة ، ومن بين رجال القانون الذين يشتغلون بالكتابة والأدب ، لكن عدد هؤلاء جميعًا لا يعادل عدد القانونيين الذين يدعون القانون إلى الكتابة وإلى الأدب فما السر فى هذا ؟ .

السر فيه هى هذه الصلة بين الأدب والقانون ، أو بعبارة أدق بين رجال القانون والأدب فرجل القانون يجب أن يكون أديبًا إذا أراد أن يحسن القيام بعمله كمحام أو كقاض أو كعضو فى النيابة . وما المحاماة ؟ هى عرض الوقائع عرضًا شائقًا وتوجيهها إلى غاية تقنع القاضى وتقنع الجمهور السامع بما فى كلام المحامى من حق . وكثيراً ما يقف المحامى عند عرض الوقائع دون تعرض لمباحث القانون . فأى شىء هذا غير الأدب وغير الخطابة ، هو أدب فى المذكرات التى تكتب وتقدم للمحكمة ، وهو خطابة فى المرافعات ، وكلما ازداد المحامى حسن أداء فى الكتابة وفى الكلام كان

(*) مجلة الهلال ، العدد ٤٣ ، جزء ٢ ، بتاريخ ديسمبر ١٩٣٤

أقدر على أداء مهمته . ولن يتسنى ذلك له إلا إذا كان ملماً إلماماً حسناً بأمور كثيرة تتصل بالأدب وفي مقدمتها قوة الحجة وسلاسة العبارة ، وحسن الأسلوب ، واتساق المنطق . وهذا كله متصل بالأدب اتصاله بالقانون . وشأن النائب المترافع شأن المحامي ، وإن كان الاتفاق بين المشترعين على أن النائب البليغ العبارة خطر على العدالة ، لأنه قد يدعو القاضي بسحر بيانه إلى إدانة برئ ، وبراءة مذنب ليست شيئاً مذكوراً في عرف القانون إلى جانب إدانة برئ . فأما القاضي كلما كان أدق منطقاً وأسلس أسلوباً كانت أحكامه أقوى إقناعاً بصدق تصويرها للحقيقة .

وثمَ صورة أخرى من صور الصلة بين الأدب والقانون ، تلك أن الأديب ورجل القانون يدرسان كثيراً من مسائل مشتركة بينهما . فالأديب الجديد باسم الأديب لا مفر له من دراسة الفلسفة وعلم النفس والمنطق ، وهذه الدراسات بعينها لا غنى لرجل القانون الجدير بهذا الاسم عنها ، وكلما ازدادت إحاطة الأديب وإحاطة رجل القانون بهذه الدراسات وازداد تعمقه فيها كان أبرع في كلمه وفي فنه . فإذا وهب رجل القانون إلى جانب ذلك هبة الكتابة ، كان طبيعياً أن تهوى نفسه إلى الأدب في لون أو أكثر من مختلف ألوانه ، وهو جدير أن يصادف النجاح فيما يتصدى له بالقدر الذى تؤهله له موهبته . ولقد بلغت الموهبة بكثيرين من رجال القانون الذروة فيما تصدوا له من ألوان الأدب أن كان الأسلوب القانوني معواناً بطبعه على بلوغ هذه المنزلة لمن يعنى نفسه كي يبلغها .

فالأسلوب القانوني بطبعه واضح دقيق يأنف الإبهام واللبس ويرغب في البساطة وحسن الأداء ، وأنت تجد هذا بينما في القوانين المختلفة إذا رجعت إليها تجده في التعريف بالموضوع وفي بيان أحكامه وفي الجزاء الذى يترتب عليه . ولقد أذكر أثناء وضع مشروع الدستور المصرى في سنة ١٩٢٢ شيئاً من هذا ، فبعد أن أتمت لجنة الثمانية عشر وضع القواعد العامة ، وبعد أن أتمت لجنة الثلاثين مراجعة هذه القواعد وتنقيحها والإضافة إليها والحذف منها وفصل ما هو من خصائص الدستور عما هو من خصائص قانون الانتخاب ، تألفت لجنة لتحرير الدستور وكنت متصلاً بها ، وكان من أعضائها عبد العزيز باشا فهمي وعبد الحميد باشا بدوى ومحمود بك أبو النصر وتوفيق باشا دوس ومعنا الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى ، ولقد قام عبد العزيز

باشا فهمي بوضع الصيغة الأولى للدستور وفصوله ومواده ، ثم جعلنا نجتمع نراجع النصوص من جهة تحريرها . وكانت أمامنا دساتير مختلفة مكتوبة باللغة الفرنسية . وبرغم دقة النصوص التى وضعها عبد العزيز باشا فقد كنا وإياه نبحث أحيانًا عن الكلمة الدقيقة الأداء فلا نعثر عليها ، فنرجئها إلى غد ليفكر كل منا فيها ، أو فى صيغة المادة وفى أسلوبها لتكون على بساطة ألفاظها وحسن أدائها واضحة دقيقة لا لبس ولا إبهام فيها . ولقد أذكرنى ذلك يومئذ ما عرفت عن الكاتب الفرنسي الكبير جوستاف فلوبير من أنه كان يبحث عن الكلمة التى تؤدى غرضه أسبوعًا كاملاً أحيانًا قبل أن يعثر عليها ، وأنه كان لا يرضاها بحال نابية عن موضعها أو ضعيفة الأداء كما يريدها أن تؤديه .

لكن أسلوبًا كهذا الأسلوب له قوته ودقته قد لا يساعف الخيال ، والخيال قوام الأدب . ربما دار ذلك ببعض الخواطر وهو اعتراض لا قيام له . فرجل القانون يجب أن يكون رجل خيال . وأسلوب القانون يجب أن يتسع لهذا الخيال لأمرين : أولهما : لأنه يجب أن يعالج الفروض المختلفة التى يمكن أن تنشأ عن تطبيق نص من النصوص مبالغة معيبة أحيانًا ، ولا ريب فى أن التماس الفروض لا يتأتى إلا لرجل واسع الخيال . والثانى : لأن ما يقع فى الحياة بالفعل يفوق كل ما يمكن أن يفرضه الخيال ، وما يقع فى الحياة بالفعل يتصل كله فى ناحية أو أخرى برجل القانون وما يعالج ، وإن دور القضاء لتشهد من مختلف الشئون فيما يرفع إلى العدالة من الدعاوى ما يقف أمامه الخيال حيران منبهرًا ، وليس أسلوب أقدر على حسن أداء هذا كله مما يكون خيالاً أو يعدو الخيال ، من ذلك الأسلوب البسيط الألفاظ الواضح الدقيق .

هذا ولا غنى لرجل القانون عن الوقوف على تاريخ التشريع ، وهذا التاريخ يتناول أطوار الحياة الإنسانية فى مختلف العصور وكيف اقتضت نشوء القانون لتحديد علاقات الناس بعضهم ببعض ، وليست تقف هذه العلاقات عند المعاملات أو العقوبات ، بل هى تتصل بالأحوال الشخصية وتعالج من هذه الأحوال ألصقها بعواطف الزوجية والأبوة والبنوة كما تعالج الروابط الجنسية . ودراسة هذا كله والتعمق فيه هو من بضاعة الأديب كما أنه من بضاعة رجال القانون ، وهو لذلك بعض صور هذه الصلة بين الأدب والقانون .

ولو أردنا أن نجمل هذه الصور كلها فى عبارة واحدة ثقلنا أن الأدب والقانون يعالجان فى الحقيقة موضوعاً واحداً . ذلك موضوع الحياة على اختلاف ألوانها وما يقع فيها ، وهما لذلك يتزاوجان فى شئون كثيرة تزاوجاً يوجب على رجل القانون أن يلم بالأدب وعلى الأديب أن يلم بالقانون ، وما دام ذلك هو الشأن فإن ما تهوى إليه نفس رجل القانون المحب بطبعه للأدب من تزيد فى فنون الأدب المختلفة يدفع الكثيرين منهم إلى معالجة ما تصبو إليه النفس من هذه الفنون ويدع لهم فرصة التفوق والتبريز فيه .

وأنت إذا عدت إلى فلسفة القانون ، وإلى أدب القانون ، وجدتهما من أسمى صور الأدب ومن أروع ألوانه ، فيهما التاريخ ، والقصص ، والمنطق الدقيق ، ورواية تطور الحياة الإنسانية فى أسلوب شائق كله الروعة والسمو . ولا عجب فى ذلك ، فالقانون ليس علماً تجريبياً كالطب ، أو كالهندسة ، أو كالكيمياء يعتمد دارسه وتعتمد الحجة فيه على الأسلحة والأدوية والأدوات الهندسية أكثر مما يعتمد على النظريات ، إنما هو علم نظرى يعتمد على بحث الحوادث ، وعلى المنطق فى تحليلها وترتيبها وتبويبها . وهو لذلك كتابة كله ورجاله كتّاب جميعاً . وإذا كان بينهم من لا يجيد الكتابة ومن يكتفى بالمقارنة العملية ومن يرضى لنفسه هذا النقص المعيب ؟ . فإن العلوم الأدبية على نحو لا شيء من الفن الأدبى فيه .

لا عجب إذن أن يكثر الكتّاب والأدباء والشعراء من رجال القانون ، والصلة بين الأدب والقانون ما رأيت . وهم كثيرون كما قدمنا لا فى مصر وحدها ولكن فى بلاد العالم جميعاً . وهم يتناولون مختلف فنون الأدب من الأدب الصحفى إلى الشعر إلى التاريخ إلى الأدب القصصى ، وليس يجوز أن يعتبرهم أحد دخلاء فى ميادين الأدب وهم الذين أعلوا شأنه وأبدعوا فيه ألواناً مختلفة . ولو أردنا أن نذكر كبار الكتّاب فى مصر أو فى فرنسا أو فى انجلترا أو فى غير هذه من الأمم لوجدنا عدداً كبيراً منهم ممن بدأوا حياتهم فى المحاماة أو فى مجالس القضاء .

على أن من التجوز أن يطلق على جميع الكتّاب من رجال القانون اسم الأدباء ، وإن كان الأكثرون ما ينفكون يقعون فى هذا الخطأ . فقلّ من رجال القانون من يصدق عليه

اسم الأديب ، وإن صدق عليهم جميعًا اسم الكاتب . فالمؤرخ كاتب . والفيلسوف كاتب . والسياسى كاتب . وقد يصل هؤلاء إلى الذروة من جمال الأسلوب وحسن العبارة ووضوحها ، لكن ذلك لا يجعلهم أدباء ، وإن جعلهم فى مقدمة الكتّاب ، إنما الأديب من يتصدى لفنون الأدب كالقصة والأقصوصة والترسل والشعر ، ولذا وجب أن يفرق فى عمل الكاتب بين الجانب الأدبى وسائر جوانب كتابته . فرجل كصديقى الدكتور طه حسين له مؤلفات عدة منها كثير فى النقد الأدبى وفى تاريخ الأدب ، وهو فى هذه كاتب مبدع ، ولكن عمله فيها ليس عمل الأديب ، فأما ما يعتبر من عمل الأديب حقًا فكتاباه : «الأيام» و «على هامش السيرة» ، وكتابا المرحوم قاسم أمين «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» كتابا إصلاح اجتماعى ، وليسا من كتب الأدب ، وإن كان فيهما قطع تسمو بدقة الفن وجمال الأسلوب فيها إلى أسمى مراقى الأدب .

مع ذلك فبين الكتابة والأدب صلة كالصلة التى بين القانون والكتابة . وهذه هى صلة القانون بالأدب .

صلة الأدب بالقانون (*)

- ٢ -

نشرت الهلال فى عدد الشهر الماضى مقالاً لصديقى الدكتور طه حسين يناقش فيه مقالى الذى نشر بهلال ديسمبر عن صلة الأدب بالقانون . وقد أشارت الهلال فى كلمة قدمت بها مقال صديقى طه إلى ما يقع بينى وبينه من مناقشات ومحاورات بين حين وآخر . ويجمل بقراء الهلال أن يعلموا أن هذه المحاورات قديمة ترجع إلى عشرين سنة مضت ، وأن صديقى طه هو الحريص على إثارتها ، فهو مهاجم أبداً ، ولست أذكر لهذه القاعدة شذوذاً إلا حين يصدر طه كتاباً من كتبه القيمة فأتناوله بالبحث ، ولعل نشأة طه هو التى تغريه بهذه المواقف . كان المرحوم محمد باشا صالح يحدث أنه كان طالباً بالأزهر مع المغفور له سعد باشا زغلول ، فكان سعد ينادى صاحبه يدعوه ليتجادلا ويترك له اختيار الجانب الذى يدافع عنه ليدافع سعد عن الجانب الآخر . وحدث يوماً أن كان الشيخ محمد صالح غير متهيئ للجدل ، فلما ناداه الشيخ سعد الله : هلم نتجادل ، قال الشيخ محمد : فليكن موضوعنا إذن «فائدة الجدل» ، واختار هو الدفاع عن أن للجدل فائدة ، ودافع الشيخ سعد الله عن أن الجدل لا فائدة منه ولا غناء فيه .

ولما نشبت بالحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ عطّلت أكثر الصحف المصرية نفسها . ولما كنا نكتب فى «الجريدة» بإشراف أستاذنا الكبير أحمد بك لطفى السيد ، فقد شق علينا تعطيلها ، فاشتركنا مع الأستاذ عبد الحميد حمدى فى إصدار جريدة السفور وتحريرها . وجاء طه من أوربا فى صيف سنة ١٩١٥ واشترك وإيانا فيها . وكنت

(*) مجلة الهلال ، العدد ٤٣ ، جزء ٤ ، بتاريخ فبراير ١٩٣٥

يومئذ محامياً بالمنصورة أجيء إلى القاهرة آخر كل أسبوع فأساهم فى تحرير السفور وإصداره بمصر . وقرأت السفور يوماً فإذا فى صدره مقال عنوانه «الحرب والحضارة» ، لم أتردد فى أنه لصديقى طه وإن كان موقعاً بإمضاء «تاسيت» يدافع فيه عن الحرب ، ويقول إنها شيء عظيم لخير الإنسانية . فلما جئت آخر الأسبوع والتقيت وطه سألنى إن كنت قرأت مقاله ، فأبديت له إعجابى به ودهشتى للفكرة التى أملته فى وقت تدوى فيه الميادين كلها بأهوال القتل والقتال والتخريب وإحراق المدن . فأجاب : أنا كتبته لترد علىّ حتى نتجادل . ورددت بدورى وتبادلنا الردود فى مقالات انحاز لطه على أثرها فريق من أصدقائنا وانحاز لى فريق ، ومع أن الخصومة الكتابية أوقدت نارها يومذاك بيننا ، فقد بقينا كما كنا ، وكما سنبقى دائماً أخلص الأصدقاء .

وهذه الروح هو الذى أملى على صديقى طه مقاله فى هلال الشهر الماضى يناقش فيه ما كتبت عن صلة الأدب والقانون ، ويكفى لأدلك على هذا أن أذكر لك أنه بدأ الجدل فى ألفاظ العنوان ، فكان أول ما بدأ به مقاله : «ولعل الخير فى أن نقول بين الأدب والفقه» ، ثم استطرد يبرهن على أن كلمة الفقه أدق فى التعبير عما قصدت إليه وما أريد أن أدخل فى هذا الجدل اللفظى معه ، أو أثير ما بين الفقه والقانون وفنونه المختلفة من تفاوت ، فالمحاماة غير الفقه ، والمحاماة أدنى فنون القانون إلى الأدب . لكنى لا أستطيع أن أسكت عن السبب الذى دعا صديقى ليؤثر كلمة الفقه ودعانى لأوثر كلمة القانون ، فالفقه كان بعض ما درس فى الأزهر ، والقانون كان أكثر ما درت فى كلية الحقوق . فلفظ الفقه محبب إلى سمعه أكثر من لفظ القانون ، والأمر عندى على النقيض . وكثيراً ما فسح كثرة توارد الكلمة على سمعنا من مدى ما تشتمل عليه فى تصورنا ، فإذا تجاوز صديقى فى استعمال كلمة الفقه ، أو تجاوزت أنا فى استعمال كلمة القانون ، فليعذرنا القراء ولا يشتدوا فى لومنا .

ويوافقنى طه على أن الصلة واقعة بين الأدب والقانون ، أو بين الأدب والفقه ، أو بين رجال القانون والأدب كما يحلو له . وهذه الصلة واقعة ومشروعة عنده للأسباب التى ذكرنا منذ شهرين فى الهلال . وهو يرى أن هذه الصلة أثبت وأظهر من أن تحتاج إلى كتابة فصل كالذى كتبت ، ثم يذهب طه إلى بيان أن الكاتب كثيراً ما يكتب من غير أن تكون هناك حاجة إلى الكتابة ، وأن الظن بمثل هذه الكتابة التى لا حاجة بالناس

إليها ، إنما هي فضول وأيضًا ظن خاطيء أشنع الخطأ ، وأن مثل هذه الكتابة ليس فضولاً ولكنها ترف ، والترف الأدبي هو خير ما في الأدب من متاع ، ومع ذلك فالفصل الذي كتبت أنا من شهرين موجز إلى أضيق حدود الإيجاز ، وإنما يحسن أن يعرف الناس أي الأمرين كان أبلغ في صاحبه أثرًا وأكثر له غناء : الأدب أو الفقه . وهو يجيب بأن الفقه أنشأ فن المحاماة وهي ليست فقهًا ، وإنما هي أدب يستعان عليه بالفقه . فالمحامون متأثر فقههم بأدبهم أكثر من تأثر أدبهم بفقههم . أما الفقهاء النوابغ فيأتيهم نبوغهم من الفقه وحده . ويترك لي طه أن أجيب بعد أن أرجع إلى تاريخ المحاماة عما إذا كان الفقه قد أنشأ المحاماة ، أم هي المحاماة قد أنشأت فقه المحاماة ، لكنه مع ذلك يشير إلى أن المحاماة نشأت عند اليونانيين في القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن كبار المحامين في العصور القديمة كانوا يعرفون بالأدب أكثر مما يعرفون بالمحاماة ، وأن المحاماة ظاهرة الأثر في انتشار علم البيان وتنظيم قواعد النقد وأصوله منذ أرسطاطاليس ، وأنها دعت إلى فنون من الأدب جديدة ما كانت لتظهر لو لم توجد المحاماة .

لست أقف طويلاً عند ما ذكر طه عن الترف الأدبي ، وأنه خير ما في الأدب من متاع ، فأنا أشاركه في رأيه ، ولست أقول إن هذا الرأي من البداهة بحيث لا يحتاج إلى أن يكتب فيه الصديق ما كتب ، وأن الترف أساس الفنون جميعًا . فكلما ازداد هذا الترف ازدادت الفنون سموًا ، وإنما أقول ما قال تولستوي لرجل جاءه يومًا فذكر له أن ما في كتبه جميعًا واضح يعرفه الناس جميعًا ، لأنه من بسائط ما في الحياة من حقائق ، فكان جواب الفيلسوف الروسي : إن الناس جميعًا يعرفون ضوء الشمس وأنه حقيقة واقعة ، لكن الأقلين منهم هم الذين يستطيعون مواجهة الشمس والتحديق بها . وكذلك الحقائق يحسها الناس ثم لا يستطيعون مواجهتها حتى يبينها لهم كاتب قدير على مواجهتها . وحبذا لو عقد لنا طه فصلاً في الهلال عن «الترف الأدبي» ، ليبين فيه أن خير الآثار الأدبية لأكبر الكتّاب والشعراء ، كما أن خير الآثار الفنية جميعًا ، إنما نشأت عن رفاهة في الترف النفسي والعقلي بلغت غاية حدود الرفاهية ، وأن هذه الآثار هي مع ذلك قوام الوجود الإنساني ، وما خلق الإنسان على الحياة من مجد لا سبيل لغير الإنسان إلى خلقه .

أما ما ذكر صديقى عن المحاماة ، وما أنشأت من فنون فى الأدب ، فاتجاه بالموضوع إلى غير ما قصدت مما يحاورنى فيه . صحيح أن المحاماة أدنى فنون القانون إلى الأدب ، لكنها مع ذلك ليست أدبًا بطبعها . ومن كبار المحامين وفحولهم من ليسوا أدباء ومن لا يسيغون الأدب بالمعنى الذى يفهمه الناس ، وهى فن أنشأه القانون لا ريب ، سواء كانت قد نشأت لأول عهدها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، أو أنها نشأت قبل ذلك بألوف السنين عند قدماء المصريين أو عند غيرهم ، وكما أن من كبار المحامين وفحولهم من ليسوا أدباء ، وإنما تفوقهم فى علوم القانون ، وفى دقة سرد الوقائع . فإن من القضاة ومن رجال النيابة أدباء بارعين يتصرفون فى ألوان الكلام تصرف من يملك أعنة الأدب ، بل إن منهم لشعراء وقصصيين ومسرحيين اعترفت لهم أممهم بالتفوق والنبوغ . ذلك أن وُهبوا هبة الأدب ودرسوا علوم القانون ، فصقلت نفوسهم وسمت بموهبتهم وجعلت منهم كتابًا وجعلت منهم أدباء برزوا فى بعض الأحيان معاصريهم ، كما بز جيتى أدباء الألمان كما انعقد لواء الشعر العربى لشوقى . وما أظن صديقى طه يخالفنى فى أن للمرحوم قاسم أمين فى كتبه المختلفة صحفًا تسمو فى الأدب إلى غاية مراقى السمو ، وإن كانت كتب قاسم ليست كتب أدب ، وإن لم يكن قاسم أديبًا ، بل كان كاتبًا اجتماعيًا .

ولست أقصد إلى إنكار ما أنشأت المحاماة من طريق كبار المحامين الأدباء من فنون فى الأدب جديدة . فمرافعات هؤلاء المحامين فى القضايا الكبرى كانت فى كثير من الأحيان تسمو إلى أسمى مقام فى البلاغة ، لكن هذه البلاغة لم تأت المحامى من دراسته الفقه ، وإنما هى موهبة هذا الرجل وجّهها اشتغاله بالقانون فى طريق المحاماة وهذا ما يقرنى طه عليه حين يقول إن المحاماة أدب يستعان عليه بالفقه . فما أنشأت المحاماة من فنون جديدة فى الأدب ليس أثرًا من آثار الفقه فى المحاماة ، ولكنه أثر أقل اتصالاً بالفقه منه لما يعرض له المحامى من وقائع ومن صور نفسية ومن بحوث علمية ، بل إنك لتجد المحامى القدير أقل بلاغة حين يعرض للشئون الفقهية ، بينما يتدفق كلامه روعة ، ويأخذ بمجامع القلوب حين يعرض الوقائع ، وحين يحلل الدوافع التى دفعت إليها . وكذلك شأن رجل النيابة حين يترافع ، وشأن القاضى حين يكتب حكمه ، إذا كان رجل النيابة أو كان القاضى ممن أوتوا موهبة الكتابة والكلام .

ويخالفنى صديقى أخيراً فى التفريق بين الكتاب والأدب ، ويحسب أنى لم أوفق فى هذا التفريق إلى الصواب كله ، وهو يجعل النقد الأدبى وتاريخ الأدب أدبًا لا فنًا آخر من فنون الكتابة . ويذكر لذلك أنى أخطأت حين قلت إلى كتابيه «على هامش السيرة» و«الأيام» أدب ، وأما سائر كتبه فى النقد وفى التاريخ الأدبى فليست أدبًا ، وإن كانت فنًا آخر من فنون الكتابة . وأود قبل أن أناقش الصديق رأيه أن أذكر أن كتابة التاريخ سواء أكان تاريخ الأدب ، أم التاريخ السياسى ، أم تاريخ الحروب ، أم التاريخ المالى والاقتصادى لأمة من الأمم ، ليست دون الأدب مكانة ومقامًا . والتاريخ ينبوع فياض من ينابيع الأدب . لكن كتابة التاريخ لا تدخل فى فنون الأدب إلا إذا صورت أدبًا كما فعل هو فى كتاب «على هامش السيرة» ، وكما فعل ولتر سكوت وغيره فى إنكلترا ، واسكندر دوماس وغيره من أدباء فرنسا الكبراء . ولم تخل أمة من الأمم من أدباء جعلوا تاريخ بلادهم مصدراً لأدبهم ، لكن كتابة التاريخ على النحو العلمى لا تعتبر فنًا من فنون الأدب ، وإن بلغت روعة الأسلوب ، وبلغ جمال التنسيق ما بلغا من السمو ، وإن كان هذا التاريخ موضوعًا لأدب أمة ما . وأحسب صديقى يوافقنى على أن ما كتبه أولار عن الثورة الفرنسية ، وما كتبه لامسون عن تاريخ الأدب الفرنسى ، وما كتبه الكثيرون فى تاريخ الأدب فى الأمم المختلفة ، ليس فنًا من فنون الأدب ، وإن كان فنًا من فنون الكتابة له قواعده وضوابطه التى لا تتفق فى كثير من الأحيان مع قواعد الأدب فى مختلف فنونه .

والنقد الأدبى فى رأيى فن من فنون الكتابة ، وليس فنًا من فنون الأدب إلا أن يكون نقداً ذاتيًا يعتمد صاحبه على هواه وخياله أكثر مما يعتمد على ما عرف لهذا النقد من قواعد . ولست أرتاع حين يذكر الصديق «حديث الاثنين» ونقد أناتول فرانس ، ولست أرتاع حين أذكر ما كتبه تين ولمتر وغيرهما فى النقد الأدبى حين اعتبر النقد فنًا من فنون الكتابة ، وليس فنًا من فنون الأدب . فأول شرط فى الأدب أن يصدر عن ذاتية الأديب ، فأما الناقد فيتقيد بقواعد موضوعية تحد من حرية الأديب لو أن النقد كان أدبًا .

أحسب صديقى بعد الذى قدمت يوافقنى على هذه التفرقة ، وعلى أنى لم أقصد بها إلى الغض من قدر الكتابة والكتّاب ممن يتناولون فنونًا غير الأدب . وفنون الأدب

هى الأخرى من فنون الكتابة والكلام ، لكنها تخصصت ووجهت إلى اتجاهات خاصة غير ما وجهت إليه سائر فنون الكتابة ، وليس فى ذلك ما يرفع من قدرها على سائر تلك الفنون . أما إن شاء صديقى أن يقول إن الأدب والكتابة والكلام كلها شىء واحد ، ما دام الأداء حسناً فله فى ذلك رأيه وإن كنت أخالفه فيه .

الكتابة والأدب (*)

الأدب فن وحده له حدوده ومراميه

فرّى عالم إيطالى وكاتب فى الفلسفة الجنائية ضليع . ومن بين مؤلفاته الكثيرة كتاب صغير الحجم عنوانه «المجرمون فى الأدب والفن» عرض فيه لما تناوله رجال الأدب ورجال الفن من شئون المجرمينْ ، وما صوروه من حالاتهم النفسية ، وكيف ألهم بعضهم حقائق فى أحوال المجرمين النفسية لم يكشف العلم الجنائى عنها إلا بعد قرون من حياة هؤلاء الكتّاب ، وكيف وفق بعضهم إلى تصوير هذه الحقائق النفسية تصويراً أوفى على الغاية من البراعة والدقة . وإنى لأذكر مثلين مما ورد فى هذا الكتاب يصوران الإلهام فى أحدهما وبراعة التصوير فى الثانى . فأما الأول : فشخصية هملت فى روايات شكسبير . هذه الشخصية الفذة من الناحية الروائية ، الدقيقة غاية الدقة من ناحية علم النفس الجنائى . فها هو هملت يقتل دنكان ولا يعلم أمره إلا امرأته ، مع ذلك يقف وخنجره مسلول يقطر منه الدم يروى لنفسه حديث جريمته ويصور بشاعتها ، وعجز مياه البحار جميعًا عن أن تطهر هذا الخنجر المخضب بدم الجريمة ، ذاهلاً عمن قد يسمعه ، فيعرف خبره ، فيحدث الناس عنه ليثأروا منه . هذا الذهول الذى يصيب الجانى فى أعقاب ارتكاب جريمته ، والذى يدفعه ليطوّف بمكانها وليدور حولها ، والذى ينتهى به آخر الأمر إلى الاعتراف حقيقة كشف عنها علم النفس الجنائى بعد قرون من موت شكسبير ، ومن وضعه روايته الخالدة ، ومن تمثيلها على المسارح مئات المرات بل ألوفها . فإلهام الحياة لعبقرية شكسبير هو إذن الذى جعله يلمس الحقيقة قبل أن يراها العلم ، ويصورها فى هذه الصورة الشعرية القوية ، التى ما تزال مثلاً من أروع ما أخرج الأدب للناس فى مختلف عصور الحياة .

(*) مجلة الهلال ، العدد ٤٣ ، جزء ٥ ، بتاري مارس ١٩٣٥

أما المثل الثانى : فشخصية راسكلنيكوف فى قصة الجريمة والعقاب لدستويفسكى . وراسكلنيكوف هذا شاب فقير يدرس فى الجامعة وقد لا يجد ما يقتات به ، فيقترض من عجوز مقابل رهنه لديها ما يملك من متاع ، ثم يدفعه فقره وبؤسه فيقتل هذه العجوز ويتمكن من الفرار ، لكنه مع ذلك يظل يطوف حول مكان جريمته حتى تقوم الشبهات حوله ، وحتى يتنبه قاضى التحقيق لأمره إلى أن ينتهى به إلى الاعتراف . فقد بلغ دستويفسكى من براعة التصوير لحال راسكلنيكوف النفسية مبلغًا سجله فرّى فى كتابه بإعجاب غاية الإعجاب . وفرّى إذ يتحدث عن هذين المثلين ، وعن غيرهما مما يتناوله الأدب والفن من شئون المجرمين ، يتحدث ببراعة فى العبارة وحماسة فى الأسلوب وحسن أداء للمعانى لا تقل كلها روعة عن تصوير شكسبير لهملت ودستويفسكى لراسكلنيكوف ، مع ذلك لم يقل أحد إن فرّى أديب ، أو إن كان كتابه هذا بعض كتب الأدب ، إنما فرّى عالم مدقق فى البحوث الجنائية ، وفى مباحث علم النفس الجنائى . وهو إذ تناول ما ألهم الجناة الأدب والفن ، إنما تناوله كمبحث من مباحث العلم الجنائى والفلسفة الجنائية .

ومن أروع الكتب الفرنسية التى قرأت فى جمال الأسلوب كتاب فريسينيه رئيس وزراء فرنسا إبان حوادث الثورة العرابية فى مصر عن المسألة المصرية . وهو قد كتب هذا الكتاب يدافع فيه عن سياسته التى أدت إلى انفراد إنجلترا بضرب قلاع الإسكندرية وبدخول مصر . والكتاب بهذه المثابة كتاب تاريخ وليس كتاب أدب ، فهو سرد لوقائع تلك الفترة من التاريخ السياسى لمسألة كانت موضع التنافس بين فرنسا وإنجلترا ، وتوجيه للحوادث يدفع المؤلف به شبهات الذين اتهموا وزارة فريسينيه ، بأنها أساءت فى القيام على مصالح فرنسا وعلى نفوذها فى وادى النيل ، بعد أن كان هذا النفوذ قد استتب منذ الحملة الفرنسية فى مصر ، ومنذ شق قناة السويس ، ومنذ كانت الثقافة الفرنسية صاحبة النفوذ الأول فى ثقافة المصريين .

ويضارع كتاب فريسينيه فى روعة الأسلوب كتاب بالإنكليزية عن مصر أيضًا . ذلك كتاب ملنر «إنكلترا فى مصر» فإن فيه صحفًا بالغة من السمو ومن القوة ما يهز النفس ، وما يدعو الإنسان لإعادة تلاوتها غير مرة ، مع ذلك فلم يقل أحد إن الكتاب كتاب أدب ، وإنما هو كتاب فى التاريخ السياسى .

وما أزال أذكر كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، وإن كنت قد قرأته منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، وأذكر كيف جذبني إلى إتمام قراءته ، وأن بالريف حيث لا كهرباء ولا مثلها حتى بلغ مني الجهد وسقط المصباح على الفراش ، وكدت وكاد البيت يحترق . فالإمامة والسياسة ليس من كتب الأدب ، بل هو من كتب التاريخ أو التاريخ السياسي إن شئت . ولن يغير جمال أسلوبه وقوة عبارته ودقة أدائه من أنه ليس من كتب الأدب . فجمال الأسلوب ودقة الأداء واجبة في الكتابة كلها ، وعلى الذين يكتبون في العلم ، أو في الفلسفة ، أو في التاريخ ، أو في الفقه ، أو في أي ما شئت من نواحي العلم الإنساني أن يبلغوا منها غاية ما تمكنهم مواهبهم ، لكنها لا تجعل كتابًا من كتب العلم أدبًا ، ولا كتابًا من كتب الفلسفة أدبًا ، لأن الأدب فن وحده له حدوده وله مراميه . فما لم تتناوله هذه الحدود ، وما لم يقصد إلى هذه المراسمي من ألوان الكتابة المختلفة فلا يمكن أن يحشر في زمرة الأدب .

سقت هذه الأمثال إيضاحًا للفكرة التي وقع عليها الخلاف بيني وبين صديقي الدكتور طه حسين على صفحات الهلال في الشهرين الماضيين ، وأضيف إليها أن ما يكتب في تاريخ الأدب للعلم بالأدب ليس أدبًا . فكتاب أسرار البلاغة للجرجاني ليس أدبًا وإن ساق في أمثاله طرفًا كثيرة من الأدب . وكتب فقه اللغة ليست أدبًا هي الأخرى . إنما الأدب فن تنطوي تحته ألوان معينة من الكتابة كالقصة ، والأقصوصة والرسالة ، وما إليها في النثر ، وكالشعر الذي يقصد منه إلى غايات أدبية فنية . فأما ما عدا ذلك من ألوان الكتابة نثرًا وشعرًا ، فليس أدبًا ، وإن بلغ أسلوبه غاية البراعة ، وبلغ الأداء فيه غاية الحسن .

قد يجول بخاطر بعضهم أن يسأل عن السبب في تحديدي نطاق الأدب ، وعدم رضاي عن التوسع فيه ، واعتبار كل كلام جاد أسلوبه وحسن أداؤه أدبًا . وقد يكون لهذا البعض العذر إذ كان هذا المدى الواسع قد أقر في بعض عصور مضت لتعريف الأدب . لكن التبويب والترتيب في العلوم والفنون قد صار بعض ما يحتمه عصرنا الحاضر . والكتب التي كانت تضم في الماضي أشتات العلوم والفنون مبعثرة على صفحاتها في غير نظام لم يبق لها اليوم وجود . وشتان بين دوائر المعارف المهذبة المنظمة المرتبة على طريقة علمية ، وبين بعض الكتب القديمة تخرج بك من مادة

إلى مادة لا صلة بينهما تدعو إلى تجاوزهما ، لتزج بك بعد ذلك فى مادة ثالثة بعيدة كل البعد عنهما . وترتيب العلوم وتدريجها من الأبسط إلى الأكثر تركيباً ، ومن المكتفى بنفسه إلى المحتاج إلى علوم غيره ، قد استنفد مجهوداً غير قليل أثناء القرن الماضى فى أوربا . والفن الواحد يبوّب اليوم ويقسّم وتطلق الأسماء على مختلف ألوانه وتحدد الصلة بينها . فلابد إذن من وضع الحدود لكل فن كما وضعت الحدود لكل علم ، ولابد من تحديد ما يدخل فى الأدب من ألوان الكتابة وما لا يدخل فيه .

وقد بلغ من انتشار روح التبويب والتحديد أن قامت منذ سنوات حركة فى أوربا لتفصل بين الأدب والمسرح ، وتقول إن القطع المسرحية لا تدخل فى الأدب ، وإن الكاتب المسرحى لا يدخل فى زمرة الأدباء ، وإن كان يدخل بطبيعة الحال فى زمرة الكتّاب ، وكان بذلك صاحب فن مستقل عن الأدب . وكان الأصحاب هذا الرأى ممن يفرقون بين الأدب والمسرح يعتمدون فى رأيهم على أن المسرح لا يحتاج بالضرورة إلى مقومات الأدب فى القصة والأقصوصة ، وأن له مقومات خاصة به تجعل الأسلوب وتأثيره فى القارىء والسامع ، مما لا غنى للقصة والأقصوصة والرسالة عنه بعض ما يجب أن يتنزه المسرح عنه .

صحيح أن هذا الرأى حورب من بعد ذلك ، وأن كثيرين يصرون على أن المسرح بعض فنون الأدب ، لكنه يدل على روح التبويب الذى انتشر وتغلغل فى جميع نواحى الحياة الفكرية والفنية .

وليس انتشار هذا الروح ضرباً من العبث وهو ليس فضولاً يدعو إليه الترف الذهنى وحده ، إنما تدعو إليه حاجتنا إلى تنظيم التفكير حتى لا يضطرب ولا يتشوش . وهو أثر محتوم للطريقة العلمية التى غزت عالم الفكر فى الأجيال الأخيرة . وفى رأيى أن التبويب للعلوم والفنون من أهم ما يجب أن تعنى به الدراسات ، وتتناوله البحوث ويتدرب عليه المتهذبون وطلاب العلم والأدب فى الجامعات ، فهو خير ما يوجه أذهانهم إلى التفكير على الطريقة العلمية دون سواها . والتفكير على هذه الطريقة العلمية أكفل ببلوغ ما نطمع فى بلوغه من حسن أو خير أو جمال ، وهو كذلك حسن فى البحوث النفسية والروحية ، بل هو كذلك حسن فى الإنتاج الفنى الذى لا يتقيد بطبيعته بطريقة معينة ، لأنه يتأثر أولاً وقبل كل شىء بذاتية رجل الفن .

ذلك إذن هو ما يدعونى إلى التدقيق فى تحديد الأدب وفنونه وألوانه ، وهذا التحديد بحاجة لا ريب إلى مجهود غير ما يبذل الإنسان فى فصل قصير كهذا الفصل ، مجهود يتوفر عليه أساتذة الأدب ويتوفر عليه الأدباء أنفسهم . وغاية ما أستطيع أن أقوله هنا أن الأدب كفن إنما تغلب فيه الذاتية . أما العلوم والفنون التى تتناول الآداب بالبحث ومن بينها النقد فتغلب فيها الموضوعية .

وهذه الفنون والعلوم ليست دون الأدب فى حياة العالم العقلية وفى فنون الكتابة مقامًا ، بل إن منها ما بين الأدب وما يبلغ إليه هوى النفس المهذبة أشده . فلعل هذا التبويب الذى أدعو إليه ينال ما هو جدير به من عناية فى الجامعة المصرية ، ولعل صديقى طه يكون أكبر أعوانه والعاملين عليه .



سر الاحتفال بالمتنبى (*)

يعنى عالم اللغة العربية هذا العام بإقامة حفلات لمناسبة انقضاء ألف عام على وفاة أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى . أقيمت أولى هذه الحفلات بدار الجامعة الأمريكية ببيروت فى اليوم الثانى من شهر يونيو ١٩٣٥ بناء على دعوة جمعية العروة الوثقى بالجامعة المذكورة ، وهذه الجمعية تضم الشباب الذى يتكلم العربية من المنتسبين إلى الجامعة المذكورة . وينتظر أن تقام حفلات لهذه المناسبة بحلب فى أغسطس ١٩٣٥ . وطبيعى أن تذكر حلب الشاعر الذى خلد ذكرها وخلد أميرها سيف الدولة بمدائحه العظيمة ، وربما أقيمت حفلة أخرى ببغداد وحفلة رابعة بالقاهرة . فقد أقام المتنبى بمصر زمنًا مدح فيه كافوراً الإخشيدى طمعًا فى أن يوليه ولاية يجلس على عرشها مجلس سيف الدولة على عرش حلب . وانقلب المتنبى عن مصر حين أخلفه كافور وعده فذهب إلى بغداد ، ثم إلى شيراز حيث مدح عضد الدولة . فلا عجب أن أقامت مصر وبغداد حفلات كالتى أقامتها بيروت ، والتى تقيمها حلب تذكر بها هذا الشاعر العربى الذى ملأ الدنيا دويًا منذ حياته ، ولا عجب أن يتحدث أبناء اللغة العربية عن شاعر ترك للغة العربية ميراثًا عظيماً .

على أن من حق كل إنسان أن يسأل : أفتقام حفلات المتنبى هذه فى الشام والعراق ومصر تقديراً للأثر الشعرى الذى تركه المتنبى فى الحياة ؟ أم هى تقام تقليداً للحفلات التى أقيمت لمناسبة انقضاء ألف عام على شاعر الفرس الفردوسى . هذه الحفلات التى أقيمت فى فارس وفى لندن وفى كل مكان به من المستشرقين من يعنى

(*) مجلة الهلال ، العدد ٤٣ ، جزء ١٠ ، بتاريخ أغسطس ١٩٣٥

بشاهنامة الفردوسى ويعجب بها . وهل تقام حفلات المتنبى هذه إعجاباً بشعر المتنبى وفنه ؟ أم تدفع إلى إقامتها اعتبارات ليس الفن ، وليس الشعر أقواها فى حفز النفوس إلى إقامتها ؟ وما هى هذه الدوافع التى تجد فى شعر المتنبى ما يشجعها على الظهور للاحتفاء بشاعر من شعراء العربية اتصلت الخصومة فى شأن شعره ، ومبلغ ما يسمو إليه من مراقى الفن وما يهبط إليـه من دركاتـه منذ حياته إلى عصرنا الحاضر ، بينما من شعراء العربيـة من انقضى على وفـاتهم أكثر من ألـف عـام فلم يفكر أحد فى الاحتفاء بهم ، مع أن ما خلفوا من التراث الشعرى لا يقل روعة وجلالاً عما خلف المتنبى ؟ .

أما أن الاحتفال بانقضاء ألف عام على المتنبى ، إنما هو مجرد تقليد للاحتفال بالفردوسى ، فذلك ما لا يصدقه الواقع . فالتفكير فى المتنبى والاحتفال بانقضاء ألف سنة على وفاته تفكير قديم يرجع إلى عدة أعوام ، والاحتفال بانقضاء ألف عام على منشئات أو رجال تركوا على الزمان أثراً ، هو القوم بعض ما يجول بالخواطر . وهانحن أولاء عما قريب سنشهد الاحتفال باليوبيل الألفى للأزهر ، وسواء أكانت هذه الفكرة قد نبتت أول ما نبتت للاحتفال بالأزهر ، أو بالمتنبى ، أو بالفردوسى فهى فكرة طبيعية أجدر بأن تساور النفوس من الاحتفال بانقضاء مائة عام على مولد عظيم من العظماء أو على وفاته . فالعظيم الذى صمدت عظمته للزمان ألف سنة تباعاً جدير حقاً بأن يذكر ، وأن تخلد ذكراه . وهو كذلك ما مست هذه الذكرى نفوس الأحياء على نحو يثير فيها عواطف تحدث بها هذا العظيم وخلدها على الدهر .

وهذا هو فى رأينا سر الاحتفاء بالمتنبى دون غيره من شعراء العرب الذين انقضى على وفاتهم ألف عام ، فليس ريب فى أن من هؤلاء الشعراء من يضارع المتنبى قوة ومن يفوقه رقة ومن يعلو فنه على فن المتنبى علواً كبيراً . وكثيرون من الضليعين فى الشعر وفنونه يفضلون أبا نواس على المتنبى فى سمو خياله ، ورقة تعبيره ، وحلاوة أسلوبه ، وعذوبته الموسيقية فى شعره . ومن الناس من يفضل ابن الرومى على المتنبى ، لكن هؤلاء جميعاً لا يعبر شعرهم عما يجول بخواطر الذين يتكلمون بالعربية اليوم ما يعبر عنها المتنبى . هؤلاء يصفون الطبيعة ، ويصفون الحياة ، ويصورون متعها ، ويستشفون حكمتها من خلال هذه المتع . وهذا كله لا يتصل بعاطفة الذين يتكلمون العربية

من أبناء اليوم ، إنما يتصل بعاطفتهم هذا الألم لفقد حريتهم ولضياع استقلال بلادهم . ويتصل بعاطفتهم هذا الاعتزاز بالنفس اعتزازًا هو السبيل لاقتناص الحرية من جديد ، ولتحقيق استقلال البلاد العربية المختلفة . ولم يعبر أحد عن هذه المعانى بمثل ما عبر المتنبى من قوة ، ولم يكن عصر اضطربت فيه أمور البلاد العربية اضطرابًا يكاد يشبه ما هو حادث اليوم كعصر المتنبى . فلا غرو إن استفز شعر المتنبى همة الشباب ، ولا عجب أن سارع الشباب الذى يتكلم العربية للاحتفاء بذكرى المتنبى بمناسبة انقضاء ألف عام على وفاته .

وكيف لا يستفز الشباب مثل قوله :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم	بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوس الرماح أذهب للـ	ـغيظ وأشفى لغل صدر الحقود
لا كما قد حييت غير حميد	وإذا متّ متّ غير فقيد
فاطلب العز فى لظى ودع الـ	ـذل ولو كان فى جنان الخلود
يقتل العاجز الجبان وقد يعـ	ـجز عن قطع بخنق المولود
وقى الفتى المِخَشُ وقد خو	ض فى ماء لبة الصنديد

وكيف لا يستفز الشباب فى وقتنا الحاضر قوله :

من أطاق التماس شىء غلابا	واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

وهذا المعنى كثير الورود فى شعر أبى الطيب ، ويقترن به من تصوير البطولة وحب الاستشهاد فى سبيل العزة والكرامة ما يهز عواطف هؤلاء الذين تفتحت عيونهم على الحياة ، فألفوا بلادهم مهيضة الجناح خاضعة للنير الأجنبى خضوعًا يسلبها عزتها وكرامتها . والشباب ولوع بالقول الفخم وما يدل عليه من طموح إلى العلياء ، وهو أشد بالقول الفخم ولوعًا كلما حالت الحوائل بينه وبين العمل الإيجابى المثمر الذى يحقق غاياته ، فهو يجد فى هذا القول عزاء عن حرمانه من أسباب العزة والأنفة ، وحافزًا إلى التماس هذه الأسباب ومذكرًا بها . والذكرى نافعة أبدًا ، وكلما بعدت هذه الذكرى

فى أطواء الماضى كانت أفعل فى النفوس أثرًا . فإذا تغنى أجدادنا من ألف سنة بمعنى من المعانى ، وقصرنا نحن دون إدراكه ، فعار علينا إذا لم نحمل على أنفسنا ، ولم نبذل غاية جهدنا لتحقيقه ، فإن بلغنا الغاية من قصدنا فذاك ، وإن لم نبلغها فلنا من العذر أن حالت الأقدار بيننا وبين ما نريد .

هذا هو الدافع الأقوى لاحتفاء أبناء العربية اليوم بمرور ألف عام على وفاة المتنبى ، وهو كما ترى حافز نبيل غاية النبل ، ويتصل به حافز من نوعه ليس أقل منه نبلاً . فقد نسيت هذه البلاد التى تتكلم العربية فى عصورها الأخيرة تراثها العظيم ، واتجهت بكل جهودها إلى ناحية الغرب تلتمس منه أسباب الراقى من العلم والأدب والفن . وبلغت من ذلك حتى خيِّل إلى أبنائها أن ما كان لها من علم وأدب وفن ، لم يعد صالحًا للحياة فى هذا العصر ، بل لم يعد صالحًا بأن يكون أساس بعض ، وإحياء كما كانت الآداب اليونانية والفلسفة اليونانية أساس البعث والإحياء فى الغرب من أربع قرون خلت . فإذا كان شاعرنا المتنبى لا يقف عند الإشادة بمبادىء العزة والكرامة والحرية ، بل يضرب بيده فى أحشاء الحياة يلتمس حكمتها ، فتخرج يده مملوءة من حكمة الحياة الخالدة التى لا تفنى وإن تقادمت الدهور . كان ذلك دليلاً على أن لنا من هذا التراث العظيم فى الفن والأدب ما ينهض أساسًا ، لبعث البلاد العربية كى تقف جنبًا إلى جنب مع الغرب دون أن تكون عالة عليه مقلدة أياه فيما يثمر من فن وعلم وأدب . والحق أن المتنبى قد خاض فى لج بحر الحياة ، فاستخرج منه درر الحكمة الخالدة التى لا تبلى ، وهو قد جلا هذه الحكمة فى فن قوى غاية القوة . استمع إليه إذ يقول :

ذل من يغبط الذليل بعيش	رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه	ما لجرح بميت إيلام

وإذ يقول :

يهون علينا أن تصاب جسومنا	وتسلم أعراض لنا وعقول

وإذا يقول :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله	وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

وغير هذه من الحكم التى جـرت مجـرى الأمثـال ، جمعها كثير من الذين درسوا أبا الطيب وشـعره . والناس مشوقون للحكمة يلتمسونها فى الأمثال وفى الشعر وفى كل كلام جميل حسن المدخل إلى النفس ، فالحكمة رحيق تجاريب الأجيال ، والميراث الذى يخلفه الناس بعضهم لبعض جيلاً بعد جيل .

واعتبـار ثالث : قام بنفس كثـيرين ممن احتـفـوا بأبى الطيب ، ذلك الاعتبار هو الفكرة العربية فى صورتها المقبولة الممكنة ، فالفكرة العربية تجول بخواطر البعض على أنها الوحدة السياسية للذين يتكلمون اللغة العربية ، والذين كانوا إلى ما قبل الحرب يستظلون بعلم الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية والوحدة السياسية لطائفة من الأمم تجمعها جامعة ليست بدعًا مثلها مثل الوحدة السياسية للأمم المتجاورة تجمعها جامعة الجنس أو الدين . على أن هذه الوحدة غير ميسورة فى ظروف العالم اليوم . ولا يدرى أحد إن أمكن تحقيقها فى الأجيال القريبة ، لكن جامعة اللغة تخلق من غير شك اتصالاً فى الثقافة قد يصل مع الزمن إلى وحدة هذه الثقافة ، وهو من غير شك يقرب بين الأمم التى تتكلم اللغة الواحدة ويقوى عناصر الثقافة المشتركة بينها بتشابك العناصر التى تشترك فى إحياء هذه الثقافة وفى توجيهها ، والإضافة إليها إضافة تصل بين ماضيها وحاضرها بأوثق الصلات .

وقد بدا هذا الاعتبار الثالث واضحًا أشد الوضوح فى الاحتفال الألفى الذى أقامته جمعية العروة الوثقى بالجامعة الأمريكية للمتنبى . كانت العربية والعروبة أنشودة ذلك المجتمع والأغنية الجارية فيه على كل لسان . ولا عجب والفكرة العربية تتحرك اليوم فى نفوس أبناء سوريا ولبنان وفلسطين بأقوى مما تتحرك فى نفوس غيرهم من الناحية السياسية . ولا عجب والإحياء للتراث العربى فكرة تجول بخواطر الذين يتكلمون اللغة العربية جميعًا ، فيما عدا أولئك الذين يريدون أن يغفلوا ماضيهم وأن يقلدوا الغرب وحضارته وفنونه وآدابه تقليداً ينسى أبناء هذه الأمم أنها ذات ماض مجيد ، وأنها أظلت العالم بحضارتها عصوراً مديدة ، وبخير مما تظل حضارة أوربا العالم اليوم به . هؤلاء لا رجاء فى نجاح فكرتهم ، وإن استندت إلى القوى الحاكمة فى الشرق اليوم . ومهما يكن الاتصال بين أمم العالم أمراً محتوماً لا مفر منه حتى لا معدى للشرق اليوم أن يأخذ كثيراً عن الغرب . فالاتصال بين ماضى الأمم وحاضرها

أمر محتوم هو الآخر لا مفر منه ، وذلك هو ما جعل الاحتفاء بالمتنبى ، وما يجعل كل عمل يقصد به إلى إحياء ماضينا على أية صورة من صور الإحياء يقابل بالإكبار والتأييد .

أدبنا الحديث

لا يسد حاجات العصر (*)

هل يؤدى أدبنا الحديث حاجاتنا فى هذا العصر ؟

كثيراً ما تردد هذا السؤال فى صور مختلفة منذ نهضتنا القومية الأخيرة . والجدل الذى استمر سنوات حول القديم والحديث فى الأدب لم يكن إلا صورة منه . والقول بأن العصر الذى نعيش فيه عصر ترجمة لا عصر تأليف صورة أخرى ، وما يقع من حوار أحياناً حول المصدر الذى نستمد منه أدبنا ؛ أهو أدب الغرب أم هو تاريخنا وبيئتنا . صورة ثالثة ، وهذه الصور وما إليها ترمى كلها إلى غرض واحد . فنحن نريد أدباً يسد حاجاتنا فى العصر الذى نعيش فيه ، كما أننا نريد صناعة تسد حاجاتنا فى هذا العصر ، وزراعة تسد حاجاتنا فيه ، وكما أن كل مجهود تبذله يجب أن يتجه إلى سد حاجة من حاجاتنا الضرورية أو الكمالية . فإذا أنفق مجهود لم تدع حاجة إليه كان ذلك ضرباً من العبث ، وكانت نتيجته أن لا يعنى به أحد وأن لا يعيره الناس التفاتاً .

وهذا هو السبب فى رواج أدب المقالة فى عصرنا الحاضر ، وفى ركود سائر ألوان الأدب ، فجمهورنا بحاجة إلى أن يلم بتفكير العالم ، وبما يجرى فيه متصلاً بالثقافة إلمامات سريعة لا تجهد الذهن ولا تحتاج إلى ثقافة عامة متينة الجذور عميقة الأساس . وهذا هو كذلك السبب فى رواج الأدب الصغير الذى يقصد إلى الترويح عن النفس ، وإلى رياضة الذهن أكثر مما يقصد إلى تغذيته وإلى توجيه الإنسان فى الحياة . وأقصد بالأدب الصغير الأقصوصة الخفيفة ، وما إليه فى النثر والشعر . لكن جمهورنا

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٥١ ، بتاريخ أول يناير ١٩٣٨

لا يعزف عن الأدب الكبير إذا وجد فيه ما يسد حاجة عنده . وقد أبدى من الميل لبعض ألوان الأدب ، ومن التقدير لأصحابها ما دل على عظمته ، وعلى أنه بحاجة إلى أن ينهل من هذا الورد ما استطاع وما وجد إليه السبيل . فإذا لم يجد هذا الأدب الكبير فله عذره عن الاكتفاء بأدب المقالة وبالأدب الصغير ، وإنما التبعة على الكتاب والأدباء لأنهم لا يقدمون إليه ما يسد حاجته ، وهو لا ريب أشد ما يكون تطلعًا إليها وإقبالاً عليها لو أنه وجدها .

على أنّا إذ نلقى التبعة على الكتّاب والأدباء يجب أن نلتمس لهم العذر هم الآخرون . فالأرض لا تثبت إلا إذا وجدت الماء الذى يرويها والسماد الذى يخصبها ، ووجدت بذلك الغذاء الذى يبعث إليها من القوة ما يجعلها تثمر ، وهى أجود ثمرة وأغزر محصولاً ما تعدها أولو الشأن ممن يقومون على العناية بها . والأمر كذلك فى كل قوة مثمرة ثمرتها رهن بتعهدها وبالعناية بها رهن بإمدادها بأسباب القوة لتثمر فتجيد وتكرم . والكاتب والأديب لا يندان عن هذه السُنّة التى تطرد فى الحياة فلن تجد لها تبديلاً . ولكى يكون الأدب الكبير من ثمراتها يجب أن يكون لديهما من الغذاء ما يدعو إليه . وهذا الغذاء لا يقف عند رواج ما يكتبان ليدر على الكاتب أخلاف الرزق . فمن الكتّاب الذين برعوا فى أدب المقالة وفى الأدب الصغير من استغنوا بأدبهم ومن جادت عليهم الحياة بمادة العيش موفورة . فلم يدعهم ذلك إلى التماس الأدب الكبير والإنتاج فيه ، إنما يحتاج الأدب الكبير إلى غذاء عقلى ، وإلى ثقافة متينة ، وإلى تعاون فى التفكير بين الكاتب والأديب من ناحية ، وبين الفيلسوف المفكر والعالم الباحث والمؤلف المحقق من ناحية أخرى . وهو يحتاج خاصة إلى التفكير الاجتماعى فى شئون الأمة وفيما يحسب أن يكون مثلها الأعلى ، وفيما ينطوى هذا المثل الأعلى عليه من أمثال عليا تتصل به وتتضافر وإياه فى السير بالحياة إلى ناحية المعرفة وإلى ناحية الكمال . وهذا التعاون لا وجود له فى مصر ولا فى العالم العربى بالقدر الذى يطوع للأدب الكبير أن يبلغ المكانة التى توجه الأمة فى حياتها ، لأننا نلجأ إذ نفكر وإذ نبحث إلى محاكاة الغير وتقليده ، أو إلى الترجمة دون التأليف ، لأن العصر عصر ترجمة لا عصر تأليف فيما يقولون .

ولو أننا أردنا المحاكاة فى الغايات كما نحاكى فى الوسائل لا نصرف تفكيرنا فى الكتابة وفى الأدب إلى ناحية غير ما ينصرف الآن إليه . فغاية الأدب توجيه التفكير إلى الأغراض التى يجب أن تجعلها الجماعة مرماها ، وليست غايته قاصرة على التسلية

وقتل الوقت . ونحن إذ نرجع البصر إلى الغرب الذى يتخذه كتابنا ولأدباؤنا اليوم إماماً نرى الكتّاب والأدباء فيه يتحرون هذه الغاية ويعملون جاهدين لبلوغها . خذ فرنسا فى القرن الخامس عشر مثلاً فهى أدنى إلى ما نحن فيه اليوم من أمم أوربا فى الوقت الحاضر . لم يكتب روسو ولم يكتب فولتير ولم يكتب الأنسيكلوبيديون لتسلية قرائهم ، وإنما كتبوا يبتغون توجيه الرأى العام إلى ما يعتقدونه الكمال فى الحياة . لقد اختلفوا على الكمال ما هو ؟ لم يكن روسو يفكر تفكير فولتير ، ولم تكن غايتهما مشتركة . وديدرو وجرم وغيرهما كانوا مثلهما فى هذا الاختلاف ، وكذلك كان الفلاسفة والكتّاب الإيطاليون يختلفون فى تفكيرهم ، لكن كلاً منهم كان يقصد إلى غرض بذاته تراه واضحاً فيما يكتب وكان يريد توجيه الجماعة إلى ناحية يراها خيراً وأعظم ثمرة مما كان حادثاً بالفعل . وقصة روسو عن التربية ، وروايته (هلويز الجيدة) ، وهما الأثران الأدبيان اللذان يضارعان اعترافاته وأحلامه ، إنما رمى بهما إلى إصلاح آمن بضرورته ، فوضع له نظامًا وأراد إقناع الناس به فاتخذ الأدب طريقه . و(كانديد) وغيرها من مصنفات فولتير تنحو هذا المنحى ، وإن اتجهت إلى ناحية تخالف ما اتجه إليه روسو تمام المخالفة . والغاية المقصودة هى التى أدت بروسو وبفولتير وبغيرهما ليكتبوا ، ولم يؤد بهم إلى الكتابة لمجرد التجديد فى الأسلوب ابتغاء إعجاب القراء .

وكتاب روسيا القيصرية من أمثال تلستوى ودستويفسكى وغيرهم كانوا كذلك يقصدون إلى غايات اجتماعية صورها غيرهم فى صورة التفكير المنطقى ، وصوروها فى صورة الأدب القصصى أو المسرحى أو ما إلى ذلك من ألوان الأدب المختلفة . ولم يكفهم فى ذلك الأدب الصغير الذى تلخصه المقالة أو الأقصوصة ، بل أخذوا فيه بألوان الأدب الكبير فوضعوا الروايات القصصية والمسرحيات ، والتمسوا كل الوسائل التى ينفذون بها إلى عقول قرائهم ، والتى يحملونهم بها على مشاركتهم فى آرائهم وفى الغرض الذى تنتهى إليه هذه الآراء . وبذلك استطاعوا أن يمهدوا فى روسيا ، كما استطاع كتّاب القرن الثامن عشر فى فرنسا أن يمهدوا التفكير للتقدم إلى ناحية الكمال .

هذه الغايات هى التى يجمل بنا أن نحاكى غيرنا فيها ، وهذه الغايات هى التى حركت الأدباء والكتّاب ، ليكتبوا فى الأمم المختلفة وفى العصور المختلفة منذ علم الله الإنسان بالقلم ما لم يعلم .

إن مشاكلنا الاجتماعية ليست بالقليلة ، وتصوير الغاية التى نريدها مثلاً أعلى يحتاج إلى تفكير كتفكير كتّاب الأمم المختلفة فى عصور تطورها . ونحن اليوم فى عصر تطور لا يقف فى حدود بلادنا ، بل يتناول البلاد التى تتكلم العربية جميعًا . أهل هذه الأمم يبتغون حالاً خيراً مما هم فيه ، ويريدون أن ينتقلوا إلى هذه الحال انتقالاً فكرياً بادىء الرأى ، ليكون وسيلتهم القوية السليمة إلى الحال الجديدة فى صورتها العملية الواقعية ، وهم فى هذا يتوقون إلى ما يقدمه لهم الكتّاب والأدباء من الثمرات ، فإذا لم يجدوها لم يكن لهم بد من الاكتفاء بما يقدم لهم فى انتظار ما يكون خيراً منه .

لا أريد بذلك أن أغمط ما لبعض الآثار الأدبية التى ظهرت فى مصر وفى العالم العربى من حق . ولقد أتيح لى أن أتناول بعض هذه الآثار ، وأن أتحدث عنها بما أعتقد أنها له أهل ، لكن طائفة من هذه الآثار الجديرة بالإعجاب أدنى إلى أن تكون نوعًا من الترف الأدبى لا يثمر ثمرته المرجوة قبل أن تحصل الأمم العربية على حاجاتها التى لا يؤديها إلا الإنتاج الأدبى فى شأن مشاكلها المختلفة . ورب كتاب أبعد أثرًا فى هذا الشأن من كل قانون يمكن أن ينظمه ، بل إن التشريع الذى لا يسبقه شعور إنسانى بالحاجة إليه قل أن يلائم الحاجة التى يسن لها . ولا أدل على ذلك من أنّا نحاول أن نسن تشريعًا للعمال فى مصر ، ونعمل لذلك من سنوات ثم لا نستطيع أن نطمئن فيها إلى شىء ، لأن البحث والدراسة لا يكفيان وحدهما للتشريع ، بل لابد من أن تصقل الفكرة التى تبرز ضرورته ألوان الأدب المختلفة فى الشعر والنثر . وليس هنا من لا يقدّر التطور الاجتماعى العظيم الذى حدث فى مصر والشرق متصلاً بحياة المرأة وبنظام الأسرة ، وكلما ذكر هذا التطور ، ذكر اسم المرحوم قاسم أمين وذكرت الحركة الأدبية الضخمة التى ترتبت على تفكيره ، وعلى إبرازه هذا التفكير فى كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) . ومشكلة التربية والتعليم ليست دون مشكلة العمال فى مصر تعقيداً ، وهى تضطرب بين تجارب كلها لا تلبث حين يبدأ العمل بها أن يذرها أصحابها إلى غيرها ، لأنهم لا يعرفون الغاية التى يقصدون إليها ، والمثل الأعلى الذى يريدون تحقيقه ، وهم لا يعرفون هذا ولا ذاك ، وهما من حاجاتنا الضرورية ، لأن الأدب هو الذى يحل المشاكل جميعًا ، كما أنه هو الذى يخلقها . وحله لها هو التمهيد الأول والضرورى إذا أريد للشعوب المختلفة أن تسير على هدى وفى نظام يكفل للجماعة نوعًا من الطمأنينة ، ويكفل لها اطراد السير فى سبيل التقدم .

هل الكتّاب والأدباء هم وحدهم الذين تقع عليهم تبعة هذا التقيد فى أداء الأدب ما دام الجمهور مستعداً لأن يأخذ من الأدب الكبير ما يسد حاجته ؟ . لا ريب أن عنيهم قسطًا كبيراً منها ، لكنهم ليسوا وحدهم الذين ينوؤن بأعبائها . فلقد انصرف كثير من أدبائنا وكتابنا إلى الصحافة والسياسة عن الأدب وعن التفكير فى شأنه ، وهم إنما انصرفوا إلى الصحافة والسياسة بدافع من الساسة الذين لم يفكر أحد منهم فى تشجيع الأدب بصرف النظر عن كل اعتبار سوى المثل الأعلى الذى يجب أن يدعو الأدب إليه . وهؤلاء الساسة لا يفعلون ذلك وهم فى المعارضة وكفى ، بل هم يفعلونه حين يتولون الحكم كذلك ، وهم يعزفون عن تشجيع الكتابة والأدب ما بعدا عن السياسة وعن تأييد أهواء الساعة . وهذه تبعة كبرى لو قدرها من يقع عليه وزرها لاستعاذ بالله منها ولالتمس المغفرة عنها .

ولو أن ساستنا شجعوا الأدب ، بصرف النظر عن الاعتبارات السياسية ، لكان له شأن غير شأنه اليوم ، ولوجد الكتّاب ما يشجعهم على التماس الأدب الكبير واقتحام أبوابه ، ويومئذ يسد الأدب حاجات الأمة فى مصر وفى الشرق ، كما يسد الأدب فى الغرب حاجات الأمم التى يعيش فيها .

على أنه إذا لم تكن الحكومات فى مصر قد قامت فى هذا الأمر بواجبها ، فإن لنا فى جلالة مليك مصر المحبوب فاروق الأول أكبر الأمل فى أن يصنع صنيع الخلفاء الأولين من المسلمين ، وصنيع كبار الملوك من أهل الغرب من الذين ازدهر التفكير فى عصرهم ، فأصبح فخراً لبلادهم على مر القرون ، وأن المأمون العباسى ليُذكر اليوم لا يزال بتشجيعه العلوم والفنون والآداب ، ولويس الرابع عشر الفرنسى ليُذكر اليوم لا يزال بنهضة الأدب فى عصره نهضة ما برحت فخر الأدب الفرنسى والثقافة الفرنسية إلى اليوم ، وسيبقى فخرها إلى عصور وأجيال .

وفق الله جلالة المليك الخيّر ، وجعل أيامه مقرونة باليمن زاهرة بكل ما يبقى لمصر فخراً ومجداً .

الربيع والأدب (*)

ألف الناس أن يقولوا : الشباب ربيع الحياة ، يريدون حياتنا الإنسانية ومقام الشباب منها ، ولعلهم لا يأبون أن يقولوا الربيع شباب الحياة ، يريدون بذلك حياة الوجود ومقام الربيع منها . فالربيع هو الشباب المتجدد للطبيعة المحيطة بنا ، تلك الطبيعة التى لا تعرف الانحلال ولا الموت ، وإن عرفت الهرم والمشيب ممثلين فى الشتاء وفى ثلوجه حيث تتساقط ثلوج الشتاء .

والناس يذكرون الشباب ويذكرون الربيـــع وعلى ثغورهم ابتسامة طمأنينة ورضى لا تفارقها . فإذا ذكروا الصيف وذكروا الكهولة ، أو ذكروا الشتاء وذكروا الشيخوخة ، فقلما تعرف الابتسامة سبيلها إلى شفاهم ، فإذا عرفتها لم تدم إلا ما يدوم وميض البرق ، ثم لم يشع منها أى معنى من معانى النعيم ، ذلك لأن الربيع من أوله إلى آخره باسم وضاح الجبين ، تكسو الأزاهير أرضه جمالاً وروعة ، وتبعث من شذاها إلى هوائه أريجًا فى عبقه الحياة والنعمة والمسرة ، فأما الشتاء فمسراته مصطنعة فى حياتنا وحياة الطبيعة ، وهى لاصطناعها قصيرة العمر قليلة البقاء .

والأدب فن جميل يصور الجمال فى كل صوره ومظاهره . لذلك كان للربيع من الأثر فيه ما ليس لغيره من فصول السنة . وأنت تقرأ عن الشتاء وعن النعيم بالدفء إلى جوار النار شعراً ونثراً غير قليل فى أدب البلاد التى تعرف الشتاء القارس وبرده الزمهرير ، تصطك الأسنان من لذعه . وأنت تقرأ عن الخريف ، وعن الصيف شيئًا غير قليل فى آداب شتى اللغات ، لكن ما تقرؤه عن الربيع يزيد على كل ما كتب أو يكتب عن

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١٦١ ، بتاريخ ٢ مارس ١٩٤٠

سائر فصول السنة أضعافًا مضاعفة ، ذلك بأن الربيع ليس فصل الجمال وكفى ، بل هو فصل الحياة مجلوة فى أبرع صور الحياة ، وأكثرها نشاطًا وإثمارًا .

ولو أن الربيع لم يكن إلا فصل الزخرف فى كل مظاهر الحياة كلها لكفاه ذلك ملهمًا للآداب ولسائر مظاهر الفن الجميل . قص علىّ صديق شاب كان يتلقى العلم بباريس ، أنه ألف فى الصيف وفى أوائل الخريف من أحد أعوام دراسته بمدينة النور أن يغشى محل شاى كانت تجلس فيه ابنة صاحبه تتولى حساباته ، ولم يكن حظ الفتاة من الملاحة ليشد إليها البصر ، وانتقل صديقى إلى حى آخر قضت دراسته أن ينتقل إليه أخريات الخريف وطيلة الشتاء ، فلما أقبل الربيع فأذاب الثلوج عن هام الشجر وأنبت فى أغصانها السوداء براعم خضراً وأكمامًا ما لبثت أن تفتحت عن أزهار ذات جمال وشذى طاب له يومًا أن يتناول الشاى مع صاحب له فى ذلك المحل الذى كان يغشاه من قبل . ولشد ما كانت دهشته حين رأى هذه الغادة التى ألف رؤيتها فلم تأخذه يومًا عن نفسه ، وقد أشرقت نظراتها وأشرق لونها ، وصارت كأنها زهرة خرجت من أكمامها وأقبلت عليه حين رأيته تحييه وتسأله عن سبب انقطاعه كل هذه الشهور . وأجابها أنه انتقل إلى حى غير الحى ، ثم لم يلبث أن أبدى لها إعجابه بذلك الإشراق الذى خلع عليها حلة من البهاء والجمال تثير فى النفس الإعجاب بها ، فابتسمت وقالت :

– إنه الربيع !

ولم يكن ما جاء به صاحبى من هذه الكتب والصور إلا قليلاً ، فلو أنك أردت أن تنشىء مكتبة للربيع فى أى لغة من اللغات ، بل فى مختلف اللغات لضاقت دونها الغرف ، ولما ورد مما فيها بخاطر صاحبى إلا أقله .

ولك أن تسأل : أى اللغات أغنى فى أدب الربيع ؟ ولست أدرى أى مصاف الثروة من هذه الناحية أضع فى لغتنا العربية ، ولعلى لا أكون مجدًا إذا قلت إن كثيراً من اللغات أغنى فى أدب الربيع منها ، وإن كان ما تحويه من هذا الأدب بارعًا وعظيمًا .

وليس تقدم بعض اللغات لغتنا فى أدب الربيع راجعًا إلى علة فى اللغة ذاتها ، وإنما العلة فى الوضع الجغرافى للبلاد التى تتكلم العربية ، فكلها تقع فى مناخ معتدل ينتقل الناس بسببه من فصل إلى الذى بعده على هون وفى طمأنينة ، وتنتقل الطبيعة

بسببه كذلك من فصل إلى الذى يليه دون ضجة صاخبة ولا مظاهر شديدة الفتنة . ونحن ننتقل الآن بمصر من الشتاء إلى الربيع ، وعما قريب سنرى الزهر يكسو الحدائق والأسوار ويتجلى بهجة للناظرين ، لكن ما يحدث اليوم وما سيحدث عنه من هذا الانتقال لا عنف ولا ثورة فيه ، بل هو انتقال مطمئن هادئ لا يهز الأعصاب ، وإن لفت النظر . شأن هذا الانتقال الربيعى فى مصر كمأدبة تقام فى بيت أحد ذوى اليسار العريض قد ألف فى حياته اليومية نعمة العيش الرغيد ، قلما يلاحظ أحد فى هذا البيت نشاطاً غير عادى أو ضجـــة غير مألوفـــة ، وأهــل البيت أنفسهم وخـدمهم وحشمهم لا يجـدون يوم المأدبة يوماً غير عادى ولا غير مألوف ، لذلك لا نسمع فى البيت ضجة ولا نرى فيه جلبة ، فإذا انتهت المأدبة وانفض الجمع الذين دعوا إليها لم تثر اهتماماً خاصاً ، ولم تترك مجالاً لأحاديث مستفيضة يصح لو دونت أن تكون أدباً .

أما فى البلاد الغنية بأدب الربيع فالأمر مختلف ، مناخ هذه البلاد لا يعرف الاعتدال ، بل ينتقل الناس فيه من فصل إلى فصل ، وكأنما هم فى مسرح أولع أصحابه بالمفاجآت غراماً . وحسبك أن تقرأ اليوم أنباء فنلنده وغيرها من بلاد الشمال لترى الثلوج المنهمرة تكسو الأرض ، وتكسو الشجر ، وتدع الحياة ملتفة فى أكفان ، بل فى كفن واحد ممتد الأرجاء فوق البلاد كلها ، فإذا آن للشتاء أن يولى ذابت هذه الثلوج وبدا الشجر بجذوعه وفروعه أسود قاتماً وبدت الأرض وليس فيها من النبات المخضر ابتسامة أو أمل فى ابتسامة . ولا يكاد الربيع يقبل حتى تهز ثورة الحياة هذا الوجود هزاً عنيفاً ، تربو الأرض أو تنبت وتزهر وتخضر فروع الشجر ويكلل الزهر هاماته ، وتصفو السماء وتسطع الشمس ويهبط على الناس الدفء ويتجلى ذلك واضحاً صريحاً يزداد فى كل يوم وضوحاً ، وتزداد الثغور له ابتساماً ، وتهتز به الحياة فى القلوب وفى الصدور ، فإذا هو حديث الناس جميعاً ، وإذا بك تسمع من كل جانب ما أجمل هذا اليوم ! ما أشد الشمس بهجة ! يا لروعة الربيع ! وإذا هذا الانقلاب عيد البائسين يخرجون فيه ويطفرون ويتغنون ويسمرون ويجعلون منه موضع حديثهم المتصل ، أليس قد أتاح لهم الخروج من سجن الدور إلى فضاء الله الفسيح ؟! . أليس قد خلع على كل غانية ثوباً من البهاء والجمال ؟ . أليس قد أجرى الجداول وأنبت الحياة فى كل ما كان ماء الحياة قد غاض منه ، ثم يتغنى الشعراء ويتغنى غيرهم بهذا البعث الذى يعاود

الطبيعة فى كل عام مرة ؟ وكيف لا يلهم هذا البعث الكتّاب والقصصيين ورجال الفن جميعًا ، ولهم فى أشهر الربيع ، وأوليات الصيف من أسباب المتاع ما لا يصرفهم عن التغنى وعن الحديث ، عن الشعر وعن النثر ، فإذا أقبل الخريف ينزع عن الشجر أوراقه ، وأقبل الشتاء ببرده وثلجه كان الربيع قد ترك للأدب ثروة أى ثروة .

وليس قولنا إن غير العربية أكثر منها فى أدب الربيع ثروة ، ليعنى أن العربية لم تعرف أدب الربيع ، وإنما معناه أنها لم توجه إليه من العناية ما وجهته اللغات التى عنيت به . على أن من شعراء العربية ومن كتّابها من شادوا بذكر الربيع ، وتحدثوا عنه حديث الأغنياء عن موائدهم الحافلة بألوان الرغد والنعمة ، ثم إنهم إذ يتحدثون عنه لا يفردون له من الأدب أبوابًا يستقل بها ، بل هو يضيفونه إلى الوصف أو يتخذونه إطارًا للغراميات ، ثم يسرعون فى الانتقال إلى غيره من أغراض الأدب التى تتعلق بها أنفسهم وتهوى إليها أفئدتهم ، ومن هذه الأغراض ما قل أن يرد بخاطر غيرهم ، وما يتسع له صدر الأدب العربى ، وهو فى غيره من الآداب قليل لا تكاد تكون له أطراف يترامى إليها .

وهذه الظاهرة فى أدب الربيع واضحة الدلالة فى أثر البيئة على الأدب وعلى الفن ، جديرة بأن تلفت كل من يعنون بدراسة الآداب وتاريخها وتطورها إلى تقدير هذا العامل الجوهرى القوى الأثر فى حياة الأدب واتجاهه وفى حياة الفن واتجاهه ، وذلك ما لم يغب يومًا عن مؤرخى الأدب ونقاده . وكيف يكون الأمر غير هذا والأدب صورة الحياة ، وهو أكثر سموًا كلما أدق للحياة تصويرًا ، لا يكتفى بتناول ظاهرها ، بل يتعمقها إلى أبعد خفاياها ومواطنها . والحياة متصلة السيال بين الأجيال فى تعاقبها . والبيئة بعض ما تستمد منه الحياة أسباب وجودها ونشاطها ودراستها جوهرية فى كل ما اتصل بها ، جوهرية فى الأدب الذى يصورها فى كل ناحية من نواحيها ، وكل جانب من جوانبها .

هل لى أن أختم هذه الكلمة عن الربيع والأدب برجاء أسوقه إلى أساتذة الأدب العربى وتاريخه ، فأطلب إليهم أن يضع من يعنيهم الأمر منهم كتابًا عن أدب الربيع فى العربية . إن مثل هذا الكتاب إن وضع يتناول جوانب من هذا الأدب ، لعلها أكثر جوانبه جمالاً وروعةً ، ولعلها أدعاها إلى بعث البشر والأمل الباسم فى النفوس .

وإذا كان النابغة الموسيقى بتهوفن قد قضى حياته يلتمس أن يضع للناس لحن المسرة حتى وفق إلى وضعه ، لأنه رأى المسرة مفتاح السعادة والأمل الباسم . فأدب الربيع فيه ألحان للمسرة ما أحوج عالمنا العربى إليها ، لتكون مفتاح آماله فى حياة باسمة سعيدة تطيب فيها النفس إلى بذل الجهد ، لبلوغ الغاية العليا من حياتنا الإنسانية ، هذه الغاية هى الحرية التى لا تعرف الحدود ولا القيود ولا ترضاها .

أناتول فرانس محدّث (*)

على أثر وفاة أناتول فرانس فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ ، نشرت عدة كتب يقص بعضها تاريخ حياته ، ويتناول البعض بالنقد والتحليل طائفة من أفكاره ، ويسرد أصحاب البعض الآخر ما سمعوه من أحاديث الكاتب الكبير فى ظروف اتصلوا فيها به . ومن قبل وفاته بشهور نشر الكاتب المعروف بول جزل كتاباً عنوانه أحاديث أناتول فرنس : Propos d'Anatole France سرد فيه شيئاً من الأحاديث التى كان الأستاذ يلقيها فى ساعات الاستقبال التى خص بها زائريه فى صباح كل أربعاء بداره (فلا سعيد) القائمة فى باريس على مقربة من غاب بولونيا . فأما ما نشر بعد الوفاة فيعرف قراء العربية منه كتاب جان جاك بويسون الذى ترجمه الأمير شكيب أرسلان وجعل له عنواناً «أناتول فرانس فى مباذله» ، ولم ينقل إلى العربية كتاب نيقولا سيجور «أحاديث مع أناتول فرانس ، أو هموم الذكاء» Conversation avec Anatole France Ou les me- lancolies de l'Intelligence . ولا كتاب مارسل ل. جف «أناتول فرانس فى البشلرى» (La Bechellerie) وهى بيت الأستاذ فى تور بأواسط فرنسا حيث أقام من أول الحرب إلى أن مات ، ولا كتاب الكاتبة الهنغارية ساندور كميرى «نزهات مع أناتول فرانس» ولا غير هذه من الكتب التى لم تقع تحت نظرى من أحاديث أناتول فرانس .

ولكتاب المؤلفة الهنغارية حديث طريف قصة الكاتب لوى كوشو فى مقدمته ، وذلك أنه لما توفيت مدام أرمان دكايافيه فى ١٢ يناير سنة ١٩١٠ بعد صداقة متينة دامت بينها وبين فرانس مدى ثلاثين سنة ، كانت صداقة وحى وإلهام واتصال فكرى دفع

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٧٠ ، بتاريخ ٩ يولية ١٩٢٧

بالكاتب الكبير ، ليظهر ما أظهر من بدائع مؤلفاته . اعترى فرانس ذهول أقعده عن التفكير وعن الكتابة ، ويلغ به حدود اليأس حتى لدفعه رغم تقدم سنه إلى التفكير فى الانتحار . وكان من حسن الحظ أن بعث القدر بمدام بولونى - الكاتبة الهنغارية ساندور كميرى - تطلب إلى فرانس رسالة يشيد فيها بمجد الدانوب ، فلما رأته أحست أنها أمام رجل يتهدده الخطر ، فنسيت ما جاءت له ، واتجهت بكل ما فيها من رحمة المرأة وعطفها وحنانها ، لتضميد جرحه ولشفائه ، وبقيت معه طول الشتاء تنفذ رغباته التى انحصرت فى ذكريات صديقته الراحلة رحلة الأبد وتنسيقها ، وظل هو إلى جانبها محطماً لا إرادة له ولا قوة على تفكير أو عمل . وفى الربيع قبل مشورة الطبيب أن يذهب إلى إيطاليا التى أحب حباً جماً والتى وصف فى كتبه من جمالها ما لم يتح لكثير من أكابر كتّاب إيطاليا أنفسهم أن يصفوه ، وصحبته مدام بولونى فى هذه الرحلة الأخيرة إلى إيطاليا . وفى كتابها سردت أحاديث فرانس ، وقصت كيف اختط سبيله إلى العافية ، ليجود على العالم فى السنوات الأربع عشرة التى عاش بعد ذلك يكتب من خير ما رسمت ريشته وما جاء به ذهنه وخياله .

فى كتاب «جزل» عن أصبوحات (فلا سعيد) وفى الكتب التى نشرت بعد موت فرانس صورة من الكاتب الكبير كمحدث ، وربما كنا فى غير كبير حاجة إلى هذه الصورة لنعرف هذه الناحية من نواحى حياة الكاتب الكبير ، وذلك الجانب من جوانب نبوغه وعبقريته . فما يكاد كتاب من الكتب التى خلفها يخلو من صورة المحدث الفذ فى تأييس قسم يكاد يبلغ ربع الكتاب يشتمل على حديث الوليمة بين فلاسفة إسكندرية فى القرن الرابع ومترفيها وحكامها . وكتاب «آراء القس جيروم كونيار» ليس إلا حديثاً بينه وبين تلميذه جاك تورنبروش ، تناول فيه العدل والرحمة والإحسان ، وألوان الحكم ونظام الجيش ، وتحدث عنها جميعاً أروع الحديث وأبلغه وأحكمه . وفى أربع كتب التاريخ الحديث لا يفتأ مسيو برجريه يتحدث إلى ابنته برلين وإلى كلبه ريكيه ، وإلى كثير من الأشخاص قساوسة ومدنيين . لكن الإنسان قد يخيل إليه وهو يقرأ هذه الكتب وما فيها من حديث أن أناتول فرانس جعل الحوار بين الصور الفنية التى يصوغ فيها أفكاره على نحو ما صاغ أفلاطون أفكاره فى جمهوريته ، وعلى النحو الذى لجأ إليه غير قليل من الكتّاب ، لكن هذه الكتب التى وضعها المعجبون بأناتول فرانس تكشف لنا

عن أن الحديث والحوار لم يكن مجرد صورة فنية اختارها الكاتب لباسًا للأفكار التى تمر بخاطره ، وإنما كان الحوار صورة من صور تفكير فرانس ، ومظهرًا من مظاهر الشك (La Scepticisme) الذى كان يدين به ، ويزيدك دلالة على ذلك هذا الوصف الذى وصف به أصحاب فرانس طريقته فى الحديث ونظام تفكيره أثناء الجدل .

فهو لم يكن يعى فكرة ثم يجاهد لتدعيمها بالحجة البالغة والبرهان القاطع وبهذه البلاغة الساحرة التى تبدو فى كتابته ، واللهجة الحادة العنيفة التى يمتاز بها المؤمن بالشىء يريد أن يطبعه فى أذهان سامعيه طبعًا ، بل كان إذا عرض أحد الحضور رأيًا ألقى إلى مؤخرة رأسه بطاقية صغيرة حمراء كان يلبسها داخل بيته ، ثم تناول هذا الرأى بنغمة مطمئنة وبترديد تتخلله جمل كثيرة معترضة : أليس كذلك – ألا ترى ذلك أيضًا يا صاحبى ، ثم ترى كأن رأسه الممتلىء يفيض بما وعته الكتب من أساطير الأقدمين وتاريخهم وحكمتهم ، ومن أفكار المحدثين ومخترعاتهم ومذاهبهم ، وترى هذا الفيض قد واتاه رويدًا رويدًا بكل ما لهذا الرأى ، وما عليه من الحجج والاعتراضات فيستعرضها بصوت أغن لأنفه فيه نصيب ، فإذا كانت الحجج التى تدعم الرأى قد أسرعت إلى نفسه قبل التى تنقضه قصها حديثًا عذبًا سائغًا لا بينات دامغة يريد بها أن يزهق باطلاً أو يحق حقًا ، وهل بين الباطل والحق إلا ما بين الألوان من خلاف تشهده العين حين تتعلق بالتفاصيل ، فإذا تمازجت الألوان كلها سطع منها الأبيض وهاجًا كنور القمر وكضياء الشمس ؟! . ثم يتقدم معترض بحجة تخالف ما قص فرانس ، فإذا بالجانب المخالف من الحجج قد واتى الكاتب الكبير وإذا به يقصه بالنغمة المطمئنة والصوت الأغن الذى قص به الحجج السابقة من قبل .

ولعل هذا العنوان الثانى الذى وضعه سيجور لأحاديثه مع فرانس «هموم الذكاء أو أشجان العلل» أو ما شاء المترجمون أن يضعوا لعبارة (Melancolies de L'intelli-gence) هو خير ما يعبر الإنسان به عن آثار مذهب الشك . وأناتول فرانس قد وصل من مذهب الشك إلى ذروته ، فلا جرم أن أصابه هذا المرض الذى سماه روسو من قبل مرض التفكير ، وإن أصابه على صورة تقتتل عنده فيها الآراء وتتهادم ، ثم يظل فكره مع ذلك وكأنه عدسة المكرسكوب يكبّر منظر هذه المعارك بين الأفكار والآراء ويقصها فى دقة وتفصيل يصعب عليك بعدهما أن ترى لمن تكون الغلبة ، وقد تضطر آخر الأمر

للتسليم بأن غلبة لن تكون ، وبأن الحياة ستظل معتركًا لهذه الأفكار والآراء ، وأن هذا المعترك باهر تبلغ روعته أن تنسيك كل ما سواه فى الحياة ، ولعل ذلك هو السبب فى أن الآخذين بمذهب الشك أقل الناس اندفاعًا فى الحياة العملية وأقلهم حرصًا على الحياة نفسها .

ولحديث أناتول فرانس ميزة يجدها الإنسان بارزة فيما نقله عنه من اتصلوا به أكثر مما يجدها فى كتبه ، تلك أنه لم يكن ينظر للحياة ، وما فى الحياة بغير ذكائه وعقله . فلم يكن للعاطفة ولا للشهوة أثر فيه ، بل كانت العاطفة وكانت الشهوة تخضع لحكم هذا العقل الأبيقورى المترف الذى يغرم بالحياة ويسأم ما فيها ويعافها كلها فى وقت معًا . فأنت قد تجد أثرًا للعاطفة فى بعض كتبه ، كما قد تجد أثرًا للسلائق الجنسية التى تتحكم فى الإنسان تحكمها فى الحيوان . ولقد كان كثيرًا ما يأخذ هذه العواطف والسلائق بالتحليل العقلى ، لكنه كان إذ يلبسها أصحابها وإذ يجريها على ألسنتهم يجردها من التحليل ومن التعقل ، لأن أصحابها خلو منهما ، ولأنهم يخضعون لعواطفهم وسلائقهم خضوعًا طبيعيًا تمتزج فيه اللذة بالألم ، ويتجهان جميعًا إلى ما توجيه فطرة الاحتفاظ بالحياة ، وتخليد النوع وتحسينه . وكان له من الحرية أن يفعل ما يشاء من ذلك أثناء كتابته ، لأنه لم يكن يسلس لنفسه القياد أثناءها ، ولم يكن يلقى بها إلى الطابع على أنها غاية رأيه ، بل كانت تجارب الطبع تمر تحت نظره ست مرات تباعًا يغير فيها ويبدل وينقل عباراتها من أماكنها إلى أماكن أخرى حتى تستقيم وتستوى ، وحتى تكون تفكير أناتول فرانس الناضج وأسلوبه الباهر ببساطته وقوته . فأما إذ يتحدث فقد كان هو وحده الذى يلقى بأفكاره فى غير حاجة إلى أن يضعها على لسان غيره . وإذن فالذهن وحده هو الذى كان يجلى هذه الأفكار ، وذهن فرانس مرن واسع الأفق محيط بكل ما فى العوالم ، لذلك كانت أتفه الأشياء كأعظمها تخضع لبحثه وتحليله بحثًا يجمع بين العمق الذى يقتضيه علم فرانس الجم وبين الإشفاق والسخرية اللذين يقتضيهما ذكاؤه الحاد حدة كانت صاحبة الأثر الأكبر فى شكه ولا أدريته .

وكل ما نقله أصحابه من أحاديثه طلى لذيذ حتى ما كان فيه فى أتفه الشئون ، وهو فى مجموعه وتفصيله يزيدك إيمانًا بشك فرانس ولا أدريته . وأول ما يفجأ الذهن من ذلك اختلاف لون حياته مع ما يزعم أنه يناصره من أفكار وآراء . وقد كان فرانس

اشتراكيًا متطرفًا وكان شيوعيًا يعطف على الدولية الثالثة ، ويتخيل الدولية الرابعة والخامسة وكل الدوليات التى يمكن أن تمر بالخيال ويعطف عليها جميعًا . وما عليك إلا أن تقرأ القسم الثانى من كتابه «على الحجر الأبيض» لتقتنع ببحثه ورأيه عن هذه الدوليات الشيوعية فى شيء من السخرية ، كانت طبيعته تأبى أن تفارقه ، ثم أنه فى زعمه الاعتقاد بالاشتراكية والشيوعية كان لا يأبى أن يذهب إلى مجتمعات العمال خطيبًا ومبشرًا بديانة ماركس ، لكنه مع ذلك لم يكن فى شيء مما كانه جان جاك روسو ولا ليو تلستوى ، فقد نزل هذا الأخير عن أموال للفقراء تحقيقًا لدينه الجديد واحترف صناعة الحذاء ، وإن عكف على الكتابة لتأييد مذهبه أشد التأييد ، وقد حاول روسو الرجعة إلى الحياة الطبيعية على نحو ما صورها فى كتبه ، فأما فرانس فكان يعود من جماعات العمال مزكوم الأنف مغوصًا ممعودًا فيلزم سريره أيامًا ، وهو يلعن فى أطواء نفسه هذا الوسط الذى نزل إليه . ذلك بأنه على الرغم من هذه الأفكار التى أراد أن يزعمها ملاك سعادة الإنسانية كان أرستقراطيًا وكان محبًا أشد الحب للترف ، وكان مقامه فى فلا سعيد ، أو فى البشلرى مقامًا فى قصر أنيق يزينه أبدع الرياش وأفخر الأثاث مما بالغ هو فى اختياره وحسن تذوقه .

روى بول جزل فى كتابه : أن فتاة روسية تدين بمذهب الاشتراكية قصدت يومًا إلى فلا سعيد بباريس تريد أن تقابل نبى الاشتراكية فى فرنسا ، وترجو أن ترى فيه مثالاً من تلستوى الاشتراكى المسيحى ، فإذا بها تجد قبضة الباب قطعة أثرية قيمة نفيسة ، فلما جذبت هذه القطعة ودق الجرس واستؤذن لها وصعدت درج السلم رأت نفسها محاطة من يمينها وشمالها ومن فوقها وأسفل منها ببدائع وتحف منقطعة النظير ، ثم طال بأناتول فرانس انتظارها ، فلما بحثوا عنها ألفوها فرت هاربة من هذا النبى الذى ينادى بالاشتراكية ويؤيدها ، ثم هو يعيش عيش المولين أعداء الاشتراكية ويعيش هذا العيش على صورة لم تألفها لألد أعداء هذا المذهب وأشدهم عليه حربًا .

وذلك ما دعا كثيرين من الكتاب الذين حللوا كتب أناتول فرانس ونفسيته ، ليقولوا إن ذكاءه كان شيئًا ، وأن نفسه كانت شيئًا آخر . وأن هذا الذكاء الهدم المخرب لقواعد الدين وأسس النظام لم يتخط أخيلة الذهن ، بينما ظلت تقاليد فرانس ونفسيته محافظة أشد المحافظة . وبين هذين النقيضين من ذهنه ونفسيته ومن تفكيره وحياته لا ملجأ أحصن من الشك واللاأدرية .

على أن كثيراً من أفكارنا لا تتصل بحياتنا اتصالاً مباشراً ، وكثيراً منها ننظر إليه نظرة لا أثر للذاتية ، وهذا إنما يرجع شك فرانس ولا أدريته فيه إلى جم ذكائه وواسع إطلاعه . وأنت إذ تقرأ كثيراً من أحاديثه التى رواها كاتم سره بويسون ، وإذ تقرأ ما نقله عنه بول جزل تحليلاً لسر النبوغ وتداوله فى الكشف عن هذا السر بين تقدير الموهبة مرة ، والصبر والأناة مرة أخرى . والمفاضلة بينهما مفاضلة تنتهى إلى الشك فى أيهما أبعد أثراً ، لولا ما يضطر إليه فرانس آخر الأمر من تفضيل نوع النبوغ الذى يتصل بنبوغه ، ثم أنت إذ تقرأ أحاديثه فى البشلرى عن الحرب وآرائه فيها ومناصرته كايو وجماعته وطعنه على كلمنسو ، واعتباره إياه بطل الحرب لا بطل الهدنة والسلام ، وإذ تقرأ ما قصته الكاتبة الهنغارية عن جولاته فى روما وفى غيرها من مدن إيطاليا وما كان يفيض به من ملاحظات لكل منظر يراه . أنت إذ تقرأ هذه الأحاديث ونحوها مما يتصل بلون حياة فرانس تراه فيه شاكًا لأنه يتصل أبداً بذكائه ولا يخضع لعاطفته ولا لشهواته فى الحكم فى الأمور بالمقدار الذى ذكر الأقدمون أن الآلهة أنفسهم لم يكونوا يستطيعون التحلل منه .

ثم إن لأحاديثه التى رواها المتصلون به بعد وفاته ميزة على أحاديثه وأفكاره التى وردت فى كتبه . ذلك أنه برغم مقدرته على صياغة أفكاره كلها صياغة دقيقة يستطاع معها أن تساغ جميعًا فى غير عنف ، فما كان منها مقدسًا أو فى حكم المقدس لجأ فى السخر منه إلى الموارية والتلويح ، وإلى النكتة الظريفة مما لا يتحرج له أحد ولو كان أشد إيمانًا بهذه الفكرة ، برغم ذلك كان يخفى فى كتبه من بعض أفكاره ما يحرص عليه ولا يرتاح إلى الشك فيه ، وإن صرح بهذه الأفكار فى أحاديثه لأصحابه ومريديه . من ذلك أنك تراه على كثرة ما تعرض للمسائل الدينية بالنقد الرشيق ، وعلى كثرة ما كتب من الأساطير تفسيراً لأصل المسيحية ، لم يقتحم يومًا تاريخ يسوع وحقيقة وجوده بأكثر من عبارة أوردها فى ختام قصة رواها عن عصر المسيح تناولت رد حاكم كنعان على محدث له يسأله إن كان يعرف شيئًا عن شخص يسوع ؛ قال الحاكم بعد إطالة الاستذكار : يسوع ، كلا لا أذكر شخصاً بهذا الاسم .

مع هذا فقد كان على حسب رواية مارسل ل. جف ينكر وجود المسيح وجوداً تاريخيًا ، ويرى أن الأدلة كلها متوافرة على أنه أسطورة من الأساطير أبدعها خيال

القديس بولص ، وأنه لم يوجد قط ، فلم يولد ولم يصلب ولم يمت ولم يرفع إلى السماء إلا فى خيال بولص ومن تبعه من أصحاب الأناجيل . ويتقدم فرانس لإثبات ذلك بحجج يسردها على أصحابه ولا يورد فى كتبه منها شيئًا .

وكان الحوار الذى رواه ل. جف فى هذه المسألة ظريفًا . فإن فرانس لم يقدم بنفسه الحجج التى يراها كافية لنفي وجود المسيح وجودًا تاريخيًا ، بل استعان بطبيب من أصدقائه ملكته هذه الفكرة ملكًا لا يرضاه مذهب الشك ، لأنه اتصل منه بموضع الإيمان . قال الطبيب :

- إن ما يقطع بعدم وجود المسيح فى التاريخ أن معاصريه اليهود الذين ألفوا فى تاريخ ذلك العصر عشرات الكتب لم يذكر أحد منهم أن شخصًا اسمه يسوع وجد ، ولم يرو أحد منهم شيئًا مما روته الأناجيل من بعد . وهذه الأقاصيص التى تتناول مولده وأصحابه ومعجزاته وصلبه تدل على أنه لم يكن بالرجل النكرة الذى لا يؤبه له ولا يُحسّ بوجوده ، بل إن كثيرًا ممن يكتبون تاريخه يقولون إن حاكم كالديا طارده معتبرًا إياه مهيجًا سياسيًا خطرًا . فمن غير المعقول أن يكون ذلك شأن رجل من الناس ثم لا يكتب عنه معاصروه كلمة ، وإن تناولوا غيره ممن لم يكن له ما عزى له من مقام ومن معجزة بالحديث والجدل ، ومرت عشرات السنين ثم كان بولص فى روما أول من ذكره بعد سبعين سنة مما يقال إنه تاريخ وفاته ، وليس فى إنجيل بولص ما نستطيع أن نسميه تاريخًا للمسيح ، إذ ليس فيه تحديد للون حياته ولا ما كان يصطنع من ألوان العيش . وكل ما قص بولص عن هذا المسيح الذى سماه «أخًا فى الروح» لا يزيد على مبادىء وتعاليم لا تفيد وجودًا تاريخيًا لشخص معيّن وفى سنة ١١٢ ميلادية كتب المؤرخ الرومانى المعروف بلين تاريخه ، فلم يرد فيه عن يسوع إلا أسطر معدودات رغم انتشار مذهبه واعتبار الناس إياه مرسلاً وابنًا لله . أفلا يؤيد ذلك أن هذه الأسطر إنما دست على بلين دسًا ؟! .

وانطلق الطبيب يقص أسانيده هذه وفرانس مكتف بأن يهز رأسه موافقًا ، فلما رد عليه من الحاضرين من عرض حجج رينان وغير رينان من المؤرخين الذين يثبتون وجود المسيح بالأسانيد التاريخية كان رد فرانس : إنك تستطيع أن تجد من هذه الأسانيد ما تشاء كلما أردت أن تدعم واقعة من الوقائع يميل بك هواك إلى دعمها .

مع هذا الذى يكون إيمانًا من فرانس بأن عيسى لم يوجد ترى كتبه خلواً من الإشارة إلى هذه المسألة إشارة صريحة ، ولعله روى ظمأ نفسه فى شأنها بما كتب من تاريخ جان دارك شاكًا فى وجودها ميالاً إلى اعتبارها أسطورة من الأساطير .

ومثل هذا الإحجام من جانب أناتول فرانس عن أن يذكر فى كتبه ما كان يفضى به فى بعض أحاديثه الخاصة حكمه على أئمة الاشتراكية . فكان يرى فى جوريس حين التحدث عنه إلى خاصته ، رجلاً يسحره بيانه أكثر مما يسحره مذهب من المذاهب . وإذ كان قد برع فى البيان بما ألقى من خطب فى الاشتراكية فقد اتخذها له دينًا .

كذلك كان له مثل هذا الرأى فى لينين وتروتسكى وغيرهما من أقطاب الشيوعية . وفيما هو عند بائع كتب كان يتردد عليه فى تور وكان لأناتول فرانس ولع خاص بالتردد على بائع كتب معين كما يتردد بعض الناس هنا على أجزاخانة معينة أو على حلاق معين فيما هو يومًا عند بائع الكتب هذا مر به جماعة من الشبان الشيوعيين يتحدثون إليه عن هؤلاء الأئمة ، فمدحهم وأثنى عليهم أجزل الثناء ، إذ ذاك دهش صديق كان قد سمع حديثه الأول ، وأراد أن يذكره به ، فأدرك فرانس غايته وأشار إليه قائلاً : صه ! فإنما كنت يومئذ أتحدث إلى نفسى .

مثل هذه الأحاديث يجدها الإنسان فيما نقل الرواة عن فرانس ، وإن لم يجدها فى كتبه ، بل إنك لتجد غير الأحاديث روايات عن حياته تفسر منها جوانب أخرى ، فإنك إذ تقرأ كتبه الأربعة عن طفولته وصباه تحسبه رجلاً يعنى بعواطف الأبوة والأمومة ويقدرها ، وإن سخر منها سخره من كل شىء . وتحسب ذلك صحيحًا إذا وقفت عند ما نقله محدثوه من أقواله ، لكن قصة رواها أحدهم تدلك على أنه كان يخضع حتى هذه العواطف الطبيعية لحكم عقله فيقتلها بذلك أو يكاد ، كانت له ابنة قاطعها طويلاً زمن حياتها ، ثم نعيت إليه يومًا فلم يكد يملك نفسه من شدة الهم . وعلى وجهه المتجعد بخطوط السنين انهمرت عبراته ، حتى ليحسب الذين رأوها أن حزنه على هذه الإبنة أبقى فى نفسه أثرًا من حزنه على مدام دكايافيه ، وأنه إذا كان قد وجد فى مدام بولونى عزاء رد إليه نشاطه ومتاعه بالحياة ، فلن يجد فى أحد عن ابنته الوحيدة عزاء . وزاره أصحاب له فى البشلرى بعد عوده من دفن ابنته ومجيئه معه

بحفيده منها ، فألفوه شديد الجزع إلى غير حد . وقد عجبوا لأمره وأشفقوا عليه أينما إشفاق ، ثم عادوه بعد ذلك بأسبوع فألفوه مرحًا كأن لم تمت ابنته ، أو كأن لم تكن له ابنة يومًا من الأيام ، وكأنما هذا الحفيد ربيب يغدق عليه من العطف ما يغدقه المسنون على الأطفال لتشابه ما بينهم فى القرب من غايتى الحياة ، وجلسوا إليه يتحدثون فإذا هو ساحر إياهم ساخر منهم ، وإذا هو أناتول فرانس الذى عرفوه أبدًا مشغوفًا بالحياة ملولاً عنها عائفًا إياها .

* * *

أناتول فرانس إذن محدّث قل نظيره ، ولقد أحسن الذين دونوا ما سمعوا منه غاية الإحسان ، فكتبهم هذه وثائق جديدة تلقى على تاريخ الكاتب العظيم ضياءً جديدًا وتجلو أفكاره وتعينها بما لا يبقى معه موضع ريبة فيما يقصد إليه منها . وتلك غاية ليست بالقليلة بالنسبة لرجل كأناتول فرانس ترك وراءه ميراثًا أدبيًا خالدًا يحتاج العالم فى أجياله المختلفة إلى الوقوف على ما يريده منه ، ليعرف روح عصر فرانس ، وما حدث فيه من تطور سريع لم يؤت لعصر غيره أن يحدث فيه مثله .

رأيى الشخصى فى الأدب الفرنسى للقرن التاسع عشر (*)

إخوانى :

أشكر هذا الجمع الحافل لتفضله بالحضور ، للاستماع إلى حديثى عن الآثار التى تركتها فى نفسى مطالعاتى فى الأدب الفرنسى للقرن التاسع عشر . وأود قبل بدء الحديث أن أقرر لحضراتكم أنى لا أتكلم مؤرخًا للأدب ، وإنما معبرًا عن آثار تركتها فى نفسى مطالعات مضت عليها ثلاثون سنة ، كما أن مشاغل هذا الأسبوع الأخير لم تتح لى فرصة لمراجعة مذكراتى التى كتبتها سنة ١٩١٣ ، لكنى وإن تكلمت الآن عن ذكريات قديمة ، أشعر بأن هذه الآثار لا تزال حية تامة الحياة فى نفسى ، ولا يزال لها أثرها فى توجيه آرائى وأفكارى .

وكلكم تعرفون أن الأدب الفرنسى تطور فى القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر من الكلاسيزم إلى نوع من التفكير الذاتى فى القرن الثامن عشر ، إذ طبعه جان جاك روسو بهذا الطابع الجديد الذى يساير الثورة الفرنسية ، ولما انتقل الأدب إلى القرن التاسع عشر كان متأثرًا بهذه الثورة تمام التأثر . وقد قامت الثورة الفرنسية لإعلان حقوق الفرد ، فكان من آثارها شعور الفرد بوجوده لا فى السياسة وحدها ، بل فى الأدب وفى كل مظاهر الحياة .

بدأ الأدباء فى القرن الثامن عشر ينهضون بحركة (الشخصية) غير متأثرين بنزعات الماضى . وأنت تطالع فكتور هيجو ولامارتين وألفرد دو موسيه ، فتجد هذا الروح

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٤٦١ ، بتاريخ ١٦ مارس ١٩٤٦ ، وهى محاضرة ألقيت فى دار رابطة خريجى جامعات فرنسا .

الذاتي الثائر الذى يجعل شخصية الشاعر كل شيء ، فخواطر الشاعر ومشاعره ، وإحساسه بمناظر الطبيعة واتصاله بالحياة كلها مصورة فى الشعر وفى النثر أصدق تصوير ، وترى فى النظم موسيقى لم تكن مألوفة من قبل . تجد كل هذه المعانى على أتمها عند فكتور هيجور حين يثور للحرية ويحارب الاستعباد ، وعند دو موسيه حين يتأمل فى الحياة ، وعند لامارتين حين يفتن بالطبيعة ، وأنا لا أكتمكم أنى لم أتأثر بالشعر تأثرى بالنقد والقصص ، ويرجع هذا إلى طبعى ، فأنا أكثر ميلاً إلى التحليل والمقدمات تقوم عليها النتائج منى إلى الاندفاعات العاطفية والتأثرات الذاتية ، وكان أكبر من عنيت بأمرهم من أدباء هذا العصر طائفة معينة من النقاد والقصصيين ، أما الفلاسفة فليست الليلة مجال الحديث عنهم . وأول من تأثرت بهم من نقاد هذا القرن هو «تين» ، وكانت نظرياته فى النقد تتفق وما كان يسود ذلك العصر من النظريات الفلسفية والجبرية والتقريرية وغيرهما ، وهو يذهب إلى أن الإنسان خَلْقُ وسطه ، وأنك إذا أردت أن تحكم على أثر أدبى وجب أن تبحث عن صاحبه ، أين نشأ ؟ وما هى وراثته ؟ وكيف تأثر بعصره ؟ . ولذلك يشعر من قرأ كتبه فى النقد والشعر والفلسفة أن كل كاتب وكل شاعر وكل فيلسوف ينهج فى آثاره متأثرًا بالبيئة والجنس والعصر ، وإلى جانب «تين» أرى جول ليمتر وفاجيه وغيرهما ، وإذا كان تين أدنى إلى الفلسفة فهما أدنى إلى الأدب . على أن لتين نفسه من الآثار الأدبية البارع الممتاز . ومنها كتابه عن باريس ، فقد جاء فيه فصل بعنوان «نجوى» لا تزال تشوقنى العودة إليه ومطالعته رغم قراءتى له مرات عديدة . وقد تحدث فيه عن موسيقى بيتهوفن ، وعن صديق له يجيد اللعب على البيانو ، زاره فلعب بعض مقطوعات بيتهوفن ، ثم جلسا يتحدثان عن الموسيقى وأثرها فى النفس . وهنا يصور الموسيقى تصويراً يجعلك تراها أو تلمسها ولا تسمعها فقط ، كأنها بعض المرئيات أو الملموسات كذلك . أما فاجيه وجول ليمتر وغيرهما من نقاد ذلك القرن ، فكانوا أدباء يمتازون بدقة الأسلوب وفيض فيه وسهولة . على أن هؤلاء النقاد جميعًا يظهرون عقليين دائمًا ، يتذوقهم القارىء على مهل وفى أناة وتريث ، ويزن معهم فى دقة كل كاتب ينقدونه وكل قطعة يعرضون لها . أما الأدباء حقًا فهم القصاصون ، والأدب الجدير بهذا الاسم هو الذى يصور الحياة كما تنطبع فى نفس الكاتب أو الشاعر . وهؤلاء القصصيون قد برعوا فى هذا التصوير

للحياة براعة أتمنى لو أتيحت لأدبنا العربى المعاصر ، وإن لم أخف اغتباطى لنهوض هذا الفن فى مصر .

وأشير فى هذا المقام إلى الممارسات التى عرضت على مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، فقد كان فيها ما يبشر بالنهضة المرجوة . ولا أقف طويلاً عند القصص الرومانتيكى فى القرن التاسع عشر المتأثر بروسو ونهجه ، وإن استغرق تقريبًا نصف هذا القرن . ويكفى أن أقول إن هذا القصص الذى يصور نفس أصحابه وتأثرهم بالحياة كان متصلاً بثورة فرنسا ونهضتها أشد اتصال . وأنتم تعلمون أن القرن التاسع عشر فى فرنسا كان قرن ثورات واضطرابات متصلة ، فلم تكد تنتهى من ثورتها الكبرى التى نشبت فى سنة ١٧٨٩ وانتهت مع حرب نابليون حتى قامت ثورة سنة ١٨٤٨ ، ولم تكد تنتهى هذه حتى أتت حرب السبعين . ويكاد الإنسان يعتقد أن الحياة السياسية والاجتماعية لم يكن لهما حظ من الاستقرار فى هذا القرن مطلقًا . وكان الكتّاب والشعراء متأثرين بهذه الأحداث وما يدور حولها ، يحاولون أن يوجهوا الشعب فى أدبهم التوجيه الذى يرونه أدنى إلى إسعادهم مما سبقه ، لكن منهم من كان أقرب إلى تذوق الفن لذاته ، وأبعد عن الاندماج فى محيطه والفناء فى وسطه . ومثل هؤلاء بيير لوتيه وكلود فرير ، والأول أعذب من الثانى ، ولم يكن يعيش فى فرنسا إلا بقدر ما يسمح له سلكه كضابط فى البحرية الفرنسية ، وكان معظم رواياته يأخذ مناظره من الثغور التى يمر بها ، ويصور الحياة فى لون قاتم أدنى إلى دعوة اليأس منها والفزع من مصيرها . وكانت فكرة العدم والفناء الفاغر فمه عند نهاية الحياة تكدر عليه صفو المتاع يستلذه ، ويود أن ينهل منه جهد طاقته ، وهذا شأن الذين يحبون الحياة والمتاع بها فهم أشد الناس فزعًا من الموت وخوفًا من النهاية . ولهذا يتصورون شبح النهاية تصوراً يزعجبهم ويدعوهم إلى ألا يروا فيها مفرحًا ، ثم هم على ذلك ينهلون من ملذاتها أكثر . أما أن بيير لوتيه لم يكن شديد الاتصال بالحياة فى فرنسا ، فيظهر فى أنه لم يتأثر بالتطور الذى اتصل بالأدب لذلك العصر ونقله من الشخصية إلى الواقعية ، فإلى الطبيعية وانتهى به إلى الرمزية .

بدأ الأدباء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ينتقلون بتفكيرهم من مجرد تصوير الحياة فى الحب والبغض واللذة والألم إلى الدخول إلى نوات أنفسهم لإبرازها ،

وليروا ما أمامهم من الواقع فيصوروه كما هو ، ومن غير أن يجدوا فى تصوير القبيح قبحًا أو الجميل ما يزيده جمالاً . ومثلهم فلوبير وقد كان رجلاً مؤمنًا بالفن وبخاصة فن الكاتب فهو يعتقد أن هذه الحياة بمتاعبها لا تساوى شيئًا إلى جانب صفحة يكتبها فنان مجيد . وكان لإعجابه بالفن ممن يقسون على أنفسهم . وإنتم تقرأون فى كثير من البحوث هذا الجهد العنيف الذى كان يكلف نفسه به للبحث عن كلمة تصور فى دقة الشخص أو الحادث أو الإحساس الذى يجول بخاطره ، بل كان يظل فى بعض الأحيان أسبوعًا يبحث عن الكلمة المطلوبة ، وإن روايته الخالدة «مدام بوفارى» التى اعتبرت خير ما كتب فى القرن التاسع عشر لتدل قارئها على مبلغ هذا الجهد ، وعلى مدى اندماج الكاتب فيما يرسمه من صور ، وما يقصه من حياة الأبطال التعساء الذين لا تثير حياتهم حماسة . وبطلة روايته تنتهى إلى تلطيخ اسمها بالعار والانتحار بالزرنيخ . ويقول البعض أنه حين يكتب صفحاته الأخيرة كان يحس بطعم الزرنيخ فى فمه . ولهذا أتى بهذا التصوير البديع فى دنيا الأدب الحزين فى واقع الحياة ، تصوير امرأة شقية تموت بالزرنيخ . ويعتبر من تلاميذه كاتب محبب إلى نفسى ، ذلك هو جى دو موباسان ، وهو رياليست ينزع إلى «الناتيرليسم» وإن لم يبلغ مبلغ اميل زولا . وأعجب ما عند موباسان أسلوبه ، فالقارىء لا يطالع به ألفاظًا ، وإنما يرى صوراً مرسومة تزيدها الألفاظ وضوحًا ، وأعجب من هذا أنه يصف المنظر وكله روعة وجلال فلا تجد كلمة الروعة أو الجلال ، يصف المؤلم بلا انفعال ، يصف امرأة قضت حياتها بائسة خانها زوجها ودفعت بعربة تحمل الزوج والخليلة . فلما مات هذا الزوج الخائن وكان لها ولد منه ترهبت من أجله ، ثم شب الولد فأصبح صورة من أبيه ، قسوة قلب ، وإلقاء بكل معنى للحنان البنوى جانبًا . ثم قاست حتى ماتت . وأنت تقرأ له صوراً بالغة فى تصوير الشهوات مبلغًا يجسّمها أمامك ، لم يبدو عليه تأثر بشىء مما يكتب ، هى الحياة بواقعية تزعج ، ثم لا يبدو الانزعاج عند الكاتب ، لأن العهد قد بعد بينه وبين الرومانسيزم حين كان روسو وشاتوبريان وغيرهما . أما هو فلا يبكى ولا ينزعج ، وإنما يصور فى وضوح تام غير متأثر بفرح أو ترح . وقصصه الطوال بديعة لا ريب ، لكن أبدع ما عنده أقاصيصه القصيرة التى تأخذ بمجامع القلب وتجعل الإنسان يتنقل بينها من قصة إلى أخرى فى غير ملل ولا فتور . على أن موباسان له ناحية أخرى

كان لها أثر قوى فى نفسى ، ولا ريب أن أثرها كان أقوى فى نفوس الفرنسيين . كتب بعد حرب السبعين وعقب هزيمة بلاده ، يصور الألمان تصويراً يكفى لتبين مداه أنه قد منعنى من أن أزور ألمانيا طوال مدة طلبى العلم فى فرنسا . لقد خيل إلى أن هذا الشعب متوحش متكبر ليس فى بنيه جانب من جوانب الرحمة والإنسانية ، فصوروا لأنفسكم ما تركه فى نفوس الفرنسيين ، ثم تصوروا ما يستطيعه كاتب قدير من التأثير بالقلم فى النفوس حتى يجعل أمته تلبس الحداد وتُلبسه تمثال (الإلزاس – لورين) من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٩١٤ .

ولعل من الكتاب الذين أثرو فى نفسى أيضًا بول بورجيه ، وكانت له قصص وروايات كثيرة ، كما كان له اتجاه فى القصص غير اتجاه معاصريه ، فكانوا يضجون من قيود الفكر التى أثقلت بها الكنيسة كاهل فرنسا ، ولهذا يثورون دائمًا عليها ويحاولون تصوير الكنيسة ورجالها أبشع تصوير . أما بول بورجيه ومن قبله شاتوبريان ، فقد رأيا فى هذا الاتجاه مدعاة للتحلل الخلقى ، وخلق جيل إباحى ملحد مما يجر إلى تدهور ليس من مصلحة الأمة فى قليل أو كثير ، ولهذا عمل على مقاومة هذا التيار . وكان شاتوبريان فى (المذكرات) مثال الرومانتيكى المصر لما يجول بخاطره عن المسيحية . وقد نزع بول بورجيه منزع سابقه ، لكنه رأى الحديث عن الدين ورجاله فى تقديس كما يصنع شاتوبريان قليل الأثر فى نفس النشء . كانت وجهته تقرير أن الأمة لا تستطيع العيش إلا إذا ارتبط حاضرها بماضيها واستلهمت فى الحاضر خير الماضى ، فأما إذا تركت تراثها فقد حق عليها البوار والاضمحلال . ويصور قصة شاب خرج من عائلة متدينة ، ثم اشتغل فى مصرف طلبًا للعيش وترك الكنيسة ، فانتهى به الحال إلى الاختلاس والسجن . وأكثر روايات بورجيه تصور المرأة إنسانًا لطيفًا غير متعمق . أما روايته القوية التى تصور تلميذًا فيلسوفًا أخذ عنه تعاليمه (بزيتيفيزم) ، ثم أحب فهرب بحبيبته وشردها ، وكان ذلك نتيجة لهذه التعاليم المفسدة .

واسمحوا لى أن أختم حديثى بأحب كتّاب فرنسا فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى نفسى ، ألا وهو أناتول فرانس ، وكان معتبراً فى عصره كبير كتّاب فرنسا بل العالم ، وحين بلغ الثمانين كرمه العالم كله ، فكان له أثره القوى فى نفسى . قرأت كتبه كلها فى الثانية والعشرين ، ثم عدت لقراءة بعضها بعد سنوات ،

فلما أردت الكتابة فى الأدب الفرنسى من بعد ، كتبت عن أناتول فرانس ، وهو يمتاز بالأسلوب القوى ، كما أنه يجمع بين سنيزم فولتير وسبتيسيزم لا حد له ، ويصور الحياة فى حب شديد مع سخرية من كل ما فيها . ورواياته القوية كثيرة ، وأقواها عندى «تاييس» ثم «الآلهة العطشى» التى كتبه عن الثورة الفرنسية . وقد تعودنا أن نرى أبطال الثورة مثل روبسبير ودانتون وميرابو ، آلهة تهتز لهم القلوب والمشاعر . أما أناتول فرانس فإنه يرسم الثورة الفرنسية بنضالها الدامى ، ووطنيتها الجارفة ، وخطبها الطنانة الرنانة ، ثم يحتفظ بالأساس الإنسانى كما هو ، ويرسم آلهة الثورة أناسى بكل ما فى الإنسان من ضعف وهوى ونفاق ونقائص لعلها هى التى تحبب الحياة إلى الإنسان .

ما هذا التناقض الإنسانى ؟ . إن راهب تاييس الذى عذب نفسه فى سبيل الله تسخر الحياة منه مصورة فى امرأة حتى يرى عدم الوصول إليها كفراً .

ولقد وجدت فى أناتول فرانس حديقة الحرية التى ينشدها التائه فى صحراء الاستعباد ، وهذا ما جعلنى أهيم به حباً .

إخوانى :

أعتذر إليكم عن العجلة فى هذا الحديث ، وأرجو أن أجد منكم من يحدثنا عن الأدب الفرنسى فى القرن العشرين ، ويدلنا على أسباب التحلل فى فرنسا الذى لمسته حين زرتها فى سنة ١٩٣٠ ، والذى انتهى بها إلى نكبتها فى الحرب الأخيرة . إن كتّاب فرنسا وأدباؤها هم أكبر مجد لها ، فهم الذين خلدوا لهذه البلاد الجديرة بالخلود ذكرها ، وأعتقد أنها ستبعث من جديد وتغمر العالم بضيائها وحضارتها .

القسم الثالث

- ٢ -

آراء فى اللغة والأدب

(جريدة الأخبار وأخبار اليوم)

(أحاديث إذاعية)

(١٩٥٤ - ١٩٥٦)

العامية والفصحى فى اللغة العربية (*)

فى النصف الأخير من شهر سبتمبر الماضى عقد أدباء البلاد العربية اجتماعًا فى ضيعة "بيت مرى" من ضياع لبنان الجميلة ، أطلق عليه الداعون إليه اسم "الأسبوع الأول لأدباء العروبة". وفى هذا الاجتماع الذى استغرق تسعة أيام من ١٨ إلى ٢٦ سبتمبر ، تكلم مندوبون عن البلاد العربية المختلفة فى مواضيع شتى تمس اللغة العربية والأدب العربى من حيث قدرتها على التعبير عن حاجات المجتمع العربى فى العصر الحديث ، وعلى التعاون مع آداب اللغات الأخرى فى أرجاء العالم المختلفة تعاونًا يكفل مصلحة العرب ومصلحة الإنسانية جمعاء .

وكان موضوع ازدواجية اللغة بين العامية والفصحى من المواضيع التى أثيرت فى الاجتماع . والواقع أن هذا الموضوع ليس جديداً ، بل لعله قد خفّت حدته اليوم عما كانت عليه منذ أربعين سنة أو نحوها إلى حد كبير . فقد دعا بعض الأجانب وتابعهم بعض العرب إذ ذاك ، إلى اتخاذ اللهجات العامية أساسًا للكتابة والأدب ، بل قام بعضهم بما سماه دراسات فى هذا الموضوع الذى اعتبره يومئذ جوهريًا ، وعلى الرغم من أن هذه الدعوة لم تلق أذنًا صاغية فى الرأى العام العربى ، فقد كان طبيعيًا أن تثمر بعض النتائج فى المحيط المسرحى بصفة خاصة ، ذلك بأن المسرح تصوير الحياة كما هى فى الواقع ، وواقع الحياة أن الناس يتحادثون فيما بينهم بلهجاتهم العامية . مع ذلك بقى المسرح نفسه ميدانًا للغة العربية فى أحسن صور بلاغتها كلما تعلق الموضوع بحادث تاريخى ، والذين استمعوا إلى ما ترجم إلى العربية عن شكسبير

(*) حديث إذاعى ، راديو باريس ، يوم الأحد ١٢ ديسمبر ١٩٥٤

وفيكتور هيجو وأضرابهما من أعلام الأدب العالمي يذكرون جمال الفصحى فى هذه الترجمات التى تولاها خليل مطران وأضرابه من فحول العربية فى الشعر والنثر .

وجمال الفصحى وجلالها يتجليان فيما وضعه شوقى وعزيز أباظة من المسرحيات الشعرية التى صيغت فى قالب بديع يعيد إلى الأذهان شعر المتنبى والبحترى ومن إليهما من فحول الشعراء فى عصور الأدب العربى الزاهرة .

وطبيعى ان تنهزم الدعوة إلى اللهجات العامية أمام اللغة الفصحى . وليس ذلك لأن العربية الفصحى لغة القرآن ، كتاب المسلمين المقدس وكفى ، بل لاعتبارات عملية تحتمها طبيعة الحياة فى عصرنا الحاضر. ومن هذه الاعتبارات ما يصوره حديث جرى بينى وبين المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، إذ كنت أصطاف بلبنان سنة ١٩٢٤ . فى ذلك الحين كانت الدعوة إلى العامية لا تزال ظاهرة النشاط ، وكانت بعض النفوس تهوى إليها . وكان رأينا كلانا يومئذ أن لهذه الدعوة غرضًا سياسيًا يرمى إلى التفريق بين العرب ، وأن كتّاب العربية لا خير لهم فضلاً عن ذلك فى الاستجابة إليها. فسكان العالم العربى ، وكانوا يزيدون يومئذ عن سبعين مليونًا ، يستطيع قراؤهم جميعًا أن يقرأوا العربية الفصحى . فالكاتب بهذه اللغة يستطيع أن يخاطبهم جميعًا بما يكتب . أما الذى يكتب باللهجة العامية المصرية ، فلا يجد قراءً إلا فى مصر، والذى يكتب باللهجة العامية العراقية لا يجد قراءً إلا فى العراق . هذا مع تعدد اللهجات العامية فى القطر الواحد . فالعامية فى شمال مصر غيرها فى جنوبها ، والعامية فى بادية العراق غيرها فى مدنها . فالخير لذلك فى أن تكون بين القراء لغة مشتركة هى العربية الفصحى .

ثمة اعتبار آخر يؤيد هذا الرأى ، وهذا الاعتبار يزداد وضوحًا على الأيام . فقد أدى انتشار الصحافة ، وأدت الإذاعات العربية إلى تقارب اللهجات العامية فيما بينها تقاربًا يحسه كل من زار هذه البلاد فى فترات مختلفة ، ثم أدى إلى تقارب اللهجات مع اللهجة الفصحى إلى حد كبير، فأصبح السواد الأعظم فى البلاد العربية كلها يفهم العربية الفصحى كما تكتبها الصحف ، وكما يكتبها الأدباء اليوم . وسيطّرد هذا التقارب ازديادًا على الأيام فتقرب اللهجات العامية من اللغة الفصحى إلى الحد الذى تقرب به لهجة الحديث من لهجة الكتابة فى أية لغة حية .

وليس هذا التقارب عجيبًا ، بل هو طبيعى تمامًا . فاللغة مظهر من مظاهر حيوية الشعب الذى يتكلمها . والدول العربية تنشط اليوم كلها إلى حياة وحيوية لم يكن لها بمثلها عهد فى أوائل هذا القرن العشرين وفى العصور التى سبقته . ونسبة القارئين والكتّاب فى هذه البلاد فى ازدياد مطرد ، وإقبال الشباب العربى على الدراسات العليا ، وحرصهم على نقل آثار الفكر الإنسانى فى البلاد المختلفة واضح كل الوضوح . ولن يكون لمجهودهم ثمرة إذا لم تسعفهم اللغة المشتركة – أقصد العربية الفصحى – بإبراز هذه الثمرات وإيضاحها ، فإذا بقيت للهجات العامية بعد ذلك سوق ، فلن يكون ذلك إلا على المسرح فى تصويره الحياة الواقعية لسواد الشعب على نحو ما يحدث فى أرقى البلاد أدبًا وحضارةً .

أمَا وهذا التقارب يزداد على الأيام وضوحًا بين اللهجات العربية فى البلاد التى تتكلمها، وبين لغة الكلام ولغة الكتابة ، فلم يبق للحديث فى ازدواجية اللغة محل ، وإذا جاز أن يسأل إنسان عن شىء فى هذا الموضوع ، فإنما يكون بسؤاله – تُرى لو أن الدعوة إلى العامية لقيت نجاحًا وأخذ بها بعض الكتّاب والأدباء أفما كانوا يعضون البنان اليوم ندمًا لأن الزمن قضى على عملهم بالزوال . أمَا ولم يسمع لهذه الدعوة أحد فى غير المسرحيات الشعبية ، فليهنأ الكتّاب والأدباء والشعراء بالاً ، وليطمئنوا إلى أنهم ساروا فى الطريق المستقيم .

قرية ظالمة (*)

هذا عنوان الكتاب الذى أخرجه الدكتور محمد كامل حسين خلال الشهر الماضى ، يتحدث فيه عن بيت المقدس _ أورشليم كما يسميها اليهود - حين قرر الإسرائيليون من أبنائها صلب السيد المسيح ، وإن لم يذكر الدكتور كامل فى كتابه أن المسيح صلب بالفعل مكتفيًا بأن الدنيا أظلمت يوم قرر الحاكم الرومانى تنفيذ قرار بنى إسرائيل بصلبه. أفكان هذا الظلام ظاهرة طبيعية عادية ، أم كان آية لها تفسيرها الروحى ، أم كان شيئًا مخيفًا تضطرب له النفس ، وإن لم تعرف سببه. ذلك ما اختلف فيه حاضرو ذلك اليوم فى قصة "قرية ظالمة" ، وهو ظاهرة طبيعية فى رأى الجنود الرومان وهو آية من عند الله فى رأى المؤمنين بالسيد المسيح، وهو نذير بأخطار تنزعج لها نفوس السذج الذين لا يهديهم الإيمان ، ولا يسعفهم العقل فى تفسير تلك الظاهرة .

أى نوع من الكتب هذا الكتاب ، أهو تاريخ أو قصص أو فلسفة بحتة . هو ليس تاريخًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وإن كان سداه ولحمته ذلك الحادث التاريخى الذى تناوله العشرات من الكتّاب المدققين ، والذى أحدث فى العالم انقلابًا روحيًا خالد الأثر على التاريخ. فقصة السيد المسيح من أروع القصص وأبقاها على الزمان ، وقصة مريم المجدلية وهى الخاطئة التى باعت جسمها فغفر السيد المسيح لها ، ولما رأى فى عيون أتباعه غضبهم للطهر المهان ناداهم: من لم يكن ذا خطيئة فليرمها بحجر . هذه القصة هى الأخرى من روائع ما يقوم عليه الإيمان المسيحى فى المغفرة للخاطئين ومحبتهم . لكن الدكتور كامل حسين لم يتحر فى كتابه أن يكون مؤرخًا ، ولم يقصد

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٥٤

إلى ذلك ، فقد روى قصة المجدلية على نحو لا يثبته التاريخ ، ولكنه رواها على نحو فيه من الروعة ما يسمو على إثبات التاريخ. فالمجدلية فى كتابه فتاة بارعة الجمال من أسرة نبيلة غاية النبل بعث جمالها ونبلها إلى نفسها نوراً جعلها تكفر بالحب ، وتترفع عن أن تزوج من أى شاب من أبناء قريتها ، فكرهها الناس وكرهها أهلها وكرهتها أمها لغرورها وكبريائها ، ففرت من قريتها إلى أورشليم حيث عبث بغرورها شاب قادها إلى بيت الخاطئات ، فبقيت به تسلم جسمها لكل من هفت نفسه إليه مسحوراً بجمالها ، ولكنها لم تسلمه فى استسلام أنثى الحيوان للذكر فلا تشعر لذلك بما يذل كبرياءها أو ينهنه من غرورها ، وإنها لكذلك إذ جاء إلى بيت الخاطئات جندى رومانى كامل الرجولة فأحبته المجدلية ، وتدلهت به وشعرت عند ذلك بذل الحبيب لمن يحب ، وبانهزام كبريائها وغرورها . وفيما هى فى حبها وذلها لهذا الحب سمعت بالسيد المسيح ، وبمعجزاته وبمغفرته للخطايا فذهبت إليه ، وآمنت به ، وغسلت قدميه بدموعها ، وجففتهما بشعرها . وعاد الجندى الرومانى يبحث عنها فى بيت الخطيئة فلم يجدها ، وعثر بها يوماً مع أتباع المسيح فسار معها ، وآمن بإيمانها ، وبتعاليم السيد كلها ، ومن بينها أن يحب الإنسان أعداءه ، وأمر القائد الرومانى جنوده بغزو مدينة حصينة مجاورة لأورشليم مؤمناً بأن انتصاره فى غزوها يمهد له الطريق ، ليصبح بطلاً تؤمن به روما وتضعه على رأس حكامها . وردت حصون المدينة غزاتها فأجمعوا حصارها حتى تستسلم جوعاً . وكان لأسوار المدينة ثغرة يأتيها الطعام منها ، وعرف الجندى الرومانى حبيب المجدلية مكان الثغرة مصادفة وجرت بينه وبين حماتها معركة قتل فيها هؤلاء الحماة إلا واحداً منهم جرح فنقله الجندى الرومانى إلى أهله وعاد ولم يخبر قائده بمكان الثغرة . فلما طال الحصار اضطر القائد الرومانى للتصالح مع تلك المدينة من غير أن ينتصر عليها ، ومن غير أن يتحقق مطمعه فى البطولة وفى حكم روما ، لكن ما صنعه الجندى الرومانى عرف بعد ذلك فحوكم بخيانته وحكم عليه بالصلب وتقرر تنفيذ الحكم يوم تنفيذ الحكم فى السيد المسيح .

كذلك صور الدكتور كامل حسين قصة المجدلية وخطيئتها وحبها وذُلها لهذا الحب ومغفرة المسيح لها وخيانة حبيبها الرومانى إيماناً منه بتعاليم السيد المسيح أن يحب

أعداءه . ولك أن تقول إذن بأن كتاب "قرية ظالمة" قصة دبجها يراع مؤلفها ، وخلع عليها من روعة القصص بأسلوبه الجذل ما شاء له خياله ، لكن القصة ليس فيها من رواية الحوادث إلا ما ذكرت في هذه السطور المعدودة ، أوَيكفي قصص ذلك كل ما فيه ، ليمتد على ما يزيد على مائتين وثلاثين صفحة ؟

والواقع أن ما في الكتاب من قصص لا يزيد على خمسين صفحة أو ما حولها . أما سائره فحوار فلسفي ساق فيه المؤلف نتائج تفكيره الطويل في الحرب والسلم وفي عقلية الجماعة الإنسانية ، وفي سمو الفرد على الجماعة ، كما صور فيه اضطراب الإنسانية بين أحكام العقل المجرد ، والعاطفة الرقيقة ، والإيمان الهادئ وجمع خلاصة ذلك في كلمة واحدة هي كلمة "الضمير" . فالضمير هو الحكم الذي يحول دون تمادي العقل في منطقه ، والعاطفة في ثورتها ، والغريزة في تحكمها ، والإيمان في تعصب المبالغين فيه . الضمير هو الميزان الذي يضع فيه صاحبه أحكام العقل ، ودوافع العاطفة وسلطان الغريزة ، وبواعث الإيمان ، كما يضع الصيدلي في ميزانه مجموعة العقاقير ليؤلف من أقدارها المختلفة الدواء الناتج . لكن سلطان الضمير يختلف بين الناس قوة وضعفًا ولذلك لا تزال الإنسانية ولما تهتدي إلى الميزان الدقيق الذي يقيها الشرور ويجنبها الكوارث .

والحوار الذي يستغرق من هذا الكتاب قرابة مائتي صفحة هو سبيل المؤلف للتدليل على هذه النظرية ، وفي هذا الحوار يتغلب منطق العقل حينًا ودوافع الغريزة حينًا آخر وسلطان العاطفة حينًا ثالثًا ، ثم يسكّن الإيمان من حدة هذه المتناقضات ، ليؤلف الضمير بعد ذلك بينها خير تأليف .

وهذا الحوار بارع في مجموعه كل البراعة ، ومن آيات براعته سلاسة أسلوبه وسلامته من التعقيد رغم دقة منطقه .

هذا هو كتاب "قرية ظالمة" للدكتور كامل حسين ، وهو جدير بأن يقرأه كل من يعنيه التفكير من حيث هو التفكير ، جدير بأن يقرأه الجامعي ، وأن يقرأه رجال هيئة كبار العلماء ، وأن يقرأه المثقفون جميعًا . ولا أشك في أنهم سيجدون في قراءته متاعًا وفائدة يشكرون المؤلف عليهما من أعماق قلوبهم .

العرب بين يومهم وغدهم (*)

كنت أزور دمشق قادماً إليها من حلب سنة ١٩٥٣ ، وأوجبت على نفسي يومئذ أن أزور فارس بك الخورى . فقد قيل لى أنه معتكف فى بيته لمرض عينيه ، وبينى وبين الرجل مودة قديمة ، إذ التقينا بالقاهرة ، ونيويورك ، وباريس ، وقدّرت فضله وعلمه . فلما كنا بداره بظاهر دمشق تناول حديثنا شئوناً شتى من بينها العرب والعروبة . ذلك بأن قوماً كانوا يتحدثون عن فرعونية مصر ، وفينيقية لبنان وهلم جرا . قال فارس بك : إن هذا كله حديث التاريخ ، وهو أشبه بالحديث عن أصل الإنسان والمذاهب المختلفة فيه . لكن النبى العربى عليه السلام له فى هذا الأمر حكم هو الحكمة ، وفصل الخطاب ، ثم إنه أمر فجىء من مكتبته بكتاب لا يحضرنى الساعة اسمه ، وطلب إلى صديقى سامى الكيالى أن يفتح بين صفحاته فصلاً عيّنه له ، فإذا فى هذا الفصل أن سلمان الفارسى اختلف فى عهد الرسول عليه السلام مع جماعة من الصحابة فى أمر فقالوا له : وما أنت وذاك ، إنما أنت فارسى وذلك شأن العرب ، فشكاهم سلمان إلى رسول الله فدعاهم إليه ، وسمع من سلمان وسمع منهم ثم قال : كل من تكلم العربية فهو عربى .

والحق فى هذه العبارة ظاهر . فما بالنا ننسب الشخص إلى قبيلة بذاتها ، أو إلى بلد بذاته ، وإلى أمة بذاتها ، أو إلى جنس بذاته ، ولا ننسبه إلى اللغة التى يتكلمها . واللغة أداة التعارف والتفاهم، بل هى التى تفرق بين الإنسان وغيره من الخلائق . والنسب إلى الجنس أبعد ما تكون عن حقيقة الواقع. فليس بين الناس من يستطيع أن

(*) حديث أذيع من راديو دمشق

يقول إنه فرعونى أو فينيقى مائة فى المائة على تعبير عصرنا الحاضر. فالذين انتقلوا خلال الأجيال من الشام إلى مصر ، أو من بلاد العرب إلى الشام ، أو إلى العراق ، فاختلطوا بأهله وارتبطوا معهم برابطة النسب والمصاهرة لا يُحصر عددهم . أفيكون هؤلاء ويكون نويهم من الفينقيين ، أم من عجم العراق ، أم من أهل مصر . أما الانتساب إلى اللغة فانتساب لأكرم مظهر إنسانى لا يشارك الإنسان فيه سواه .

والانتساب إلى اللغة يكاد يحدد البيئة التى ولد الإنسان ونشأ فيها . فالذى يتكلم الأسبانية قد ولد بأسبانيا أو بإحدى بلاد أمريكا اللاتينية ، والذى يتكلم الإنجليزية قد ولد ونشأ أغلب الأمر فى الجزر البريطانية أو فى الولايات المتحدة وهلم جرا ، والذين يتكلمون العربية ولدوا ونشأوا فى العالم العربى الممتد من شمال أفريقيا متصلاً بآسيا إلى حدود إيران . وهذه الدول المتجاورة التى تتكلم العربية تؤلف العالم العربى وإن اختلفت أصولها الجنسية ومواقعها الجغرافية . فاللغة رابطة أقوى من كل رابطة . والذين يتكلمون لغة واحدة يتحد أغلب الأحيان مصيرهم ، ويشتركون لذلك فى آمالهم وآلامهم ، وينظرون إلى المستقبل نظرة واحدة ، وهم إلى ذلك كله يشعرون برابطة توحد وجهتهم فى الحياة وتجعلهم يتعاونون فى صدق وإخلاص لمقاومة كل خطر يتهددهم ، وتحقيق أهداف تصورها لغتهم بدقة لا يتأتى للغة غيرها أن تحدد هذه الأهداف بمثل هذه الدقة .

والأمثال على تعاون الأمم التى تتكلم لغة واحدة حاضرة أمامنا فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، كما أن ما يرويه التاريخ منها يزيد عباراتها وضوحًا وقوة . لقد اختلفت الولايات المتحدة مع إنجلترا ، وقامت الحرب بين الأمتين حين كانت إنجلترا تحكم الولايات المتحدة ، فلما استقلت هذه وأصبحت الدولة القوية المنيعة الجانب رأيتها تقف مع إنجلترا جنبًا إلى جنب ، وتحرص على أن تنصر إنجلترا فى كل موقف ما استطاعت . والحربان العالميتان اللتان هددتا مصائر العالم فى هذا القرن العشرين خير شاهد على هذا . وقد بقيت الدول العربية تتضامن فيما بينها رغم انتقال عاصمتها فى حقب التاريخ المختلفة من المدينة إلى دمشق ، ومن دمشق إلى بغداد ، ومن بغداد إلى القاهرة ، وهذا التعاون يدل على ما للغة من أثر قوى فى حياة الشعوب ، وعلى أن حيوية اللغة خير شاهد على حيوية الشعوب التى تتكلم بها .

والشعوب العربية كلها الآن تشعر شعوراً قوياً كبيراً بالحاجة لبذل الجهد الصادق ، لتبلغ في مضمار الحضارة ما بلغته سائر الأمم فى الغرب وفى الشرق . واللغة من أقوى الوسائل لدرك هذه الغاية ، والمثل أمامنا حاضر ، فماضى البلاد العربية نفسها يكشف لنا عن السبيل الذى سلكه سلفنا فبلغ به فى عصور ازدهار الحضارة العربية كل ما أراد. لقد أخذ العرب ينقلون إلى لغتهم آثار العقل والعلم عند الشعوب التى كانت آثارها منار الحضارة للعالم قبلهم . نقلوا العلوم اليونانية ، والفلسفة اليونانية ، ونقلوا من كتب الطب والتشريع فى اليونان وروما ما مكنهم من الإضافة إليه ، ورفع منار الحضارة الجديدة فوقه . فإذا نحن أردنا أن نتبوأ المكان الواجب لنا فلنصنع صنيعهم . فلننقل كل آثار الحضارة والعلم التى وجهت الحضارة الإنسانية فى هذه القرون الأخيرة وجهتها التى سيطرت على مصائر العالم اليوم ، ولنبذل الجهد غاية الجهد لنتمثل ما ننقله من ذلك ، ولنضيف إليه من تراثنا القديم ومن جهدنا الجديد . إذا نحن فعلنا فتح ذلك أمامنا للمستقبل الباب الذى نصل منه إلى غاية الطريق .

أنا أقدّر ما فى هذه المهمة من مشقة ، لكن ما لها من جلال الخطر يجعل كل مشقة يسيرة فى سبيل الغاية المرجوة منها . وقد سبق جيلنا والجيل الذى تقدمنا إلى فتح هذا الطريق بمقدار ، لكن ما عالجناه وعالجه آباؤنا من العمل لاستقلال بلادنا العربية كلها قد جعل الجهود التى بذلت فى السبيل الذى أشرت إليه دون ما يحقق الغاية العليا التى نصبو كلنا إليها ، فعلى شباب الجيل الحاضر يقع هذا العبء العظيم . وهم اليوم بفضل ما سلف من جهود آبائهم وأجدادهم أكثر من هؤلاء الآباء والأجداد عدداً ، وأوفر من العلم نصيباً ، وأعظم متاعًا بالحرية الفكرية التى تيسر لهم حمل العبء وأداء المهمة . وهم بعد يعملون فى ذلك لأنفسهم ولأبنائهم من بعدهم كما عمل آباؤهم لأنفسهم ولهم . فإذا وفقهم الله فى نقل آثار العلم والفن العالميين إلى بلادهم ، ثم دفعهم لإضافة جديد على ما ينقلون ، بلغوا بأوطانهم إلى الذروة التى حاولنا وحاول آباؤنا من قبلنا أن نتسلق السفح إليها ، فاستراح ضميرنا إلى أننا عبرنا مقدمات الطريق لأبنائنا ، وإن كان هذا الطريق شاقًا طويلاً .

ويجب أن يذكر الشبان الذين ينهضون بهذا الواجب العظيم ، أن الأمة بحاجة فى تقدمها إلى أن يطّرد رقيها فى حياتها المادية وفى حياتها المعنوية جميعًا ، وأنّا يجب

لذلك أن لا نهمل أى الجانبين فيما نترجم من كتب الأمم الأخرى ، وفيما نقوم به من بحوث نضيف بها إلى ما سبقتنا إليه هذه الأمم . فالرقى المادى ضرورة ملحة لارتقاء مستوى العيش وللذود عن حريتنا واستقلالنا ، والرقى المعنوى ضرورة ملحة كذلك لتسير الأمة فى نظام يجنبها الفوضى وما يترتب عليها من الزلل والفساد .

ولا يجوز أن تثنى مشقة العمل وطول الطريق شبابنا العربى عن النهوض بهذا الواجب المقدس. وعهدى بهم اليوم أنهم لا يترددون دون حمل العبء الذى توجب قوميتهم ويوجب وطنهم عليهم حمله لخيرهم وخير بلادهم ومن فيها جميعًا فى حاضرها وفى مستقبلها . ويزيدهم إقبالاً على هذا الواجب ما يعلمونه من أن أممًا غيرنا استطاعت أن تقطع فى بضع سنين مراحل قطعتها غيرها فى عشرات السنين، بل فى بضع قرون . فليعتمدوا على الله وعلى أنفسهم ، وليجعلوا أداء الواجب إرضاء لضميرهم خير مثوبة عند وطنهم وعند ربهم . وسيشعرون يوم يبلغون من السن ما بلغ آباؤهم بالطمأنينة إلى أنهم أدوا فى حياتهم عملاً نافعًا يذكرهم الوطن وأبناؤه به . والمرء حديث بعده ، فليكونوا الحديث الحسن لمن وعى .

الآداب العالمية وترجمتها (*)

نشرت الصحف أن الحكومة رصدت خمسين ألفًا من الجنيهات لترجمة أمهات الكتب فى الأدب العالمى ، وعهدت إلى الدكتور طه حسين فى الإشراف على هذا العمل . وهذا تصرف جدير بكل ثناء . فالمكتبة العربية بحاجة إلى أن تنقل إليها أمهات الكتب فى الأدب العالمى ، والفلسفة العالمية ، والعلوم والفنون وما إليها . وقد كان هذا المجهود ملقى حتى اليوم على عاتق الأفراد ، وكانت الدولة لا تشترك فيه بأكثر من التشجيع المعنوى ، فكان سيره لذلك بطيئًا غاية البطء ، وكان القارئ العربى مضطراً إلى أن يدرس لغة أجنبية إذا هو أراد أن يطّلع على الحياة الفكرية فى العالم . أما الذين لم يواتهم الحظ بدراسة لغة أجنبية أو أكثر ، فقد كان مجالهم مقصوراً فى حدود الكتب القديمة والمؤلفات العربية الحديثة . والكتب القديمة فيها كثير قيِّم لا ريب ، لكن تقدم العلوم والفنون والآداب فى العصر الحاضر جعل الكتب العربية القديمة أدنى إلى أن تكون وثائق لدراسة تاريخ عصرها منها إلى أن تكون غذاءً فكريًا للعصر الحاضر . أما المؤلفات الحديثة وفيها القيم كذلك فقليلة بالقياس إلى ما ينشر فى أى لغة غير العربية ، وقلّته تجعل مجال المطَّلعِين عليه أضيق من أن يحيط بالحياة الفكرية العالمية الإحاطة الواجبة لمن يعيش فى عصرنا ، والتى تقتضى صاحبها سياحة فى الأفق تتناول الماضى والحاضر ، وتتناول أقطار الأرض جميعاً .

ولسنا بذلك نغمط حق الأفراد الذين توفروا على ترجمة الكتب الأجنبية إلى لغتنا العربية أو ننكر فضله ، بل الأمر على العكس ، ولن يستطيع أحد أن ينكر

(*) جريدة أخبار اليوم ، بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٥٥

فضل السابقين من هؤلاء أمثال فتحى زغلول وخليل مطران ومحمد السباعى وعبد العزيز محمد وغيرهم وغيرهم ممن ترجموا الكتب الأجنبية فى الجيل الماضى ، ولا ينكر أحد كذلك فضل المعاصرين الذين ينقلون الكتب القيمة إلى لغتنا . وأمامى الآن كتاب (المصرى - دنيا سنوحى) الذى نقله الأستاذ حامد القصبى إلى العربية وقدم له الدكتور طه حسين، وهو يشهد بالجهد الصالح الذى بذل فى ترجمة هذه القصة الجليلة . وأمامى كذلك طائفة من الكتب التى ترجمت بعناية مؤسسة فرانكلين الأمريكية والتى تقصد إلى التقريب بيننا وبين العالم الجديد. وهذا كله وما إليه من مثله حسن وجدير بكل حمد وثناء ، لكنه مع ذلك لا يبلغ بنا إلى الغاية المرجوة ، ولا يتيح لقراء العربية الاتصال الكامل بالتفكير الإنسانى فى مختلف صوره الفنية ، والعلمية ، والأدبية فى مختلف العصور وفى مختلف الأمم .

ونحن حين نتكلم عن المكتبة العربية لا نقف من أمرها فى حدود مصر ، بل نتخطى هذه الحدود إلى العالم العربى كله ، وإلى كل مكان يوجد فيه من يقرأون العربية . والعالم العربى المترامى الأطراف من المحيط الأطلسى إلى حدود إيران يشعر كله بالحاجة إلى تنوق الآثار الفكرية الرفيعة من أرجاء العالم كله ، ويشعر بافتقاره إلى العلم بما تنطوى عليه تلك الآثار ، وشعوره بهذا قوى غاية القوة ، ويزيده قوة أن القرون الأخيرة التى مرت بالعالم العربى ، والتى خضع أثناءها لحكم الأجانب عنه أو لحكم أبنائه الجامدين المتعصبين ، قد ضربت حوله نطاقًا من الجمود ، ولا أبالغ إذا قلت من الجهل ، جعله فى عزلة عن حياة العالم العقلية إلى مدى بعيد . وهذا العالم العربى قد نفض عنه غبار ذلك الجمود ، وقد فتح عينيه واسعتين يريد أن يلتهم بعقله وقلبه كل ما أثمرته هذه الحياة العقلية العالمية ، لتتاح له الفرصة كاملة كى يعيش مع غيره من دول العالم وشعوبه عيشًا كريمًا ، يبادله علمًا بعلم وفنًا بفن وأدبًا بأدب ، ولا يكون عالة على غيره متخلفًا وراءه مكتفيًا من الحياة بما يقيم الأود المادى ، ثم يذر الروح الإنسانية فى غفوتها وغفلتها عاجزة عن إدراك المعانى السامية إدراكًا هو وحده الذى يجعلها جديرة بأن تستمتع بالحياة استمتاعًا إنسانيًا صحيحًا .

ولا أحسب أحدًا يذهب اليوم مذهب الجامدين من أبناء الجيل الماضى ممن كانوا يظنون أننا فى غنى بما عندنا عما عند غيرنا ، وأن ما خلّفه سلفنا يكفينا أبد الدهر .

فذلك رأى لا يقول به من يدرك أن العالم يتطور ويتغير ، وأنّا فى حاجة إلى تبادل ثمرات العقول مع غيرنا كحاجتنا إلى السلع والمنافع المادية مع هذا الغير . ولنا فى سلفنا نفسه أسوة حسنة ، ففى العصور الإسلامية الأولى نقل العرب والمسلمون إلى اللغة الفصحى فلسفة اليونان وفقه الرومان ، ونقل الذين أسلموا من أبناء فارس صوراً من فنونهم وآدابهم ومظاهر تفكيرهم ، فكان لما فعل هؤلاء وأولئك أثره فى النهضة الإسلامية الأولى ، إذ أقامت هذه النهضة بناء الحضارة العالمية فى عصرها وفى العصور التى تلته .

ولا نظن أحداً يذهب إلى أن السلف الذين نقلوا إلى اللغة العربية ما نقلوا من الآداب والعلوم والفنون لم يكونوا يعلمون بما خصهم الله به من فضله ، بل هم كانوا يؤمنون بأن هذا الفضل يقتضيهم مضاعفة الجهد ، للإحاطة بحياة الإنسانية العقلية والروحية إحاطة تجعلهم قادرين على توجيه هذه الحياة الوجهة الصحيحة الجديرة بالإنسانية فى عصرها .

ولم يكن العرب والمسلمون وحدهم هم الذين أفادوا من نقل ما خلف غيرهم من الآثار إلى لغتهم ، ليزدادوا بذلك فضلاً وقوة ، وليساهموا فى بناء الحضارة مساهمة تكفل لهم الكرامة والعزة بين الأمم ، بل إن الأمم التى بلغت من الرقى أكرم مكان هى التى حرصت على نقل التراث العالمى إلى لغتها ، فليس بين كتب الأدب العالمى الرفيع فى مختلف العصور ما لم ينقل إلى الفرنسية ، وإلى الإنجليزية ، وإلى الألمانية ، وإلى كل لغة حية ، ولا يقتصر النقل على آثار الجيل الذى تعيش الأمة فيه ، بل يتناول آثار الأجيال كلها . فكتب أرسطو وأفلاطون ، وكتب العصور الوسطى فى أوربا ، وآداب الأمم المختلفة ذات القيمة ، هذه كلها ترجمت إلى اللغات المختلفة غير مرة . تُرجم شكسبير وملتون وكبار الشعراء الإنجليز والكتّاب والفلاسفة إلى اللغات كلها . وحدث ذلك فى شأن الكتّاب الفرنسيين ، والإيطاليين ، والألمان ، والروس وغيرهم . ولغتنا العربية مع الشيء الكثير من الأسف ، هى التى بقيت متخلفة فى نقل الآثار العالمية الرفيعة للاعتبارات التى أسلفنا ، والتى لم يبق لها فى حياة هذه الأمم العربية اليوم موضع. أمّا وقد نهضت العربية فإنّا لنطمع فى ان تنقل إليها خير الآثار الإنسانية لنساير غيرنا من الشعوب فى سعيها الحثيث نحو حضارة أرقى وعالم أفضل .

ونقل أمهات الأدب العالمى إلى لغة ما ليس لونًا من الترف ولا فرضًا من فروض الكفاية ، بل هو ضرورة لا غنى عنها تزيد الحياة القومية تمكينًا ، وتسمو بالمجتمع إلى المكانة الواجبة لكل شعب يحترم نفسه . فكلنا نعلم أن الغذاء العقلى والغذاء الروحى من ضرورات الحياة القومية كالغذاء المادى سواء ، وما يتغذى به العقل والروح فى شعب من الشعوب هو المقياس لدرجة الرقى التى بلغها هذا الشعب ، فإذا كان هذا الغذاء فجًا رخيصًا فكان الشعر الذى يتغنى به الشعب والقصص الذى يصور للشعب ألوان الحياة من النوع الرخيص لم يكن ذلك دليلاً على انحطاط الشعب وكفى ، بل كذلك دليلاً على تحلل روابطه وتفكك أوصاله . أما إذا كان الغذاء العقلى والروحى الذى يقدم للشعب دسمًا ، وكان الشعب قادرًا على استساغته وهضمه فذلك شاهد على قوة ما بين عناصر هذا الشعب من روابط ، وعلى أن أبناءه حين يتحدثون فيما بينهم يصورون رغائبهم وآمالهم يرتفعون بتفكيرهم إلى المستوى الذى تحتوى عليه الآداب التى يقرأونها ، ويستطيعون بهذا السمو الفكرى أن يكونوا قوة توجه حياة العالم فى أكرم الميادين وأسماها .

أمَا ولنقل الآداب العالمية هذا الأثر ، فإنّا نرجو الدكتور طه حسين ونرجو من يعنيهم الأمر أن يضيفوا إلى النقل وضع تراجم وافية لمن ينقلون آثارهم من كبار الشعراء والكتّاب . فتفكير الكاتب وأسلوبه وطريقة تصويره للحياة تتأثر إلى حد كبير بحياته هو وبوراثته وتربيته الأولى ، وبالبيئة التى نشأ فيها ، وبحياة قومه فى نواحيها السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والفكرية . هو فى الواقع ثمرة لهذا كله ، فالترجمة له ترجمة وافية تعاون على فهم آثاره فهمًا صحيحًا . وما من كاتب أو شاعر ، أو مفكر إلا ترجم له فى اللغات المختلفة ترجمة وافية . إن هذه الترجمة تقتضى جهدًا لا يقل عن الجهد الذى يحتاج إليه النقل من لغة إلى لغة إن لم يزد عليه ، لكن الترجمة للعظماء تكمل آثارهم وتبرز لقرائها أسرار تفكيرهم ودوافع هذا التفكير ، ومعرفة هذه الآثار فى حسن تصور ما خلّفه العظيم من أثر .

ورجاء آخر أوجهه لمن أنعم الله عليهم بالسعة فى الرزق . إن ما رصدته الحكومة لهذا العمل الجليل رمز صالح ، ولكنه لا يكفى للنهوض بهذا العمل ، فهل لهؤلاء الأغنياء أن يساهموا فى هذا العمل العظيم. نرجو أن تقدّر المؤسسات وكبار الأغنياء أنهم حين يقومون بهذه المعاونة ، إنما يؤدون واجبًا عليهم لوطنهم وللعربية كلها ، وخير الناس من أدى واجبه فى الحياة ، والله يجزى من أحسن عملاً .

القديم والحديث ، القدامى والمحدثون (*)

كان من عادة العرب الأقدمين أن يقفوا بالأطلال يذكرون عندها مغانى حبهم . وكان مطلع قصيدة امرئ القيس (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) مضرب المثل فى البلاغة وحسن التصوير . وقد انتقلت هذه العادة إلى العهد الإسلامى فاستمر الشعراء يذكرون الأطلال والوقوف بها وذكر الحبيب عندها . وجاء أبو نواس فى عهد العباسيين فرأى هذا التصوير غير متفق مع ما تطور إليه العصر وآلت إليه الحضارة . فإذا كان الوقوف بالأطلال سائغًا فى البادية حين كان الشاعر يجوب البيد ممتطيًا ناقته ، فإذا مر بمضارب حبيبته بعد انتقالها إلى مكان آخر وقف يهتف بها ، فلم يبق ذلك مقبولاً فى عهد استقر الناس فيه فى المدن التى ازدهرت بعمرانها . لذلك قال بيته المشهور يتهكم فيه بالوقوف بالأطلال وذكر الحبيب عندها :

قل لمن يبكى على رسم درس . . . واقفا ما ضرّ لو كان جلس

وهذا تعبير فيه من السخرية بالشعراء الذين أقاموا فى المدن وظلوا مع ذلك يقلدون أهل البادية ، ويتحدثون بأسلوبهم ، مما كان له أكبر الأثر فى تطور الشعر العربى لذلك العهد . والواقع أن هذا البيت من الشعر يصور ثورة الحديث بالقديم تصويرًا بارعًا ، إذ يدعو الناس للعيش فى البيئة المحيطة بهم لا فى خرائب الماضى وأطلاله ، وإنما بقى هذا البيت وخلد على الزمان لأنه يعبر عن هذه الثورة ، ولأنه يدعو الناس للتعبير عن إحساسهم وأخيلتهم بما تنطق به حياتهم .

(*) جريدة الأخبار بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٥٥

ومعركة القديم والحديث في اللغة والأدب متجددة دائمًا على النحو الذى اختاره أبو نواس أو على نحو غيره . وقد كانت هذه العركة وارية الضرام فى مصر من ثلاثين سنة أو نحوها ، ثم هدأت حتى تستجم لتعود إلى الظهور من جديد ، بل إن لها اليوم لظاهر لا تفتأ تتبدى فى غير عنف ، ومن هذه المظاهر ما يحدث فى مجمع اللغة العربية حول المصطلحات العلمية والفنية وحول ألفاظ الحضارة وتعريبها . فهناك تياران يتداولان النصر والهزيمة ، يذهب أحدهما إلى أنّا يجب أن نلتمس فى ألفاظ اللغة العربية لعهودها الأولى ما يعبر عن هذه المصطلحات الحديثة ، ويذهب الآخر إلى أنّا إن استطعنا تعريب المصطلحات الأجنبية نفسها كان ذلك أدنى إلى التقريب بين لغتنا واللغات الحية فى العالم . وكثيراً ما يقع الصلح بين هذين التيارين ، فإذا وُجد لفظ عربى قديم سائر الدلالة على معنى المصطلح الحديث قَبِلَه أنصار الجديد صلحًا ، وإذا أمكن تعريب اللفظ الأجنبى فى صياغته واشتقاقه قبله أنصار القديم صلحًا كذلك . ولست أدرى أيقدّر لهذا الصلح المجمعى الاستقرار والثبات عند العلماء والكتّاب والمعنيين بهذه المصطلحات، أم تظل المعركة مؤذنةً بأن تثور على هذه الألفاظ نفسها بين حين وحين .

وكما قام النضال على الألفاظ قام نضال على الأساليب . كان السجع فى النثر بعض ما عُنى به كتّاب الجيل الماضى ، وما جعلهم أشد عناية باللفظ منهم بالمعنى ، ثم قامت بينهم وبين المجددين فى الأساليب معركة جعلت الناثرين اليوم يرون هذا اللون من الكتابة غير سائغ ، ويعنون بالمعنى ويجعلون اللفظ لباسه ، ويعتبرون البلاغة كل البلاغة فى دقة تصوير اللفظ لما يراد التعبير عنه من المعانى دقة تنجى هذا التعبير من كل قصور أو تقصير .

وهذه المعارك جليلة الخطر لا ريب . فهى مظهر حيوية اللغة ، بل هى مادة حياتها . فاللغة أداة التعبير عن الحياة وصورها ومعانيها ، وما دامت هذه الصور والمعانى تتجدد وتتطور فيجب أن تجاريها اللغة فى تجددها وتطورها ، فإن لم تفعل كان تخلفها وجمودها دليلاً على تخلف الناطقين بها وجمودهم .

لكن ثمة معركة يسمونها معركة القديم والحديث لا تتصل بالمعنى الذى قدمت فى شىء ، هى معركة بين كتّاب هذا الجيل والجيل الذى سبقه من آبائهم ممن لا تزال أقلامهم تجرى فى الصحف وفى المؤلفات . وأعترف بأننى لم أفهم هذه المعركة ولم أجد لها مسوغًا . فالقدامى اليوم كانوا محدثين بالأمس ، ولم يفكر أحد منهم يومئذ فى إثارة معركة مع من هم أسن منهم كالمعركة التى يتحدثون اليوم عنها . فتعاقب الأجيال أمر طبيعى ، وتضامنها أمر طبيعى كذلك. ونظرية بقاء الأصلح تسيطر على الكتابة والكتّاب وعلى الأدب والأدباء ، كما تسيطر على كل ما فى الوجود . ومن الشبان فى هذا الجيل وفى الأجيال التى سبقته من تقدموا الصفوف وبرزوا على سابقيهم فى ميادين الكتابة المختلفة فى الصحافة وفى الأدب وفى الفلسفة وفى سائر ألوان الكتابة. والكتّاب الناشئون فى أى من هذه الميادين يشقون طريقهم ثم لا يكاد أحدهم يبلغ الثلاثين أو يدنو منها حتى يكون قد تبوأ المكان الواجب له بين الكتاب قدامى ومحدثين ، بل إن من هؤلاء الشبان لمن يغبطه آباؤه ويشيدون بذكره ، أيا كان الميدان الذى برز فيه . فكيف والأمر كذلك تقوم معركة بين الأحياء من القدامى والمحدثين من الكتّاب وبخاصة فى هذا الزمن الذى نعيش فيه ، والذى انفسحت فيه ميادين الكتابة إلى حيث تسع كل من يريد أن يعالج أى لون من ألوانها .

عرفت أباً كان يحفز ابنه الذى بلغ العشرين ليخوض ميادين الحياة بعزم وإقدام وكان يذكره ببيت ينشده :

إذا بلغ الفتى عشرين عاما . . . ولم يفخر فليس له فخار

يحاول إقناعه بأن مواهب الإنسان تظهر فى هذه السن ، فإذا لم يقدّرها الناس حق قدرها أول ظهورها فرضت نفسها عليهم بعد قليل ودفعتهم راضين أو كارهين للاعتراف بها . ولهذا برز شبان من الكتّاب فى المقدمة فى كل العصور وفى كل الأمم ، واعترف لهم الناس بالسبق وآمنوا بمواهبهم وبمقدرتهم .

ولا يضير الإنسان ألا تظهر مواهبه فى سن مبكرة ، فإن كثيرين من أولى المواهب من حالت ظروف الحياة دون بروزهم إلى المقام الواجب لهم قبل تقدمهم فى

السن . أذكر من هؤلاء بين الكتّاب الفرنسيين جان جاك روسو ، هذا الأديب الفيلسوف الذى اعترف أصدقاؤه وخصومه بمواهبه وامتيازه ، فقد بقى إلى الأربعين من سنه يعانى تحت ضغط الحاجة إلى العيش ما حال بينه وبين الكتابة ، فلما واتته الصدفة وبدأ يكتب إذا مواهبه تظهر فجأة ، وإذا هو فى أعوام معدودة يصبح بين كتّاب فرنسا العظماء فى عصره ، وإذا اسمه يخلد بعد ذلك على الزمان ولا يجنى عليه النسيان .

فلا ييتئس كاتب شاب لأن مواهبه لم تُقدَّر إذا كان لها بالفعل قدر ومكانة . وليذكر الشبان جميعًا أن الطريق لا يزال طويلاً بيننا وبين الغاية التى يجب أن نبلغها فى ميادين الكتابة المختلفة ، لنجارى الأدب العالمى الكبير ، والكتابة الرفيعة فى السياسة أو الفلسفة أو ما إليهما من ميادين الكتابة المختلفة . وشبان اليوم هم المطالبون بأن يسلكوا هذا الطريق حتى يبلغوا غايته. وهذا مجهود ضخم عرفه آباؤهم فيما قطعوا من هذا الطريق إلى اليوم ، وهم يرجون لأبناء هذا الجيل توفيقًا يدنيهم من الغاية ، ليرتفعوا ببلادهم إلى المكان الواجب لها بين آداب العالم وثقافاته ، فتكون عنوانًا مشرقًا لهم ولهذا الوطن العزيز علينا جميعًا .

وأغلب الظن أن يواجه المحدثون فى مستقبلهم معارك كالتى واجهها القدامى فيما مضى. فالكتابة تتطور اليوم فى بلاد العالم كله تطوراً سريعًا يحسه الذين عاشوا فى أوائل هذا القرن ثم امتد بهم العمر إلى وقتنا الحاضر . ولا أريد بهذا التطور ما هو حادث فى أساليب التحرير وكفى ، بل إنه ليتناول ما هو أعمق من الأساليب وأعمق فى الحياة أثراً . يتناول النظريات والمبادئ لأن فلسفة الحياة تتطور مبادؤها ونظرياتها تطوراً كبيراً متأثراً بالحياة الاقتصادية وبالنظم السياسية والاجتماعية . وبلادنا وبلاد الشرق كله تحاول أن تندمج فى هذا التطور من غير أن تتنكر لماضيها أو تنكره ، وإن لم تفكر فى المستحيل من العود إلى هذا الماضى ، أو بعثه بالصورة التى كان بها .

وهذا الجهد الذى ينتظر المحدثين من كتّابنا جدير بتفكيرهم الطويل فيه واستعدادهم له ، وهذا التفكير وهذا الاستعداد يشغلان القدامى كما يشغلان المحدثين ، لكن القدامى يدركون أن ما بقى لهم من جهد فى الحياة محدود لا يكفيهم ، ليبلغوا من

اقتحام المستقبل قدر ما بلغوا إلى اليوم ، وإن استطاعوا مع ذلك أن يعاونوا فى الجهد الواجب بذله وأن يتضامنوا فيه . أما الشبان من المحدثين فهم الذين تلقى عليهم الأقدار معاناة هذا الجهد والعمل لنجاحه .

وإنى لأدعو الله أن يوفق المصطفيْن من شبابنا للنجاح فى جهدهم ، وليضعوا كتبًا تُخلّد على الزمان ، كما خُلّدت كتب أفلاطون ودانتى والمعرى وشكسبير وأضرابهم من الأفذاذ الذين وهبهم الله من فضله ، فخلّفوا للعالم تراثًا خالداً يستمتع حتى اليوم به ويتخذ كل كتاب من هذه الكتب الخالدة علَماً فى تاريخ الفكر الإنسانى ومناراً تهتدى به الإنسانية جيلاً بعد جيل فى تقدمها إلى الكمال .

هكذا خُلقت (*)

جاء في القصة التي نشرتها أخيراً ، قصة "هكذا خلقت" أن بطلتها أرادت بعد طلاقها من زوجها الأول أن تحسم كل صلة بينها وبينه ، ومن ذلك أن يتبنى ولديها من يتزوجها بعده حتى لا يقرع سمعها اسم هذا الزوج الأول طيلة حياتها ، وأنها فعلت ذلك بعد أن مات زوجها الأول فاتخذت الإجراءات التي نسبت بها ولديها إلى زوجها الثاني .

وقد اعترض صديقي الأستاذ زكي عبد القادر ، ثم اعترض صديقي الدكتور طه حسين على ما أثبتته القصة في هذا الموضوع ، لأن القانون المصري يجري على حكم الشريعة الإسلامية في أمر التبني وفي سائر الشئون المتعلقة بالأحوال الشخصية ، ولذلك لا يجيز القانون التبني ، ولا يرتب عليه في أمر الميراث أو في غيره من الأمور ما ترتبه قوانين بعض الدول التي تجعل للمتبنى ما للابن من الحقوق كلها أو بعضها .

وهذا الاعتراض صحيح في ظاهره . ولو أن بطلة "هكذا خلقت" فكرت في أن ترتب على تبديل اسم ابنها وابنتها نتائج قانونية أو شرعية لكان صحيحاً في جوهره كذلك . أمّا ولم يتجه تفكير البطلة إلى شيء من هذا فقد كان الحديث في القصة عن التبني تجاوزاً في اللفظ لا يتفق عند تحري الدقة القانونية مع أحكام القانون والشرع . لكن البطلة لم يتجه تفكيرها حين تحدثت عن التبني إلى أن ترتب لولديها عند زوجها الثاني أي حق من الحقوق ، وإنما كان كل اتجاهها إلى تبديل اسميهما تبديلاً يعفيها من سماع اسم زوجها الأول .

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ٦ يونيه ١٩٥٥

وذلك ما قدّره زوجها الثانى منذ اللحظة الأولى ، لهذا ذكر أنه يريد أن يوصى بثلث ماله لولدى زوجته . ولو أنه فكر فى أن تبديل اسميهما يجعل لهما أى حق فى ميراثه لما دار التفكير فى الوصية بخاطره ، لأن الوصية لوارث لا تنفذ إلا إذا أجازها بقية الورثة .

لا شبهة فى أن تفكير البطلة فى تبديل اسمى ولديها شذوذ دفعها إليه غرورها ودفعتها إليها غيرتها . وكم لهذه البطلة من شذوذ ، وشذوذها أكثر وضوحاً لمن فاته ما ورد فى القرآن الكريم من قوله تعالى : « وما جعل أدعيائكم أبناءكم . ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » . لكن للبطلة من العذر عن شذوذها فى تبديل اسمى ولديها . أن نسبة الأبناء لغير آبائهم سائغة فى مصر. ولعل صديقى طه ، وصديقى زكى عبد القادر يعرفان ، كما أعرف أفراداً ينسبون إلى أخوالهم أو إلى بعض أقاربهم ولا ينسبون إلى آبائهم . وتبديل الاسم بحكم قضائى إجراء إدارى أعلم أنه كان متبعاً فى العهد الذى تتحدث البطلة عنه ، ولمن يبلغنى أن قانوناً صدر بتحريمه .

أما والأمر لم يتعد تفكير البطلة ، وتنفيذ هذا التفكير بتبديل اسمى ولديها من غير أن تكون لذلك نتائج قانونية فإن شذوذ البطلة ، وأكرر أنه شذوذ ، إنما هو تجاوز فى اللفظ لما توجبه الدقة القانونية وليست فيه أى زيادة على ذلك .

وأنا إلى هذا شاكر للصديقين الكريمين ، ولكل الذين تكرموا بالكتابة عن قصة هذه البطلة أو الحديث عنها مقدّرا لهم كرمهم وفضلهم .

الاتجاه فى الأدب العربى الحديث (*)

إلى أين يتجه أدبنا الحديث فى مصر وغير مصر من البلاد العربية ؟ . هذا سؤال يوجه منذ أوائل هذا القرن العشرين ، ولعله كان يوجه كذلك فى العشرات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وهو يوجه تحت عناوين مختلفة . فالقديم والحديث فى اللغة والأدب ، والتقليد والتجديد ، وما إلى ذلك من عناوين استنفذت من الكتّاب جهداً كبيراً، ولا تزال إلى وقتنا الحاضر تستنفذ منهم مثل هذا الجهد . ولهم فى ذلك كل العذر. فهذا الأدب كان قد اندثر أو كاد إلى بداية النصف الأخير من القرن التاسع عشر، ثم بدأت نهضته فى مصر وفى لبنان ، ثم اطردت هذه النهضة فى الشعر والنثر. وهى لا تزال مطردة إلى وقتنا الحاضر فى تطور قوى سريع. لذلك كان طبيعياً كلما انتهى عقد من السنين أن يتساءل المتسائلون إلى أين يتجه هذا الأدب ؟ ، وهل آن لتطوره أن يستقر ؟ ، وهذا التساؤل طبيعى ، فقد تغير اتجاه التطور خلال نصف القرن الأخير غير مرة ، وقد ظهرت فى أجواء الأدب نزعات مختلفة لعل أيسرها ما إذا كانت اللهجات العامية تصلح لغة للأدب . ومع أن التطور دل على أن هذه اللهجات المتباينة فى البلاد العربية المختلفة لا تصلح لغة للأدب العربى ، فقد تناول المؤتمر الأدبى الذى عقد بلبنان فى أواخر الصيف الماضى هذا الموضوع ، مما دل على أنه لا زال يتردد فى بعض الأذهان وإن على استحياء ، وإن كان تردده ضعيفاً لا يكاد يظهر حتى يختفى متحفزاً لعودة جديدة فيها استحياء كذلك أو لغير عودة .

وقد بدأ هذا التطور ببعث الأدب العربى القديم شعراً ونثراً والدعوة إلى احتذاء مثاله. وأنت حين ترجع إلى ما كتبه إبراهيم المويلحى ومصطفى صادق الرافعى

(*) حديث من إذاعة صوت أمريكا ، يونيه ١٩٥٥

وأضرابهما ، وحين تذكر معظم الشعراء ، ترى محاولة هذا التقليد واضحة ، لكن التطور اتجه كذلك إلى ناحية أخرى متأثرة بالأدب الغربى أشد التأثر ، ولعل اللبنانيين الذين ذهبوا إلى المهجر فى أمريكا وعلى رأسهم جبران خليل جبران ، قد كانوا طلائع هذا التأثر بالغرب تأثرًا واضحًا لا يكاد فقه اللغة العربية يسيغه ، رغم ما انطوت عليه آثار هؤلاء المجددين من صور الجمال التى تأخذ بالألباب .

وقد كان تقليد القدماء أوضح أثرًا فى الشعر منه فى النثر ، لأن الشعر مرتبط بقوالب الأوزان والتفاعيل التى لا يرتبط النثر بشىء منها ، ولأن عاملاً جديدًا هو الصحافة أكره النثر على أن يستجيب لحاجات الحياة ، على حين لم تُكره هذه الحاجات الشعر على مسايرته . فالشاعر أديب ولا يمكن أن يكون صحفيًا بالمعنى الفنى لهذه الكلمة ، ولدى الشاعر دائمًا فسحة من الوقت لينمق قصيدة ما شاء له التنميق . أما الصحفى الذى يكتب نثرًا فمضطر بحكم مهنته إلى تناول الموضوعات التى تطرأ كل يوم بل كل ساعة ، وإلى الكتابة فيه لوقته من غير انتظار لتنميق أو تزويق ، لهذا لم يكن للنثر بد من أن يسرع تطوره ، بينما سار الشعر ولا يزال يسير على مهل ، مترسمًا طرق القدماء فى أوزانه وقوافيه ، وإن استطاع أن يجدد فى المعانى بمقدار ما للشاعر من ثقافة وسعة اطلاع .

وعلى الرغم من تأثير الصحافة فى أساليب النثر تأثيرًا بينًا ، فإن كثيرين يرون أن الأساليب الصحفية تختلف عن أساليب الأدب اختلافًا ظاهرًا ، فيما خلا ما تنشره الصحف من آثار أدبية مقصود بها وجه الأدب . ومهما يكن من شىء فقد كان لهذا الأمر فى الأدب العربى مثلما كان له فى الأدب الغربى أثر واضح فى دفع الأدب إلى السهولة والبساطة ، والأدب العربى فى وقتنا الحاضر أكثر تأثرًا بالأدب الغربى منه بالأدب العربى القديم ، فهو ينزع إلى ناحية القصة والأقصوصة وما إليهما من ألوان الأدب الغربى أكثر مما ينزع إلى ناحية المقامة ، والترسل الذى كان ذائعًا فى الأدب القديم ، كما أن السجع الذى احتل مكان الصدارة فى أدبنا الحديث وقتًا ما قد اندثر أو كاد . نحن إذن مقلدون للغرب نثرًا ، كما أننا لا نزال نقلد الأدب العربى القديم شعرًا . ولا عجب فى ذلك ولا عيب فيه ، فأدبنا العربى الحديث أدب ناشئ كما قدمت ،

والأدب الناشئ يستوحى ما سبقه ، كما أن الشاب الناشئ يستوحى من هم أكبر منه ويقلدهم . والأدب الغربى فى نشأته قد تأثر بالأدب اليونانى والأدب الرومانى وقلدهما وظل متأثراً بهما مقلداً لهما من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر ، ومن بعد ذلك نزع إلى الاستقلال وإلى تصوير حياة الجمعية الإنسانية كما هى فى عصره ، وتحلل بذلك من تقليد اليونان والرومان واستلهام أدبهم وحياتهم . ومع أن نهضة الأدب العربى لم يمض عليها ما يزيد على نصف قرن إلا قليلاً ، فقد بدأ هذا الأدب يتحلل شيئًا فشيئًا من تقليده الأدب العربى القديم والأدب الغربى وبدأ يحاول أن يكون له استقلاله، وأن يستمد حياته من الحياة المحيطة به .

على أن الأدب العربى لم يقلد الأدب الغربى القديم ، بل قلد الأدب الغربى المعاصر، وحاول ولا يزال يحاول أن يكاتفه وأن يقف إلى جانبه . صحيح أن من شعرائنا من حاولوا تقليد شكسبير ، أو تقليد الشعراء الفرنسيين من أهل القرن السابع عشر ، لكن النثر لم يبذل قط مثل هذه المحاولة ، بل وقف عقب الفترة الأولى من تطوره يحاول أن ينهج نهج الأدب الغربى الحديث فى القصة والأقصوصة وما إليهما ، وهو سائر اليوم فى هذا الطريق يحاول جهده أن يتحلل من قيود التقليد ، وأن يصور لنفسه طريقًا يسلكه بنفسه .

وقد يكون من المغالاة القول بأنه قارب الغاية من سيره فى طريق استقلاله . فلم تنشأ إلى الآن مذاهب فى الأدب العربى قائمة بذاتها مستقلة عن مثيلاتها فى الأدب الغربى كما قام "الرومانسزم" و "الريالزم" ، وكما يقوم اليوم "الاكزستنسيالزم" وغيره من المذاهب فى الغرب . وسبب ذلك أن الأدب متصل بالعلم والفلسفة أوثق الاتصال مؤثر فيهما ومتأثر بهما. فكثيراً ما يتصور أديب أو كاتب نظرية من النظريات الفلسفية لم تثبت بعد فى أذهان الفلاسفة فيصورها مجملة فى أساسها ، قائمة على إلهامه الذاتى ، فإذا الفلاسفة يأخذونها ويقتنعون بها ، ويضعون تفاصيلها ومنطقها والحجج التى تقوم على أساسها ، ثم إذا هذه النظرية تستقر وتؤثر فى الأدب بعد أن كان الأدب سبب وجودها . وكثيرا ما يستكشف العلم بعض آياته فيتلقفها الأدب ويقيم على أساسها نظرية مبتكرة ومذهبًا جديداً . ولم نبلغ نحن بعد فى البلاد العربية أن نصل بين الأدب

والعلم والفلسفة بما يتيح لنا أن نخلق فى أدبنا مذاهب جديدة كالتى يخلقها كتّاب الغرب وأدبائهم .

ونحن مع ذلك سائرون على الدرب . وأدبنا فيما أرى يتجه فى طريقه الطبيعى ليستوحى مادتة من حياتنا ومن فلسفتنا وعلمنا ، ولست أقصد أنه يستوحى ما نبدعه اليوم فى العلم والفلسفة من نظريات وكفى ، بل أقصد كذلك ما يمدنا به تاريخنا وتاريخ الشرق من أسباب الإلهام التى لا ينضب معينها ، فهذا التاريخ قديمه وحديثه فيه مادة للأدب لا تقل روعة عما فيه من مادة للتاريخ ، وهذا التاريخ لا يقف فى حدود البلاد العربية وحدها ، وإن كان تاريخ البلاد العربية غزير المادة التى تلهم الأدب بكل صوره وألوانه ، بل إن لكل أمة عربية من تاريخها وحده معينًا للأدب فياضًا . فإذا أضيف إلى هذا ما نبدعه فى العلم والفلسفة ، استطعنا أن ننشئ فى أدبنا جديداً ، وأن نتجه به وجهة يستقل بها عن أدب الغرب مع تعاونه معه على خلق الأدب الإنسانى الرفيع الذى يغذى النفوس بأجمل ما فى الحياة من معانى الحق ، وصور الخير وألوان الجمال . ويومئذ تتاح لنا الفرصة لإنشاء مذاهب فى الأدب الإنسانى .

هذه آمال أزجيها ويدفعنى إلى ذلك ما أراه من اتجاه الأدب العربى الحديث فى مصر وفى غير مصر من البلاد العربية ، ومن تطور هذا الأدب تطوراً سريعًا إلى هذه الناحية التى أشير أليها . وإننى لأعتقد أننا نسير فى بلادنا العربية كما يسير الغرب نحو أدب إنسانى تبدو فيه مظاهر التضامن العالمى ويكون مقدمة لهذا التضامن . وهذه فى رأيى هى مهمة الأدب فى عصرنا الحاضر. إننا نقرأ بالعربية أو بالإنجليزية أو بالفرنسية آداب الألمان والإيطاليين والروس والهنود واليابانيين وغيرهم من الشعوب ، وهم لا ريب يقرأون ما يُترجم لهم من آداب الشعوب التى لم يكونوا يعرفونها منذ أقل من ثلاثين أو أربعين سنة ، ونحن وهم نتأثر كلنا بهذه الآداب التى نقرأها مترجمة إلى لغتنا أو إلى اللغات التى تعلمناها ، وهذا التأثر جدير بأن يخلق الأدب الإنسانى كما خلقت الإذاعة ، وخلقت الصحافة قبل ذلك عالمًا موحداً يعرف الناس أنباء ما يقع فيه ويتأثرون به ساعة وقوعه . وسيكون اتجاه الأدب فى المستقبل القريب هو هذا الاتجاه الإنسانى ، ولن يتخلف الأدب العربى عن غيره من آداب العالم فى مسايرة هذا الاتجاه .

أثر اللغة فى حياة الأمم (*)

للغة فى حياة الأمم وفى حضارتها أرفع مكان . ذلك ما ينطق به التاريخ ويُحدّث عنه ، ولا عجب فى ذلك واللغة هى أداة العلم والأدب والفن ، وهى الوسيلة لانتقال الفكر بين الناس .

وتاريخ هذا الشرق الأدنى يقيم على هذا الرأى الدليل القاطع. فقد أصبحت اللغة العربية لغة بلاده جميعًا منذ فتحها العرب فى القرن السابع المسيحى . ومن ذلك الحين ازدهرت العربية فى هذه البلاد ، فلم تبق قاصرة على أهل شبه الجزيرة ، بل أصبح أهل الشام ومصر والعراق وفارس نفسها من أعلام هذه اللغة وبناة آدابها . فقد ظهر بينهم الشعراء والكتّاب والعلماء ومن ترجموا إلى العربية كتب فلاسفة اليونان ومشترعى الرومان ، وظل ذلك شأن الإمبراطورية التى يتكلم أبناؤها العربية ، وكانت هذه الإمبراطورية محط رجال العلماء والشعراء والكتّاب ، ولذلك أقامت حضارة العالم وبعثت فيه نهضة فكرية وعلمية وأدبية وفنية من أروع النهضات التى شهدها تاريخ العالم .

واستمر الحال كذلك طيلة الدولة الأموية ، وإلى العهد الأخير من الدولة العباسية ، فلما بدأ المغول والأتراك يتولون الأمر فى هذه الإمبراطورية بدأ الانحلال يدب إليها دبيبه ، وبدأت نذر التدهور تتبدى فى جوها ، ثم لم يفطن إلى هذه النذر من بيدهم الأمر فلم يقدّروا نتائجها ، ولم يفطن غيرهم إلى هذا الانحلال لأنهم كانوا فى غمرة من

(*) حديث أذيع من محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية ، ١٩٥٥

حكم الأجانب الذين تولوا أمورهم ، والذين ألقى إليهم الخلفاء مقاليد الحكم والسلطان في شئونهم .

وأدى التدهور والانحلال إلى نتيجتهما الطبيعية ، فلم تستطع هذه الإمبراطورية أن تقف في وجه الغزاة الأتراك الذين انحدروا من أواسط آسيا إلى القسطنطينية ففتحوها ، وقضوا على الإمبراطورية الرومانية الشرقية فيها ، ومدوا منها سلطانهم إلى الإمبراطورية العربية ، فاحتلوها جزءًا بعد جزء وفرضوا عليها نظامهم ولغتهم . من يومئذ ازدادت اللغة العربية تدهوراً ، وازدادت الشعوب التى تتكلم العربية انحلالاً، وأخذت الحضارة التى أقامها علماء الإمبراطورية العربية وعظماؤها تتلاشى رويداً رويداً ، بينما بدأ البعث الأوربى يأخذ ما أقامته هذه الحضارة من نظم وما شادته من علم وفن ، ليبنى عليه نظاماً جديداً وحضارة جديدة .

واستمر سلطان الأتراك فى رقعة البلاد العربية قروناً متوالية ، فكادت اللغة العربية تندثر ، وغلبت اللهجات العامية التى يتكلمها أهل تلك البلاد على اللغة الفصحى ، حتى أنك إذا قرأت اليوم ما كتبه المؤلفون بالعربية فى تلك العصور رأيته ركيكًا ضعيفًا لا شىء فيه من جمال اللغة وبلاغتها ، ولا شىء كذلك فيه من قوة التفكير وإبداعه . بذلك قُضى على الشعر والنثر وصارمًا بقى من آثارها مما يعافه الذوق ويمجه ، وأصبحت هذه القرون التى غلب فيها الأتراك على البلاد العربية ، وكأنها فجوة فى تاريخ الحضارة فى الشرق الأدنى ، وكأن هذه الدول التى وجهت العالم عصوراً وقروناً قد هبت عليها ريح أهل الكهف فإذا هى فى سبات عميق يجعل تاريخها ظلاماً دامساً .

فلما آن للإمبراطورية العثمانية أن يتضعضع ركنها ، وأن ترتفع يد البطش الطاغية فى البلاد العربية ، بدأت اللغة العربية تصحو من غفوتها ، وبدأت الشعوب العربية بذلك تنهض ، لتسمع من جديد إلى شعرائها وخطبائها وكتّابها وأدبائها ، وبدأت النهضة العربية تردد أسماء الشعراء والكتّاب وتترسم خطاهم ، وبدأ الفكر العربى يعود إلى الحياة والإنتاج من جديد .

وليس عجبًا أن يكون ذلك شأن اللغة فى حياة الأمم ، وفى نشأة الحضارة وازدهارها . فاللغة هى أساس الدعوة لكل جديد ، لجأت إليها الأديان فى شتى بقاع

الأرض لتنشر دعوتها ، وإعجاز القرآن هو معجزة النبى العربى الدامغة . وكل المذاهب السياسية والاقتصادية وغيرها من مظاهر الفكر والفن ، إنما اعتمدت على اللغة لقيامها ، ثم اعتمدت عليها لذيوعها وانتشارها . والسلام العالمى يعتمد فى استقراره على اللغة أكثر مما يعتمد على القوة المسلحة ، وما بلغته الإنسانية من مراحل التقدم قد كان للغة الفضل الأول فيه . ألسنا نقول إن حضارتنا اليوم حضارة علمية ، واللغة هى أداة العلم قبل أية أداة أخرى ، ومن قبل كانت الآداب وكانت الفلسفة أساس الحضارة ، ثم كانت اللغة أداة الآداب والفلسفة. بذلك كان ارتقاء اللغة من أقوى الأدلة على ارتقاء الأمة التى تتكلمها ، وكان انحطاط اللغة المظهر الحاسم لانحطاط الأمة التى تتكلمها .

أمَا وذلك هو الشأن فواجب على كل شعب يحترم نفسه ويحترم حضارته ، ويريد أن يتبوأ المكان الواجب له تحت الشمس ، أن يُعنى بخدمة لغته وأن يداوم هذه العناية ، وأن يقدر أن اللغة كائن حى كما أن الأمة كائن حى ، وأن اللغة هى مظهر حياة الأمة وآية حيويتها ونشاطها العقلى والروحى .

ولهذا تنشئ الأمم المتقدمة فى مضمار الحضارة المجامع والهيئات التى تعنى باللغة وتسبغ عليها من معانى الإجلال والتكريم ما هى جديرة به . ففى فرنسا مثلاً خمس أكاديميات تعنى كل واحدة منها بجانب خاص من حياة اللغة الفرنسية ، منها أكاديمية للعلوم ، ومنها الأكاديمية الفرنسية للآداب ، وأكاديميات ثلاث أخرى للفنون ولسائر مظاهر الحياة الفكرية ، وليست عناية فرنسا بهذه الأكاديميات من قبيل العناية بالكماليات ، فاسم فرنسا له إلى اليوم ما له من بريق لما للغة الفرنسية فى الثقافة العالمية من أثر ومكان ، ولولا هذه الثقافة لفقدت فرنسا الشىء الكثير مما تعتز به إلى اليوم . وإذا ذُكرت الشعوب الأخرى فأول ما تذكر به مبلغ اشتراكه فى ثقافة العالم عن طريق لغتها وآدابها ، وهذه هى الذكرى الباقية على الأجيال . ألا ترانا نذكر حتى اليوم فلسفة اليونان وشرائع الرومان وقد مضى على هذه وتلك من القرون والأجيال ما أنسانا ، أو كاد ينسينا كل ما سواهما . ونحن نذكر اليوم أدب العرب فى الجاهلية ، وفى القرون الإسلامية الأولى بإعجاب يفوق كل ما نذكره من مظاهر حياة العرب الأخرى ، وإن انقضى بيننا وبين هذا الأدب عشرة قرون أو نحوها .

وحياة اللغة فى هذا العصر لا يكفى فيها ازدهار الأدب على نحو ما كان عليه الحال فى العصور الخالية ، بل يجب أن يزدهر العلم ، وأن تزدهر الفلسفة ، وتزدهر مظاهر الفكر الإنسانى كلها ، فقد أصبحت مظاهر هذا الفكر متضامنة اليوم تضامناً يجعل تعاونها من ضروريات الحياة . فإذا أردنا للغتنا العربية أن تزداد ازدهاراً ، فيجب أن يوجه رجال العلم ورجال الفكر منا عنايتهم لعلومهم وتفكيرهم . ويومئذ تتضافر عناصر التفكير الإنسانى كلها فى ظل لغتنا العربية ، فتزداد اللغة قوة وتزداد حضارتنا العربية احتراماً وتمكيناً وتبلغ بنا المكان الذى نصبو إليه فى ركب الحضارة الإنسانية .

إنكار التقدم (*)

للكاتبين الفرنسيين الكبيرين بيير لوتى وكلود فارير قصص متعددة يتحدثان فيها عن الشرق كتباها فى أوائل هذا القرن قبل أن تندلع نار الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ .

وللكاتبين فكرة يشتركان فيها ، وهى الأسف على تطور الشرق إلى ناحية الحضارة الغربية بوجه عام ، والأسف بوجه خاص على خروج المرأة الشرقية سافرة إلى حياة المجتمع ، وتضييقها بذلك ما كان يحيط بها من سر تحت برقعها وتحت إزارها . فقد كان لهذا الحجاب الشرقى عند الكاتبين ، وعند كثيرين من الأوربيين سحر خاص يزيد المرأة جمالاً ، ويجعل منها حورية أو ما يشبه الحورية على ما يتصوره الغربيون . ولعلهم فى ذلك العهد قد سئموا أن يروا المرأة الغربية تخالطهم فى كل شئون الحياة ، أو لعلهم سئموا أن يروا كل مفاتنها مكشوفة فى لباس السهرة حيث تبدى أذرعها وينكشف معظم صدرها ومعظم ظهرها ، فأرادوا أن تبقى المرأة الشرقية فى حجابها ، لتوحى إلى خيالهم الخصب بمعان لا وجود لها فى الواقع ، ولكنها تمتع خيال الرجال بما يشتهون ، وإن لم يزد الأمر على إمتاع الخيال ، فإذا تكشفت الحقيقة تكشفت عن وهم أو مدت لهذا الخيال ما يرضى طلعته متأثراً بهذا الوهم .

ولست أدرى أكان لوتى أو كان فارير أو أضرابهما من المعجبين بحجاب المرأة الشرقية يبقون على رأيهم لو أنهم عاشوا فى هذا العصر ، أى فى هذا النصف الثانى

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ٢٨ سبتمبر ١٩٥٥

من القرن العشرين ، ولم يبق فى الشرق حجاب إلا فى بلاد قليلة متهمة بالتأخر عن مجاراة ركب الحضارة ، والمرأة المحجبة فى تلك البلاد لا تتجاوب مع الرجل إلا فى أدنى ما يشتهيه . أتراها مع ذلك تعجب كتّابًا وأدباء لهم من المكانة ما كان للوتى ولكلود فارير ؟ .

لا أدرى . فالشواذ فى هذه الدنيا لم تنقطع فى يوم من الأيام والعبقرية بذاتها نوع من الشذوذ قد يغرى صاحبه بما يعجب له الرجل المتزن الذى يعجب بالعبقرى ، ثم لا يقر كل رغائبه . وأعترف بأننى فى أمر المرأة وتعليمها وحجابها لا أقر ما يراه هؤلاء العبقريون أمثال لوتى وفارير . أنا لا أقره اليوم ولم أقره قط فى يوم من الأيام .

وكم أود مع ذلك أن أعرف رأى العبقريات من النساء فيما كان يقوله لوتى وفارير . وهل ترى تود بعض هاتيك العبقريات أن تعود المرأة إلى حجابها وإلى حريمها ؟. ألا لئن وجدت عبقرية نسوية ترى هذا الرأى ، فلشد ما أتمنى أن أسمع حجتها ، وأن أطلب معها المغفرة للوتى وفارير ، أو من يشاركونهما فى الرأى الذى كانا يرياه .

لغتنا العلمية (*)

أتصفح ما يصلني تباعًا من أعداد مجلة "رسالة العلم" ، وأعترف بأني أقف أمام بعض موضوعاتها موقفي من جدول اللوغاريتمات ، وليس يرجع ذلك إلى أن دراستي الثانوية والعليا ومعلوماتي العامة لا تمكنني من متابعة هذه البحوث العلمية الدقيقة ، بل يرجع كذلك إلى أن الأساتذة الأجلاء كتّاب هذه البحوث يستعملون ألفاظًا علمية لعلهم اصطلحوا على بعضها ولم يصطلحوا عليها كلها ، وأن هذه الألفاظ المشتقة من اللاتينية أحيانًا ومن العربية القديمة أحيانًا أخرى تبدو أمامي ألغازًا لا سبيل إلى حلها إلا أن يتتلمذ الإنسان من جديد ، وليس هذا شأن من كان في مثل سني ، ومن احتشد ذهنه بمعلومات تختلف طبيعتها كل الاختلاف عن هذه البحوث فلم يبق فيه مكان لاستذكارها ومعرفة حدودها .

ولا بأس بأن يكون ذلك شأن الجيل الذي أنا منه ، فقد أدى هذا الجيل رسالة حياته وأصبح من هذه الناحية مطمئن الضمير ، وآن لمن شاء من أبنائه أن يستريح ؛ لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لمن هم اليوم في العشرين والثلاثين والأربعين من عمرهم . هؤلاء بحاجة إلى هضم البحوث العلمية لأن العالم يسير اليوم على هدى هذه البحوث ، والأمة صاحبة السبق فيها هي التي تسبق غيرها من الأمم في مضمار القوة والحضارة .

أما والأمر كذلك فلابد من تطويع ألفاظ العلم ، ليفهمها أوساط المتعلمين ، أو ليفهمها على الأقل الحاصلون على إجازاتهم الجامعية العليا ، وإن اختلفت دراساتهم .

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ٢٣ يناير ١٩٥٦

ولا سبيل إلى تطويع ألفاظ العلم إلا أن يتولى المشتغلون بالعلم أنفسهم هذه المهمة ، وأن يبذلوا فى ذلك من الجهود ما لا بد منه خدمة للعلم وللغة وللوطن .

أنا أعلم أن المجمع اللغوى المصرى يبذل فى هذه السبيل جهداً محموداً ، وأنه يستعين بالأساتذة العلماء من أعضائه ومن الخبراء الذين يندبهم لهذا الغرض . لكنى لا أحسب جهد المجمع كفيلاً بأن يؤدى إلى الغاية المقصودة منه ، قد يؤدى هذا الجهد حين تمامه إلى ما يريده المجمع من وضع معجم كبير لألفاظ اللغة العربية التى يرى المجمع أنها تفى بحاجات العصر ، وقد يرى المجمع يومئذ أنه أتم المهمة التى نيطت به أو ناط هو بها نفسه. لكنى فى ريب من اطمئنان العلماء والأساتذة إلى هذه الألفاظ يوم نشرها ، وأحسب الكثيرين منهم يوجهون إليها يومئذ نقداً أشد النقد ، ثم لا يأخذون بها فيما يكتبون وما يدرِّسون . وعند ذلك تزداد المشكلة تعقيداً ، وتزداد الأفكار تبلبلاً ، ويقول من شاء إن اللغة العربية غير قادرة على أن تؤدى أغراض العلم .

ولو أن الأساتذة العلماء اضطلعوا بالمهمة ، وعملوا على أن يتصل الجمهور بهذه الألفاظ عن طريق ما يكتبونه تبسيطًا للعلم ، وما يلتمسون لذلك إليه من مختلف الوسائل ، مستعينين بالأدباء وبالصحف والمجلات لهذا الغرض ، لعاونوا المجمع فى جهده ، ولنقلوا العلم إلى الجمهور ونقلوا الجمهور إلى العلم ، ولأصبحت اللغة العلمية بعض ما نال ، بدل أن تكون نوعًا من اللوغاريتمات التى أقف أنا ويقف غيرى أمامها حائرين .

إن مهمة المعاجم أن تثبت الألفاظ التى يقرها التداول ، وليست مهمتها أن تبتكر ألفاظًا جديدة ، وإنما يكون ابتكار الألفاظ الجديدة من عمل العلماء ، والكتاب ، ورجال الفن كل فى ميدانه ، فإذا أقر التداول ما ابتكروه أثبتته المعاجم بدورها . هذا هو النظام الطبيعى ، وهو النظام المأخوذ به فى كل الدول وفى كل المجامع .

الأدب بين جيلين (*)

من الحكايات المعروفة عن الكاتب الفرنسى الكبير "أناتول فرانس" أن كاتبًا ناشئًا قدم إليه قصة ، ورجاه أن يقرأها ، وأن يبدى رأيه فيها ، ومر الشاب بعد شهر يسأله عن القصة ، فاعتذر بأن وقته لم يتسع لقراءتها ، ومر به الشاب بعد شهر آخر ، فاعتذر مرة أخرى بالعذر نفسه ، وفى المرة الثالثة قال فرانس لهذا الكاتب الناشئ : اسمع يا صديقى أقول لك الحق إن الإنسان فى مثل سنى لا يقرأ جديداً ، ولكن يعيد قراءة ما أُعجب به فى الماضى .

وعلى أثر هذا الجواب رد للكاتب الناشئ قصته وانصرف الشاب ، وقد تولاه العجب لجواب فرانس ، ولكنه لم يجد عليه ردًا .

ترى هل تصفّح فرانس بعض صحف قصة الشاب فلم تعجبه ، ولم يرد أن يصارح الشاب برأيه فاعتذر عن الجواب بهذا العذر ؟ . أم أنه لم يقرأ القصة بالفعل لأنه شغل عنها بما هو أهم فى نظره منها ؟ . أم أن اختلاف الجيل بين فرانس وهذا الشاب جعل الكاتب الشيخ الكبير لا يرى من حقه الحكم على ما يبتكره الجيل الذى يليه ، وإن أباح الجيل الجديد لنفسه أن يحكم على من سبقه من الأحياء وعلى من خلفوا الحياة قبل جيل وقبل أجيال .

لا يعنينى أن أبحث أى هذه الفروض أقرب إلى الصحة وقد يكون بعضها وقد تكون كلها صحيحة ، ولكن الصحيح الذى أعتقده هو أن الخلف أكثر جرأة فى الحكم على من سبقوهم، وأن الذين يتقدمون فى السن من الكتّاب قلما يفكرون فى نقد

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٥٦

ما يظهر من آثار الشباب . وأنت حين تقرأ ما كتبه أناتول فرانس نقداً للكتب فى الأجزاء الأربعة الأخيرة لكتابه (الحياة الأدبية) ، تراه قد نشر كله فى شباب أناتول فرانس . والأمر كذلك فيما كتبه "حول لمتر" وغيره من النقاد ، وقلما تجد كاتباً يجاوز الأربعين أو الخمسين يعنى نفسه بالنقد ، لأنه فى هذه السن يكون أكثر اشتغالاً بالإنتاج الذاتى منه بالتعرض لإنتاج غيره .

وهذا الوضع طبيعى ، فالشباب يبذل أكبر العناية فى الملاءمة بين ما يحيط به من صور الحياة المختلفة الكثيرة التغير حتى يكون بينهما من الاتساق ما يجعل الحياة نفسها متناسقة فى علومها وفنونها وآدابها واقتصادياتها ما سوى ذلك من مقوماتها . والشباب يحسبون حين يبلغون سناً معينة أنهم أتموا هذه المهمة ، أو بلغوا منها مبلغاً يرضيهم ، وهم لذلك يطمئنون فى كهولتهم وفى شيخوختهم إلى لون الحياة الذى أرضاهم ، فإذا جاء الجيل الذى بعدهم كانت مقومات الحياة قد تغيرت قيمها ، وتغيرت نسب بعضها إلى بعض ، وأصبح لزاماً على هذا الشباب الجديد أن يلتمس الملاءمة بينها ، وهذه هى دورة الزمن ، وهى جهد الأجيال المتعاقبة.

وتستطيع أن تقتنع بذلك إذا بحثت عن الجهد الإنسانى فى كل ناحية من نواحى الحياة . خذ مثلاً الناحية التى يراها الناس أبعد ما تكون عن التغير – أقصد الناحية الدينية – تجد هذا الجهد المتصل الذى أشرت إليه . وأنت تجده فى العقائد كما تجده فيما يعرض الدين له من معاملات الناس ، وهذا الجهد هو الذى أنشأ المذاهب المتباينة فى الأديان المختلفة ، فالبروتستانتية والكثلكة وغيرهما من المذاهب المسيحية التى نشأت نتيجة هذا الجهد للملاءمة بين ظروف الحياة وبين الآراء السائدة فى العصر الذى قامت هذه المذاهب فيه ، والمذاهب الإسلامية فى الفقه نشأت نتيجة هذا التطور كذلك .

فإذا كان الأمر كذلك فى شأن الأديان فأحرى به أن يكون كذلك وأكثر من ذلك أضعافاً مضاعفة فى شئون الأدب ، فالأدب أيسر تطوراً ، والقصة فى الأدب أكثر فنونه تطوراً .

لهذا كان واجب الشباب أن ينقدوا ما سبقهم ما شاء لهم النقد ، وكان واجب شيوخ الأدب أن يتابعوا مجهودهم فى الإنتاج ، لا يقفهم نقد ولا يثيرهم تعريض ، فهذا كله فى طبيعة الأشياء وهذا كله هو الذى يكفل التقدم خطوة بعد خطوة إلى ناحية الكمال .

الواقع والخيال (*)

يدق التليفون فإذا المتحدث صحفي شاب يريد أن يلقى عليك أسئلة فى السياسة ، أو فى الاجتماع ، أو فى الأدب ، ومنهم من يلقى عليك هذه الأسئلة ويطلب الجواب عليها أثناء حديثه فى التليفون ، ومنهم من يطلب تحديد موعد يلقاك فيه ليحدثك فيما يرى أن يسأل عنه ، ومنهم من يخاطبك باسم جريدة أو مجلة معينة ، ومنهم من يذكر لك أنه يريد الإجابة على أسئلته لينشرها فى أكثر من مجلة أو صحيفة فى لبنان وسوريا والعراق .

ومن الأسئلة التى تكررت على مسمعى من غير واحد من هؤلاء المشتغلين والمتصلين بالصحافة سؤال عن الأدب الواقعى ، والأدب الخيالى ، وأيهما أجدى على المجتمع وأوثق صلة بفنون الأدب . دعك من السؤال عن الوجودية فهى لم تحدد بعد فى بلادنا الإسلامية .

ويقول السائل إن من الأدباء من ينكر الخيال فى الأدب ويرى أن القصة أو الأقصوصة أو أى لون من ألوان الأدب يجب أن يعتمد على الواقع ويستمد منه وحيه ، ويعتبر الخيال ضرباً من العبث يجب طرحه ظهرياً بل يجب التبرؤ منه .

ولست أنكر أننى شعرت بالحيرة للإجابة على هذه الأسئلة ، وبخاصة ما يتعلق منها بالواقعية والخيالية . فأنا أعلم أن ما هو واقع اليوم قد كان خيالاً بالأمس ، وما لعله خيال اليوم قد يكون واقعًا غداً . أليسوا يحدثوننا باسم العلم عن السفر إلى القمر

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ٢٣ يناير ١٩٥٦

وامتلاك الأراضى فيه . أواقع هذا أم هو محض خيال ؟ وإذا صح أن تحقق غداً أفيكون الذين يكتبون عنه اليوم من أصحاب الواقع أو من أصحاب الخيال ، وهل يستطيع أحد اليوم أن يقول إن السفر إلى القمر مستحيل بعد الذى حققه العلم من أمور كانت إلى عهد قريب خيالاً ثم أصبحت واقعًا ملموسًا يُحسه كل إنسان ؟

والشيوعية اليوم واقع يؤمن به ملايين من أهل الأرض فى روسيا السوفيتية وفى البلاد الواقعة فى فلكها وفى الصين الشعبية كذلك . مع ذلك كانت الاشتراكية إلى زمن غير بعيد تعتبر خيالاً ، وكان غير واحد من الذين كتبوا عنها فى أوربا قد عنونوا كتبهم بكلمة "يوتوبيا" ، أى طوبى أو أرض الخيال السعيد . ويذكر الذين درسوا هذه المذاهب الاشتراكية أن الذين آمنوا بها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد أجروا تجارب لهذا الخيال السعيد ، وأن الكاتبة الفرنسية المعروفة "جورج صاند" كانت أما ليوتوبيا فى بعض هذه التجارب . وهانحن أولاء نرى الواقع قد تخطى حدود الخيال بمراحل ، وإن صح عند بعضهم أن هذا الواقع لا يزال خيالاً ، وأن الناس ستعود بهم طبائعهم إلى نظام الفردية من جديد .

وما يتحدثون اليوم عنه من استخدام الذرة لأغراض السلم يلقى آذانا مصغية كثيرة. أفلا يجوز لكاتب أن يتصور ما قد يتنفس عنه عالم الذرة فى المستقبل القريب أو فى المستقبل البعيد ، وأن يصور ذلك تصويراً فنيًا أدبيًا فى قصة أو مجموعة أقاصيص ، وقد يصدق الواقع بعد ذلك خياله أو يتخطى حدود هذا الخيال .

لا أقول هذا أنتقص به من قيمة الأدب الواقعى ، فهذا الأدب هو لا ريب أدب الحياة المحيطة بنا، وهو الوسيلة للتغلب على ما فى هذه الحياة من الشر والمتاعب ، وما تنطوى عليه من خير ، وإنما أقوله لأننى أومن بأن المذاهب الأدبية تتعاون على اختلافها ما قصد بها إلى خدمة الفن لذاته ، وإلى خير الإنسانية كلها . وكثيرا ما تأثر الكتّاب بالواقع كما تخيلوه ، كما أن منهم من استوحى أساطير الماضى فخدم هؤلاء وأولئك الفن الرفيع أجلّ خدمة ، فلينبذ أدباؤنا التعصب لمذهب بذاته ، وليكتب كل منهم على سجيته ، يخدمون بذلك الأدب والفن أيا كان المذهب الذى يؤمنون به .

تاريخنا وما يلهمه (*)

إلى اليوم الخامس من هذا الشهر حين أعلن التمهيد لعود الحياة الطبيعية البرلمانية وألغيت الرقابة على الصحف ، كنت أنأى بتفكيرى ما استطعت عن شئون السياسة ، وكنت أجد الفرصة مواتية للقراءة والتفكير فى شئون أخرى .

ومما قرأت فى الأشهر الأخيرة قصة (سينويه المصرى) للكاتب الفنلندى "ميكا والترى"، وقد أعادت قراءة هذه القصة إلى ذاكرتى طائفة من الآراء التى نشرتها منذ ربع قرن والتى كانت موضع أخذ ورد بين الكتّاب فى ذلك الحين .

وقصة (سينويه المصرى) قصة بارعة تصف حياة مصر لعهد الفراعنة ، وتصف بخاصة ما قام من نضال استحال حرباً أهلية أثارها الخلاف الدينى على عبادة الإله آمون ، وهى عبادة لا تأبى الشرك . وعبادة الإله آتون التى تؤمن بالتوحيد ، وبأن كل ما فى الحياة مصدره الإله الواحد الأحد . وتتناول هذه القصة كذلك تصويراً للحياة فى بلاد الشرق الأوسط والشام وبابل وجزيرة كريت . وتعنى القصة عناية خاصة بوصف الشعائر الدينية فى هذه الديار كلها ومنها مصر ، وتطيل فى تصوير ما فى هذه الشعائر من وحشية وتعصب وحب للدماء.

وقد لقيت هذه القصة إقبالاً عالميًا أدى إلى أن تترجم إلى لغات عدة منها الفرنسية والإنجليزية وإن لم تترجم إلى اللغة العربية فيما أعلم .

(*) جريدة المصرى ، بتاريخ ١٤ مارس ١٩٥٤

أعادت هذه القصة إلى ذاكرتى طائفة من الآراء التى نشرتها منذ ربع قرن من الزمان فكانت موضع أخذ ورد . فقد كنت ولا أزال أؤمن بأن الحياة القومية وحدة على الزمان كما أنها وحدة فى المكان ، وأن دراسة التاريخ دراسة دقيقة تتيح لنا من العلم بوطننا وبقومنا وبأنفسنا الشىء الكثير ، وأن استلهامنا التاريخ القومى فى آدابنا وفنوننا يقوى هذه الوحدة وينهض أساساً لبعث حضاراتنا الشرقية مصورة فى نطاق الحياة الحديثة التى انتهى إليها التفكير وهدى لها العلم ، وفى هذا البعث كسب لنا وللإنسانية كبير .

أثار هذا الرأى حين أبديته لأول مرة جدلاً بلغ فى بعض الأحيان حد العنف . فمن قائل أن هذه دعوة إلى الفرعونية تأباها عروبتنا ، ومن قائل إنها دعوة للرجوع إلى الوراء يأباها التقدم الإنسانى ، فالأنهار لا تنقلب مرتدة من مصابها إلى منابعها ومن قائل غير هذا وذاك مما لا أذكره اليوم .

فلما اطلعت على قصة (سينويه المصرى) واتصل بى أن كاتبها قضى فى مصر السنين الطوال ليؤلفها ، قلت فى نفسى: يا عجبًا ! أويكون هذا الكاتب الفنلندى العظيم المنحدر إلينا من أقصى شمال الأرض أكثر منا عناية بماضينا واستلهامًا لتاريخنا . وهل ترانى حين قرأت قصته وتذوقت جمالها قد أنكرت عروبتى ، أو رددت النهر من مصبه إلى منبعه . لقد وجدت فيها الشىء الكثير مما يثير التفكير فى الدوافع التى تحرك الناس فى الحياة إلى ما يقدمون عليه من أعمال فيها الخير والشر ، وفيها الرفق والعنف ، وفيها المحبة والبغضاء ، وقد استطعت أن أستشف من خلالها صوراً تعاقبت على الإنسانية منذ كانت الإنسانية ، ثم لا تزال آثار هذه الصور ولها فى حياة الفرد والمجتمع قوة عميقة باقية .

وذكرتنى هذه القصة عن الشرق الأوسط وشعائره فى العصور الغابرة ، وكيف استلهمها هذا الكاتب الفنلندى من تاريخنا فى تلك العصور بما كان حين ابتدأ البعث الأوربى ، وكيف استلهم آدابه وفنونه من اليونان والرومان ، فلم تمنع المسيحية شكسبير فى إنجلترا ، ولم تمنع راسين وكورنى فى فرنسا من أن يستلهموا الأساطير الإغريقية القديمة ، لإقامة أدب بارع لا يزال حتى اليوم فخر إنجلترا وفخر فرنسا .

وإن لنا فى مصر وفى تاريخها لمصدر إلهام للفن والأدب قل فى العالم نظيره . وإذا كان النضال بين الشرك والوحدانية قد ألهم الكاتب الفنلندى قصة (سينويه المصرى) يصور فيها عنف النضال بين عبادة آمون وعبادة آتون ، فإن قصة موسى وخروجه مع بنى إسرائيل من مصر على النحو الذى صورته الكتب السماوية المقدسة ليلهم صورة أكثر روعة وأعظم من ناحية الفن إبداعاً . ومقدم مريم مع ابنها عيسى إلى مصر ونزولهما عين شمس قصة رائعة هى الأخرى ، ولقد شهدت بفلسطين حين زرتها سنة ١٩٣٧ صورة هذه الرحلة ممثلة فى مقصورة خاصة فى أحد متاحفها ، فبقيت هذه الصورة منقوشة فى ذاكرتى لا تبرحها . واتصال مصر بالتاريخ الإسلامى منذ أهدى المقوقس مارية القبطية إلى النبى العربى عليه السلام ، ومنذ الفتح الإسلامى بمصر يرسم أمام الذهن صوراً نادرة المثال لهذه الحقبة من تاريخ الإنسانية ، ولما كان لها من أثر فى توجيه التاريخ العالمى كله وجهة جديدة .

والذين قرأوا قصة كوفاديس أو رأوها على الشاشة البيضاء يحسبون أن ما لقيته المسيحية من اضطهاد فى روما قد كان له الأثر الباقى فى حياة المسيحية . هذا مع أن ما وقع فى مصر من اضطهاد للمسيحية فى عهدها الأول لا يقل فى جلاله عما شهدته روما إن لم يزد عليه .

وليس يقف إلهام مصر وتاريخها عند هذا الجانب الروحى من حضارة الإنسانية . فمدرسة الإسكندرية قد كانت وارثة الفلسفة اليونانية ، وكانت مقصد طلاب العلم والفلسفة فى عالم يومئذ ، وكانت قد جمعت إلى الفكرة الروحية التى سيطرت على وادى النيل عدة قرون فكرة المنطق العقلى الذى برع فيه فلاسفة اليونان ، وكان نواة الحضارة الغربية الحديثة حين بعثها فى القرن الخامس عشر فى أوربا . وقد كان هذا التزاوج بين الفكرة الروحية والفلسفة المنطقية فى مصر صورة من صور التفكير التوفيقى الذى قامت عليه مذاهب فلسفية عديدة فى حقب التاريخ المختلفة .

وبعد أن انتشر الإسلام فى مصر ازدهر فيها الفقه الإسلامى . فلما جاء الإمام الشافعى من الحجاز إليها جدد مذهبه فيها بما يتفق وما رأى من ألوان حياتها التى تخالف ما ألف فى شبه جزيرة العرب . ذلك بأنه كان مجتهداً ، وكان اجتهاده يقتضيه أن يوفق بين الآراء الفقهية وأمور الدنيا فى حدود ما أمر القرآن به وما نهى عنه .

لا أريد أن أطيل فى ذكر ما ينطوى عليه تاريخ مصر من مظاهر التفكير المختلفة ، فالطب المصرى ، والهندسة المصرية ، والفنون المصرية فى النحت والنقش ، وما إليها تنطق بذلك وتدل عليه . وقيام الأهرام ، والمسلات ، والمساجد شاهد ناطق بدقة ما وصل إليه أهل تلك العصور من براعة فى علوم الهندسة وفنونها . والموميات الباقية إلى الآن تشهد ببراعتهم فى الكيمياء ، كما تشهد مظاهر أخرى برقى حضارتهم فى عصورها المختلفة .

هذا التراث الضخم الذى تنقل على العصور ، وامتد من عهد الفراعنة إلى العهد المسيحى ، ثم إلى العهد الإسلامى ، يبيح لنا أن نقول : إن تاريخنا بجملته يحتوى من مصادر الإلهام على الشىء الكثير فى العلوم والفنون والآداب ، ويمكن أن يكون مصدراً لفلسفة توفيقية وفن توفيقى منقطع النظير .

كيف ترانا مع ذلك لا نستلهم هذا المصدر الغنى بأسباب الحياة والحضارة . السبب فى رأيى يرجع إلى أن هذا التاريخ لم يدون بلغتنا الحاضرة التدوين الذى يحببه إلى النفوس حتى تجد فيه الإلهام الذى وجده صاحب قصة (سينويه المصرى) . وهذا التاريخ لم يكتب على صور مختلفة تستهوى النفوس لاختلاف اللغات التى تعاقبت على مصر فى الأزمان المختلفة ، فالهيروغليفية ، والرومانية ، والقبطية وما إليها من لغات سبقت لغتنا العربية قد أصبحت كلها لغات ميتة كاليونانية ، واللاتينية القديمتين ، وقلّ من عُنى بنقل الآثار التى كتبت بهذه اللغات إلى لغتنا الحاضرة . لا أنسى أن الأستاذ سليم حسن ، وأن المرحوم عبد القادر حمزه ، وأن آخرين كتبوا عن الحياة الفرعونية ، وأن غيرهم كتب بعض الفصول عن العصور التى انقضت بين العهد الفرعونى والعهد الإسلامى . لكن ما تحتويه هذه الكتب والفصول على ما لها من قيمة كبيرة قد تقصر عن إلهام من يكتبون لنا قصصاً كسينويه المصرى . فلا بد لهذا التاريخ من أن ينشر بأساليب مختلفة حتى يستهوى من يريدون استلهامه ، ولهذا طالبت فى الماضى وأطالب اليوم بأن يعيره رجال الجامعة ، وأن يعيره الأدباء والكتّاب من العناية ما يشد إليه الأنظار حتى يكون له من الأثر فى إلهام أدبائنا ورجال الفن منا ما نرجوه .

لقد وضعت عشرات المؤلفات فى تاريخ فرنسا ، وفى تاريخ إنجلترا ، وفى تاريخ ألمانيا وفى تاريخ كل أمة متحضرة ، ومن هذه المؤلفات ما تعد أجزاؤه بالعشرات ،

وهى تتناول من ألوان الحياة التى تتحدث عن تاريخها صوراً تختلف باختلاف منازع كتّابها وآرائهم ، ولهذا يجد الكاتب القصصى ، ويجد رجل الفن فيها المادة التى تلهمه ، لأنه يقرأ منها ما يتفق مع ميوله واتجاهاته . أمَا صنعنا هذا الصنيع وبذلنا هذا الجهد ولنا التاريخ الحافل والتراث الضخم الذى يلهم كل من يلتمس الإلهام .

هذه خواطر أوحتها إلىّ قراءة (سينويه المصرى) أنشرها راجيًا أن يتناولها الكتّاب بالتمحيص . وإننى لواثق من أن تمحيصها سيكون له أثره فى اتجاه جامعاتنا وفى إلهام أدبائنا ، وشعرائنا ، ورجال الفن منا ، وسيكون له بذلك من الأثر فى حياتنا القومية أعظمه وأبقاه .

فى سبيل الأدب الرفيع (*)

كتبت فى أخبار اليوم مقالاً عن قصة الملاك الأسود للكاتب الفنلندى الكبير مايكا فالترى ، واقترحت فيه ترجمتها إلى العربية ، وعلى أثر ذلك بعث إلىّ السيد المحترم الأستاذ حامد القصبى مترجم (قصة المصرى - دنيا سنوحى) للكاتب الفنلندى نفسه ترجمة قدم لها الدكتور طه حسين ، ونوّه بما هى جديرة به موضوعًا وترجمة من التقدير . بعث إلىّ سيادته رسالة مطولة قال فيها إنه لم ينشر الجزء الثانى من قصة (دنيا سنوحى) لأن الجزء الأول لا يزال ولم ينفذ منه ما يرضيه ، رغم أنه لم يطبع منه عددًا كبيرًا ، وهو يعزو السبب فى ذلك إلى كثرة ما تصدره المطابع من قصص تثير الغرائز من الأدب الرخيص فيقبل عليها الشبان ، ويقترح أن تتدخل الدولة لعلاج هذا المرض ، ويشكر الحكومة إذ رصدت مبلغًا كبيرًا من المال لترجمة الشوامخ من أدب الغرب ، وهو يقول فى رسالته إلىّ : وإنما يتحقق العلاج بالوسيلة الحازمة لا وسيلة سواها ، وهى أن تتدخل الدولة الرسمية بروح الثورة المصلحة للقضاء على روح الشر الذى استفحل ، وجاوز الكتاب المطبوع والقصة المنشورة ، وامتد إلى شاشة السينما وإلى مسرح التمثيل وإلى سائر المجالات التى يستجم فيها العقل ، ويخلد الفكر ، وتتفتح البراعم ، وتتخلق الطباع .

والذى أعلمه ويعلمه الأستاذ القصبى أن المطبوعات وما تنشره الشاشة البيضاء وما تعرضه المسارح ، كل ذلك محل رقابة من جانب الدولة ، والرقابة اليوم أشد بحكم الظروف التى تتخطاها مصر منذ سنة ١٩٣٩ ، ومن حق الأستاذ القصبى أن يوجه

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ١٩ مارس ١٩٥٦

اللوم إلى من يراقبون المطبوعات وغير المطبوعات مما يعرض على أنظار الجمهور وأسماعه ويكون نابياً يَمجّه الذوق أو مثيراً للغرائز الدنيا فى الإنسان .

وهذه الرقابة حالة استثنائية مصيرها إلى الزوال ، فغير مصر من البلاد الراقية لا ترضى عن أية رقابة على المطبوعات. والأستاذ القصبى يذكر كيف ثارت فرنسا حين نُشِرت قصة "الغلابة" فاعتبرتها الدولة مثيرة للغرائز ، وحرمت مؤلفها من نيشان "الليجون دونير" الذى كان يتحلى به . ومن قبل ذلك رُفعت الدعوى الجنائية فى فرنسا على الكاتب الكبير فلوبير حين نشر قصته (مدام بوفارى) فأصدر القضاء حكمه ببراءة المؤلف . لكن فرنسا لم يكن فيها رقابة على الصحف ولا على المطبوعات، فلم يكن سائغًا توجيه اللوم إلى رقابة لا وجود لها .

وفى اعتقادى أن على الكتّاب والأدباء الذين يقدّرون الأدب الرفيع حق قدره تبعة ما هو حادث ويشكو منه الأستاذ حامد القصبى وغيره من أولى الرأى. فالنقد الأدبى فى الأمم هو الذى يربى ذوق الجمهور ، وهو الذى يدفع الأدب الرخيص ويصدر حكمه القاسى على إثارة الغرائز الدنيا ، فللجمهور عذره إذا لم يميز بين الخبيث والطيب مما تصدره المطابع أو يعرض على الشاشة البيضاء أو على المسرح . ولو أن النقد صحيح الحصيف وجّه الجمهور الوجهة الصحيحة ، لكان أدق تقديرًا لما يقرأ وما يرى ، ولكان أكثر إقبالاً على الأدب الرفيع . ولست أريد بهذا أن ألغى مسئولية الدولة من كل تبعة فيما يتحدث عنه الأستاذ القصبى . وأيسر واجب على الدولة أن تشجع الأدب الرفيع مؤلفًا كان أو منقولاً عن المؤلفات فى البلاد الأخرى ، ووسائل التشجيع كثيرة . ولقد كان لتشجيع رجال الحكم فى القرن السابع عشر لكبار الكتّاب والشعراء أثره فى فرنسا وفى غير فرنسا ، ومن اليسير أن نحذو حذو تلك الدول فى فترة الانتقال الدقيقة التى تتخطاها بلادنا فى الوقت الحاضر.

إن الأدب عنصر أساسى من مقومات الحضارة فى كل أمة من الأمم ، وبقدر ما يبلغه الأدب من السمو تكون حضارة الأمة التى يظهر فيها . وإذا وجب أن تعنى الدولة باقتصاديات الأمة أو باجتماعياتها ، فواجب كذلك أن تُعنى بالأدب ، وهو غذاء الأمة الروحى ، ومعيار سموها فى الحضارة . فلعل هذه الصيحة التى صدرت من أعماق الأستاذ حامد القصبى تلقى سميعًا يمحصها ، فيسلك أقوم السبل تشجيعًا للأدب الرفيع ، وقضاءً على الأدب الرخيص .

ازدواجية اللغة

والمصطلحات العلمية والفنية (*)

حضرات الزملاء الكرام :

يوم افتتح هذا الأسبوع الأدبى خطبنا رئيس أهل القلم فى لبنان الأستاذ صلاح لبكى ، فقال إن جمعيته لم تدعنا لمتعة ، بل لعناء . وقد بذلتم حضراتكم طوال هذا الأسبوع الأخير جهداً لعله هو العناء الذى أشار إليه داعينا الكريم . وإننى لأحسبكم جميعًا قد شعرتم بما شعرت أنا به من أن هذا العمل إن صح أن يسمى عناءً ، كان هو المتعة بذاتها . وأى متعة لرجل الأدب أشهى وأصفى من أن يتحدث أو يسمع لما يمس الأدب والأدباء ، ابتغاء الرقى بهما إلى الكمال أو الدنو بهما على الأقل من هذا الكمال .

لقد تحدث المحاضرون والمعلقون والمناقشون فى أمور تشغل بال الأدباء والكتّاب ، بل تشغيل بال القراء أنفسهم فى البلاد العربية كلها . ولقد تحدثوا فى ازدواجية اللغة بين الفصحى والعامية ، وتحدثوا فى المصطلحات الفنية والعلمية وما يجب لتوحيدها فى العالم العربى كله ، وتحدثوا عن موقف الدولة من الأدباء وموقف الأدباء من الدولة والمجتمع العربى ، وتحدثوا عن حرية الفكر ، وتحدثوا عن الروابط بين الأدباء فى البلاد العربية وضرورة توثيقها ، وتحدثوا عن الفنان بين الواقع والإلهام . تحدثوا فى ذلك حديثًا مستفيضًا وناقشوه مناقشة قيّمة ، ونشروا خلال أحاديثهم ومناقشاتهم جوًا أدبيًا أثار فى نفوسنا من أسباب اللذة والمتاع ما جعلنى أتمنى لو أن كل عناء الحياة يمتعنا هذا المتاع العقلى والروحى الدسم ، كما جعلنى أنظر إلى مستقبل الأدب مغتبطًا

(*) كلمة الدكتور هيكل فى "أسبوع الأدباء العرب" الذى أقيم بلبنان فى سبتمبر ١٩٥٤

متفائلاً ، وأن أنتظر اجتماعاتنا المقبلة فى العواصم العربية المختلفة مشوقًا إليها سعيدًا بانتظارها .

واسمحوا لى قبل أن أبدى رأيى فى ما دار فى هذه القاعة أن أذكر أننى اختلط علىّ الأمر غير مرة ، أنحن فى اجتماع للصحافة أم فى اجتماع للأدب ؟ لقد نُعت أسبوعنا بأنه أسبوع أدبى ، ثم كان مدار الحديث فى كثير من الأحيان أكثر اتصالاً بالصحافة . وكنت أود وقد اجتمعنا للأدب أن لا يتناول حديثنا غيره ، ولست أريد بذلك أن الصحافة لا تستحق عنايتنا ، ولا أحسب أحداً يظن بى مثل هذا الظن ، وقد مكثت فى الصحافة زهاء عشرين عاماً من حياتى . لكن مجال الصحافة غير مجال الأدب ، فالآثار الأدبية فى طبعها البقاء ، والآثار الصحفية فى طبعها التجدد . والأدب السياسى نفسه يختلف عن الصحافة السياسية اختلافاً كبيراً ، فالأدب السياسى يستصفى من حياة الجماعة فى تطورها ما يريد الأديب أن يديم أثره فى النفوس . أما الصحافة السياسية فلها فضل غير هذا الفضل ، فهى الغذاء اليومى للشعوب فى سعيها للحرية وللاستقرار ، وللطمأنينة ، والرخاء . وهذا السعى متجدد يختلف من يوم إلى يوم أو من عام إلى عام ، وما تنشره الصحف من أدب خالص ليس من طبيعة عملها ، بل هو ضيف طارئ عليها تفسح له أعمدتها ، ولكنها تستطيع أن تستغنى عنه ، بل هى تؤثر بالفعل ان تتناول الأحداث المتجددة على نشر هذا الأدب .

وأنتقل الآن لأذكر رأيى فى موضوعين عولجا فى هذا المؤتمر على خير وجه . هذان الموضوعان هما : ازدواجية اللغة والمصطلحات العلمية والفنية . ولى رأى فى الموضوعين قديم ، فأنا أومن بأن التطور الطبيعى هو الكفيل بحل المشكلتين ، وأن علاجهما بوضع قواعد ثابتة لهذا العلاج لن يغنى عن هذا التطور ولن يقف فى سبيل فعله . فقد نشأت المشكلتان عن الجمود الذى أصاب الأمم العربية خلال القرون الأخيرة حين حكمها الأجانب غير العرب ، وتسلطوا على مصائرها ، واحتقروا لغتها ، واللغة كما تعلمون هى المشخص الأول للكيان القومى ، فما نهضت الأمة العربية ، وألقت عن عاتقها نير ذلك التحكم الأجنبى كان طبيعياً أن تعود إلى مشخصاتها وحيويتها . وقد كان ما عاد إلى اللغة من هذه الحيوية عظيماً وقوياً وحافزاً إلى سرعة التقدم ، وقد أعان التطور العالمى هذا التقدم ، وإن كان مجهود الشعوب العربية أساسه ، فقد قربت

الصحافة والإذاعة والمواصلات السريعة بين اللهجات العامية فى البلاد المختلفة ، وقرّبت هذه العوامل مضافًا إليها انتشار التعليم بين اللهجات العامية واللغة الفصحى . والذين زاروا هذه البلاد قبل الحرب العالمية الأولى وتكررت زيارتهم لها من بعد ولغيرها من البلاد العربية ، قد شعروا بذلك شعوراً كالذى لمسته أنا بنفسى لكثرة ما ترددت على لبنان وسوريا ، وأثناء زيارتى للحجاز والعراق وفلسطين . هذا ولما يمضى على نهاية الحرب العالمية الأولى غير ثلث قرن . أما المصطلحات الفنية والعلمية فالكتّاب والجامعات هم الذين غذوا اللغة منها بحظ وفير ، وسيكون هذا الحظ أعظم وفرة فى المستقبل لأن نهضتنا الفنية والعلمية تزداد على الأيام قوةً واطراداً ، فإذا عاونت المجامع ، أو اللجان ، أو ما إليها هذا الجهد الذى يقوم به الكتّاب وتقوم به الجامعات فليس يجوز أن يزيد عمل هذه الهيئات على المعاونة ، ولا يجوز بحال أن تكون له صفة الفرض والإلزام . فكل فرض ديكتاتورى مقضى عليه بالفشل فى كل ميدان يتعرض له .

هذا فأما عن واجب الدولة نحو الأديب ، وواجب الأديب نحو الدول والمجتمع العربى ، فإننى أرى أن واجب الدولة يجب أن يقتصر على تحطيم القيود التى تقف بين الأديب وحريته المطلقة ، فإن هى رأت إلى جانب هذا التحطيم أن تشجع الأدب لا الأديب على أنه بعض مقومات الأمة فذلك واجبها . أما واجب الأديب نحو الدولة ونحو المجتمع فمتروك لتقديره هو لتقديره الحر المطلق إن شاء أن يكون أدبه سياسيًا فذلك شأنه ، أو شاء أن يكون أدبه عاطفيًا أو فنيًا أو غير ذلك فهذا شأنه أيضًا . وضميره وحده هو الذى يملى عليه واجبه ، فالأدباء أسمى قدراً لواجبهم نحو وطنهم من كل من سواهم ، لأنهم أدق من كل من سواهم حسًا بملامسة الحوادث والانفعال بها والفاعلية فيها . فإذا انصرف شعورهم إلى غير هذه الناحية من الأدب فلا يجوز الوقوف فى سبيلهم . فالأدب موهبة يوجهها القدر فى نفس الأديب إلى الناحية التى تمتاز فيها . ومن الجناية على الأدب ، بل من الجناية على الأمة ، أن يطالب الأديب بترك ما هو ممتاز فيه ، ليهبط إلى ميدان غيره أقدر منه على معالجة مشاكله .

أمّا والاجتماع الذى ضمنا هو فى مقدمة الوسائل ، لتوثيق العلائق بين الأدباء فى البلاد العربية المختلفة . أمّا وقد اتفقنا على أن نعقد مثل هذا الاجتماع سنويًا فى عاصمة عربية ، فقد حلت مشكلة الروابط بين أدباء العرب نفسها فلا حاجة بى للتعليق عليها

بقيت لى كلمة عن حرية الفكر وحرية التعبير عنه ، فهذه الحرية أمّس شىء بقلبى وأعزُ شىء على نفسى . إنكم معشر الأدباء فى الأمم العربية شأنكم شأن غيركم من الأدباء فى الأمم الأخرى ، أنتم الذين حملتم وتحملون مشعل الحرية تريدون أن يستظل الناس جميعًا بنورها ، أنتم الذين حاربتم وتحاربون الطغيان والاضطهاد حيثما نزل وأينما كان ، أنتم الذين رفعتم وترفعون اللواء الخفاق تسيرون به جيشًا محاربًا بقوة القلم وبقوة الإيمان ، لتحطيم قيود الظلم عن كل مظلوم فى كل بقعة من بقاع الأرض . أفترضون وذلك شأنكم أن يرد على حريتكم قيد من القيود ؟ . كلنا نعلم أن للحرية حدًا واحدًا . ذلك أن يتساوى الناس جميعًا فى المتاع بها ، فلا تتجاوز حريتك إلى الإضرار بحرية غيرك ، فأما فيما وراء هذا الحد فيجب أن تكون الحرية مطلقة لا تعرف حدًا ولا قيدًا . أما وذلك شأن الحرية التى يتمتع بها الناس جميعًا فما بالكم بحرية الفكر وحرية التعبير عنه ، فالفكر هو الإنسان كما قال ديكارت فى كلمته المشهورة أنا أفكر فأنا موجود . فإذا حُرمنا حرية الفكر حُرمنا نعمة الوجود الإنسانى ، وأصبحنا كالعجماوات تسيّرنا الغريزة ، ويظلم من حولنا ضياء العقل .

وإننى حين أذكر حرية الفكر والتعبير عنه ، أذكر دائمًا الشعب البريطانى فى حدود جزيرته ، إنه لم يحتج يومًا إلى أن يضع للفكر والتعبير عنه حدودًا ، لأن حرية الفكر تنظم نفسها ولا حاجة بها إلى من ينظمها . ولا أفهم أن يقال إن الشعوب الراقية هى التى تستطيع أن تقدر حرية الفكر وتتمتع بها، بينما يجب أن توضع للشعوب الناهضة إلى الحرية قيود تحد منها ، فمثل هذا القول يقضى على نهضة هذه الشعوب فى مستهلها ، وهذه الشعوب أحوج إلى الحرية الكاملة من غيرها ولو أخطأت فى استعمالها .

فليكن قراركم الأول أيها الإخوان ، ولا بأس عندى بأن يكون قراركم الوحيد هو تأييد حرية الفكر والتعبير عنه على أوسع نطاق وأفسح مدى . فلا حياة لشعب لا يتمتع أدباؤه وكتابه المتاع الكامل بهذه الحرية . والأديب الذى تقيد حريته خير له أن يحطم قلمه لأن القلم المقيد لا يمكن أن يسمو إلى غاية إنسانية سامية .

وأشكر لحضراتكم حسن استماعكم ومنى لكم التحية وعليكم السلام .

اللغة والعلوم (*)

منذ أسابيع ألقى الدكتور محمد كامل حسين عضو مجمع اللغة العربية محاضرة بالمجمع عن اللغة والعلوم ، بحث فيها عن أصول اللغة منذ علم الله آدم الأسماء كلها إلى أن تكونت لغة العلوم شيئًا فشيئًا على التاريخ ، ثم ختمها بالكلام عن مشكلة اللغة العربية العامية ، ولم أسمع أنا هذه المحاضرة ، ولكنى قرأتها واسترحت إليها ، بل أعجبت بها .

والدكتور كامل حسين طبيب ، وهو متأثر لذلك فى بحثه بالطب والكيمياء أكثر من تأثره بما سواهما من العلوم . ونظريته أن لغة العلوم تختلف عن لغة التفاهم ، وإن كانت هى لغة الفهم ، وأنها لا تعنى بما تعنى به لغة التفاهم ولغة الأدب من التجاوب الموسيقى ، والجمال اللفظى، وإنما عنايتها بالدقة فى التعبير عما تريد التعبير عنه ليفهمه قارئها على وجهه الصحيح . وهى بهذه المثابة رموز للدلالة على المعانى التى ترمز إليها ، ولذلك تراها فى كثير من الأحيان تكتفى بما يكاد يكون إشارة إلى بحوث سابقة انتهت إلى نتيجة بذاتها ، حتى لتراها تعبر أحيانًا بالأرقام بدل أن تعبر بالحروف والألفاظ للدلالة على غرضها . فلفظ (٦٠٦) له فى اللغة العلمية مدلوله البعيد عن هذه الأرقام ، كما أنك تراها تعبر أحيانًا بالحروف الأولى لجملة كاملة كقولهم اليونسكو أو الناتو .

ويرى الدكتور كامل حسين حين يتكلم عن اللغة العلمية العربية أن ما يقوم به مجمع اللغة العربية من اختيار مصطلحات علمية لإثباتها فى المعجم الكبير الذى يعده

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ٢ أبريل ١٩٥٦

الآن عمل صالح لمعاونة رجال العلم ، ثم يقول : علينا أن نعد هذه الأداة إعداداً حسناً ، وأن نجعل اللغة العربية تحقق الناحية التي يريدها أهل هذه العلوم ، وهم يريدونها لغة حية صالحة . والقول الفصل في هذا لمحترفى العلوم ، فهم وحدهم الذين يقومون بالتأليف العلمى ، وعلى يديهم وحدهم تتقدم العلوم . وإذا أراد المثقفون إلماماً بهذه العلوم فعليهم أن يدرسوا هذه اللغة ، وليس على المحترفين من أهل العلوم أن يراعوا حاجات المثقفين ، فإن ذلك يفوت على الطائفتين ما يبغون .

وأنا أتفق مع الدكتور كامل حسين كل الاتفاق فى أن محترفى العلوم هم وحدهم الذين يقومون بالتأليف العلمى ، وأرتب على ذلك النتيجة المنطقية فى اعتقادى ، وتلك أن محترفى العلوم هم الذين عليهم أن يختاروا الألفاظ والمصطلحات العلمية . وإذا كان حقًا علينا أن نشكر للمجمع المجهود الذى يقوم به فى اختيار الألفاظ العلمية . فيجب أن نعترف بأن مجهوده هذا لا يزيد على عمل تمهيدى ييسر لمحترفى العلوم عملهم فى إيجاد أدق مصطلح لما يريدون ، من غير أن يقيدهم بما يثبته المجمع فى معجمه ، وبخاصة بأن المجمع يتولى فى الواقع وحقيقة الأمر عملاً ضخماً تتولاه فى غير مصر من الأمم هيئات متخصصة لا مثيل لها فى مصر .

ولست أذكر هذا على أنه اقتراح ، بل هو الواقع الذى سيكون ، والذى لا مفر منه فالألفاظ العلمية ليست ولم تكن فى يوم من الأيام جامدة . وحسبك أن تقارن بين نصوص القانون المدنى الجديد فى مصر ، ونصوص القانون المدنى الذى سبقه ، لترى العدد الكبير الذى استحدث من المصطلحات ، ومع ذلك لا يرضى رجال الفقه عن بعض هذه المستحدثات ويؤثرون عليها غيرها . والأمر كذلك فيما سوى الفقه والتشريع من العلوم والفنون . ألا يحملنا ذلك على أن نفكر فى إنشاء هيئات تضارع مثيلاتها فى البلاد الأخرى ، لتكون أدق إشرافًا على هذا التطور من مجمع واحد يقوم بأعباء خمس هيئات أو أكثر.

لقد طالما فكرت وفكر غيرى فى هذا الأمر . لكن بحث الدكتور كامل حسين فى اللغة والعلوم قد زادنى اقتناعاً به ، وفى اعتقادى أنه سيتحقق لا محالة عما قريب ، لأن تطورنا الثقافى والعلمى يدفع إليه ، ولأن حاجتنا إلى تحقيقه ماسة ملحة .

قصة من كورسيكا (*)

هى قصة أعادت إلى ذاكرتى ما قرأته قديماً من نوعها . كتبها مؤلف فرنسى ذكر فيها أن شقيًا من الفاتكين الكورسيكيين رزق ثلاث بنات ، ثم رزق ولدًا فتاب عن الشقاوة سرورًا بالطفل ، ثم أصبح من أتقياء الجزيرة . وشب الغلام وكان فى العاشرة من سنه حين ذهب أبوه مصطحبًا أمه إلى أقارب يولون ، وبينما الغلام يلعب عند باب بيتهم مر به شقى رجاه فى إلحاح أن يخبئه داخل المنزل لأن البوليس يطارده ، وبعد أن قدم رشوة له أشار له الغلام إلى كومة قش لا يظهر من يختفى فيها ، وبعد قليل جاء البوليس وسأل الغلام عن الشقى ، وذكّر رئيس القوة الغلام بما بينه وبين والد الغلام من قرابة ، وتردد الغلام زمنًا حتى قُدمت له رشوة أدسم من رشوة الشقى فأخذها بعد تردد ، وأشار بإصبعه إلى مخبأ الشقى فى كومة القش ، فانتزعه البوليس منها ، وقاده معه إلى حيث يحاكم ، وألقى الغلام إلى الشقى بالرشوة التى أعطاه إياها ، فلم يأخذها ، وليس له من أخذها أية فائدة .

وسار البوليس بالشقى ومعهم الغلام ، ولم يبعدوا حين لقيهم والد الغلام ووالدته . ووقف والد الغلام مع رئيس البوليس يحدثه ، فلما علم أن ولده هو الذى أرشد عن الشقى فى مخبئه ، وسمع البوليس يثنى لذلك على الغلام ثناءً مستطابًا لم يقل شيئًا . وانصرف الرجل وزوجه ، وتبعه غلامهما إلى البيت. أما رجال البوليس فقادوا الشقى إلى حيث يأخذ القانون معه مجراه .

وبلغ الرجل بيته ، فأمر زوجه أن تبقى به وأمر غلامه أن يتبعه ، وذهب بالغلام إلى غابة قريبة من البيت ، ثم أمره أن يصلى لله . وأيقن الغلام أنه مقتول لا محالة ، لأنه خان

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ٢١ سبتمبر ١٩٥٦

عهد الشقى الذى وشى به إلى البوليس ، فتضرع إلى أبيه وبكى ، وأقسم أنه لن يعود إلى مثلها . ولم ينفعه شىء من ذلك كله ، وانتهى به الأمر أن صلى لله ، فلما انتهى من صلاته صوّب إليه والده عياراً ناريًا أرداه قتيلاً ثم ذهب إلى البيت ليجىء بمسحاة ليدفنه . ورأته زوجته فسألته ما صنع فكان جوابه : هذه أول مرة يرتكب فيها أحد أفراد أسرتنا خيانة توجب أن يجزى عنها ولم يزد ولم تقل هى شيئا .

ذكرتنى هذه القصة بما قرأته من قبل عن قسوة أهل كورسيكا قسوة لا تليِّن منها الأبوة ، وذكرتنى بالقائد العظيم نابليون ابن كورسيكا ، وجعلتنى أشعر بأن للوسط الطبيعى للناس أثراً لا سبيل لهم إلى التخلص منه .

العالم القديم والعالم الجديد (*)

ألف الناس أن يطلقوا اسم العالم الجديد على الأمريكتين ، لأنهما اكتشفتا فى أواخر القرن الخامس عشر ، وأن يطلقوا اسم العالم القديم على آسيا وأفريقيا وأوربا . والتجوز فى هذه التسمية ظاهر ، فالعالمان كلاهما موجودان منذ بدء الخليقة . وكون العالم القديم قد اكتشف أمريكا لا يغير من هذه الحقيقة ، ولا يجعل منها عالمًا جديدًا . ويمكن للهنود الحمر إذا نحن أبحنا هذا التجوز ، أن يسموا آسيا وأفريقيا وأوربا العالم الجديد لأنه جديد بالنسبة لهم ، كما أن أمريكا جديدة بالنسبة لهذا العالم الذى يسمى نفسه القديم ، وهذه التسمية النسبية لا تلائم الحقيقة فى شىء .

ويزيد هذا الأمر توكيدًا ما وجد فى المكسيك من آثار قديمة تشبه الآثار الموجودة بمصر . ومعنى هذا أن العالم الذى نسميه الجديد قد عرف الحضارة قبل أن تعرفها أقطار كثيرة من العالم القديم ، وهذا يشهد بأن التجوز فى التسمية لا مسوغ له على الإطلاق .

ولكن ذلك ليس معناه أن العالم ليس فيه قديم وجديد ، ولكن معناه أنّا لا يجوز لنا أن نجعل أساس هذه التسمية مسألة نسبية بحتة كاكتشاف أمريكا، بل يجب أن نلتمس للتسمية أساسًا ثابتًا يمكن الاطمئنان إليه . وعندى أن خير أساس فى هذا الصدد هو السبق فى الحضارة ، فالعالم القديم هو أقدم البلاد حضارة ، وأرسخها فى المدنية قدمًا ، والعالم الجديد هو الذى عرف الحضارة بعد ذلك بعدة قرون .

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٥٦

هذا فى اعتقادى أساس سليم ومقياس صادق للتسمية بالقديم والحديث . وقد ينتهى بنا هذا المقياس إلى اعتبار أمريكا العالم الجديد ، لأن أهلها آخر شعوب الأرض حضارة . لكن ذلك لا يغير من أن المقياس الحالى فيه تجوز كثير .

أحسب هذا الكلام واضحًا كل الوضوح . ولست مع ذلك أطمع فى أن يؤدى إلى نتيجة ، أو يغير ما ألف الناس من تسمية العالم القديم والعالم الجديد ، فالناس أشد حرصًا على ما ألفوا ، وهم لذلك يقولون خطأ مشهور خير من صواب مهجور .

وأنا أريد بما قدمت أن لا يتعصب الناس لشىء لمجرد أنهم ألفوه ، أو لغير أنهم ورثوه عن آبائهم . فما أكثر ما أثبت العلم خطأ نظريات آمن بها الناس عصورًا وأجيالاً . وما أكثر ما هدمت نظريات علمية قامت عليها حضارات وعقائد ، فلنكن أكثر تسامحًا فلا شىء خير من التسامح يحبب إلينا الحياة وما فيها .

مقارنات (*)

الذكاء والذاكرة .

عقد الكاتب الفرنسى الكبير فى إحدى قصصه فصلاً قارن فيه بين الذاكرة والذكاء ، وأيهما أجدى على صاحبه . وقد أبدى فى مستهل كلامه أن المقارنة متعذرة ، لأنها بين شيئين مختلفين لا يشتركان فى شىء يمكن اعتباره أساسًا للمقارنة ، لكنه رأى بعد ذلك أنه لا يستطيع أن يرى الذكاء والذاكرة منفصلاً كلاً منهما عن الآخر تمام الانفصال . وكل الذى نستطيع أن نقوله أن مقاديرها تختلف من شخص إلى شخص ، وبين شعب وشعب . فإذا وضعنا للذكاء مائة وللذاكرة مائة ، وكان أحد الأشخاص يتمتع بثمانين فى المائة ذكاء وثلاثين فى المائة ذاكرة ، وكان غيره يتمتع بنسب تختلف عنه ، ولكنا لا نستطيع أن نتصور شخصًا عديم الذاكرة إطلاقًا أو عديم الذكاء إطلاقًا .

والمقارنة متعذرة بالفعل لسبب أساسى ، فصور الذكاء تختلف ، وصور الذاكرة تختلف. فمن الناس من عندهم ذاكرة قوية فى الألوان ، وآخرون ذاكرتهم قوية فى الأصوات وهلم جرا. والذكاء كذلك يختلف ، فمن الناس من هم أذكياء فى التجارة ، وفيهم من هم أذكياء فى العلم أو فى الاختراع . ويتعذر أن يعقد الإنسان مقارنة منتجة بين هذه الصور والألوان المختلفة من الذكاء والذاكرة .

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٥٦

الذكاء والجمال .

عرفت فى شبابى الباكر شقيقتين كانتا تلميذتين فى المدرسة السنية . وكنت أراهما آخر كل أسبوع . وقالت لى الصغرى ذات يوم فى شىء غير قليل من الزهو : أتعرف ما قالته لى معلمتنا اليوم. قالت أننى أجمل من أختى ، وكانت أختها ذكية وكانت متفوقة على قريناتها دائمًا ، لكن الصغرى لم تعبأ بذلك بعد أن سمعت أنها أجمل من أختها الكبرى .

وأحسب أن ذلك شأن الجنس اللطيف جميعًا ، فالجمال عندهن فى المكانة الأولى . وهن لا يعنين بأن الجمال ينوى بتقدم السن ، فهن لهن الحاضر حسبهن جمال اليوم عن التفكير فى مصير الغد .

أما الرجال فلا أحسبهم يقدّرون الجمال إلى جانب الذكاء ، لأن الذكاء هو وسيلتهم إلى التقدم فى الحياة ، وذو الجمال من الرجال يعنون مع ذلك بجمالهم لأنه وسيلتهم إلى التقرب من الإناث ، وهذا التقرب له أهمية بحكم الطبيعة وبحكم الهوى ، فمن غير المعقول ألا ينال نصيبًا من عنايتهم .

لكنهم أكثر من النساء تقديرًا لما يجنى تقدم السن على الجمال ، وإن آمن أكثرهم بأنه أطول عمرًا من جمال النساء .

وأحسبهم على حق حين يقدرون الذكاء ويرتفعون به فوق أى اعتبار آخر . فهو عونهم فى الحياة طول العمر .

أدب القصة (*)

القصص أقدم فنون الأدب ومن أكثرها إلى اليوم ذيوعًا وانتشارًا . اعتمدت عليه الكتب المقدسة فى الأمم المختلفة لنشر دعوتها وتدعيم رسالتها . وهو لا يزال إلى اليوم أكثر ألوان الأدب إنتاجًا واستهلاكًا . وألوان القصص كلها تستوى فى ذلك . فالقصة المسرحية ، والقصة المرسلة ، والقصة الشعرية ، والقصة النثرية ، والقصة القصيرة والقصة الطويلة ، والقصة الواقعية والقصة الخيالية ، هذه الألوان وما يندرج تحتها أكثر من سائر فنون الأدب ذيوعًا . فلا الرسالة ، ولا المقامة ، ولا الشعر غير القصصى ولا ما إلى ذلك من فنون الأدب يلقى ما تلقاه القصة من إقبال عليها وإنتاج لها . هذا ما يلاحظه كل إنسان فما سره وما علته ؟ .

وقبل أن أتناول هذا السر بالحديث أود أن أذكر أن ما قلته عن أدب القصة يصدق فى عهود رقى اللغة وازدهارها ، كما يصدق فى عهود تدهورها وانحلالها. فى هذه العهود الأخيرة ترى القصاصين المتجولين يتنقلون من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد ويكادون يحفظون عن ظهر قلب هذا القصص القديم والخيالى ، فيرتلونه على الناس ويثيرون به حماستهم إلى حد يثير الضحك أحيانًا ، وسبب رواج صناعة القصاصين فى عهود انحلال اللغة أن قارئيها وكاتبيها يصبحون قلة ، وأن الجماهير تتوق إلى سماع القصص الذى يلائم ثقافتهم المحدودة . أما فى عهود ازدهار اللغة ورقيها ، فإن القصة تصبح فنًا جميلاً بكل ما تنطوى عليه كلمة الفن الجميل من معنى ، ويزداد عدد

(*) جريدة أخبار اليوم ، بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٥٦

القارئين الذين يقدّرون هذا الفن الجميل ، ثم لا تكون هناك حاجة للقصاصين المتجولين إلا فى أوساط محدودة .

ونتحدث الآن عن السر في ذيوع القصص وانتشاره أكثر من غيره من سائر فنون الأدب . وحسبك لتعلم مبلغ هذا الذيوع أن تعرف أن ما يطبع ويوزع من القصص فى فرنسا يعادل قصة كل يوم، أى أكثر من ثلاثمائة وستين قصة فى السنة ، وأن ثلاثة أرباع هذا العدد قليل الحظ من الطرافة والدقة الفنية . يبقى لدينا مائة قصة تقريباً لها حظ محمود من الطرافة والامتياز . وليس هناك بين فنون الأدب جميعًا ما له هذا الحظ الذى للقصة. فلا الرسائل ، ولا المقامات ، ولا النقد الأدبى نفسه ذائع هذا الذيوع منتشر هذا الانتشار . وهذا فى رأيى طبيعى لاعتبارات عدة ليس ضرورياً أن نعددها جميعًا ، وحسبنا أن نذكر أهمها وأكثرها بروزا أمام النظر .

وفى مقدمة هذه الأسباب أن للناس فى طفولتهم وصباهم وشبابهم ميلاً واضحًا للاستماع إلى القصص ولقراءته ، يستوى فى ذلك القصص الواقعى ، والقصص الخيالى ، وتستوى فيه الأساطير والخرافة ، مع فارق فى الميل يختلف باختلاف السن . وأنت حين ترى الأم أو الجدة تقول لأطفالها ، أنها ستقص عليهم قصصًا طريفة تراهم يهرعون إليها ، ويجلسون حولها ، ويمضون الوقت الطويل فى الاستماع لها حتى يغلب بعضهم النوم . فإذا تقدم هؤلاء الأطفال إلى الصبا وتعلموا القراءة بدأوا يقتنون لأنفسهم من هذه القصص ما يقضون فى قراءته الساعات والأيام . ويظل ذلك دأبهم زمنًا غير قليل. أذكر أن المرحوم خليل بك صادق صاحب قصة الشعب كان يصدر قصصًا مترجمة كل أسبوع باسم قصص الشعب ، فكان لها من الرواج بين الشبان ما لم يكن لنوع آخر من الكتب، لأن نفوس الشباب تظل تهوى إلى القصص حتى يتخصصوا فى علم أو فى فن بذاته ، فلا يسمح لهم وقتهم بعد ذلك لمطالعة القصص . وهذا بطبيعة الحال مما يدعو إلى رواج القصة وانتشارها ويدعو من أوتوا موهبة كتابتها إلى الإنتاج فيها ، فإذا بلغت هذه الموهبة عندهم حد الإلهام والإتقان ، فأقبل الناس على ما يكتبون زادهم ذلك تشجيعًا على المضى فى الكتابة حتى تصبح مهنة لهم يعملون فيها طول حياتهم .

ومن أسباب ذيوع القصة ووفرة إنتاجها كذلك ، أنها تحتمل أكثر من سائر فنون الأدب البلوغ بالأسلوب غاية الكمال ، وتتناول الموضوعات المختلفة بهذا الأسلوب البارع . فالوصف والتحليل ، وتصوير الحياة ، ما كان منها عادياً سلساً ، وما كان شاذاً غير مألوف ، وما كان من قبيل الواقع أو من قبيل الخرافة . وهي تتناول ذلك كله ، وتتناول ما إليه من مثله في يسر وسهولة لا تتأتيان لغير القصة من فنون الأدب . فأنت ترى فيها صورة النهار والليل ، وصورة الصخور والمطر ، وصورة الصحة والمرض ، وصورة المرح الطروب والأسى الفاجع ، وترى صوراً من آمال الناس وآلامهم مرسومة بما لا مزيد عليه من دقة وإبداع . والقصة مع ذلك مسرح للأفكار والتأملات التي لا ترهق الذهن ولا يعي بها التصور . وأنت لا تجد هذا الفيض من الصور والتأملات التي تقع في متناول كل قارئ إلا في القصة ، طويلة كانت أو قصيرة ، واقعية كانت أو خيالية .

وفي هذا التنوع رياضة للذهن تستهوي القارئ وتزيده تعلقاً بما يجد فيه هذه الرياضة . هذا إذا كانت القصة من النوع الواقعي الذي يصور الحياة بآمالها وآلامها ، فأما إن كانت القصة خيالية ، أو كانت من نوع الخرافة ، أو كانت تبعث الأساطير القديمة إلى الحياة ، فإنها تنقل القارئ معها إلى الأجواء التي حرص المؤلف على بعثها ، فإذا كان المؤلف بارعاً كان هذا الانتقال إلى الأجواء المختلفة يبعث سروراً للنفس قل أن يعدله سرور .

وهناك إلى جانب ما أشرت إليه من ألوان القصص لون آخر ليس أقلها إثارة للنفس . تلك هي القصة التاريخية، وهي التراجم التي يصور بها المؤلف حياة من تركوا في سجل الحياة أثراً باقياً . هذه القصة التاريخية وهذه التراجم إذا كانت دقيقة حملت إلى النفس صوراً من حياة الإنسانية كثيراً ما لا تزال باقية الأثر في وجودنا الإنساني ، وهي بهذه المثابة تكون أبقى في النفس من كتب التاريخ ومن التراجم الجافة .

هذه هي طائفة من الأسباب التي جعلت القصة أكثر فنون الأدب نتاجاً وجعلت الإقبال عليها أكثر من الإقبال على غيرها من سائر تلك الفنون . والقصة العربية ما تزال مع ذلك أقل من غيرها عرضاً وطلباً ، لأن الكتّاب لم يستوفوا حريتهم القصصية إلا من عهد قريب . على أن البشائر تدلنا على أنّا نسير في الطريق الذي سار العرب

فيه أيام كانت الحضارة الإسلامية تسود العالم ، ونسير فى الطريق الذى تسير فيه القصة فى أكثر بلاد العالم حضارة اليوم . وأكبر رجائنا أن ينهض هذا الفن الممتاز من فنون الأدب ، وأن يبلغ فى إنتاجه وفى الإقبال عليه ما بلغه فى أرقى الأمم حضارة وحرية .

الأصل والترجمة (*)

عاش المرحوم فتحى زغلول باشا فى النصف الأخير من القرن الماضى وفى العشرة الأولى من هذا القرن العشرين . وكان رجلاً معروف الذكاء ، ضليعًا فى القانون ، متمكنًا من اللغتين العربية والفرنسية. قضى حياته فى مناصب الدولة بوزارة العدل وبلغ فيها منصب وكيل الوزارة ، لكن شهرته عند الجماهير لم تكن تتصل بحياته القانونية ، بل كانت تتصل بحياته الأدبية مترجمًا للكتب من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ترجمة ممتازة بأسلوبها ، وبقوة عباراتها ، وبسلاستها ، وحسن أدائها .

ولم أكن أعرف اللغة الفرنسية معرفة تمكننى من مقارنة ما بين أصل الكتب التى يترجمها والترجمة نفسها ، وكنت مع ذلك مغرمًا بهذه الكتب المترجمة ؛ لسمو أسلوبها وقوة عبارتها . فلما أتممت دراسة الدكتوراه بباريس ، وأتقنت اللغة الفرنسية ، وعدت إلى مصر كان الله قد اختار فتحى زغلول إلى جواره وفى سنة ١٩١٣ قال لى صديقى بهى الدين بركات أن فتحى باشا كان قد بدأ يترجم كتاب الفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر (الرجل بإزاء الدولة) من ترجمته الفرنسية إلى اللغة العربية ، وأن الأجل لم يمهله حتى يُتمه . ورأيت أن أقرأ الأصل الإنجليزى والترجمة الفرنسية ، وما أتمه فتحى باشا من الترجمة العربية فتركه ، ولم ينقل إلى العربية إلا نصفه ، واقترح علىّ أن نتم ترجمته ، وقبلت ما عرض علىّ ، ورأيت أن أقرأ الأصل الإنجليزى والترجمة الفرنسية وما أتمه فتحى باشا من الترجمة العربية حتى تكون ترجمتنا متسقة مع ترجمته . وقد دهشت أيما دهشة حين أتممت هذه القراءة ، فلم يكن ما ترجمه فتحى زغلول

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ٣١ أكتوبر ١٩٥٦

ترجمة ، بل كان إنشاء ، وكان مع ذلك يكاد يكون ترجمة حرفية تقابل فيها كل كلمة مثيلتها فى الأصل الأوربى . وبلغ منى الإعجاب بهذه المقدرة الممتازة حتى لقد عدت أسأل نفسى : أويمكن أن تبلغ الترجمة حتى تضاهى التأليف إلى هذا الحد العجيب !

وإنما ألقيت هذا السؤال على نفسى إذ ذاك لأننى كنت قد قرأت قبل ذلك بعامين كتاب لورد ملنر (إنجلترا فى مصر) ، وقرأته وأنا فى باريس فى ترجمته الفرنسية للاستفادة منه فى رسالتى للدكتوراه عن (دين مصر العام) . وقد أعجبت بأسلوب الترجمة وسياقها إعجاباً دفع إلى نفسى الاعتقاد بأن سلاسة اللغة الفرنسية وجمالها هى التى خلعت على الكتاب كل هذا الجمال. وأتممت رسالتى ثم سافرت إلى إنجلترا أقضى بها زمنًا ، وهناك حصلت على نسخة من الأصل الإنجليزى لكتاب ملنر وقرأتها فإذا هى أبلغ قوة وأبرع أسلوباً من الترجمة الفرنسية . عند ذلك آمنت أن الأصل فى أى كتاب لابد أن يكون أبرع من ترجمته .

وبقيت على هذا الرأى إلى أن اطلعت على ما ترجمه فتحى زغلول من كتاب سبنسر ، عند ذلك عدت أسأل نفسى : أحق أن الأصل خير من الترجمة دائمًا ، أم أن الأمر يتعلق بالمؤلف والمترجم أيهما أقدر .

وإن أسفت لشىء لشد ما كان أسفى لأن هذا الكتاب لم تتم ترجمته ، ولم ينشر لأسباب خارجة عن إرادتنا .

الفن والحياة (*)

ما هو الغرض الذى يتوخاه رب القلم أو رب الفن من عمله ؟ . هذا سؤال أجيب عليه غير مرة وأجيب عليه بأجوبة مختلفة . من ذلك أن تكون غاية الفن للفن ومنها أن تكون غاية الفن للحياة . ومن هذه الأجوبة كذلك أن يتوخى الكاتب أو رجل الفن الارتفاع بالجمهور إلى مستواه ، فلا ينزل هو إلى مستوى الجمهور على حساب الفن ، وثمة أجوبة أخرى لا أريد بهذا المقال استقصاءها أو الحديث عن كل منها .

ولم تكثر هذه الأسئلة والأجوبة عليها فى عصر ما كثرت فى هذا القرن العشرين . فأما قبل ذلك فقلما كانت تثار ، فإذا أثيرت لم يثر الرد عليها من العناية ما كان يثيره فى عشرات السنين الأخيرة . ونحن حين نرى مخلفات رجال الأدب والفن فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى أوربا ، إنما تستوقفنا آثار الخالدين منهم ، وهؤلاء الخالدون هم الذين وهبوا أنفسهم للأدب أو للفن الرفيع ، فلم يكن التفكير فى النزول إلى الجمهور يدور بخاطر أحدهم . كان ذلك شأن كتّاب البلاد الأوربية ورجال الفن فيها جميعًا . وأنت حين تذكر الموسيقيين أمثال بيتهوفن وفاجنر وموزار لا ترى واحداً منهم نزل إلى الجمهور أو فكر فيه ، وإنما فكر فى الفن للفن ، وأراد أن يسمو به إلى حيث لم يصل غيره ، وكذلك فعل رجال الفن فى الميادين الأخرى ، ميادين التصوير والنحت وغيرها .

ولكن هذا ليس معناه أن الجمهور لن يكن له نصيب من المتاع بالفن الرفيع ، ولكن معناه أن الفن الذى يستمتع به الجمهور من نوع آخر غير الفن الرفيع الخالد على الزمان ، مما تركه بيتهوفن فى الموسيقى ، أو جيتى فى الأدب ، أو أضرابهما فى سائر

(*) كتب الدكتور هيكل هذا المقال قبل وفاته بأيام ولم ينشر إلا فى مجلة الثقافة ، العدد ١٠٠ ، ديسمبر ١٩٨١

الفنون . فللفن الشعبى مميزاته فى التكرار وفى المبالغة فى المرح أو الترح ، ولكنه سريع إلى التغير مع الأجيال ، مما يجعل بقاءه وخلوده غير يسير ، لأنه لا يستند إلى قواعد ثابتة ، ولكنه يعبر عن مشاعر متغيرة حسب حظ الجمهور من الثقافة العقلية أو العاطفية أو ما إليهما من ألوان الثقافة .

أمَا وبين الفن الرفيع ، وبين الفن الشعبى هذا الفرق ، أفيستطيع رب الفن الرفيع أن يجعل غرضه من فنه رفع الجمهور إليه ، فإذا لم يستطع فهل يمكن التسامح معه إذا هو نزل بفنه إلى مستوى الجمهور ؟ . فى اعتقادى أن كلا الأمرين غير ممكن ، فالإنسان لا يصبح من أرباب الفن الرفيع بين عشية وضحاها ، بل لابد له من موهبة توجهه وجهة هذا الفن الرفيع ، ولابد له من دراسة دقيقة وتجارب شخصية ، ولابد ان تستمر هذه الدراسة وهذه التجارب أعوامًا . قد تكون هناك شواذ تغنيها الموهبة عن الدرس الطويل والتجارب المتكررة ، ولكن القاعدة هى كما قدمت ، فإذا سمت بالإنسان موهبته ومكنته دراساته من بلوغ المراتب العليا من الفن الذى أوتى موهبته ، لم يكن يسيراً عليه بعد ذلك أن ينزل إلى مستوى الجمهور ، وإن تعذر عليه أن يرفع الجمهور إلى مستواه .

ولسنا ننكر مع ذلك ما لهذا الفن الرفيع وأربابه من أثر فى نفس الجماهير . صحيح أنه لا يصل إلى السمو بها إلى الدرجات العليا فى تقدير الفن ، ولكنه من غير شك يهذبها ويترك فيها من الأثر شيئًا غير قليل. وهو كذلك بخاصة فى شأن ذوى النفوس الحساسة حتى بين الذين لم يتثقفوا . ومن ثم كانت رسالة الفن الرفيع عميقة الأثر فى حياة المجتمع كله .

يتضح مما تقدم أن الفن الرفيع والفن الشعبى سيبقيان دائمًا جنبًا إلى جنب ، وسيكون لكل منهما طابعه ، فطابع الفن الرفيع البقاء والخلود فى حدود ما نفهمه فى حياتنا الإنسانية من معنى الخلود ، وطابع الفن الشعبى التطور والتغير مع تطور البيئة وتغيرها بتعاقب الأجيال .

ولنلق الآن نظرة على هذا الفن الرفيع وغاية أربابه منه . أهم يريدون الفن للفن أم يريدونه للحياة ؟ . ويجب قبل ان نبحث ما يقال جوابًا على هذا السؤال أن نحدد معنى

عبارة الفن للحياة . فمن النقاد من يحسب أن المقصود بها حياة رب الفن ، لأن كثيرين من العباقرة الذين وهبوا الفن كل حياتهم وكل جهدهم قد عاشوا وماتوا بؤساء من الناحية المادية ، وصدق عليهم بذلك قول جان جاك روسو أنهم لو حصلوا فى حياتهم على ما شيدت به مقابرهم بعد موتهم لما عانوا من البؤس والإملاق ما عانوا . ولا أظن المقصود من عبارة الفن للحياة هو هذا المعنى المادىّ الوضيع ، بل أحسب المقصود أن يستلهم الفن الحياة ، وأن لا يبقى فى برج عاجى بعيداً عنها مستقلاً بمشاعر أصحابه دون اتصال بالحياة وحاجاتها . أما الفن للفن فيقصد به أن لا يستلهم رب الفن غير نفسه ، وأن يحاول جهده أن يسمو فوق كل اعتبار إلا الفن لذاته .

والتفريق بين الفن للفن ، والفن للحياة ليس مستطاعًا . فالفن مظهر من مظاهر الحياة ، فلا يمكن أن نتصوره مستقلاً عنها لا يستلهمها ولا يوجهها ، لكنه لا يتصل بالحياة الإنسانية وحدها ، بل يتصل بحياة الوجود كله . فالطبيعة الصامتة ، والمطر والبرق والرعد والصحو ، والطير والحيوان ، هذه كلها وسائر مظاهر الطبيعة كذلك تلهم رب الفن وتفسح أمامه السبيل ، ليأخذ منها ما يزيد فنه حياةً وسمواً ، وما يجعله جديراً بالبقاء والخلود .

وهذا الفن الرفيع الباقى على الزمان ، هو الذى يصل بين الأجيال بعضها وبعض وهو الذى يمهد لوحدة الإنسانية ، أو يمهد على الأقل لتفاهمها وتعايشها السلمى فى جو يمتعها بجمال الحياة والكون . وأنت حين تسمع اليوم قطعة من الموسيقى الخالدة ولو كان صاحبها قد وضعها منذ قرون ، وحين تقرأ أثرًا أدبيًا خالداً وإن تعاقبت الأجيال على كتابته ، وحين ترى صورةً أو تمثالاً من روائع الفن الخالدة ، تشعر بأن بينك وبين الموسيقى أو الكاتب ، أو النحات ، أو المصور صلة تسمو على اعتبارات الزمان . فإذا كان ذلك شأن المثقفين فى الشعوب المختلفة كان رابطة تجمعهم وتيسر تفاهمهم . ولن يفكر واحد من هؤلاء فى القطعة الفنية التى استمتع بها أهى من آثار الفن للفن أو الفن للحياة ، فهى تخالط روحه وحياته عبر الأجيال ، وتجعله يتمنى أن تزداد ثمرات الفن الرفيع ، سواء استلهمت الفن لذاته أو ألهمتها الحياة المحيطة برب الفن والتى تترك فى نفسه أثرًا عميقًا .

الأمل والمثل الأعلى (*)

زارتنا منذ أيام سيدة مهذبة واسعة الفكر ذات ثقافة رفيعة جابت البلاد العربية كلها وزارت أقطاراً كثيرة فى أوروبا وآسيا ، ولعلها زارت أمريكا كذلك . وفى أثناء الحديث ذكرت أنها دعيت يوماً لتحاضر شابات فى إحدى البلاد العربية ، فألقت عليهن قبل أن تبدأ محاضرتها سؤالا ، قالت : كثيرات منكن يبدو عليهن اليأس من نعمة الحياة ، فهل بينكن من تنظر للحياة من وجهها الباسم ، وما سبب عبوس الحياة فى رأى العابسات منكن ؟ .

وانتظرت السيدة الفاضلة جواب الشابات على سؤالها فلم تذكر واحدة منهن أنها سعيدة بالحياة ، وبدأت كل تشكو همها وألمها . قالت السيدة : وقد لاحظت أن هذه الحال ليست قاصرة على البلد الذى دعيت للمحاضرة فيه ، بل هى حال عامة فى بلاد الشرق العربى كله . وسببها فى رأى هذه السيدة أننا فى فترة انتقال من حياتنا الاجتماعية الماضية إلى حياة جديدة لم تتبلور بعد ، فلا تعرف الفتاة لها فى هذه الحياة الجديدة غرضاً ولا مصيراً . لقد كان لأمها وجدتها مصير محتوم ، ذلك أن تتزوج وهى فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها ، فإذا ما تزوجت فسرعان ما تشغل بأطفالها وبزوجها ، وتعتبر ذلك غاية حياتها ، وكل ما لها فى العيش من رجاء وأمل . أما اليوم فقد تفتحت أمامهن أبواب كثيرة . انفتح أمامها باب التعليم، وخرجت من حجابها إلى الحرية ، فبهرها هذا النور الجديد الذى واجهها فهى لا تعرف كيف تختط طريقها فى وهج ضيائه . وهذه الحيرة هى سبب ذلك الألم ، وتلك الكآبة

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ١٨ يونية ١٩٥٥

التى تعلو وجوه الشابات وتجعلهن يتمنين لو أنهن كن كجداتهن ، فبقين محجبات وتزوجن فى السادسة عشرة من سنهن ، فأغناهن ذلك عن التفكير فى المستقبل وعن الحيرة أمامه والخوف منه .

وهذا لا ريب تصوير دقيق لحال قائمة بنفس الكثيرات من بنات البلاد العربية فى العصر الحاضر . لكن حل المشكلة لا يكون بالعود إلى ما كانت عليه جداتهن ، فمثل هذا العود مستحيل ، ولو أنه حدث لثارت الشابات به أكثر من ثورتهن بحيرتهن الحاضرة . وإنما يتأتى حل المشكلة إذا قدرت الشابات أن الزواج حاجة طبيعية كالطعام والشراب ، وأن هذه الحاجة ضرورية لحفظ الحياة وحفظ النوع بالنسبة للإنسان والحيوان على سواء ، لكنها لا يمكن أن تكون مصدر سعادة إلا فى مراكز السعادة الدنيا . أما مراكز السعادة الرفيعة ، فإنما تكون بأن يصور الإنسان رجلا كان أم امرأة مثلاً أعلى تصبو إليه نفسه ويسعى لتحقيقه ، فينعم بما يبلغه منه ، ويرجو من ورائه خيراً لأمته وللإنسانية .

لقد تزوجت مدام كورى فلم تكن سعادتها بزواجها تعدل شيئًا إلى جانب سعادتها بما حققته للإنسانية من خير بعلمها واكتشافها الراديوم . وكثيرون ممن رأوا آثار الفنانة المصورة مدام لبران ، واستمتعوا بالصورة التى رسمتها لنفسها ومعها ابنتها يؤمنون بأنها كانت أكثر سعادة بفنها منها بأمومتها. ولا يذكر الناس باحثة البادية بما أنجبت ، بل بما كتبت . فإذا استطاعت الشابة المتعلمة أن تصور لنفسها مثلاً أعلى فى الحياة تأمل فى تحقيقه فتح الأمل أمامها باب السعادة . فالأمل فى تحقيق المثل الأعلى هو الذى يسعدنا ، لأنه يرتفع بنا إلى مرتبة الإنسانية . أما الضرورات الطبيعية فى الحياة فتسعد من لا يعرفون التفكير الإنسانى الرفيع .

عظماؤنا - ومقابرهم - وذكراهم (*)

كنت أزور صديقى الدكتور منصور فهمى منذ أيام ، فأدى بنا الحديث إلى ذكر محاضراته عن طيبة الذكر الآنسة ميّ ، وذكر قبرها ، وإلى ذكر قبور رجال خدموا بلادهم أجلّ خدمة ، ولا يكاد أحد يعرف مواقع هذه القبور اليوم ، ولا يكاد أحد يفكر فى زيارتها .

ذكر صديقى منصور أنه زار منذ سنوات عديدة قبر المرحوم عبد الرحمن الكواكبى صاحب كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ، ثم قال إنه لا يكاد اليوم يذكر مكان هذا القبر ، ويكاد يؤكد أن ما كتب عليه قد زال بفعل الزمن . ولهذه المناسبة ذكرنا الفيلسوف العالم ابن خلدون الذى دفن بمصر ولا يعرف أحد قبره ، ثم ذكرنا مقابر المسلمين فى صحراء القاهرة وعدم العناية بها ، إلا أن يقيم أهل المتوفى إن كانوا من ذوى الثراء داراً حول قبره أو قُبة فوقه . أما إن كان المتوفى فقيراً فقلّما يعنى أحد بقبره ، وإن كان من نوابغ العظماء .

وقد أعاد هذا الحديث إلى ذاكرتى حملة صحفية قام بها المرحوم الدكتور محمود عزمى منذ سنوات تزيد على العشرين لمناسبة مروره بمعرة النعمان فى سوريا ، وزيارته قبر أبى العلاء المعرى ، وما بعثه موقع القبر ، وما يحيط به إلى نفسه مما أثار تقززه . يومئذ طالب صديقنا عزمى بأن يشاد حول قبر الفيلسوف المعرى بناء يتفق مع جلال الذكرى التى تركها هذا الشاعر المفكر العظيم لمن بعده من الأجيال. ولقد زرت أنا معرة النعمان منذ سنتين زرت فيها قبر أبى العلاء ، فألفيت حكومة سوريا قد استجابت إلى نداء الدكتور عزمى منذ سنين ، فأقامت حول القبر بناءً فسيحًا ، وعدلت فى تنظيم

(*) جريدة الأخبار ، ١٩٥٥

الحي كله، واحتفظت بقبر الشيخ أبى العلاء كما كان . أعترف بأن البناء لم يعجبنى ، وأننى كنت أرجو أن يبدع فن العمارة فى إقامة هذا البناء بما يتفق مع عظمة الشيخ الفيلسوف ، وألا يُكتفى بجعل البناء بسيطًا بساطة الشيخ فى حياته . لكننى مع ذلك اغتبطت بأن استجابت الحكومة السورية فى ذلك العهد إلى نداء الدكتور عزمى وأقامت حول القبر مكتبة وفناءً فسيحًا ، وإن خلت المكتبة من الكتب ، وخلا الفناء من الزائرين.

وابن خلدون والكواكبى وسائر العظماء المدفونين فى صحراء القاهرة جديرون بالتكريم ، كما أن المعرى جدير به . ومن حق هؤلاء العظماء أن يعنى الباحثون والمنقبون بالتعرف إلى مواضع رفاتهم ، وأن تعنى الدولة بإقامة المنشآت التى تجعل ذكراهم حاضرة فى أذهان من يمرون بها ، وأن تتألف من العلماء وتلاميذهم جمعيات للعناية بآثار هؤلاء العظماء ودراستها . لقد كان أسلافنا يقيمون المساجد والمزارات للصالحين وذوى التقوى من آل بيت رسول الله، وجدير بنا أن نقيم المنشآت لهؤلاء العظماء الذين يرقدون فى ثرى وطننا رقدتهم الأخيرة تكريمًا لعلمهم وفضلهم ، وخدمة للأجيال المتعاقبة من أبناء هذه الأمة وأبناء سائر الأمم العربية .

لقد ألِف الناس فى هذه البلاد وفى غيرها أن يزور الأحياء قبور موتاهم فى المواسم والأعياد ، وأن يتصدقوا عندها إعلانًا لما بين الأحياء والذين سبقوهم إلى الحياة الآخرة من صلة لم ينسها هؤلاء الأحياء . والعظماء أقرباء لبنى الوطن جميعًا على تعاقب أجيالهم ، وما خلفوا من ميراث قد أفاد منه كل واحد من أبناء الوطن فائدة مباشرة أو غير مباشرة . فإذا كانت الأسرة الواحدة تحتفى بالذين سبقوها إلى جوار الله من أسلافها ، فحق على الأمة كلها أن تحتفى بهؤلاء العظماء الذين ورّثوها علمهم ، أو فضلهم ، أو فنهم ، أو ما إلى ذلك من ثمين آثارهم .

فهل لى وأنا أكتب هذه الكلمة أن أطمع فى أن يتولى الباحثون شيبًا وشبانًا تحديد مواقع هؤلاء العظماء ، وأن تتولى الدولة تشييد آثار تكرمهم بها ، وأن تتألف جماعات علمية ، أو فنية ، أو أدبية تحافظ على آثارهم وتنشرها . إن ذلك يكون

أجلّ خدمة تؤدى للأحياء ، فضلاً عما فيها من اعتراف بالفضل لأصحابه على نحو يشجع الناشئين على الاحتذاء بالعظماء وأسلافهم، ويضاعف من إنتاجهم فى خدمة وطنهم .

جبران خليل جبران

يدعونى ما سبق إلى ذكر محاضرة ألقاها مساء الجمعة الماضى بالقاهرة الأستاذ موريس أرقش وذلك بنادى لبنان عن جبران خليل جبران ، وقد استهل محاضرته بأن أربعة وعشرين سنة انقضت على وفاة هذا الشاعر الناثر المصور النابغة الذى قضى حياته فى أمريكا بعيداً عن وطنه لبنان ، والذى ظل طول حياته مشوقًا لهذا الوطن حتى نقلت رفاته إليه ، ودفنت فى الموضع الذى كان يرجو بعد عوده من أمريكا أن يقضى فيه حياة الوحدة ، والتأمل عند نبع مار سركيس بجوار قاديشا على مقربة من مسقط رأسه فى بشرّى .

رغم قِصَر الزمن الذى انقضى منذ وفاته ، ومع أن جماعة تألفت باسم جبران ، فقد مر موعد هذه الوفاة فلم يحفل به أحد ، وكأن جبران لم يخلد على صفحات الزمن أكثر الآثار بقاءً وأحراها بالخلود .

لا نستطيع فى مصر أن نقول عن شوقى أو حافظ إبراهيم أو محمد عبده أو قاسم أمين ما قاله موريس أرقش عن جبران خليل جبران ، فلم تتألف عندنا جماعات تحيى ذكرى هؤلاء العظماء . أيُنا أجدر باللوم ، نحن هنا فى مصر أم هم هناك فى لبنان ؟

إن الذين سبقونا إلى العالم الآخر فى غير حاجة إلى أن نذكرهم ، إنهم هناك بين يدى الغفور الرحيم يحاسبهم ويجزيهم بما صنعوا ، لكننا نحن فى حاجة إلى أن نذكرهم ، وأن نُعنى بتراثهم ، لأنه ميراث الأجيال جيلاً بعد جيل . فإذا نحن ألفنا الجماعات ، أو أقمنا الحفلات ، أو قمنا بالدراسات لآثار هؤلاء السابقين ، فإنما نقوم بذلك لأنفسنا لا لهم .

الإيمان والعلم (*)

كنت أتصفح بعض المجلات فوقع نظرى فى أحد أعدادها على صفحة من قلم حجة الإسلام الإمام الغزالى رحمة الله عليه ، يصف فيها حاله حين كان يلقى دروسه ببغداد ، إذ تبين أن هذه الدروس لا تؤدى إلى الحقيقة العليا التى ينشدها ، فتولته حيرة شديدة ما يصنع ، ثم استقر عزمه على مغادرة بغداد والانصراف عن التدريس إلى الخلوة والانقطاع إلى الله يهديه عن طريق الإلهام إلى هذه الحقيقة العليا ، وترك بغداد إلى دمشق وإلى فلسطين ، واعتزل الناس ، وألف فى عطلته كتابه الكبير (إحياء علوم الدين) .

أعادت هذه الصفحة إلى ذاكرتى ما قام فى عصور كثيرة بين الإيمان والعلم من خلاف . العلم يحسب أنه قدير وإن طال الزمن على أن يجتلى الحقيقة فى أمر هذا العالم وفى أمر الحياة . والإيمان ينكر ذلك عليه ويرى أن الحقيقة العليا أسمى من أن يحيط بها العقل وحده ، وأن الإلهام هو الذى يهدينا إليها ويفتح أمامنا طريقه .

وهذا الخلاف بين الإيمان والعلم متجدد على الزمان ، تراه فى كتب الأقدمين منذ مئات السنين وألوفها ، ثم تراه فى عصرنا الحاضر وكأنه جديد لم يتناوله أحد من قبل ببحث أو تمحيص . وأغلب الظن أن هذا الخلاف سيبقى قائمًا ما بقى الإنسان تتنازعه حواسه وعقله وشعوره وعاطفته ، وما بقى الناس يختلفون مزاجًا ، يتحكم العقل فى بعضهم ويتحكم الشعور أو الإلهام فى البعض ، وأغلب الظن كذلك أن هذا الخلاف هو

(*) جريدة أخبار اليوم ، بتاريخ أبريل ١٩٥٦.

الذى يدفع الإنسانية مرحلة بعد مرحلة فى سبيل التقدم إلى ما تبتغى إلى الكمال، يعلم الله وحده ما قدّر لها أن تبلغ منه .

وتنازع العلم والإيمان يهدأ تارة ويثور أخرى . فهو يهدأ فيما يتقدم العلم خطوات واسعة ، فيكشف لنا عن حقائق كنا نحسها ولا نجد الدليل عليها ، أو يكشف عن قوى كمينة تنشئ فى حياة العالم جديداً لم يكن يتوقعه . فى هذه الأحوال يشد الناس أبصارهم إلى ناحية العلم ، ويحسبون أنه سيبلغ يومًا ، ليكشف لهم عما فى الحياة والوجود من غيب مستور عنهم ، ويظنون فى هذه الفترات من حياتهم أن ما يكشف عنه العلم هو وحده الحق الذى يمكن الاطمئنان إليه . فإذا وقف اندفاع العلم بعدما كشف عنه من حقائق ، تبين الناس أن الغيب المستور لا يزال كما كان ، وأنه يجب أن نؤمن بهذا الغيب ، وأن ما يكشف عنه العلم اليوم ليس إلا جانبًا ضئيلاً من هذا الغيب الذى ينفسح أمامنا مداه ، وكذلك ترانا كلما ازددنا علمًا أقنعنا العلم بأن الغيب المستور عنا أعظم بكثير من أن نحيط به ، أو نخترق حجبه بوسائلنا الحسية . عند ذلك نرتد إلى ناحية الإلهام ونؤمن بما يصوره لنا منطقنا من حقائق نفسية لما يبلغ العلم أن يضع لها القواعد والقوانين .

هناك أصدقاء لى يؤمنون بمناجاة الأرواح ومنهم من يؤمن بظهورها والقدرة على تصويرها ، وكان أحدهم يحدثنى يومًا فى هذا الأمر حديث المؤمن المطمئن إليه كل الطمأنينة . ويذكر صديقًا لنا كلينا لا يؤمن بما يؤمن هو به فى شأن الأرواح ، ويذهب فى عدم إيمانه إلى القول ، بأنه لو رأى بعينه ما يقوله صديقنا المؤمن بمناجاة الأرواح أنه رآه لما صدق نظره ، وبقى على اقتناعه بأن هذا الذى يذكره صديقنا إنما هو من عبث الخيال بالناس . ويعجب المؤمن بالأرواح ومناجاتها لهذا التشبث من جانب رجل يقدّر كلينا حصافته وواسع اطلاعه .

وقد عنيت أنا زمنًا بدراسة هذه الشئون الروحية ، وكان ذلك من نحو ثلاثين سنة أو تزيد ، ثم رأيتنى أمام مشكلة يختلط فيها الخداع بالحقيقة حتى يتعذر على الإنسان أن يعرف إلى أى هذين الجانبين ينحاز . لهذا تركت هذا البحث من ذلك العهد ،

منتظراً يوم يطلع علينا العلم فيه بما ينير أمامنا وجه الحجة فيه . ولست أستطيع اليوم أن أقول أنى اطمأننت فيه إلى رأى . لأن شئونًا كثيرة أخرى وكشوفًا علمية جديدة ، وأطوار الإنسانية المتلاحقة شغلتنى عن التعمق فى دراسة مشكلة شككت فى قدرة ملكاتى على أن تهدينى فيها إلى الرأى القاطع الصحيح.

على أن ذلك لم يدعنى للحكم الحاسم بأن هذا الموضوع لا حقيقة له ، فكم من أمور مادية كنا نحسبها أوهامـًا لا يمكن أن تثبت ، ثم إذا العلم يثبتها إثباتًا ماديًا لا سبيل إلى ريب فيه . فما بالك بالحقائق النفسية، وبالحقائق العليا التى تتصل بكنه الكون والحياة ، وبالروح وما يتصل بها . لقد انفسح مجال العلم إلى حد لم يكن أجدادنا يتوهمونه ، لكنه مع ذلك لا يزال محصوراً ، ولا تزال العوالم الفسيحة التى تحيط بنا والتى تعلونا فى السماوات ، وتدور حولنا أو ندور حولها ، لا تزال هذه العوالم تحوى من الأسرار ما يحاول العلم أن يصل إلى شىء منها ، وهو بعد لما يحقق غايته أو لم يحقق من غايته إلا القليل .

ولو أنّا حصرنا الحقائق فى حدود ما أثبته العلم إثباتًا يقينيًا لتعذر علينا أن نحدد موقفنا من الحياة وسلوكنا فيها . فإذا ذكرنا أن آباءنا وأجدادنا استطاعوا خلال ما انقضى من ألوف السنين أو عشرات ألوفها أن يحددوا موقفهم من الحياة وسلوكهم فيها . لم يبق لدينا ريب فى أن إلهامنا الذى هدى الإنسانية خلال مئات الأجيال وألوفها قد كان يحس الحقيقة إحساسًا تصوريًا إن أثبت العلم خطأه فى بعض الأحيان ، فقد أثبت صوابه فى أحيان كثيرة أخرى . وذلك يدعونا للاعتقاد بأن الإلهام يجب أن يعتبر حاسة كالنظر أو السمع وأداة لمعرفة الحقيقة ، فهذه الأدوات التى نطمئن إليها ونشعر أنها تهدينا إلى العلم اليقينى بالأشياء .

ويجب أن نقدّر أن الإلهام يختلف بين بعض الناس وبعض ، كما تختلف الحواس الأخرى بين بعض الناس وبعض . فكما أن أحدهم أقوى بصراً والآخر أقوى سمعًا ، فكذلك يكون أحدهم أدق إلهامًا من غيره . بل إن هذا الإلهام الدقيق هو الذى يتيح للموهوبين مواهب خاصة أن يكشفوا لنا عن أسرار لولاهم لما استطعنا كشفها . وكم من الطلبة كانوا مع اينشتين فى جامعة واحدة وفى كلية واحدة من كليات هذه الجامعة ،

ومع ذلك بلغ اينشتين وحده ما لم يبلغه أحد منهم فى معادلاته التى اكتشف بها ما اكتشف ، وأضاف بها إلى الحقائق العلمية ما أضاف .

على أن انطلاق العلم إلى الكشف عما لم يكشف عنه من قبل ، أو إثبات ما لم يقم عليه الدليل العلمى لا يقتضى حتمًا أن يتعطل الإلهام فلا يرشدنا إلى منطق الحقائق العليا منطقًا نفسيًا ، إن لم يثبته الدليل المادى ، لم يتعذر على نوى الإلهام الاهتداء إليه . وكثيرًا ما يتبارى العلم والإلهام وقامت الفلسفة توفق بينهما ، لتصور للإنسانية خطاها إلى مستقبل رشيد . والأمم التى يتعاون فيها العلم والإلهام ، هى الأمم التى تبلغ من الحضارة مقامًا محمودًا ، ذلك ما يحدثنا عنه التاريخ القديم والحديث . وحسبنا أن نذكر نهضة العرب والمسلمين فى العصور الأولى وفى العصر العباسى خاصة ، لنطمئن إلى أن هذا التعاون قد خدم الإنسانية كلها خدمة جليلة ، بعد أن رفع الدولة التى تقوم به إلى أسمى مكانة . وحضارة الغرب الحديثة أثر من آثار هذا التعاون ، لكن نوعًا من الركود قد ران على عالمنا الحاضر ، فأضعف من هذا التعاون فى الغرب . أترانا نستطيع نحن أبناء الشرق أن نتلقى عنه هذه الرسالة ، وأن ننهض بها فيكون لنا مجدها وتنعم الإنسانية بثمراتها .

أحسب أن هذه هى الدورة الطبيعية للتاريخ ، لكن لا نزال فى مستهل هذه الدورة . ولابد لنا إذا أردنا أن ننهض بالرسالة أن نشجع رجال العلم ، وأن نشجع الذين يفكرون بإلهامهم تشجيعًا لا سبيل إلى تعاون العلم والإيمان من دونه ، فإذا نحن فعلنا أدينا واجبنا ونهضنا بعبء الرسالة الكبرى التى نرجو أن نقوم بها .

والعلماء المخلصون للعلم من رجال الجامعات ، والملهمون الصادقون حيثما وجدوا ، لابد لتعاونهم من جهد ضخم يسمو بمعنويات الحياة ولا يقتصر على مادياتها ، ولا أخالنا عاجزين عن القيام بهذا الجهد العظيم إذا خلصت منا النية . ويومئذ يكون منا الأئمة أمثال حجة الإسلام الغزالى ، وأمثال العالم الرياضى العظيم ألبرت اينشتين .

في متحف مختار (*)

ذهبت فى الأسبوع الماضى إلى متحف الفن الحديث أشهد افتتاح معرض الفن الأسبانى للفنان الخالد "جويا" والرسامين الأسبان المعاصرين . وذهبت قبل الموعد المحدد للافتتاح بنصف ساعة أو نحوها ، فرأيت أن أقضى هذا الوقت فى "متحف مختار" ، وإن كنت قد زرته من قبل غير مرة . فهذا المثّال المصرى الصميم الذى مات فى شبابه ، والذى أعلى كلمة الفن فى مصر بما أبدع من آثاره الرائعة، والذى أقام تمثال نهضة مصر شاهداً على ثورتها سنة ١٩١٩ ، قد كان صديقًا وبودًا وأخًا وفيًا إلى جانب أنه كان الطليعة الموفقة ، لإحياء الفن المصرى فى أروع صوره ، والطليعة كذلك فى احترام أرباب الفن ورفعهم إلى المكان اللائق بهم فى هذه البلاد التى كانت مهد الفن ومهبط وحيه منذ ألوف السنين .

وذكرت وأنا أزور متحف مختار ما شاهدته بمتاحف مدريد من صور أبدعتها ريشة "جويا" و "فلاسكيز" وأضرابهم من كبار رجال الفن الأسبانى . وذكرت ما يجده الإنسان فى هذه المتاحف ، وفى أماكن كثيرة من صور فوتوغرافية للآثار التى خلفها رجال الفن هؤلاء ، وكيف يقتنى الشباب والشيوخ هذه الصور بعد أن يشهدوا أصولها لتثبت فى ذاكرتهم صورة حية لهذه الأصول . وتساءلت فيما بينى وبين نفسى أتوجد صور فوتوغرافية لتماثيل مختار فى المكاتب المختلفة ، لكننى لم أوجه هذا السؤال خجلاً من أن يقال إنها موجودة وأنا لا أعرف ، أويقال لا وجود لها وأننا نخزن آثار مختار فى متحفه ، ليزورها من يشاء من المعنيين بالفن ، ثم لا يكون للجمهور من

(*) جريدة الأخبار ، بتاريخ ١٩ مارس ١٩٥٦

صورها ما يذكره بها أو يدعوه لزيارتها. على أن نفسى اطمأنت بعض الشىء حين ارتقيت بعض درجات من صالة العرض التى تحتوى تماثيل مختار إلى غرفة صغيرة جمعت فيها مخلفاته ، وفيها صورة مجسمة لوجهه على أثر وفاته ، فهى لذلك تذكار يكاد يكون حيًا لشخصه . وكم ذكرت وأنا أحدق بملامحه فى الصور الفوتوغرافية ، وفى الصورة التى احتواها جواز سفره ، وفى الصورة المجسمة لوجهه ، هذا الشاب القوى الإرادة وهذا الفنان البارع الذى عاش معنا ، وتعاون وإيانا فى الحياة العامة ، وتنوق معنا ألوانًا من الحياة الخاصة أن يشيد بما لمصر من إمكانيات فى الفن لا تنضب ، تشهد بها آثار أسلافنا القدماء ، وقد خلدت على الدهر ولا تزال موضع إعجاب بنى الدهر .

وحان موعد افتتاح معرض الفن الأسبانى ، فذهبت إلى المكان الذى أعد له من دار الفن الحديث وطفت فى أرجائه ، ووقفت طويلاً عند بعض لوحاته وذكرت معارض كثيرة فرنسية وأجنبية مختلفة دعيت إليها ، واستمتع بمشاهدة معروضاتها ، وتمنيت لو أننا استطعنا أن نعرض من آثارنا الفنية فى البلاد المختلفة مثلما يعرضون عندنا ، لنعلّم الناس فى أرجاء الأرض جميعًا أن لنا من الثقافة الفنية ومن ذوق الجمال ما هو جدير بأبناء أولئك الذين أقاموا التماثيل والمعابد والمسلات وآثار الفن الخالدة على الزمان . وحبذا لو أن الدولة عنيت بهذا الأمر . ولست أقول هذا أبتغى به تشجيع السياحة إلى مصر كما يدور بخاطر البعض ، وإنما أقوله لأن الآثار الفنية والأدبية هى المقاييس الصحيحة لرقى الأمم ولحضارتها ، وهى التى تدعو الأمم لتبادل الاحترام فيما بينها ، وتبادل الاحترام يولد الثقة المتبادلة ، وهذه الثقة خير ضمان للسلم والطمأنينة العالمية وللرقى الإنسانى .

القسم الرابع

خواطر عن الفنون فى مصر

(السياسة الأسبوعية)

(مجلة الهلال)

(١٩٢٧ - ١٩٣٥)

الفن المصرى

جهود جماعة "الخيال" فى سبيله (*)

افتتحت جماعة "الخيال" معرضها الثانى للتصوير والنقش يوم السبت الماضى ، فكان له على معرضها فى العام الماضى فضل المزيد من إيضاح غرضها الفنى واتجاهه إلى تكوين فن مصرى النزعة صريح فى مصريته. فليست جماعة "الخيال" إذن مجرد طائفة من الأصدقاء من رجال الفن المصريين والأجانب المقيمين فى مصر يذهب كل منهم ما يريد من مذاهب الفن ، فإذا آن لهم أن يقيموا معرضهم رأيت فيه عصبة أمم فنية فى التصوير والنقش ، ولكنها "مدرسة" ذات مذهب معين ، وهذه المدرسة على حداثة عهدها قد بدأت تؤمن بمذهبها وبقوته إيمانـًا يجعلها إن ارتضت اليوم بنشره فى مصر، تطمع فى أن تقره مذهبًا عالميًا تعارض به المذاهب الذائعة الآن فى أوربا وأمريكا ، وترجو أن تنتصر به على هذه المذاهب ، لأنها تؤمن بأنه اجتمع له من قوة الحق أكثر مما اجتمع لأى منها ، وأنها لذلك مذعنة له آخر الأمر لا محالة .

ويلخص من تحدثت إليهم من جماعة الخيال مذهبهم هذا فى أنه العود بقواعد الفن إلى بساطة الفن المصرى القديم فى تخطيطه وعظمته وقوته فى التعبير عن العاطفة ، أو الحس ، أو الفكرة التى أوحت إلى رجل الفن بما صور أو نقش . فجماله لا يعتمد على المحسنات الإضافية فى تفاصيل الصورة أو النقش اعتماد بعض الكتّاب على المحسنات اللفظية البديعية ، وإنما يعتمد على قوة البساطة وعلى قوة التعبير . وهم يرون أن الفن المصرى القديم أيام مجد مصر وعظمتها هو المثل الأعلى لتحقيق هذه الفكرة ، وأن هذا الفن المصرى القديم نفسه قد لجأ حين بدأت عصور الترف

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٩٣ ، بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٢٧

والتدهور إلى التجمل بالمحسنات فى التفاصيل ، ويرون أن استيحاء فكرة المذهب من هذا الفن المصرى القديم من غير تقيد بها تقيد نقل وتقليد هو الكفيل ببعث الفن العالمى كله كرة أخرى .

وإنك لتشهد فيما اختارته جماعة "الخيال" لمعرضها هذا العام من تماثيل ونقوش ميلاً بادياً نحو هذا المذهب يختلف اتجاهه ويختلف تنوعه بين الواحد والآخر من أعضائها اختلافًا قليلاً أو كثيراً . فكلهم متأثر بالحياة المصرية ينقلها فى ألواحه ، وكلهم يفهم من الحياة المصرية معنى غير الصحراء ورمالها ، ويرى فى خضرة الوادى اليانعة وفى ضوء شمسه الساطعة صورة الجمال المصرى الصحيح ، ثم هم جميعًا متأثرون بالروح الخفى القوى رغم خفائه ، والذى يسرى فى ليل مصر وفى نهارها ويجعلك إذ ترى السكينة عامة مخيمة على كل شىء فيها إذا تحت هذه السكينة المطمئنة نشاطًا ليس كمثله نشاط . كلهم متأثر بهذا وإن اختلف مبلغ تأثرهم به ، ولعل اجتماعهم أجانب ومصريين هو الذى يجسم هذا الاختلاف فضلاً عن وجوده بطبيعة اختلاف تصور الناس لمعانى الحياة ولصور الجمال فيها . وإن كانوا أهل جيل واحد وأمة واحدة ، لكن اختلاف جنسية أعضاء جماعة الخيال يجعلك ترى فى ألواحهم اختلافًا فى الروح المصرية ، فالمصرى الصميم منهم غير الأجنبى ، والأجنبى الذى طالت إقامته فى مصر غير الأجنبى الذى لم يقم بها إلا سنوات قلائل .

وربما كنت لا تلمح هذا الخلاف ظاهرًا فى مظاهر الطبيعة البادية للعيان ، فلوحة أنوتشنتى فى مصر تمثل جمالها الريان بنخيلها الباسق ونضرتها وشجرها ونباتها وزهرها ، وبأحلام الربيع تتلاعب برأس الفتاة الجالسة فى ظلال الخضرة الوارفة . ولوحتا هاردى تمثلان هذه الأشجار التى نراها كلما ذهبنا إلى حى مصر القديمة تمثيلاً دقيقًا . وألواح بريفال وبيبى مارتن مما يمثل الربيع والنيل صادقة هى الأخرى فى تمثيلها لتلك المظاهر التى قد تأخذ بعين الأجنبى عن مصر أكثر مما تأخذ بعين المصرى نفسه ، لأنها بعض حياته ولأنه منها وهى منه . وهذه المظاهر المصرية هى بعض الفن المصرى لا ريب ، هى صورة هذا الوطن الذى نعيش على أرضه مترجمة على اللوحة من خلال نظرة المصور مرسومة فى ألوان مختلفة تزيدك لهذا الوطن الجميل حبًا ولمظاهره القوية العظيمة إجلالاً وتقديسًا . لكن هذه المظاهر المصرية

مما يبدع الفن هى كساء الروح المصرية إن صح هذا التعبير ، واجتلاء الروح وبلوغ أعماقها من وراء هذا الكساء لا يتاح لكثيرين من رجال الفن والأدب المصريين أنفسهم . على أنك واجد منه فى معرض "الخيال" من عمل المصريين والأجانب الذين طالت إقامتهم بمصر ما تستريح إليه نفسك وتتصل به روحك ، فأما إن أردت أن تتمثل الروح المصرية فى أدق المعانى وأقواها فإنك تراها وتراها قوية جبارة وقوية إلى غير حد فى لوحتى محمود سعيد (ذات الزى الأزرق) و (ذو العمامة الخضراء) . يكفيك أن تنظر إلى هاتين اللوحتين ، لترى فيهما الحياة المصرية فى مظهرين من مظاهرها ناطقة تناجيك وتحدثك . كل واحدة من هاتين اللوحتين قطعة من الروح المصرية الساكن ظاهرها المتمردة فى طواياها الذاهبة فى تمردها إلى حد التعصب لكل ما فى الحياة ، وأعد نظرك كرة أخرى إلى اللوحتين ، وإلى لوحة ذات الزى الأزرق بنوع خاص ترى قوة البساطة ، وترى البعد عن التنميق وعن ستر النقص بالتفنن فى التفاصيل .

وليس ثمة عيب فى هذه الفروق تراها بين الأجانب المقيمين فى بلد ، وبين أهل البلد حين تمثيل روح الحياة فيها . وإنى لأذكر إذ زرت معرض الفنون الجميلة الذى أقيم فى العام الماضى بسراى نجران باشا بشارع نوبار ما لاحظته فى لوحات لأساتذة أجانب وأخرى لمبتدئين مصريين تمثل كلها ألواناً من الحياة الإنسانية المصرية من كمال الصورة الفنية فى لوحات الأساتذة كمالاً يسعى إليه المبتدئون سعياً حثيثاً ، ومن تمثل الروح المصرية فى لوحات المبتدئين بصورة أعمق من تمثلها فى لوحات الأساتذة الأجانب . ليس هذا عجيباً ، وليس فيه إلا ما يزيد من فضل الأجانب فيما يعالجونه من مجهود لتمثل الروح المصرية بالقوة التى يتمثلها بها أصحاب هذه الروح من رجال الفن المصريين أنفسهم .

على أن الأستاذ محمود سعيد نفسه وفيه من قوة الروح المصرية ما أشرنا إليه ، قد أثبت فى لوحة ثالثة صورة القديس يوحنا يحارب الغول "Dragon" ، وأثبتها على صورة فيها لا ريب من الاقتدار وحصافة اليد ما يغبط عليه . وليس لنا أن نسأله عن السبب الذى ألهمه تصوير هذه اللوحة ، لكنا نرجوه ونرجو جماعة "الخيال" من أصحابه أن يفكروا إلى جانب القديس يوحنا فى استيحاء تلك الثروة الفنية الهائلة من تاريخ مصر فى عصورها المختلفة ، وبخاصة فى مصر الميتولوجيا المصرية الفرعونية .

ونحن فى هذا الرجاء ، إنما نؤيد فكرة دعونا إليها فى بعض ما كتبنا عن الأدب ، تلك هى فكرة القومية ، فكما نريد أن يكون لنا أدب قومى نريد كذلك أن يكون لنا فن قومى . وأمر الفن فى اعتقادنا أهون من أمر الأدب . فالكتّاب والشعراء قد خضعوا فى الماضى وما يزال أكثرهم خاضعين اليوم إلى تقليد العرب كتّابًا وشعراء ، ولو جنى هذا التقليد على قوميتهم ، بل على شخصيتهم وجعلهم مجرد أبواق تجدد ما قال العرب الأقدمون . لكن الفن فى مصر ما يزال اليوم فى طور نشأته لا يتقيد بقيود ثقال من ماض عتيق . والفن فى مصر يأخذ من الغرب ، والغرب ما يزال كله حياة تختلف مظاهرها . بل إن الغرب اليوم ليبحث فى تراث الفراعنة يريد أن يستوحيهم ، ليسبغ على ما رثّ وما جمد عنده حياةً ونشاطًا جديدين . ورجال الفن فى مصر أولى الناس بالسبق إلى بعث الفن المصرى القديم متأثرًا بالروح العلمية والفكرة الحديثة . وما دامت جماعة الخيال قد توخت أن تكون مصرية الفن ، فليكن هذا البعث رسالتها الأولى وعملها العظيم .

نلمح الآن اعتراضًا يوجه إلينا : أين نحن من الفن المصرى القديم ، وبيننا وبينه عشرات المئات من السنين خطا العالم خلالها خطوات نقلت الإنسانية وحياتها وتصورها الحياة إلى ما يكاد يجعلنا طورًا فى الخلق غير أولئك الأقدمين . إنما يجب أن يستقى رجال الفن إلهامهم من الحاضر ومن الحياة المحيطة بهم ، ليكون الفن المصرى جديرًا بهذا العصر الذى نعيش فيه ! . نلمح هذا الاعتراض ونبتسم له ، فعشرات المئات من السنين هذه ليست شيئًا مذكورًا فى تاريخ النفس الإنسانية وتطورها . وإذا كان بين مظاهر عيشنا ومظاهر عيش الأقدمين خلاف أكبر خلاف ، فإن روحنا وروح الأقدمين متفاوتان ، بل متفقتان فى الانقباض والانبساط ، والرغد والرهب ، والمسرة والألم . والمظاهر التصويرية لهذه المشاعر أكبر دليل على هذا ، فأساطير الميتولوجيا الفرعونية القديمة وطقوسها ، وما تنفرد به هذه الأساطير أو الطقوس من تماثيل ونقوش جدارية ، وآثار جنائزية فيها شبه كثير بما لا يزال بمصر من أقاصيص وأوهام . وأنت قد تجد اليوم فى طقوس الاحتفاء بمولد ولى من أولياء الله الصالحين عند المسلمين ، أو قديس مبارك عند النصارى ما كان يقع فى المكان الذى يقام فيه مولد هذا الولى أو القديس عند الاحتفاء بعيد إله من آلهة مصر الفرعونية . وهذه الطقوس

والأساطير هى مظاهر الروح المصرية العامة فى مختلف العصور ، هى فيضها بالإيمان الذى يصل بينها وبين العوالم كلها من خلدها إلى أزلها. فاستيحاء ثروة مصر الفنية القديمة هو بعض أسباب نهضة فننا القومى وتمكينه ،وهى بعض ما زادنا حبًا لهذا الوطن ، لأنه أقوى ما يصل بين روحنا وروحه ، بل هو بعض روحنا المستمدة من روحه .

ومالى لا أصارح جماعة "الخيال" والقراء باعتراف قد يبتسمون له ، ولكنهم يرون فيه مصداقًا لقولى وحجة ناهضة عليه : لقد كانت الفكرة الأولى التى أدت إلى اغتباطى لأول ما شاهدت صورة (القديس يوحنا) أن أثار عندى ذكرى صور قديمة عزيزة على المصريين جميعًا هى صور الزير سالم وأبو زيد الهلالى . وقصص الزير والهلالى وأساطيرهما متصلة فى النفس المصرية بتاريخ مصر القديم إلى حد كبير . لذلك سرنى أن أرى الفن الحديث يتناول هذه الصور القديمة ، فيخلع عليها من جدة الشباب ما يرد إليها الحياة بعد أن كادت تندثر وتتلاشى وتترك عصرنا هذا تنقطع صلته بما قبله ، وتذرنا من تاريخنا فى عزلة زمنية ليست أقل إفقاراً للنفس من العزلة المكانية وليست أقل تخويفًا من العزلة السياسية . سررت ورجوت أن يتناول البعث الجديد هذه الصور القديمة كما تناول رفايل ومكلنج ودافنشى وغيرهم تاريخ المسيحية وتاريخ اليونان ، فأسبغوا عليهما حياة أضافت إلى بعث أوربا فى العصور الوسطى فتوة وثباتًا . فلما ألفيت الصورة بعد التحديق بها والرجوع إلى برنامج الجماعة تمثل القديس يوحنا والغول الذى يحاربه ، ورأيت هذا الغول فى صورة غير أغوالنا الشرقية الكثيرة الصور . لم ينقص إعجابى بمقدرة محمود سعيد وقوته ، ولكن قصر الآمال الذى بنيته عاد خاليًا من رجاء حسبته تحقق ، ولكن بحسب هذه الصورة أن يكون لها من الفضل أن تبعث فى نفوسنا رجاءً جديداً يحققه معرض جماعة "الخيال" فى العام القادم .

أفضيت بهذا الذى دار فى نفسى إلى صديقى مختار المثَّال . ومختار من متقدمى الدعاة إلى استلهام الفن المصرى القديم ، لأنه يراه أدنى إلى الكمال من كل ما عرف العالم إلى يومنا الحاضر من فن، ولأنه يشعر فى جو مصر بروح عميقة عجيبة خفية قوية تمسكها فتفر منك كلما أمسكت بها ،ويرى وجوب تدوين ما يستطاع من مظاهر هذه الروح على الحجر وعلى اللوحات وعلى الورق . فلما ذكرت له الميثولوجيا القديمة

وأساطير العصور المختلفة قال : ولكن أني يَجد رجل الفن اليوم هذه الميثولوجيا ، وتلك الأساطير وأكثرها مبعثر أو مكتوب بلغة أصبحت تكاد لا تفهم . إنّا نستلهم ما نعرف من ذلك ونستلهم الآثار الباقية أمامنا . لكن على رجال التاريخ والأدب واجبًا فنيًا وإنسانيًا عظيمًا . ذلك أن يقربوا تفاصيل هذا التاريخ لنا ويجعلوه فى متناولنا فيقرئونا إياه بلغة مفهومة ، ونحن متأثرون بعد ذلك به أردنا نحن أو لم نرد ، متأثرون أكبر التأثر لأنّا نؤمن بالفن المصرى إيمانًا صحيحًا .

وصدق المثال مختار أن على المؤرخين والكتّاب والشعراء لواجبًا كبيرًا فى هذه الناحية . وإذا كانت جماعة "الخيال" وكان أعضاؤها من مصريين وأجانب قد بدأوا هذا الفتح العظيم يريدون إقرار الفن القومى ، فليمد إليهم هؤلاء يد العون ليسيروا بخطى واسعة ، وليكون التضامن العلمى والفنى كفيلاً بإحياء البعث الذى ألقيت عليها أعباؤه حياة قوية ناشطة . ثم إن هذا البعث القومى فى مصر ليشجع على بعث مثله فى سائر أنحاء الشرق المتصلة منذ القدم بأمتن الأواصر ، وليجعل لمصر اليوم من المكانة بين هذه الأمم الشرقية العزيزة ما كان لها أيام أشور وبابل ، وما جعل لها المكانة الأولى فى حضارة تلك العصور القديمة .

هل من خطوة جديدة
فى سبيل الفن المصرى (*)

استثار معرض "جماعة الخيال" فى نفسى بعض خواطر أثبتها منذ أسابيع فى هذه الجريدة عن "الفن المصرى" ، رجوت فيها أن يستلهم جماعة مثالينا ومصورينا الفن المصرى القديم ، والميثولوجيا الفرعونية ، وتاريخ مصر فى عصوره المختلفة ، وأن ينسجوا فى الفن المصرى الحديث نسج الأقدمين الذين جمعوا بين البساطة والقوة واعتمدوا على ما يعبر عنه التمثال أو الصورة من معنى فى بساطة تخطيطية مبتعدين فى عصور مجدهم وقوتهم عن تجميل التفاصيل الثانوية . وقد أتيح لنا بعد ذلك أن نزور معرض جماعة أصدقاء الفنون الجميلة القائم ما يزال بسراى الفنون الجميلة بشارع نوبار ، وأن نشهد من تصوير جماعة من رجال الفن المصريين ، ومن الأجانب المقيمين فى مصر ما ثبت فى نفوسنا الإيمان بهذا البعث للفن المصرى ، وبهذا الاتجاه لناحية البساطة والقوة اللتين امتاز بهما الفن الفرعونى . على أن هذا البعث فى معرض الفنون الجميلة مثله فى معرض جماعة الخيال ما يزال فى بدايته ، ولئن كان من الصور والتماثيل التى عرضت ما يدل على قوة فى الملاحظة ، وحصافة فى اليد ، فإن الأقل منها يعبر عن فكرة ألهمت الخيال الفنى الإلهام الأسمى الذى يصل إلى سماء العبقرية ، وأكثرها ما يزال بعيداً عن أن يدل على اتجاه واضح يبشر بنضج فى تكوين المصور نضجاً يبتعثه فى ناحية معينة يكتشف فيها آفاقًا جديدة يجلبها على النظارة وهى ما تزال طى التاريخ والأدب والعلم ، بل لا نغالى إذا نحن قلنا إن أكثرها يدل على أن البعث الجديد ما يزال يتلمس خطاه ، ليتجه فى ناحية معينة . وإذا كانت بعض

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٩٦ بتاريخ ٧ يناير ١٩٢٨

الصور قد امتازت امتيازاً خاصًا ، وقد تجلت فيها الروح المصرية قوية بارزة لا ريبة فيها ولا خفاء ، فإن مجموعة الصور فى معرضى الخيال ، ومحبى الفنون الجميلة ما تزال بحاجة إلى جهود كبيرة تشعرك كلها بالمعنى المصرى بمقدار ما يشعرك ذلك البعض من الصور .

ولست أريد بهذا أن أنتقص من جمال كثير من المشاهد التى عرضت ، ومن حسن أدائها للصورة التى أخذت عنها ، ومن تعبيرها عن جمال خاص أخذ بنفس المصور ساعة صنع صورته ، فإن أكثر الصور فيه قوة وفيه امتياز ، لكن الروح المصرية التى تتجلى فى مجموعة الصور لمّا تصل من القوة إلى ما يسحرك أمامه ويخضعك له ويجعلك تشعر فى أعماق نفسك بمصر كلها محيطة بك لمجرد وقوفك فى صالة من صالات المعرض أو فى بهو من أبهائه .

وقد يكون من التعجل أن نطالب هذه النهضة الجديدة أن تصل إلى هذه الغاية التى نسعى إليها ونتمنى دركها بعد سنوات . ولست فى الحق أتعجل ، ولست أخفى اغتباطى العظيم بما رأيت فى كل من المعرضين وبإقبال الجمهور عليهما ، وبتقديره هذه الجهود تقديراً يشجعها ويدفعها إلى الأمام فى سبيل غايتها . لكنى أريد أن ألفت نظر رجال الفن إلى وجوب تحرى هذه الغاية منذ اليوم ، وما أحسب تصورها عزيزاً عليهم وهم قد رأوها محققة فى مصر وفى غير مصر ، رأوها فى مصر حين زيارة متحف القاهرة . ألست تشعر بالروح الفرعونية القديمة محيطة بك فى كل صالة من صالات هذا المتحف ، برغم عدم ملاءمة بنائه الحالى لما هو معروض فيه . أوَلا تشعر بهذا المعنى إذا أنت دخلت متحفًا من متاحف التماثيل والنقوش فى روما أو فلورنسا ؟ . أذكر يوماً قضيته فى فلورنسا من ست عشرة سنة ماضية فى متحف "بتى" ويوما آخر قضيته فى متحف "أوفيزى" ، وبرغم هذا الزمن الطويل الذى مضى فما أزال أذكر كيف تمثلت روح إيطاليا كلها فى كل بهو من أبهاء أى من المتحفين . تمثلت روح إيطاليا المتمدينة المتمردة المسحورة بالجمال فى هذه الحياة الطامعة فى جمال جنة الخلد ، وتمثلت بقوة مدهشة فيما ترى من صور البابوات ، وما إلى جانبها من تحف جمال إيطاليا ، ومن جرائم ترتكب فى سبيل هذا الجمال ، ومن توبة واستغفار يريد بهما صاحبهما أن يصل إلى رضى رب السموات . وهذه الروح التى تجتمع بكل قوتها فى كل واحدة من صالات

هذه المتاحف هو بعينه الروح التى تحسها فى جو إيطاليا الذى تتنفسه بكل حواسك وفى تاريخ إيطاليا الذى تعرفه ، وتشهد كل آثاره . ومتاحف "بتى" و "أفيزى" على ما أذكرهما متاحف صور قديمة رسمت أيام عصور الفن الذهبية . ولذلك كان هذا الأثر الذى تتركه فى النفس عن الروح الإيطالية أثرًا قويًا فيه صورة الطبيعة الإيطالية ، وفيه إلى جانبها الروح الإيطالى قويًا غاية القوة .

وكما تشعر بهذا المعنى القومى فى متاحف فلورنسا وفى متاحف إيطاليا جميعًا ، تشعر به كذلك إذ تدخل متحف اللكسمبور فى باريس ، تشعر بالحياة الفرنسية ماثلة أمامك فى كل بهو من أبهاء ذلك المتحف ، ناطقة بجمال الطبيعة الفرنسية متأثرًا هذا الجمال بالروح القومية الفرنسية ناطقة كذلك بكل ما يجول بالروح الفرنسية من عواطف ومشاعر وآمال وأفكار . وهذا هو الذى دعا إلى التسميات القومية فى الفن ، فالفن الإيطالى ، والفن الفرنسى ، والفن الفلمنكى ، والفن الإنكليزى وهلم جرا . على أن الفن يخضع من نواميس الطبيعة لما تخضع له ظاهرات الحياة طرا . فكل فن بلغ حد الكمال الإنسانى فى التعبير عن الآثار الإنسانية العامة ماثلة فى نفس أمة من الأمم يتأثر به ما سواه من الفنون القومية الأخرى تأثرًا واضحًا .

وقومية الفن هى الخطوة الأولى التى بدأها ذلك الفن المصرى الذى بدأ يتميز فى معرض هذه السنة أكثر منه فى معارض السنين السابقة ، لكنه ما يزال كما قدمنا فى بداية بعثه ، وما يزال أكثر رجال الفن فى مصر يحاولون فى نواحى الفن المختلفة يريدون وجهة يتجهونها . وأنت تشعر بذلك حين ترى أكثر ما عرض من الصور واقفًا عند إثبات المرئيات كما هى من غير أن يكون للفنان فكرة خاصة فى إثباته أكثر من أنه تأثر بجماله أو أخذ بمعنى ظاهر فيه . وأنت إذا نظرت إلى ما نقلنا فى هذا العدد وفى عدد مضى من صور معرض الفنون الجميلة ، وما نقلناه كذلك من معرض الخيال وإن كان معرض الخيال فى رأيى أوضح مصرية وأقوى تعبيراً . ثم لو أنك كنت زرت المعرضين إذن لشاركتنا الرأى ، ولرأيت معنا ببساطة ما فى الصور إلا القليل منها من فكرة ، وأنها جميعًا تقف عند تصوير المناظر الثابتة الخالية من الحياة الإنسانية ومن آثار هذه الحياة ، وأنها لذلك لا تبعث فى نفسك فكرة كاملة من الروح المصرية .

ويرجــع السـبب فى هـذا إلى مـا ذكـرنا من أن بعث الفــن مـا يزال فى بدايتــه ، وإلى أن الأكثرين من رجال الفن يكتفون بما تقع عليه عيونهم ، فلا يرجعون إلى تاريخ مصر ولا إلى تاريخ الفن فى مختلف الأمم رجوعًا يعودون بعده إلى أنفسهم فيطبعونه بشخصياتهم وبتصــورهم الذاتى ، ثم ينفثــونــه لوحــات ونقوشًا تمثل جمالاً فيه فكرة وفيه روح وفيه قوة ساحرة. وما خلا بعض لوحات أشرنا إليها فى مقالنا عن معرض الخيــال ، وبعض لوحــات أخرى فى معرض الفنون الجميلة لا محل لتعيينها دون سواها ، فأكثر ما بقى لا يخرج عن مشاهدات أثارت فى النفس تأثرًا فجًا فركزته على القماش ، كما يثبت الكاتب يومياته من غير أن يجهد نفسه فيها بتحليل عميق أو بحث دقيق .

ولست أنكر مـا على الكتّاب والمؤرخين المصريين فى ذلك من تبعة . فليس يطلب إلى رجـال الفن أن يقـضـوا وقـتـهم فى بحوث عن تاريخ مـصـر والفن المصـرى ، أو أن يلتمسوا مناحى الروح المصرية بغشيان المجتمعات المختلفة كل يوم وكل ليلة ، بل هذا واجب الروائيين والقصاص من الكتّاب ، وواجب المؤرخين . وهؤلاء وأولئك مقصّرون فى واجبهم أفدح التقصير متجه أكثرهم إلى مباحث لا تضيف إضافة ظاهرة أو أحجارًا جديدة إلى البناء القومى ، ومـا لم يتـعاون البنـاة فى تشييد حضـارة البلاد ومـجدها ، فالمجهود المبعثر الذى يبذله كل واحد منهم يضيع أكثره على أهل هذا الجيل والأجيال التى تعقبه ، وإن استفادت منه بعد ذلك أجيال أخرى . لكن هذا التقصير الذى نأخذ به الكتّاب والمؤرخين لا ينقد نقدًا لرجال الفن برغم عظيم إعجـابنا بمجـهودهم . ونحن ننقدهم ، لأننا فى عصر بعث يحتاج من كل فرد ومن كل جماعة لتضحية أكبر التضحية ، ويقتضى بالضرورة أن يقوم الشخص الواحد بأعمال عدة لا تطلب إليه فى العصور العادية التى تعيش على حساب عصور البعث وتتفيأ ظلالها .

على أننا مع هذا النقد نحمد لهم مجهودهم العظيم أجمل الحمد . فإثبات مظاهر جمال الطبيعة هو الخطوة الأولى فى سبيل الفن القومى ، والتخطى من ذلك إلى حالات نفسية مصرية وإثباتها هو الخطوة الثانية . ولقد رأى القراء من آثار الخطوة الأولى كثيرًا يأخذ بالنظر فى المعرضين وفيمـا نشرناه من لوحاتهمـا ، ورأوا فى هذه الآثار جمالاً صحيحًا يدل على ذوق فنى دقيق ، وميل للمتاع الخالص بما فى الطبيعة المصرية

من حسن ، ثم هم قد رأوا بعض آثار من الخطوة الثانية سجلت فى النفوس بالثناء والتقدير وجعلتنا وإياهم نطمع فى أن تظهر هذه الخطوة الثانية فى المعارض المقبلة أكثر وضوحًا وأشد تغلبًا على آثار الخطوة الأولى . ثم إننا نطمع كذلك فى خطوات جليلة يستلهم أصحابها الميثولوجيا الفرعونية والتاريخ المصرى . وقد يكون من حقنا أن نرجو الأستاذ محمود سعيد بك وقد انتقل إلى المنصورة ليقيم بها ، أن يبدأ هو الخطوة الثالثة ليثبت لنا من قوته وحصافة يده مثل ما أثبتت فى آثار الخطوة الثانية . فلديه فى المنصورة صفحة مجيدة من تاريخ مصر أيام الحروب الصليبية ، وحين انتصر المصريون فى موقعة دمياط وأسروا لويس التاسع واعتقلوه بالمنصورة ، لديه هذه الصفحة يستطيع أن يرى فيها أكثر من موضوع للوحات تضارع لوحات موقعة الإهرام الموجودة فى متحف فرساى ، وتنطبع بالروح المصرية الجامعة بين البساطة والقوة . ونحن إذا توجهنا بهذا الرجاء إلى الأستاذ محمود سعيد ، فإنَّا نرجو معه رجال الفن عندنا فى أن يبرزوا لنا هم الآخرون فى معارض العام القادم من مظاهر الفن القومى ، ما يشعر الذين يزورون المعارض جميعًا مصريين وأجانب ، أن الفن المصرى يخطو خطوات واسعة ، وأنه يفتح أمام الفن فى العالم كله آفاقًا جديدة يمكن أن تبعث إليه من الجدة ما ينجيه من اضطرابه وانشعابه فى نواح ما تزال النفس الإنسانية تتردد كثيراً فى الإقرار لها بسمو مقامها الفنى .

بل إن هذا الإنشعاب لهو فى رأيى أشبه بحران المصاب بالدوار أو بالحمى . فقد بلغ الفن كما بلغت الحضارة فى الغرب غاية ما يطمعان فيه أو كادًا . لذلك أصبح أهله ينظرون للحياة نظرة يشوبها شىء من الذهول أن لم تحقق لهم هذه الحضارة التى عملت الأجيال المتعاقبة فى إشادتها ، وقضت فيها جهود القرون ، ما كانوا يرتجونه منها من نعمة وسعادة . لذلك أصبح ما يثبتونه من آثار الحياة فى الأدب وفى الفن متأثراً بهذا البحران : بحران المريض الخائر النفس والروح ، ولذلك كان (الرياليسم) الحاضر عندهم لا يسمو إلى أمل جديد فى بلوغ ما كان يرجى بلوغه من كمال ، فيجب أن يتقدم إلى الميدان فن جديد يدفعه الأمل الإنسانى فى بلوغ هذا الكمال الذى قصر دونه جهد الغرب . وسيان أكان بلوغه فى مقدور الإنسان أم لم يكن ، فإن الأمل فيه

إنسـانى . والفن المصـرى فى اعـتـقـادنا هـو مناط هذا الأمل فى العـصـر الحـاضـر. والمصريون ومن أشربوا الروح المصرية هم وحدهم الذين يستطيعون أن يطبعوا الحياة الفنية بالطابع الجديد ، فينقذوا العالم من بحرانه وبواره ، ويعيدوا إليه قوة الأمل فى الكمال .

هذه رسالة كبرى تحتاج إلى جهود العمالقة وإيمان الأنبياء ، لكنها رسـالة جديرة بكل تضـحية بالغة ما بلغت جسامتها ، وفى سبيل هذه الرسـالة نوجه كلمـتنا هذه إلى رجال الفن نصيح بهم ، لينهضوا بها نهضة تنجى الفن من العثار ، وتعيد إلى مصـر مجداً كان لها ، وآن له اليوم أن يعود .

ذوق الجمال

وتعهده فى نفوس الناشئة (*)

الحق والخير والجمال هى ، فى رأى الفلاسفة التجريديين الغايات العليا التى يجب أن تتجه لدركها النفس ، ولئن كانت الفلسفة التجريدية قد تنحت فى هذا العصر الأخير عن السبق فى الميدان وبرزت الفلسفة الواقعية عليها ، فليس معنى هذا أن ما كانت الفلسفة التجريدية تقول به قد أصبح كله عتيقًا لا يتفق ومعقول هذا العصر . وإنما معناه أن طرائق البحث الجديدة أصبحت صاحبة الحكم فيما كانت الفلسفة القديمة قد وصلت إليه من نتائج وأقرته من حقائق . فما أثبتته طرائق البحث الواقعية من تلك النتائج أصبح واقعيًا بعد أن كان كذلك تجريديًا ، وما نفته تلك الطرائق الواقعية فقد تداعى ولم يبق له بين الحقائق من وجود ، وما لم تثبته ولم تنفه فهو لا يزال موضع البحث ومحل الاعتبار . ونحسب الفلسفة الواقعية لم تنف الحق والخير والجمال على أنها غايات عليا يجب أن تتجه لدركها النفس ، بل يجب أن تتمثلها فتصبح هى النفس والنفس هى إذا أريد بالنفس أن تدنو إلى درجات الكمال .

وقد تعودنا أن نرد إدراك الخير والعمل له إلى تربية الإنسان وتنشئته فى بيته وبين أهله. هذه التربية يجب أن تتوخى كأسمى أغراضها أن ننزع من النفس الأثرة والأنانية ، وتستل منها نقائص النفاق والرياء والكذب وحب الإضرار بالغير، وتزرع فيها من صفات الإيثار والميل للإحسان وعمل الخير حبًا فى الخير ، وكل ما يصل بالأخلاق لتقويمها إلى ناحية الخير تقويمًا صحيحًا . ولذلك كان الأكثرون يرون فى الرجل صورة هذا المجهود الذى قام به أهله أثناء طفولته ، ويرون فى هذا المجهود من جانب الأهل

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١٥٣ ، بتاريخ ٩ فبراير ١٩٢٩

شيئًا يحاولونه ، لأنه غير طبيعى فيهم وهم يريدون أن يكسبوه الابن ، ولذلك يبقى أكثر الأحيان غير قوى ، وشيئًا هو بعض ما ورثوا من آبائهم وأجدادهم ، فهم يورثونه الابن وهو يكسبه منهم عن طريق الوراثة والمثل المحسوس حتى ليصبح طبيعيًا فيه كما هو طبيعى فيهم ، ويصبح لذلك الجانب القوى من خلقه والذى يمكن من أجل ذلك الاعتماد على ثباته وعدم تعرضه للضعف بسبب المغريات .

أما إدراك الحق والسعى للكشف عنه ولتعزيزه ونصرته ، فهو أثر من هذا التثقيف الذى يتلقى فى المدارس ، فهذه المعلومات الكثيرة المختلفة التى يتلقاها التلميذ من أول تعلمه إلى حين يصبح طالبًا وإلى أن يترك الدراسة ويعمل بنفسه للتنقيب عن الحقائق عن طريق البحث المستمر على الطرائق العلمية فى وقتنا الحاضر وعلى الطرائق التجريدية ومن قبلها على الطرائق اللاهوتية فى الأزمان الماضية ، كل ذلك المجهود إنما يقصد به إلى الوقوف على الحقيقة ، أو إن شئت على حقائق الأشياء منفصلة على أمل أن تتصل بعد ذلك لتكون لنا منها حقيقة كبرى إن استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وأما إدراك الجمال وذوقه ، واستيعاب المتاع به إلى أعماق النفس ، فإنما يكون بأن ندل الناشئ على صور الجمال فى الأشياء ، وأن نصل به بعد ذلك إلى تعريفه دقائق هذا الجمال وتفاصيله ، فهذا المنظر من مناظر الطبيعة بديع باهر لا لأن مجموعه يبهر النظر ويأسر اللب ، ولكن لأن خلال هذا المجموع من التفاصيل كيت وكيت هى التى أنشأت الروعة ودعت إلى البهر ، وأن نظرًا مثله قد يكون بالغًا من الروعة مبلغه ، ولكنه دونه فى الجمال لأن هذه التفاصيل تنقصه . وقصيدة من الشعر تعتبر قطعة من قطع الفن لا لأن موسيقى لفظها يشجى الأذن ويطرب السمع وكفى ، بل لأن فى صورها وأخيلتها ومعانيها من دقائق المبدعات ما يجعل غيرها مما لا يقل عنها موسيقى ، بل مما يزيد فى موسيقاها عنها إشجاءً وإطرابًا دونها جمالاً بمراحل ، لأن ما فيه من صور وأخيلة ومعان لا شيء من الشعر فيه ، أو لأن كل ما فيه من شعر لا يزيد على أنه فج أو ضعيف . وهذا التمثال وتلك الصورة ، وهذا النشيد الموسيقى ، وهذه القطعة المسرحية وتلك الأقصوصة الروائية فى كل منها من تفاصيل الجمال كيت وكيت ، ولذلك تستحق أن تسمى أثرًا فنيًا بينًا غيرها لا يصل إلى مثل مكانتها لأسباب كيت وكيت . بهذه

الوسيلة يكوِّن الناشئ لنفسه نوقًا ساميًا للجمال يستطيع معه أن يتنوق الحياة ، وأن يعرف ما فيها من بديع الصنع ، وجمال النظام .

ونحن فى مصر قد جرينا فى معرفة الخير والحق على سنن غيرنا من الأمم إلى الحد الذى نستطيع أن نجرى فيه على سننهم . فها نحن أولاء ندعو ونجاهد لرفع مستوى التربية العائلية إلى المقام الذى يجعل الخير أصيلاً فى نفس الطفل . وها نحن نعلم أبناءنا فى المدارس ، ليدركوا ما يستطاع دركه من الحقائق . وإذا كنا لمَّا نصل من خطانا فى هاتين الناحيتين إلى ما وصل إليه غيرنا من الأمم ، فإنَّا لا نفتأ فى سبيل بلوغ هذه الغاية نجاهد ونجاهد ، ونرجو من جهادنا الوصول إلى نتيجة محمودة . أما فى نوق أمر الجمال فإن مجهوداتنا ما تزال محصورة ضيقة ، وما يزال أبناؤنا فيها متروكين لأنفسهم أو يكادون ، وكل ما لقى منا فى هذا الجانب عناية إلى وقتنا الحاضر فهو الأدب من شعر ونثر . أما ما سوى هذا من الفنون الجميلة ، ومختلف صور الجمال فمتروك للميول الخاصة والمواهب الفردية ، فقَلَّ منا من يستطيع أن يحكم على لحن من الألحان أو صورة من الصور ، أو تمثال من التماثيل أجميل هو أم غير جميل حكمًا فنيًا صحيحًا يدل على نوق الجمال ودقة تقديره . وقليلون منا من يعرفون ذلك أكثر مما يعرف عامة الناس إذ يتأثرون بنغم يحسبونه جميلاً لأنهم سمعوه منذ نعومة أظفارهم ، بينما هو فى الواقع نغم فى مرحلة السذاجة من مراحل الفن . وأقل من هؤلاء من يستطيع أن يقدر جمال صورة من الصور بأكثر من الأثر العام الذى تتركه فى النفس . وقد تراهم لذلك يمرون فى متحف من المتاحف ، أو معرض من المعارض فلا يعيرون لفتة لأجمل ما فيه من قطع بينما تستوقفهم أشياء كل ما فيها أنها تقليد لما رأوا من قبل وما قيل لهم عنه أنه جميل ، أو ما يثير فى أنفسهم ذكرى من الذكريات المحببة إليهم العزيزة عليهم . ذلك بأنهم تركوا لأنفسهم يقدرون الجمال فى الأشياء بنسب ذاتية تتعلق بأشخاصهم التى لم تتعلم تعرُّف جمال الأشياء ، ولا كيف تستشفه خلال مختلف مظاهر الجمال فى الطبيعة وفى الفن ، والتى ظلت لذلك من هذه الناحية فى طفولة أو شبه الطفولة.

وذلك لا ريب نقص فى الشخصية الإنسانية يجب السعى إلى محوه وإحلال الكمال محله ، والكمال هنا هو بعث النفس على دقة تقدير الجمال وحسن نوقه ، وليس

السعى إلى هذه الغاية بعض الكماليات التى يصح أن تكون أو ألا تكون ؛ بل هو حاجة إنسانية ماسة إذا أريد بالناس أن يعيشوا عيشًا إنسانيًا صحيحًا . فالجمال ليس دون الحق ولا دون الخير مكانة فى الوجود ، بل لعله من السبل المؤدية إلى الخير والحق نفسهما ، ثم لعله أقرب السبل وأدناها إلى نيل الإنسان حظًا من السعادة . فالخير يتعلق بصلة الناس بعضهم ببعض أكثر مما يتعلق بأية غاية أخرى . والحق يرمى إلى معرفة الأشياء وقوانينها الثابتة كما هى ، قصد الوصول إلى قانون عام يربط الأشياء جميعًا . أما الجمال فيتعلق بكل مظهر من مظاهر الوجود يريد أن يجلى أبدع ما فى هذا المنظر وأدعاه إلى اتساق صلة الإنسان بكل ما فى الوجود اتساقًا مظهره الشعر والتصوير والموسيقى والأدب وكل أثر للفن الجميل . وإذا صح أن السعادة غاية الحياة وأنها طرد الهم ونسيان الألم ، فليس من مراتب هذا النسيان أسمى من مرتبة الاستمتاع بالجمال لذاته استمتاعًا غير مشوب بغرض ولا بشهوة ولا بأية رغبة غير الاستمتاع لذاته . فالاستمتاع الخالص الصريح تتصل فيه النفس بالشىء الجميل الذى تقدسه وتتمثله ليصبح جزءًا منها وبعضها أو لتصبح هى بعضه وجزءًا منه . وإذا كنا ننسى أنفسنا ابتهاجًا وطربًا حين نقع على بعض صور الجمال الطفلة التى تثير بعض مشاعرنا الأولى ، ونعتبر أنفسنا بذلك سعداء ونود استعادة الساعات التى نهلنا أثناءها من هذا المتاع ، فكم يزداد ابتهاجنا ويتضاعف طربنا ، وكم تصبح السعادة بعض أنفسنا ، بعضًا متحكمًا فى كلها ، إذا نحن وقفنا من جمال الأشياء على صحيح دقائقه ، واستطعنا لذلك أن نذوق ذوقًا ساميًا كاملاً كل ما فى هذا العالم الفسيح المترامى الأطراف إلى غير نهاية ، عالم الجمال فى الطبيعة ، وعالم الجمال فى الفن رحيق الطبيعة .

قدمنا أنَّا عنينا فى الفن الجميل ولو بعض العناية بالأدب من شعر ونثر . فليذكر الذين ذاقوا الأدب ذوقًا صحيحًا كم يجدون من سعادة حين يقضون شطرًا من وقتهم يقرأون قصيدة رائعة أو قطعة أدب جميلة . كم يحسبون حياتهم أكثر فيضًا ووجودهم أشد بهجة . لتكن القصيدة أو القطعة محزونة تتحدث عن فاجعة نفسية تهز القلب ، وتدق قوائم النفس ! أو لتكن ملهاة تستثير الابتسام أو الضحك ، لتكن هذا أو ذاك أو غيرهما ، فكفاها أنها جميلة لتزيدنا حياة وحبًا للحياة ، ولتجعل من كل ما فى

الحياة موضعًا لحبنا وإعزازنا حتى لنجلُّه ونقدسه . بل كم أعززنا الألم وأحببناه وشعرنا له بلذة لاذعة ، لأن الأدب جلّى علينا ما فى الألم من جمال . وهذه المعانى التى نقدس من معانى التضحية والإيثار ، وحب الخير ، والحق ما كانت لتبلغ من النفوس مكان القداسة لولا الأدب ، وما أسبغ عليها من جلال ، وما أقام لها فى القلوب والأفئدة من هياكل وتماثيل .

أليس ينبئنا هذا بأنَّا لو عنينا بغير الأدب من الفنون الجميلة لازددنا للحياة قدراً وبها استمتاعاً وحباً ؟ أليس كل واحد من الفنون الجميلة يكشف لنا عن صور ومعان من الحياة غير ما يكشف عنه الفن الآخر ؟ . بل ألا يتحدث كل فن بلغة جميلة غير اللغة التى يتحدث بها الفن الآخر تمدها من روح الحياة نفحة غير التى تمد سواه ؟ . وهل تراك إذ تستمع إلى الموسيقى والغناء ألا تتسامى نفسك إلى عالم غير الذى تتسامى إليه وأنت تقرأ الأدب شعراً أو نثراً وغير الذى تتسامى إليه وأنت مأخوذ بجمال تمثال من التماثيل أو صورة من الصور ؟ . أو ليس معنى هذا أن أوتار النفس كثيرة متعددة الأنغام ، وأن كل أثر فنى يثير منها نغمة غير التى يثيرها أثر فنى آخر ، فيزيدك بهذا تحدثاً للوجود وفهماً إياه وحبا له ! ، وكلما أرهفت هذه الأوتار ومُرنت بالمعرفة وحسن الذوق كانت أسرع إلى فهم الوجود والتحدث إليه وتمثله وحبه .

هذا على أن ذوق الأدب لا يوجب عليك أن تكون شاعراً أو ناثراً ، وإنما يوجب عليك أن تدرس الأدب وتاريخه ، وأن تعرف مختلف صور الجمال فيه . كذلك لا يقتضيك ذوق أى لون من ألوان الجمال أن تكون مغنياً أو موسيقاراً أو مصوراً أو مثالاً وإنما يقتضيك أن تحيط بهذه الفنون وتاريخها وصور الجمال فيها . يقتضيك معرفة هذه الأشياء لتتكون عندك ملكة ذوقها ونقدها ، وإن بلغت غاية مراتب السمو . وإذن هو يقتضيك دراسة تاريخها ومعرفة أساليبها والمقارنة بينها لتتكون عندك ملكة تقديرها والحكم عليها .

ما الذى يمنعنا أن نعنى بدراسة صور الجمال وتتبعها فى الطبيعة ، وفى الفنون الجميلة عنايتنا بدراستها فى الأدب شعراً أو نثراً ؟ .

ذهب بعضهم إلى أن السبب فى هذا يرجع إلى الدين الإسلامى وإلى ما تدعو إليه الأديان من تقشف وزهد لا يتفق مع الفنون الجميلة . وهذا عندى مذهب خاطئ كل الخطأ . فلو أن دينا من الأديان كان خصماً للفن فليس هو الإسلام ، بل الإسلام أكبر نصير لتقدير الجمال وتقديسه. أليس القرآن الكريم يدعو فى مواضع كثيرة منه إلى النظر فى خلق الله ، والتأمل فى السماوات والأرض ؟ أليس هو يصف ما فى الجنة من نعيم مجسم فى الولدان المخلدين ، والحور العين ، وفيما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، وفيما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ؟ فأى شىء هذا النظر فى الطبيعة ، وأى شىء هذا النعيم فى الآخرة غير الفن فى مختلف صوره ؟ ثم أن المسلمين منذ صدر الإسلام كانت لهم فى الموسيقى ، وفى الغناء ، وفى العمارة قدم راسخة أتاحت لهم أن يخلِّفوا للعالم من ذلك مثلما خلّفوا من شعرهم ونثرهم . وإذا كانت آثارهم لا يدل على أنهم عنوا بالتصوير وبالنحت ، فليس ذلك لأن الدين يحارب هذا الفن ، ولكن لأن المسلمين فى أول عهدهم بالدين أرادوا التخلص من التماثيل لأن التماثيل كانت تتخذ أرباباً من دون الله . فإذا زال السبب زال المسبب ولم يبق اليوم أحد يظن أن إنساناً أو طائفة من الناس يعود إلى الوثنية أو يرى فى التماثيل شيئًا غير أنها بعض مظاهر الجمال فى مختلف ألوانه. فالدين إذن ليس هو سبب عدم عنايتنا بالفنون الجميلة على اختلاف صورها ؛ إنما السبب الصحيح هو ذلك الانحطاط فى حضارة الشرق فى القرون الأخيرة انحطاطًا أصاب كل مظاهر الحضارة بشرِّه. والدين من أسس هذه الحضارة فإذا نسب إليه شىء من التأخر ، فذلك لأن الذين كانوا قائمين بتعليمه ونشره والدعوة إليه جنوا على الحياة العقلية ، والنفسية ، والروحية فى الشرق كله . لذلك لم يلبث الشرق أن ينفض عن نفسه أسباب الانحطاط حتى رأيت الفنون الجميلة جميعاً يتناولها الموهوبون فيها فينبعث كل منهم ينتج من الآثار ما يجدد للشرق حياة حضارته .

ليس ثمة إذن سبب صحيح يحول دون العناية بدراسة الناشئة لصور الجمال كما تدرس غيرها من العلوم ، وكما تدرس من الأدب شعراً ونثراً ، وكما أن دراسة الأدب إنما تكون بدراسة تاريخه . فكذلك يجب أن تدرس الناشئة تاريخ كل فن من الفنون بنفس المقدار الذى تدرس به تاريخ الأدب ، بل يجب أن تكون العناية بدراسة تاريخ الأدب ، وتاريخ الفنون الجميلة جميعاً مساوية لعنايتنا بما ندرسه لناشئتنا من تاريخ

الأمم السياسي ، ومن تطوراتها الاجتماعية والاقتصادية إن لم تزد . ولعل أحداً يحسب أني أغلو فيما أقول من هذا لغير شيء إلا زيادة الحرص في هذه الدعوة التي أتوجه بها إلى القائمين بالأمر في مصر وفي غير مصر . لكني كلما ازددت في الأمر تفكيراً ازددت بفكرتي هذه اقتناعًا . وأحسب الذين يدعون إلى السلام في مختلف ربوع العالم يوافقونني تمام الموافقة عليها ويرون فيها ، فضلاً عن سموها بالنفس الإنسانية لذوق الحياة ذوقًا أوفى بكثير ، وأدنى إلى الكمال مما تصل اليوم إليه وسيلة قوية من وسائل توكيد السلام في أقطار الأرض ، وبين الأمم جميعًا . فالأمم ما تزال تربي الناشئة فيها إلى عصرنا الحاضر على أساس من عبادة القوة ، ومن حب الفوز والغلب المادي . وأية أمة وجدت عن هذه العبادة منصرفًا تطلع إليها غيرها على أنها فريسة من الفرائس التي يجب أن تقع في براثنها لتلتهمها التهامًا . وما دام هذا الإيمان بالقوة والوحشية ، وهذا الاعتبار إياها أساس الحياة والمتاع بها والاستعلاء فيها ، فإن الجهود التي تنفق في سبيل السلام لن تؤتي من الثمرات إلا قليلاً . والإنسانية ما تزال مع شيء كثير من الأسف توجه إلى هذه العبادة الغاشمة كل جهودها ، وما تزال في نفوس الناشئة أسباب الإيمان بها . فالتاريخ الذي يتلقاه النشء في المدارس وفي الجامعات هو تاريخ الفتح والغزو وأبطال العالم الذين تقام لهم التماثيل ويحج إليهم الناس هم أبطال الحروب . فأما دعاة السلم وأبطاله ، وأما رسل الفنون الجميلة الذين يلهمون الناس حب الوجود لما في الوجود من الجمال فهؤلاء يعجب الناس بهم إعجابًا فرديًا ليس فيه شيء من هذا التراص والتماسك الذي تراه ظاهراً في جيوش الحرب فهي ما تزال رائحة غادية على الأرض وفوق متون البحار وفي أجواز الفضاء ، لتغذي الإيمان بالقوة وعبادتها في نفوس الجماعات لا في نفوس الأفراد . وتاريخ أبطال الحرب وغزواتهم واستعراضاتهم ومظاهراتهم ، هو ما يتلقاه الطلاب جماعات منذ نعومة أظفارهم وبداية نشأتهم ، ويتلقونه جماعات يتنافس أفرادها في دقة الوقوف على تفاصيله ، لا أفرادًا يعني كل واحد منهم بلذة نفسه . فأما سعي الإنسانية نحو الجمال ، وتاريخ الجهود التي بذلت في سبيل هذا المسعى والخير الذي أحرزته الإنسانية من وراء هذه الجهود ، فلا يلقى بروح العبادة والتقديس الذي يلقى به تاريخ القوة والغلب ، ولا تقام له الاستعراضات والمظاهرات الرسمية

فى صورة تبهر ألباب المجاميع وتدخل إليها الإيمان به . ولو أن شيئا من ذلك كان لعَدَل فى نفس المجاميع الروح الدموية ولمال بها إلى كثير ، مما يحبب إليها السلام عن إيمان به وعبادة أياه . ثم لجعل الناس يجدون فى جمال الحياة متاعًا صحيحًا تنقص منه الحروب ولا تزيد فيه ، وتزعزع أركانه بدلا من أن تشيد قوائمه.

* * *

لست أغلو إذن حين أطلب مساواة عنايتنا بتدريس تاريخ الفنون الجميلة بما ندرسه لناشئتنا من تاريخ الأمم السياسى ، ومن تطوراتها الاجتماعية ، والاقتصادية إن لم تزد ، فتمثل الناشئة لهذا التاريخ تمثلاً يحبب إليهم ما فى العالم من جمال ويدلهم على الصحيح منه ، يزيد فى سعادتهم بالحياة وفى حبهم لها ، ويزيد كذلك فى سلام الإنسانية سلامًا أساسه الإخاء فى حياة الجمال فى الوجود كله وفى تقديسه وأثر ذلك فى نعيم الإنسانية وسلامها النفسى والروحى ليس بخفى .

أرباب الفن

وهل لهم فى فنهم فضل (*)

من ثنايا الكتب .

سيدى الأستاذ الكبير

تحية وبعد فيتشرف طالب يتعشّق الأدب ويهوى البحث والنقد ، بأن يتقدم إليكم معجبًا بتلك الجهود المباركة التى تبذلونها فى نشر الثقافة الحديثة وتشجيع البحوث الأدبية القيّمة ، والنشاط الذهنى من جميع نواحيه ، مما جعلكم بحق فى طليعة حملة لواء الأدب ، ومؤسسى المدرسة الحديثة فى مصر. هذه الجهود تظهر بجلاء فى سياستكم اليومية والأسبوعية اللتين تعدان فخرًا لصحافتنا المصرية .

ولا تعدّنى - سيدى الدكتور - مملقًا إذا قلت إنى أترقب السياسة الأسبوعية كل أسبوع بصبر ذاهب حتى إذا بدت تلقفتها فى لهفة وشوق ، ورحت أغذى فكرى ونفسى بتلك البحوث الطريفة ، ونحن أحوج ما نكون إليها فى بحوثنا خصوصًا ونحن مقبلون على نهضة أدبية جديدة .

وأظن - بل أثق - أننا كلما تعمقنا فى بحوثنا وتناولنا بالنقد والتحليل كل ما يعرض لأذهاننا من مسائل أدبية أو فلسفية ازددنا فهمًا للحياة ، وتكشفت لنا فى الوجود نواح جديدة ..!

أو ليس الأدب إرث الإنسانية وغذاءها ، وهو الذى يكشف لنا عن أسرارها ، أو ليس هو أيضا عصارة الحياة وخلاصتها ومرآتها ؟ !

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١٥٧ ، بتاريخ ٩ مارس ١٩٢٩

وبعد ، فاسمح لى أن أستطلع رأيكم فى مسألتين عرضتا لى أثناء مطالعاتى واسترعتا التفاتى ، وقد أمعنت فى التفكير وتقليب النظر فيهما ، ولكننى لم أهتد إلى رأى حاسم أرتاح إليه وأقتنع به ، وها أنا ذا أبسطهما لحضرتكم راجيًا أن تعالجوهما على صفحات جريدتكم الغراء .

١ - تقول الكاتبة الإنجليزية الشهيرة شرلوت برونتى فى مقدمة وضعتها لكتاب ما ملخصه :

إن الفنان ما هو إلا واسطة لنقل تأثير قوى خارجية تجد فيه ميدانًا لعملها ، وليس لإرادته الخاصة سيطرة على ما ينشئ ، وفى بعض الأحيان يضع لنفسه قواعد ونظريات يسير بمقتضاها ، ولكنها سرعان ما تتحطم ، وتجد طبيعة نفسها حرة تعمل وفق اتجاهات تلك القوى الخارجية ، وسواء أكان ما تنتجه جميلاً أو قبيحًا ، ملائكيًا أو شيطانيًا ، فهو لا يستحق مدحًا أو قدحًا إن أجاد أو أخطأه التوفيق .

فهل توافقون على أن الفنان ما هو إلا واسطة للنقل لا أكثر ولا أقل ؟ . وإن كان كذلك فلم اختارت الطبيعة أشخاصًا بأعيانهم ، وجعلتهم يصلحون لقبول أثر تلك القوى دون غيرهم من الناس ؟ وهل الأصوب تقييد الفن بمقاييس وحدود أم تركه حرًا ؟ .

٢ - يقول الناقد الإنجليزى ماثرو ارتلد ما ملخصه :

إن الأدب يجب أن يعين على الوصول إلى الخير والفضيلة ، وإن لم يؤد إلى ذلك فهو ثورة ضد الحياة . وقد ضرب مثلاً لذلك شعر الخيام وقال : إنه وإن يكن به بعض الجمال فهو لا يسمى أدبًا ، لأنه لا يعين على الوصول إلى الخير والفضيلة .

ومعنى هذا أن معظم تراث الإنسانية لا قيمة له . وإن أمثال المعرى وأبى نواس وشوبنهور وعمر الخيام لا غناء فيهم .

فهل يجب أن يكون الأدب معلمًا ومهذبًا ومفيدًا ، وإلا أصبح من سقط المتاع ؟. إنى منتظر إيضاحكم وتعليقكم .

محمد أحمد شكرى

بالجامعة المصرية (قسم الحقوق)

* * *

سيدى المحترم ..

أشكرك وأعتذر إليك عن عدم نشر ما جاء بخطابك خاصًا بى ، فليس من رأيى أن أشغل الناس بنفسى ، ولا من عادتى أن أجعل شخصى موضع بحث . ولعل رأيى هذا يرجع إلى أنى أومن بالنظرية التى نقلتم عن شارلوت برونتى إيمانًا لا يقف عند الفنان وحده ، بل يمتد إلى الناس جميعًا وإلى الوجود كله . ولذلك أومن بأن عملاً مما فى الحياة أيا كان ، لا يستحق مدحًا أو قدحًا سواء أجاد من عمله أو أخطأه التوفيق . فأرباب الفن وجهابذة العلم إنما يؤدون فى الوجود رسالة لا مفر لهم من أدائها ؛ كما أن المجرم فيما يرتكب من آثامه إنما يقوم بما لا مفر له من القيام به هو ميسر للجريمة لأنه خلق لها ؛ كما أن العالم ورب الفن ميسر للعلم أو للفن لأنه خلق له . ونحن إذا مدحنا هذا أو ذممنا ذاك ، فإنما نحن فى الواقع نعبر عن إحساسنا نحن بأثر العلم أو الفن أو الجريمة ، كما نعبر عن إحساسنا حين نطعم طعامًا لذيذًا أو نستمتع بمنظر جميل أو نرتطم بحجر أو صخرة فيصيبنا من ذلك أذى ، فإذا كان الطعام اللذيذ أو المنظر الجميل يمدح لذاته وكان الصخر أو الحجر يذم لذاته من غير نظر لحسِّنا نحن بأثره، فحينئذ يمكن أن يمدح رب الفن أو العلم لذاته وأن يذم المجرم لذاته ، ومن غير نظر لحسِّنا نحن بالأثر الذى يتركه فى نفوسنا فنه أو علمه أو جريمته .

لقد يحتاج البحث فى هذه النظرية وفى تطبيقها إلى مدى لا يتسع له مجال القول هنا . لذلك أكتفى يا سيدى بالنظر وإياك فيما نقلته عن شارلوت برونتى من أن الفنان إن هو إلا واسطة لنقل أثر القوى الخارجية التى تجد منه ميدانًا لعملها ، وليس لإرادته الخاصة سلطان على ما ينشئ . فهذان كاتبان كبيران مشهود لهما بالتجديد والسبق يقفان معًا أمام منظر واحد أو يشهدان معًا حادثًا بعينه ، وهما لا يكتفيان بهذا ، بل يتبادلان الحديث فيما تركه المنظر أو الحادث فى نفس كل منهما من أثر ، وما أملى به من حس أو معنى أو حكمة ، وقد يجد أحدهما فى تأثر الآخر ما يستحق بالفعل التقدير والإعجاب . لكنهما مع ذلك ما يكادان ينصرفان ثم يجلس كل واحد منهما إلى مكتبه ليدون ما تركه المنظر أو الحادث من الأثر فى نفسه ، حتى به ينسى صاحبه وينسى الحديث الذى جرى ، وتحركت فى نفسه هو المعانى التى أفضى بها ومعان أخرى كانت كمينة لا تتحرك إلا أن يهزها الفن كيما تظهر للوجود . ولعل هذا الكمين مما فى نفس

الفنان هو ألصق آثاره بالفن وأدعاها للإعجاب . ولم يظل هذا الكمين كميناً لأن صاحبه أراد إخفاءه ، أو ضن به على زميله ، ولكن لأن لرجل الفن حالتين : حالة السالب وحالة الموجب ، أو إن شئت فحالة المشاهد وحالة الممثل ، أو إن شئت أيضا فحالة المتلقى وحالة المصور ، وهو فى الحالة الأولى يختزن آثار ما يشهد ويحس ، وقد تراه فى هذه الحالة لا يبدى من التأثر بهذا الذى يشهد ويحس الشىء الكثير . أما فى حالته الثانية فيكون قد تمثل ما شهد ، وما أحس ويكون قد صاغ فنًا ، أو لعل التعبير الأصح أن هذا الذى شهد والذى أحس يكون قد صبغ فى دخيلته فنًا، فإذا هو جلس ليخرجه للناس رأيت فى تقاسيم وجهه وقطوب جبينه وحركات شفاهه ، وسرعة مجرى ما بين أعصابه ويده ما لا يترك عندك موضعًا للريبة فى أنه شخص آخر غير هذا الذى كان فى بهر بما يشهد أو يقرأ أو يحس . ولذلك نرى هذين الكاتبين المجيدين وقد أخرج كل منهما صورة تختلف جد الاختلاف عن الصورة التى أبرزها صاحبه ، وقد نرى كل واحد منهما وليس فيما كتب شىء من الأثر الذى تحدث به لصاحبه ولا الذى تحدث له به صاحبه ، بل ترى شيئًا آخر لم يكن يفكر فيه ، ولكنه ظل يتكون ، ثم يتكون ، ثم يتكون فى كمين نفسه وباطن إدراكه وخفى حسه حتى إذا اكتمل خلقًا فنيًا كاملاً لم يستطع أن يحول دون ظهوره ، فرأيته عن غير اختيار منه مسوقًا ليسوى هذا الخلق كما تكون بفعل آثار الوجود الخارج عنه وعمله فى حسه وأعصابه . ومثل هذا الأثر وحده هو الجدير بأن يسمى فى الفن أثرًا سويًا .

ولنضرب لإيضاح ذلك مثلاً قد يحسبه الكثيرون عاديًا بل تافهًا ، فهذان الكاتبان أو الشاعران يقفان معجبين بالأهرام ، وكم كتب الكاتبون عن الأهرام وكم تغنى الشعراء بها ! . والأهرام هى الأهرام لا تتغير على الزمن ولا يكشف العلم من شأنها عن جديد إلا قليلاً . مع ذلك ما يكاد فنان شهد الأهرام تخلو نفسه من صورة منها ؛ وما تكاد صورة منها فى نفس فنان تتفق مع صورتها المرتسمة فى ذهن فنان آخر . فهذا يبلغ الفن الذروة من نفسه بعظمة هذا الأثر الخالد مع الزمان ، وذاك ينسى الأهرام وعظمتها لينتقل مع الزمان إلى الأيام التى شادت الأهرام وما كان فيها من مجد وحضارة . وثالث يعجب بدقة نظام الأثر الهندسى ، ورابع لا يتعلق بالزمن ولا بالتاريخ ولا بعظمة الأهرام لذاتها ولا بدقتها الهندسية ، وإنما يكون الأثر الأكبر

فى نفسه لهذه الرمال الممتدة حولها ، ولتغير الشمس والقمر والليل والنهار عليها ، إلى غير ذلك من ألوان الصور التى لا يحيط بها الحصر ، ولا أستطيع أنا أو يستطيع سواى عدها جميعًا ، ولا أستطيع بخاصة عدّ اختلاف مظاهرها . وهذا يا سيدى هو السر فى أن مظاهر الطبيعة التى لا تتغير دائمة التطور فى نفس الإنسان ، لتطور صورها تطورًا دائمًا أمام قوة رجال الفن الخالقة.

وقد تظن يا سيدى أن هذه الصور للأهرام قد تدور جميعًا بنفس رجل واحد من رجال الفن أو بنفس رجال الفن جميعًا . وقد تكون فى هذا على حق ، لكن الشىء الذى لا تخالفنى فيه أن واحدة منها ترتكز فى نفس رب الفن أكثر من ارتكاز سائرها . وكما تحيط حديقة الزهر المختلف الألوان بهجة وشذى وعطرًا بالقصر المنيف فتزيده جلالاً وجمالاً وهى بعد ليست منه أو مكملة له . كذلك تقوم الصورة المرتكزة فى نفس رب الفن بين غيرها من الصور الدائرة حولها مقام القصر من زهر الحديقة ، هذا مع أن رب الفن لم يكن له فى اختيار هذه الصورة التى تمثلتها نفسه دون سواها شىء قليل أو كثير من الاختيار .

وعلة ذلك فى نظر رجال العلم بسيطة ملموسة ؛ فكما أن من الناس من يحيط نظره بالأشياء البعيدة أكثر من إحاطته بالأشياء القريبة ، وكما أن منهم الأعشى والأعمش ، وكما أن منهم دقيق السمع للأصوات ودقيق حاسة الشم ومن ليسوا كذلك دقة ، وكما أن هذا الاختلاف يجرى فى شأن الحواس جميعًا ، فهو كذلك يجرى فى شأن الحس والخيال والشعور والتفكير . بل إن هذا الاختلاف فى شأن الحواس التى تقع عليها الماديات ، وتنتقل إلى مركز الحس عن طريق هذه الحواس لأبعد أثرًا مما قدمنا . فمن الناس من يأخذ بنظره لون من الألوان أكثر مما يأخذ بنظره لون آخر ، ومنهم من يأخذ بسمعه صوت أكثر من صوت آخر. ومنهم من تختزن ذاكرته صورًا معينة أكثر من اختزانها صورًا أخرى سواء فى المرئيات ، أو المسموعات ، أو المشمومات أو غير ذلك من المحسوسات جميعًا . وكما أنك لا فضل لك فى بعد مرمى العين ، أو فى إحاطتها بمنظر كامل أمامها ، ولا فضل لك كذلك فى دقة الحس ، أو فى تأثره بأنغام معينة . كذلك لا فضل لك فى اتجاه ذاكرتك أو أعصابك أو خيالك إلى نواح دون أخرى . أنت فى هذا مجموعة تكونت بظروف لا شأن لك فيها ، من وراثة وبيئة وظروف طارئة

وأمـراض ومسـرات وآلام ، فـصـارت إلى مـا صـارت إليـه من غـيـر أن يكون لك فى مصيرها هذا اختيار وإن كان لك فيه شىء من الاختيار فهو ضيق جزئى لا يكاد يعتبر أو يساوى شيئًا . وهذه المجموعة التى يتكون منها الشخص هى التى تجعل العالم عالمًا والفيلسوف فيلسوفًا ورب الفن ربًا للفن ، وهى التى توجه علم العالم وفلسفة الفيلسوف ، وفن الفنان ، وكل واحد من هؤلاء يحسب أنه المختار المطلق الاختيار فيما يفعل فى حين أن طبيعة نفسه هى التى توجهه ليعمل وفق تأثرها بما يحيط بها من القوى التى لم تخلق والتى لا سلطان لها عليها .

لعلك ترى بعد الذى تقدم يا سيدى أن لا موضع للسؤال عن السبب الذى حبت الطبيعة من أجله قومًا دون آخرين بمواهب خاصة فى الفن . فالله لا يُسأل عما يفعل . بل لعلك إن ذهبت تستقصى الأمور على حقائقها رأيت أن هذا الذى يظنه البعض تمييزًا فى المواهب . إنما هو السر الصحيح فى حسن نظام الإنسانية ، ولو أن الناس تساووا مواهب وملكات وكفايات ما رأيت هذا النشاط العظيم البادى فى جوانب حياة الوجود كله ، ولما كانت ثم حضارات تتداول العالم ، لتقرُب به رويدًا رويدًا إلى ناحية الكمال . وهو بعد ليس تمييزًا ، وإنما هو عدل فى المجموع وإن لم يبد عدلاً بالنسبة لكل فرد من أفراد هذا المجموع . وهل تراك أنت تعتبر نفسك ظالمًا لأنك تعنى بقلبك أو بعينك أكثر من عنايتك بأحد أطرافك بينما هذه الأطراف هى التى تسمح لك بالسعى والعمل ، وهى التى تجىء إلى الجسم كله بكل مقومات حياته. فأنت عادل مع مجموع جسمك ما اتجهت عنايتك إلى كل عضو منه بما تقتضيه حياة الجسم كمجموع ، وبما يؤديه هذا العضو من وظيفة . كذلك هذا التوزيع للمواهب والملكات بين أعضاء الجماعة الإنسانية هو على هذا القياس عادل فى مجموعه ، وإن تخيل البعض أن فيه ظلمًا وتمييزًا لبعض الأفراد على حساب البعض الآخر .

ثم لعلك كذلك ترى مع هذا الاختلاف فى طبائع الناس ، أن تقييد الفن بمقاييس وحدود أمر غير ممكن إذا اعتبرت الفنان الموهوب حقًا ، إنما توضع المقاييس والحدود للذين لا يرتفعون بما وهبتهم الطبيعة إياه إلى ما فوق المقاييس والحدود . هؤلاء الآخرين الذين أوتوا حظًا من الفن يقلدون فى سائر ما يعالجون منه من سبقهم وكان موهوبًا غير هبتهم ، وهم فى ذلك بحاجة إلى معرفة المقاييس والحدود التى جرى عليها

الأرباب الذين سبقوهم ، وليس فى مقـدورهم التبريز عليهم . فـأما أربـاب الفن أولئك فلا حاجة بهم إلى مقياس أوحد ، لأنهم هم الذين يشرّعون للفن ، وهم الذين يخلقون له المقاييس والحدود .

* * *

بقى ما نقلته يا سيدى عن ماثيو آرنولد ، وإنى أشاركك الرأى فى أن هذا القيد الذى وضـعه لا يتـفق مع حـرية الفن ، وليس أدل على هذا من اختـيـار شـعر الخـيـام موضعا لطعنه ، وشعر الخيام معترف ببلوغه مكان الجمال الشعرى السامى . على أن كلمتى الخير والفضيلة اللتين ذكرهما ، فقد تحتاجان إلى شىء من الإيضاح قد نعود إليه فى فرصة أخرى .

الفن فى مصر

كيف نفيد من رجال الفن

الذين يزورون مصر (*)

يحضر إلى القاهرة فى فصول السياحة المختلفة طائفة غير قليلة من الفنانين مثالين ونقاشين ومصورين وغيرهم . وأكثر هؤلاء يحضرون ومعه طائفة من ثمرات فنهم يسارعون إلى عرضها فى صالات بعض الفنادق أو فى معارض بعض الفنانين . والقراء يذكرون معرض الرسام الهولندى الكبير فان دنجن الذى أقامه بصالات جماعة الخيال فى شارع الأنتكخانة منذ سنتين، ويذكرون إلى جانبه معارض أقيمت فى صالات كريجر والكنتنتال وغيرها . على أن هؤلاء الذين يحضرون إلى مصر من أرباب الفن قليل منهم من يراه الجمهور مشتغلاً بفنه ، لأن الذين يريدون منهم أن يجدوا فى مصر ميداناً لهم يخرجون أغلب أمرهم إلى فسيح المزارع أو إلى حيث تقوم الآثار المصرية يتخذون منها موضعاً للوحى والإلهام . على أن واحداً من فنانى إيطاليا المعروفين قد قدم إلى مصر هذا العام ونزل فى فندق شبرد ورآه الكثيرون وهو يزاول عمله فى فنه ذلك هو البروفسور جارتسيا ، والبروفسور جارتسيا مصور يكاد ينقطع كل الانقطاع لتصوير الأشخاص ؛ وله فى ذلك مكانة كبيرة سمحت له أن يرسم بريشته صور كثيرين من أكابر الرجال فى العالم ، فقد رسم الملك فرديناند البلغارى والرئيس هوفر رئيس الولايات المتحدة حين كان مسافراً فى إيطاليا وطن جارتسيا ؛ ورسم الكاتب الإنكليزى الكبير رديارد كبلنج كما رسم كثيرين غير هؤلاء . وقد نشرت صحف مصورة كبيرة كثيراً من صوره، فنشرت الالستراسيون الفرنسية صورة الملك فرديناند ونشرت غير واحدة من صحف أوربا وصحف مصر نفسها صورة رديارد كبلنج .

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ١٦١ ، بتاريخ ٦ أبريل ١٩٢٩

وكثير من هذه الصور ليس صوراً زيتية ، بل هى صور بالأقلام الرصاص الملونة من الرسم العادى ، وهى مع ذلك تستظهر من نفسية الشخص شيئًا غير قليل .

رأى كثيرون من المترددين على فندق شبرد الأستاذ جارتسيا جالسًا على مقعد وأمامه ورق الرسم مثبتًا فوق محفظته موضوعًا على كرسى أمامه ، وإلى جانبه على كرسى ثالث مجموعة من الأقلام الملونة تزيد على الخمسين ، وأمامه الشخص الذى يصوره وهو يطيل النظر فيه ، ثم ما تفتأ نظراته تتردد ما بين الشخص واللوحة التى يرسمه عليها إلى أن يفرغ فى ساعة أو ساعتين من عمله ، ويكون المترددون على الفندق والذين يمرون به أثناء ذلك تتبعوا تطور هذه الصورة حتى ختامها .

كم كنا نود لو استطعنا أن نقف من عمل المصورين الذين يقصدون إلى مصر ومن عمل المصورين المصريين مثل ما وقف كثيرون على تطور تصوير الأستاذ الإيطالى جارتسيا .

وكم كنا نود أن يتصل أكبر عدد من المصريين بأكبر عدد من رجال الفن الذين يقصدون إلى مصر ، وأن يقفوا منهم على نظراتهم للحياة وتصورهم إياها ، وأن يعرفوا ما يستطيعون معرفته من آرائهم فى الفن ، ومن أخلاقهم كرجال للفن . اتصلنا بالأستاذ جارتسيا ونقلنا عنه بالسياسة اليومية حديثًا عن رأيه فى الفنون فى مصر ، وفى مصر كمهد للفن ، ووقف قراء السياسة على هذا الحديث وما فيه من آراء ، واتصلنا قبل ذلك فى شهر ديسمبر الماضى بالأستاذ درسل الإنجليزى العازف على الكمنجة ، ووقفنا على بعض آرائه فى الفن أيضًا ، وسمعنا من عزفه كما شاهدنا من تصوير جارتسيا ، كما رأينا من آثار غيرهما الفنية معروضًا فى المعارض المختلفة . على أن ما بلغنا من ذلك وما أبلغناه للقراء لم يكن إلا شيئًا يسيراً . ذلك لأن رجال الفن هؤلاء إذ يقابلون صحفيًا أو يتصلون به ، إنما يدلون إليه من آرائهم بما يحضرهم للوقت والساعة من غير تحضير خاص ، ومن غير أن يتوخوا عرض فكرتهم كاملة على الجمهور . والصحفى لا يستطيع وإن حاول أن يصل إلى هذه الفكرة كاملة ، لأنه لا يكون رجل فن أغلب الأحيان ، ولأنه بطبيعة عمله لا يود أن يثقل على محدثه ، ولأنه من جهة ثالثة يريد أن يعطى الجمهور الكبير ما يسيغه هذا الجمهور من أفكار وآراء ، ولا يعنى بأن يصل إلى

الدقائق التى لا تعنى إلا محبى الفن والمهتمين به اهتماماً خاصاً . هذا مع أن عرض رجل الفن فكرته كاملة على الجمهور وتوضيحه إياها بالصور أو بالألحان أو بما إليهما مما يزيدها وضوحًا وجلاءً من شأنه أن يقوى فى نفس الجمهور ملكة الفن ، ويزيده ذوقًا له ويحبب بذلك إليه جمال الحياة فى مختلف مظاهر الحياة .

ونحن إذا كنا نعنى عناية خاصة بأن نستمع إلى آراء العلماء والأدباء الذين يحضرون إلى مصر ، فنعقد لهم المحاضرات فى الصالات الكبيرة الموجودة فى القاهرة ، ونفيد منهم كل ما نستطيع استفادته . فلست أدرى أى شىء يمنعنا من أن يكون ذلك شأننا مع رجال الفن ومن أن ندعوهم إلى إلقاء محاضرات نفيد منها ما نفيد من محاضرات العلماء والأدباء سواءً بسواء . لقد سمعنا فى هذا الشتاء الماضى محاضرات لكبار الأساتذة أمثال ونسن روس ، وجورج دوهاميل ، ويهوذا ، وجورج سال وغيرهم سواءً فى صالة الجمعية ، أو فى الجامعة المصرية ، أو فى الجامعة الأمريكية ، وقد أفاد الكثيرون منا مما سمعوا معلومات جديدة ونظريات جديدة ونقداً للمعلومات والنظريات ، واستطاعوا بذلك أن يزيدوا فى بضاعتهم من المعارف ، وأن يحققوا وينقحوا ما لديهم من أفكار وآراء سابقة . وكل زيادة فى المعارف ، وكل تحقيق أو تنقيح للآراء من شأنه أن يرقى بالثقافة العامة ما دام ينتشر بين طائفة من الناس لها أثرها فى الثقافة العامة . ولو أننا استطعنا أن نصل إلى أكثر من محاضرات العلماء ، ولو أن طائفة منا استطاعت أن ترى كيف يزاول هؤلاء العلماء أعمالهم فى معاملهم أو بحوثهم فى مكاتبهم ، لزاد ذلك فى حسن الأثر الذى ينشأ عنه ويترتب عليه .

أفلا نجنى للثقافة العامة مثل الفائدة التى أشرنا إليها إذا نحن استمعنا إلى محاضرات رجال الفن ، وإذا نحن وقفنا على نفسيتهم حين مزاولتهم عملهم ، فكان لنا من ذلك ما يوقفنا على طريقة نظرهم للحياة وتأثر أعصابهم بملامسة مظاهرها ؟ .

ولسنا أقل احتياجًا إلى معرفة آراء رجال الفن ونظرياتهم ، ونظراتهم للحياة منا إلى معرفة آراء رجال العلم ونتائج مباحثهم . فكما أن العلم يبحث عن الحقيقة ويتخذ فى البحث عنها طرقه ووسائله ، فإن الفن يبحث عما فى الحياة من جمال ويتخذ لذلك طرقه ووسائله . وإذا كنا نلجأ إلى رجال العلم والأدب فى أوربا لأن وسائلنا فى العلم

أصبحت بحاجة إلى التجديد بعد الذى أتى عليها من جمود ، فإن وسائلنا فى مختلف الفنون أشد إلى التجديد احتياجاً . وهاهم أولاء الموسيقيون والمغنون منا يتجهون فى هذه الآونة نحو أوربا يقترضون منها النغم الغربى ، ليطعموا به النغم الشرقى . وها نحن أولاء تبعث حكومتنا إلى أوربا البعثات ، ليفيدوا منها فى النقش والتصوير والحفر ما يمكّنهم من أن يخلقوا فى البلد نهضة فنية جديدة تطوع لنا أن نطمع فى بعض فن مصر القديم ، وأن نربط بذلك بين ماضينا ومستقبلنا .

إذن نحن بحاجة إلى البعث فى الفن ، كما أننا بحاجة إلى البعث فى العلم والأدب ، بل إن حاجتنا إلى البعث فى الفن لأشد وأقوى ، فقد يُستطاع نقل العلم كما هو لأن العلم يذهب إلى أن قوانينه ثابتة تحكم العالم كله لا فرق بين أمة وأمة ، ولا فرق بين جيل وجيل لكن الفن يحتاج إلى أكثر من النقل فهو يحتاج إلى أن يتأقلم حتى يصبح فنًا مصريًا له طابعه وله صبغته الخاصة ، ولذلك هو بحاجة إلى عمليتين لا إلى عملية واحدة : النقل أولاً والمزج مع الفن المصرى ثانيًا . وهاتان العمليتان تدلاننا أوضح الدلالة على أن الجهود التى يجب أن تنفق فى سبيل الفن جدير بها أن تساوى الجهود التى تبذل فى سبيل العلم إن لم تزد عليها .

من أجل هذا ندعو إلى الاستعانة برجال الفن الأجانب الذين يحضرون إلى مصر لشرح آرائهم ونظرياتهم ونظراتهم للحياة ، كما نستفيد من رجال العلم الذين يحضرون إلينا فائدة لها ما قدمنا من الأثر فى ثقافتنا . ونعتقد أن رجال الفن يقبلون عن طيب خاطر المعونة التى نطلبها إليهم ، وأن يؤدوا للمجموع المصرى لا للأفراد القلائل الذين يتصلون بهم وكفى ؛ خدمة جليلة تفيده فى ثقافته وفى نظره للحياة وتقديره جمالها ، وتفيد كذلك أكبر الفائدة فى تحقيق البعث الذى نطمع فيه لفن مصر القديم فى عصورها المختلفة .

إحياء ذكرى رجال الفن

واجب قومي تدفع إليه مصلحة الوطن (*)

يطيب لى الوقت بعد الوقت أن أستمع إلى لحن الريف لبتهوفن ، وبينما أنا إلى مكتبى مصغ إلى إيقاعه على الفونوغراف ، وقع بصرى على كتاب رومان رولان وعلى كتاب هريو ، وكلاهما عن حياة بتهوفن وموسيقاه . وأذكر فى مرآهما ما قرأته فى كتب تين وغير تين من كبار الكتّاب عن الموسيقى النابغة ، كما أذكر منها ما شاهدت من آثار فى ألمانيا وفى النمسا مقامة لمجده شهيدة على خلوده . وإنى لفى هذا التفكير والاستذكار إذ ورد بخاطرى ما نشرته فى الصحف أخيراً لجنة تألفت لإحياء ذكرى المرحوم الشيخ سلامة حجازى ، كما ورد بخاطرى من مات من كبار رجال الفن عندنا أمثال محمد العقاد وعبد الحى وسيد درويش ويوسف وعبده الحمولى وغيرهم . ودفعنى هذا التوارد إلى أن أتساءل ألم ترنا نكتب عن الرجل من رجال الفن والأدب والعلم أثناء حياته ، ويصل الإعجاب منا به إلى حد تقبيل يده وعبادته ، إذا هو انتقل من عالمنا أصبح عندنا نسياً منسياً ، وانقلبنا نلتمس الزلفى عند غيره فنغدق عليه من آيات الإعجاب ما أغدقنا على من سلف ! . أذلك منا ضعف فى الخلق وسوء تقدير للفن، أم هو يرجع إلى أن فن هؤلاء ما يزال فناً غير جدير بالبقاء ، وأننا إنما نبدى ما نبدى من الإعجاب به لأننا لا نجد خيراً منه ولأن الحياة التى لا فن فيها لا نعمة فيها ولا طعم لها ؟.

أرانى مع شىء كثير من الأسف أميل للاعتقاد أن العامل الأول أعمق أثراً ، وإذا كان للعامل الثانى شىء من الأثر فى سرعة نسياننا رجال الفن والأدب فهو على كل

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٢٢٩ ، بتاريخ ٢٦ يوليه ١٩٣٠

حال لا يدخل فى تقديرنا . قد يكون التصريح بهذا موجباً لاحتجاج بعض الذين يظنون أننـا يجب علينا ألا نكشف عن عيوبنـا مخافـة وقـوف الغير عليها ، لكن هذا الاعتبار لا قيمة له فى نظر الذين يتحرون الحقيقة لذاتها . والذين يقدّرون أن محاولة ستر الخطأ لا يحول دون معرفة الغير إياه ، إنما يجعل الغير يرى فى ستر الخطأ عيباً آخر يضيفه إلى العيـوب التى ينسبها مكبّرة إلينا . لذلك لا نتردد دون القول بأن نسياننا رجال الفن وعدم إقدامنا عن إيمـان بفنهم لتخليد ذكراهم يرجع إلى شىء من إنكار الجميل ، ومن سوء الذوق أكثر مما يرجع إلى أن الفن المصرى مـا يزال غير جدير بـالبقاء . وإنكار الجميل يبدو واضحـاً للذين يرون كم يصل الإعجاب والإكبار برجل الفن أثناء حياته ، هذا الشيخ سلامة حجازى ، الذى وجد لجنة تدعو إلى تخليد ذكراه فلم تجد حتى اليوم لدعوتها إلا صدىً فاتراً . كان إبان مجده الفنى موضع إكبار من الجماهير كلها على اختلاف ميولها ومشـاربها إكباراً لم يفز به عظيم من العظماء ولا زعيم من الزعمـاء . كان الناس لا يكفيهم أن ينثروا عليه الورود والرياحين كلما ألقى بقطعة من قطعه الثنائية ، بل كانت الجماهير تقف على باب المسرح الذى يكون قائماً بدوره فيه راجية أن يصلها من خلال فرجاته ونوافذه صدى ذلك الصـوت السمـاوى الساحر يـأخذ القلوب ويستولى على الأفئدة ، ويجعل السـامعين مسحورين به، حتى لو أنه دعاهم بهذا الصوت الحنون ، ليسيروا وراءه إلى حيث لا يعلمون لما قلب أحدهم توجيه خطاه إلى غيـر الجـهة التى يناديه الصوت إليها . هذا الرجل مـا لبث أن مرض فى السنين الأخيرة مرضـاً أضعف صـوته ، وإن لم يُذهب عنه حـلاوته وطلاوته ، حـتى بدأ الكثـيرون ينسـون إكـبـارهـم له وتقديسهم إياه . فلمـا خبـا الصـوت بانتقال الشيخ من هذا العـالم جر النسيـان ذيوله عليه لولا مـا استبقت اسطوانات الفونوغراف من آثاره . وهاهم الناس ينظرون فى فتور إلى الدعوة لإحياء ذكراه كأن صـوته لم يتردد فى أجواء مصر سنين متوالية ، وكأن هذه الأجواء قد خلت حتى اليوم من كل أثر لهذا الصـوت . فماذا يمكن أن يسمى هذا النسيان من جانبنا إلا أنه جحود وإنكار للجميل ، وأنه ضـعف أى ضـعف .

لو أن الشـيخ سـلامـة حـجـازى أو أحـداً من أمثـاله عـاش فى بلد مـن بلاد أوربا ، لرأيت سيرة حياته مسطرة فى أكثر من كتاب ، ولرأيت فنه موضـع التحليل والنقد ، ولكان من حظـه أغلب الأمـر أن يقـام له أكثر من تمثـال . وأنت إذا سـألت فى هـذا

ما سببه لم يكن مجرد الاعتراف بالجميل هو الذى أدى إليه ، وإن كان التقدير والاعتراف هما الدافع الأول دائمًا . لكن هناك إلى جانب هذا دافعًا آخر ، ذلك أن الفن كالعلم وكالأدب ، وككل ما يقع فى دائرة المعارف الإنسانية ، لا يسير ناحية الكمال بمحض المصادفة ، ولكنه يتطور بحيث يثمر السابق فيه للاحق له ثمرة متأثرة به أبلغ التأثر . ولكى تسرع النهضة ويسير التطور نحو الكمال الخطى السريعة المنتجة ، يجب أن تشترك الجماعة كلها فى النهضة اشتراكًا .

يجب أن يقدّر كل فرد من الملايين التى تتكون منها الأمة رجل الفن ، وما أحدث من جديد فى سبيل التطور والفكرة أو الصورة أو الإحساس الذى قام هذا الجديد عليه . بهذا الاشتراك العام يمكن أن تتكون حياة الجماعة ، وما تقتضيه هذه الحياة من ثقافة مشتركة تعاونها فى خطاها إلى الكمال . فأما أن تظل المجهودات فردية ، وأن يظل المجموع بعيدًا عن الاشتراك اشتراكًا إيجابيًا فى توجيه التطور ، وأن يكون مستهلكًا غير منتج ، وألا يكون بناة حياته ماثلين فى نفسه حالين من قلبه محل الإيمان . فذلك ضعف من شأنه أن يقف بالجماعة دون السير ، وأن يجعل الثمرات التى تؤتيها جهود أفذاذ الرجال فيها ثمرات فجة ضعيفة ، لأن هؤلاء الرجال وإن صحت عزيمتهم يشعرون دائمًا بأنهم كثيروا الخاطر من أن ذكرهم لا يحيا بعدهم . ولذلك يُكِبّ الكثيرون منهم على استغلال فنه استغلالاً ماديًا جهد المستطاع ، مهملاً فى سبيل هذا الاستغلال محاولة التخطى به أوسع الخطى التى يستطيع فى سبيل الكمال .

والأمم التى تقدّر واجب اشتراك الجماعة كلها فى حسن توجيه الفن أو الأدب أو أى صورة من صور الثقافة كى تتطور صوب الكمال على نحو صحيح لا تكتفى بالاعتراف بجميل الموهوبين من رجالها بأن يضع كتّابها سيرهم ويقيم سراتها أو تقيم حكوماتها تماثيلهم ، بل هى تعتبر هؤلاء الموهوبين بعض حياتها مما يجب أن يقف عليه أبناؤها ، لذلك نراها تدرس للناشئة فيها سيرهم وأعمالهم على أنهم بعض بناة الأمة ، والذين سمحت جهودهم لها بما هى فيه من رفعة مكان ، وما تنعم به من رخاء وسعادة ، وما يشعرها بقيمة الحياة الإنسانية شعورًا صحيحًا .

ورجال الفن بلا ريب من بين الطوائف التى تبنى مجد الجماعة ، بل إن لهم بين هذه الطوائف لمركزًا خاصًا ممتازًا ، ذلك أن الفن رحيق حياة الجماعة والثمرة الشهية

التى تطيب الحياة بها ، هو هذه الزهور الحلوة الشذى مما تقع عليه أعيننا فنستريح لمرآه ونستريح للحياة معه . وإذا استطاع الإنسان أن يتصور جماعة تعيش من غير فن ، ثم اعتبرها مع ذلك جماعة إنسانية ، فليعذرنا إذا نحن لم نشاركه فى رأيه . فقد سبق الفن العلم فى حياة الجماعة ومهّد له . وإذا كانت جهود العلماء تتجه نحو دراسة الفنون على صورة علمية فلن يغير ذلك من الحقيقة الواقعة التى يشعر الكل بها ، وهى أن تطور الفن إنما هو المقياس الصحيح لتطور الجماعة فى سبيل الكمال . وإذا كان منطق اليونان أيام عظمة اليونان القديمة باقياً حتى اليوم فى كتب فلاسفتها ، فإن فن اليونان ما يزال حتى اليوم هو المعبر أدق التعبير عن مبلغ عظمتها فى تلك العصور . كذلك إذا كانت حياة مصر الدينية إبان عهود الفراعنة الأقدمين هى التى كانت صاحبة السيادة على أهل تلك العصور ، فإن ما بقى من فن مصر فى عهد الفراعنة هو الذى يحدّث حديثًا صحيحًا عن مبلغ حضارتهم . وهذا الرحيق العذب الذى تتغذى منه الحياة الإنسانية أقدس غذاء كان ولن يزال ملاك سعادتها ووسيلة نوقها للوجود وما فيه . فتكوين نفوس الناشئة على معرفة هذه الحقائق ، ووضع صور الفن ورجاله تحت أنظارهم ، واعتبار ذلك فى مقدمة ما يجب أن تشتمل عليه ثقافتهم لا يقف أمره على الاعتراف بالجميل لرجال الفن ، ولكنه يتجاوز هذا إلى خلق روح سامية يجعل للحياة أغراضًا غير الأغراض المادية الوضيعة ، ويدعو الناس إلى تقدير المثل العليا والغايات السامية والتضحية فى سبيلها لما تفيده الإنسانية منها ، لا لما تدره من الفائدة المادية على صاحبها .

هذا إلى أن تنشئة الشباب على معرفة رجال الفن وتاريخهم وأعمالهم ، يجعلهم يقدرون الفن لذاته ويفهمون أغراضه وغاياته . ولعلى لا أغلو إذا أنا ذكرت أن الأكثرين منا لا يقدّرون لصور الفن قيمة ، إلا أنها تلذ أبصارهم أو أسماعهم فترة من الزمان . ولكن لماذا تلذ هذه الصور الأبصار أو الأسماع ، وأى ناحية تتغذى بها النفس من هذه الصور ، وإلى أى وجهة يجب أن تتجه إذا أريد بها أن تخطو إلى الكمال . هذا ما أرتاب أشد الريبة فى أن شبابنا وفى أن رجالنا يقدرونه ، لأنهم لم يفكروا فيه يومًا من الأيام ، ولم يعرضوا له بالبحث على أنه يستحق البحث ، بل كل ما لديهم أن فلانًا حسن التصوير أو جميل الصوت أو متقن الإيقاع ، لأنه يرضى منا فى اللحظة التى

يقع حسّنا على ما يقوم به شهوة هذا الحس . فإذا نحن انتقلنا إلى آخر من أعمال الحياة بقى هذا النعيم الذى نعمنا من أثر الفن برهة فى نفوسنا ، ولكن فى صورة مبهمة غير واضحة ، ثم سرعان ما يزول وسرعان ما نعود إلى الجمود وإلى الأنانية وإلى التفكير الوضيع فى مصالح الحياة الدنيا .

ولو أن مدارسنا أنشأتنا كى نقدر فن بلادنا لرأينا فيه ما هو جدير بعنايتنا ، وما يدفعه إلى ناحية الكمال بخطى أسرع ألف مرة مما يسير به اليوم . أوَلا ترى عجبًا أن يكتب ادوار هريو كتابًا مطولاً عن بتهوفن وألحانه محللاً فيه هذه الألحان وما تتركه فى النفس من أثر ، زاكرًا كيف وقعت للموسيقى النابغة ، وأى وحى أوحاها إليه ! . أو لا ترى ذلك عجبًا وهريو رجل سياسى كان وزيرًا وكان رئيسًا للوزارة فى فرنسا ، وما زال مظهر حياته السياسى هو الغالب عليه . أى دافع دفع به إلى الكتابة عن بتهوفن إلا فهمه الفن فهمًا صحيحًا وتقديره إياه واعتباره واجبًا من واجباته أن يعين الجماعة على المزيد من المتاع به . والأمة التى تفهم الفن فهمًا صحيحًا وتستمتع به لا على أنه شهوة برهة ولذة ساعة ، ولكن على أنه مُعبر صادق التعبير عن مشاعرنا حين اهتزاز عواطفنا سرورًا أو ألما وحزنًا أو فرحًا وانتقامًا أو إحسانًا ، وما إلى ذلك من مختلف العواطف التى تفهم الفن على أنه هو المُعبّر الصادق عن المشاعر الإنسانية هى الأمة الجديرة بأن يقال عنها إنها بلغت من مراتب الكمال الإنسانى مقامًا محمودًا .

* * *

متى نصل نحن إلى تقدير الفن ورجاله هذا القدر ؟ لا أدرى ! ولكن الفتور الذى لقيته الدعوة إلى إحياء ذكرى المرحوم الشيخ سلامة حجازى ، والإهمال الذى نراه نصيب كل ذى فن ينتقل من هذا العالم ، لا يبعثان على الاعتقاد أننا نصل إلى هذا التقدير فى زمن قريب ، إلا أن تتجه لتذكير الأمة به ودفعها إليه قوى صادقة الإيمان به ، صادقة الرغبة فيه ، فلعل هذه القوى موجودة بين أظهرنا ، ولعل هذه الدعوة تبقى منها ما ينشطها ويدعوها إلى العمل لإحياء ذكرى الفن ونويه ، ولإشراك الجماعة المصرية كلها فى ذلك إشراكًا يزيدها ارتباطًا روحيًا وسموًا إنسانيًا .

تهذيب المواهب

وصلة ما بين العلم والفن (*)

جمعنى ديوان سكة الحديد مع الأستاذ محمد عبد الوهاب المغنى . والأستاذ عبد الوهاب ليس مغنيًا بارعًا وكفى ، ولكنه إلى جانب ما وهبته الطبيعة رجل محب لفنه حبًا يدعوه للتفكير فى السمو به، ويجعله لذلك من المجددين فيه . وقد تحادثنا عن المجهودات التى تنفق من أكثر من عام فى نادى الموسيقى الشرقى ، واستطرد بنا الحديث إلى الكلام عن الغناء والموسيقى فى مصر . وقد انتهينا إلى النتيجة التى ينتهى إليها الإنسان دائمًا كلما فكر فى شأن أى فن من الفنون فى مصر . فالفنون عندنا ما تزال مواهب فردية لم تهذب ، ولم يبذل أى مجهود للارتفاع بها إلى مقام العلم ، وهى لذلك إما تقليد لا يعرف صاحبه أن يبدع جديداً ، أو إبداع فطرى لا يعرف صاحبه على أى قاعدة يقوم .

وهذه الحقيقة لا تقف من الفنون فى مصر عند الغناء والموسيقى ، بل هى تتناول الفنون جميعًا ، وتتناول الأدب والشعر فى مقدمة ما تتناول من الفنون . رجل أو امرأة يوهب صوتًا جميلاً يسحر سامعيه حين يتغنى صاحبه أو تتغنى صاحبته به . من أى مقام هذا الصوت . إن الذين يحضرون مسارح التمثيل الغنائى الإفرنجى ، ويطلعون على برامج الحفلات ، يجدون صور المغنين والمغنيات وتحت صورة كل شخص اسمه ومقام صوته . فهذا (تِنور) وهذه (سُبرانو) ، وهذا من طبقة ومقام آخر . وهؤلاء المغنون يعرف سلفًا قارئ أسمائهم ومقامات أصواتهم إلى حد كبير ، ما سيستمتع به

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٢٣٦ ، بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٩٣٠

من أنواع الغناء. فأما المغنى المصرى فهو على كل المقامات والأصوات والطبقات قدير . وهو لذلك (يتفنن) على ما يقولون فلا يرتبط بمقام معين ولا بطبقة معينة . ذلك بأن الإفرنج قد أدركوا أن التخصص فى الغناء كالتخصص فى الطب وفى القانون ، وفى غيرهما من الفنون هو السبيل الوحيد للوصول إلى غاية ما يستطاع الوصول إليه من درجات الكمال . فأما المغنى الذى يغنى كل الأدوار وكل الطبقات ، فهو كالأطباء الذين يعالجون كل الأمراض . قد تحتاج إليهم للإسعاف الضرورى ، لكنك بحاجة كى تطمئن إلى استشارة أخصائى يعرف حقيقةً كيف يشخص وكيف يعالج . ولئن كان أحد لا يستطيع أن ينكر أن من مغنينا ومن الموسيقيين عندنا من أغدقت عليهم الطبيعة من مواهبها الشىء الكثير . فإن المواهب الطبيعية إذا لم تدرب وتركت لهدى صاحبها كانت من جهة معرضة للفساد ، ومن الجهة الأخرى كان سعى صاحبها لكمالها عن الطريق العلمى الصحيح معرضًا لألوان من الخطأ قد تبلغ فى بعض الأحايين غاية الفحش. بل إن الناصحين الذين يقومون بالتلحين قد يكونون أنفسهم سبب الفساد والخطأ حين لا يقدّرون جوهر الصوت ، ولا ينصحون لصاحبه بأسباب تدريبه تدريبًا حسنًا ، ويدفعون به أحيانا إلى ما يُعرّض هذا الصوت الطبيعى الجميل إلى الانحطاط والتدهور.

ونعود إلى الشعر وإلى النثر . فإن دراسة الأدب ما تزال فى مصر فى مفتتح عهدها العلمى بالجامعة المصرية . ومن أجل ذلك لم تتكون بعد عندنا طبقة الشعراء والكتّاب الذين درسوا الأدب دراسة علمية ، فحاولوا لذلك أن يخلعوا عليه من مواهبهم ما يسير به إلى ناحية الكمال . ولتقدّر هذا يكفيك أن تلقى على أى كاتب أو شاعر هذا السؤال : ما هى الغاية التى تقصد إليها من شعرك ومن نثرك ؟ . إن كل واحد منهم ليجيبك جوابًا ترى فيه أثر الفردية البحتة ، ولا ترى فيه أى مظهر للتفكير العلمى من مثل ما تراه فى كتابة أدباء الإفرنج . ذلك بأن لكل واحد من هؤلاء موهبة ميّزته بها الطبيعة، فهو يسير على هدى هذه الموهبة من غير أن يحاول تهذيبها تهذيبًا علميًا ، ومن غير أن يجد مدربًا صالحًا يدربها ويوجهها التوجيه الذى يجعلها تثمر خير ثمراتها . وإنى لأعترف اعترافًا صريحًا ليس فيه أى شىء من التواضع ، بأنى ما أزال إذ أقرأ بعض صحف ، وبعض قصائد فى الأدب الغربى أرانى أمامها ضعيفًا ، حتى ليبلغ بى

من الإعجاب بها أن أحسد الكاتب أو الكاتبة ، وأود لو أنه حُرم هذه النعمة الكبرى . ذلك بأنى أشعر إلى جانب استمتاعى بما أقرأ إلى غاية حدود الاستمتاع بشىء من الحنق أن لا أجد ما يعادل هذا الذى أقرأ فى لغتنا التى نكتبها اليوم ومن أقلام كتابنا وشعرائنا الممتازين . كنت أتلو رثاءً للممثل الفرنسى الكبير (سلفان) فى آخر عدد وصل من مجلة الألستراسيون ، وكاتبة هذا الرثاء تلميذة من تلاميذه وممثلة فى (الكوميدى فرانسيز) . كم مرة سرت الرعشة إلى بدنى وأنا أقرأ هذا الرثاء ! كم فيه من عاطفة ومن موسيقى ومن شعر ومن قوة ومن جمال ! . وأحسب لو أن أحداً حاول أن يترجمه إلى العربية ، لخرج هشيماً محطماً لا يثير فى النفس أية عاطفة من العواطف . ذلك أن هؤلاء الذين يكتبون دُربوا ونُميت ملكاتهم ومواهبهم من النواحى التى امتازت مواهبهم فيها على صورة تتجه بهم إلى ناحية الكمال ، وهم لم يقنعوا من بعد بالمحاكاة والتقليد ، بل ذهبوا يسبرون أغوار أنفسهم ، لتمتاز كتابتهم بقوة شخصية تجعل قارئهم يمس الكاتب أو الكاتبة والشاعر أو الشاعرة ، وكأن أحدهم إلى جانبه، وكأنه يراه حياة ماثلة لا مجرد ألفاظ براقة . وهذا لا ريب من عمل العلم الذى يزيد الموهبة الطبيعية قوة ويوجه الإبداع إلى ناحية الكمال بدل أن يجعله فجاً يضطرب أحياناً فترى فى بعض نواحيه جمالاً ساحراً ، على حين تكسو النواحى الأخرى نبرة قاتمة تضعف من سحر ذلك الجمال وتغطى على بديع سناه .

إلى أن تتهذب المواهب لصلة ما بين العلم والفن ، ستبقى فنوننا تضطرب على نحو ما تضطرب اليوم ، وسنبقى نلتمس الكتاب الذى يهز العالم فنجده ولكن فى غير مصر ، وقطعة الموسيقى التى تسحر السامعين فنجدها ، ولكن فى غير مصر ، والقصيدة التى تبهر القلوب والأسماع فنجدها ، ولكن فى غير مصر . هذا ومصر غنية غاية الغنى بأسباب الفن ، فمالها لا تكون غنية كذلك بصلة ما بين الفن والعلم ؟ . إن الأمر يحتاج إلى جهود كبيرة مخلصة للعلم والفن جميعاً . جهود تتجرد من المآرب العاجلة الوضيعة ، ولكنها تكفل لأصحابها نباهة الذكر ، وخلود الاسم ، والاعتراف بالجميل على مر الأجيال .

فهل ترانا نجد هذه النفوس العالية التى تقبل هذه التضحية فى سبيل مصر ؟ . هذه هى التضحية الخالصة الصحيحة . وهى التضحية الخالدة التى يذكرها التاريخ ويذكر لأصحابها أنهم قاموا لبلادهم بأجلّ عمل .

المرأة المصرية والفن

ماذا ينقصها فى إلهامه (*)

فكّر جماعة من أصدقاء المرحوم مختار فى زيارة قبره لمناسبة انقضاء أربعين يومًا على وفاته، وجعلوا موعدهم لذلك الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر الخميس ١٠ مايو الجارى ، ولما كان بعضهم لا يعرف قبره اتفقوا على أن يتلاقوا حول تمثال نهضة مصر ، ليذهبوا من عند هذا الأثر الكبير الذى خلف مختار إلى مثوى رفات مختار . وعند التمثال لقيت الأساتذة محمد حسن وشعبان زكى والدكتور زكى أبو شادى ويوسف نجم وبعض الأصدقاء . وتناول حديثنا مختاراً وما بعث من حياة فنية كان لها أثر كبير فى توجيه الفن المصرى الحديث ، وما أعلى مقام الفن ورجاله بعد أن كانوا مغمورين لا يقر لهم أحد فضلاً . ثم حزنًا أن يكاد النسيان يغمر اليوم مختاراً رغم خالد آثاره ، وأن يكون أصدقاؤه بالأمس فى مقدمة من أسرع إليهم هذا النسيان .

قال أحدنا : أو ما كان واجبًا على السيدات المصريات أن يشتركن فى الحداد على مختار وأن يشيعن جنازته ، وأن يحتفلن بتأبينه ، وأن يقمن له أثرًا باقيًا . لقد قضى مختار حياته الفنية والمرأة كل شىء عنده . فهذه المصرية التى توقظ أبا الهول فى تمثال النهضة ، وتلك اللقية فى بيبان الملوك وعروس النيل المعروضة بمتحف اللكسمبور بباريس بعد أن اقتنتها الحكومة الفرنسية ، وهاته المرأة المصرية فى حزنها ومسرتها ، فى نومها ويقظتها ، فى سعيها وطمأنينتها ، هذه التماثيل كلها خلّد بها مختار المرأة المصرية فى أروع صورة وأقواها وأبدعها ، فكان حقًا على المرأة المصرية

(*) ملحق السياسة ، العدد ٣٤٠٥ ، بتاريخ ٢٦ مايو ١٩٣٤

أن تعـرف له هـذا الجميـل ، ومن عسـاه يعرفـه له إذا هى نسيته يوم شيعت رفاته إلى مقـره الأخير ، ونسيتـه بعد أن ووری التـراب ولم تبـق منـه إلا الذكرى والآثار الفنية الباقية .

وصدق صاحبنا . لقد جحدت المصرية فضل مختار ، وهو الذى استوحاها فى فنه بما لم يستوحها أحد غيره من المثالين والمصورين المصريين . وربما كان من حق الفن أن يشتـد فى لوم المرأة المصـرية أكثـر مما يشتـد فى لوم الرجل الذى نسى المثـال المصرى الأول وجحد فضله . فالرجل كثيراً ما تعبث بعواطفه أهواء الساعة وشهوات الظروف وبخاصة حين يكون فى مثل المضطرب السياسى الذى تضطرب مصر فيه فى هذه السنوات الأخيرة . والرجل قد تلهيه مشاغل الحياة عن القيام بواجب التقدير وعرفان الجميل لرجل أسدى لوطنه ثروة قومية ضخمة ، كالثروة الفنية التى أسدى مختـار لمصر . لكن المـرأة التى تمتُّ بعواطفها بل بوجودها إلى الفن بأواصر كثيرة ما كان لها أن تقع فى هذا الخطأ الذى وقع الرجال فيه إزاء مختار متأثرين بالأهواء السياسية ، والميول الدائمة التغير . وإننا لعلى يقين من أن تتدارك سيداتنا هذا الخطأ ، على يقين من أن يقوم نساؤنا بالواجب عليهن للرجل الذى غادر العالم فى ريعان الرجولة ، والذى أدى رسالة الفن المصـرى أداء لفت نظر العـالم كله إلى هذا الفن الجديد القديم .

على أن اللوم الذى وجه صاحبنا للمرأة المصرية لم يقف عند إغفالها أداء واجبها إزاء مختار ، بل امتد إلى تقصيرها فى أداء ما يجب عليها أداؤه من رسالة الفن . فالفنون الجميلة كلها إنما تستلهم أكبر وحيها من مصدرين : الطبيعة والمرأة . والطبيعة لا تقضى بذات نفسها ، ولا يفتض رجل الفن كل أسرارها ما لم تزنها المرأة بوحيها وإلهامها . ولذلك تواضعوا على تسمية الطبيعة التى لا تبعث المرأة إليها بوحى الجمـال بالطبيعـة الصامتة أو الطبيعـة الميتـة . وما يزال الفن المصرى الرفيع خالياً من وحى المرأة أو يكاد . وتستطيع أن تستعرض ما نقشت ريشة المصورين المصريين ، فلا ترى للمرأة فيه إلا أثراً قليلاً ، ولا تكاد ترى فيه للمرأة المهذبة أثراً قط . وهو بعد لم يتـأثر بوحى المرأة هذا التـأثر الذى تلمحه فى الفن الأوربى منذ نهضته فى القرن الخامس عشـر والسادس عشر حين كانت المرأة مصدر الوحى فى الصور الدينية ،

كما كانت بعد ذلك مصدر الوحى فى أطوار الفن جميعًا . فمن الحق أن تلام المرأة المصرية على هذا أكثر مما تلام على تقصيرها فى أداء الواجب لمختار ، ومن الحق أن تستحث المرأة المصرية ، لتقوم بواجبها للفن فتوحى إلى رجال الفن ، وتوحى إلى الطبيعة المصرية نفسها من أسرار الجمال ما اختصها القدر بالوحى به .

كذلك قال صاحبنا وليدلل عليه ضرب الأمثال ببعض رجال الفن عندنا ممن لا تظهر المرأة فى تصويرهم أو لا تكاد ، فإن هى ظهرت لم يكن ذلك منها للوحى بمعنى جديد ، ولكن لإثبات صورتها هى على لوحة من اللوحات . وفى هذا يقول صاحبنا حظ من الحق غير قليل ، وهو يجعلنا نتساءل : إلى من يجب أن نوجه اللوم عن هذا التقصير ؟ إلى المرأة ؟ أم إلى المجتمع ؟ أم إلى رجال الفن أنفسهم ؟ .

وأخال أن أولئك جميعًا يجب أن يحتمل كل منهم حظه من اللوم ، وإلقاء عبئه على المرأة وحدها فيه ظلم لها ، وتحميلها تبعات لا يصح أن تنوء بها منفردة ، بل لعل ما يقع على المرأة من التبعة ، إنما هو الحظ الأقل . وما يقع على المجتمع هو الحظ الأوفر . ولعل من الإنصاف أن نقول إن المرأة قد أوحت إلى الفن ورجاله حيثما استطاعت هذا الوحى ، وحيثما أتاحت ظروف المجتمع لرجال الفن استلهامه . وهذا غناؤنا المصرى قد كان لاشتراك المرأة والرجل بالوحى والفن فيه الأثر الأكبر ، فليس لحن من الألحان يشدو به مغن ، أو تشدو به مغنية فى مصر فى هذا الزمن أو فى الأزمان التى سبقت إلا كان لوحى الهوى وصبابة الوجد أثر فيه ظاهر . ولا يكاد واحد من المغنين المعروفين أو من المغنيات المعروفات يخلو فنه من وحى رجل أو امرأة . هذا المؤلف يضع لتلك المغنية أدوارها وطقاطيقها ومواويلها ، وهذه المرأة المشوقة تمد ذلك المغنى بأروع أنغامه وأقواها فى النفس أثراً . والغناء كالأدب وكالتصوير فن جميل كل الجمال . ولم ينفرد الغناء بهذا الإلهام والاستيحاء بين الجنسين ، بل إن فن مختار كله صادر عن وحى المرأة ، وهو فى ذلك يختلف اختلافًا كبيراً عن الفن الفرعونى القديم الذى استلهم مختار وعمل على بعثه . فتماثيل مختار كلها فيما خلا ما كان منها تمثالاً لرجل معين تصور المرأة فى مختلف مظاهرها ، وتصور مختلف المعانى وقد اتخذ مختار المرأة رمزاً لها. فإذا كانت سائر صور الفن لم تستلهم المرأة ، فأكبر الذنب يرجع إلى المجتمع المصرى وبعضه يرجع إلى رجال الفن أنفسهم وأقله ما تحمل المرأة عبئه وتبعته .

على أن الإنصاف يقتضينا أن نذكر ، أن ما ألهمت المرأة المصرية من صور الفن في الغناء وفي تماثيل مختار لا يعدو أن يكون أبسط صور الإلهام وأكثرها سذاجة . لم يعد وحى المرأة فى أمور الغناء ذلك النداء الطبيعى الأول بين الجنسين ، وهذا الشوق الصارخ فى أحشاء كل منهما نحو الآخر . صحيح أن الشوق والهوى ألهما شعراء ومؤلفين قطعًا غنائية بالغة غاية الجمال وأوحيا إليهم صورًا من استعار نار الوجد فى أحضان الطبيعة لم يكن للناس بها عهد إلى هذا الزمن الأخير . لكن هذه القطع ما تزال قلة بين ما يغنى ، أما أكثره فما يزال ساذجًا بسيطًا غاية البساطة ، بل إن منه التافه الذى ينبو عنه سمعك ، لولا جمال صوت المغنى الذى يؤديه . فأما تماثيل مختار وظهور المرأة فيها واضحة الأثر ، فليس يرجع إلى وحى المرأة المصرية بمقدار ما يرجع إلى شيطان مختار نفسه ، فقد كانت المرأة شيطان مختار كجنس لا امرأة معينة . ولئن كان مختار قد تأثر بنسوة عرف ، فقد تأثر ببعضهن تأثرًا وقتيًا لم يترك أثرًا ظاهرًا فى مجموع فنه على نحو ما نرى فى صور رفايل وتسيان ، وهو إن كان قد تأثر فى بعض معانيه التى أبرزت تماثيله بنسوة عرف فمن حق عارفيه أن يشكوا أكبر الشك فى أن يكون لامرأة مصرية أثر فى هذه المعانى ، بل لعل صاحبة الوحى بها إفرنسية ممن عرف مختار أثناء مقامه الطويل بباريس . وهو لذلك قد اتخذ من الفلاحة المصرية ممثلة للمرأة المصرية ، ورمز بها فى مختلف تماثيله إلى كل المعانى التى جالت بخاطره . فهى الحظ فى لقية ببيان الملوك ، والإرادة فى المرأة المصورة على قاعدة تمثال سعد ، والأسى والاستسلام والمثابرة والرجاء فى كثير من تماثيله المختلفة الأخرى .

وليست الأغانى وليست التماثيل هى وحدها التى وقف تأثير المرأة المصرية فيها عند الوحى الساذج . فتحت يدى الآن ديوانى شعر ، أحدهما الملاح التائه لعلى محمود طه ، والآخر الأعشاب لمحمود أبو الوفا . ومع أنك تلمح فى الديوان الأول نوعًا من الهوى يميل بالشاعر إلى وحى المرأة ، فإنك تلتمس هذا الوحى بين جلدتى الديوان فلا تجده قط صادرًا عن امرأة بعينها ، إنما هو هذا الميل المبهم من الرجل إلى المرأة ، ومن الذكر إلى الأنثى ، وإنما هو حديث الحب الذى يقول الناس عنه ، والذى يشعر الإنسان به خيالاً لذيذًا حتى إذا تحقق عرف له غير لذة الخيال أعماقًا من الحقيقة تفيض بالسعادة حينًا ، وتكوى بنار الغيرة أو الألم حينًا آخر . وهل تريد دليلاً على هذا الإبهام

فى وحى المرأة لعلى محمود طه أكثر من قصيدته الأولى : ميلاد شاعر . وأى شىء هو الشعر إذا لم تكن المرأة مثاله ، مثاله إصباحًا وإمساءً ، ومثاله ليلاً ونهاراً . لكن هذه القصيدة البديعة الحلوة النغم العذبة المدخل إلى النفس ، تتحدث عن الطبيعة وعن الصبح وعن المساء وعن الليل وعن كل ما فى الطبيعة إلا المرأة ، أستغفر الله ففى القصيدة حديث عن عذارى تزدهيهن صبوة ومراح ، لكن هاتيك العذارى لا يبتهجن بالحب ولا يوحينه ، وإنما يبتهجن بالصباح وبالجدول الذى يرقص الظل على صفحته التى تتلألأ بها خضرة العشب والندى . والملاح التائه ، هاته القصيدة التى اتخذ الشاعر عنوانها عنوانًا لديوانه . أفأوحت بها امرأة ؟ كلا ! إنما أوحت بها تفكيرات فلسفية وأوهام الحب والمرأة لا أكثر . والشاعر والله ، قصيدة كلها حيرة وكلها ثورة وكلها ضراعة وكلها اضطراب نفس وكلها إيمان يريد أن يصل إلى مزيد من الإيمان ، لكن الشاعر لا يحس المرأة بينه ، وبين الله ولا يرى لها فى اضطرابه وحيرته محلاً ، ولا ينشد السعادة فى جسمها على نحو ما يفعل توفيق الحكيم فى شهرزاد ، ولا فى قلبها وعقلها كما يفعل كثيرون . وأنت ترى صورة تتكرر من هذا الذى ذكرت لك عن المرأة فى قصائد ديوان على محمود طه إلا فى قصيدته الأخيرة : البحيرة ، وهى التى ترجمها عن بحيرة لامارتين ، وترجمها شعراً كله الفن والعذوبة والإبداع . هنا توحى أولفير إلى لامارتين ، وينتقل وحيها إلى على محمود طه ، فإذا نفسه فى هذه القصيدة غير نفسه فى كل شعره . وما أدرى كيف استطاع على محمود طه بعد أن ترجم حديث أولفير ولامارتين ، أن يعيش من غير أن يبحث لنفسه عن أولفير توحى له ما أوحت جدتها للامارتين ، ولكننى أدرى وسترى السبب من بعد .

وأعشاب أبو الوفا ! هذا الديوان الرقيق الظريف ، أتراه أحسن حظًا من ناحية وحى المرأة . ربما يبدو كذلك فى بعض قصائده أمثال "يوم اللقاء" و "الطفلة الكبيرة" و "حلم العذارى" و "رسالة الكوخ" و "بنات النيل" و "رسالة الحياة" ، لكنك ما تكاد تقف هنيهة أمام هذه القصائد الحلوة العذبة المدخل إلى النفس ، حتى تشعر بوحى المرأة فيها ساذجًا غاية السذاجة وأدنى إلى خيال الشعر منه إلى وحى امرأة ذات حياة وسلطان على الشاعر ، فليس فى هذه القصائد جميعًا ما يهزك هزًا عنيفًا لا سبيل إلى الخلاص منه شأنك أمام كل وحى صحيح ، بل أكثرها أقرب إلى الدعابة أو تصوير لحظة ما أتفه

حظ المرأة المعنوى منها . وحظ المرأة المعنوى هو المصدر القوى الذى يهبط منه وحى المرأة للفن ، فجسم المرأة نفسه لا يوحى لرجل الفن ما لم يكن له من الحظ المعنوى أكثر من مجرد تمثال نسوى تجرى فيه أسباب الحياة الحيوانية . والحب الجنسى إذا كان حبًا حيوانيًا صرفًا لم يرتفع إلى مقام الإيحاء بشىء ، لأن النفس التى تنوب فى حيوانيتها غير جديرة بأن تدرك من معانى النفس شيئًا قل أو كثر .

ومع أن وحى المرأة فى الديوانين اللذين أشرت إليهما ساذج أو خيالى كما قدمت . فإن للشاعرين حين يسموان فى وصف الطبيعة ، أو فى الحديث عن كبار الرجال مراقى تبلغ مبلغ أكبر شعراء العربية . وفى كلا الديوانين قصائد عن عدلى يكن وعن فيصل وعن الشهيد بن حجاج ودوس تبلغ من سمو الإلهام ما يزيدنا أسفًا على هذا الضعف فى ناحية وحى المرأة للفن ، وعدم أدائها هذه الرسالة الإنسانية كما يجب أن تؤدى . وهما فى هذه الناحية ليسا بدعًا فى الشعر العربى الحديث ، بل إن الشعراء المعترف لهم فى نصف القرن الأخير بالتفوق والذين انعقدت لهم إمارة الشعر ، ليقصر وحى المرأة دون إلهامهم هم الآخرون ، وليقف بمعانيهم الفنية الرقيقة دون السمو إلى ما يجب أن تسمو له .

لو أننى حاولت استقصاء نواحى الضعف فى إلهام المرأة الفن لطال الحديث ، ولما خرج فى قواعده عما تقدم ، فلأنتقل الآن إلى توزيع التبعة عن هذا الضعف بين المرأة والمجتمع ورجال الفن .

وعندى أن الحظ الأكبر من التبعة يقع على المجتمع المصرى وعلى تاريخنا الحديث . فإلى سنوات قليلة ولا يبالغ من يقول إلى اليوم ، لا يسيغ المجتمع المصرى معنى الجمال والفن ولا يقدّره لذاته . وآية ذلك أن هذه النهضة التى قام بها مختار ، والتى بعث بها إلى الفن المصرى ، وإلى رجال الفن المصريين روحًا جديدة قد بدأت تخبو ، ولا تجد من ينفخ فيها من روحه ولا تجد من يغذيها . ورجال الفن الموهوبون والمعترف لهم بالسبق فى مصر لا يجدون من يشجعهم ، ولا من يذكى فيهم ضياء شعلة الفن المقدسة . لا يجدون ذلك من رجال الحكومة ولا من المثقفين ولا من الأغنياء . وهذا محمد حسن المشهود له من البيئات الأوربية نفسها بالامتياز فى تصوير الأشخاص ، والذى يقف

فى هذا الفن إلى جانب كبار رجاله فى أوربا ، والذى عرض من تصويره فى ظروف مختلفة لوحات حازت التقدير ، بل الإعجاب أكبر الإعجاب . هذا محمد حسن قد عهد إليه بنظارة مدرسة الفنون الجميلة أو مدرسة الزخرفة لا أدرى ، وشغل بأعمالها الإدارية التافهة التى يستطيع غيره أن يقوم بها من غير حاجة إلى أن يكون متفوقًا فى الفن . شغل محمد حسن بقبول التلاميذ ومعاقبتهم ورفتهم وترتيب درجاتهم ، حتى ما يكاد يجد من أوقات فراغه ما يكفيه للتفكير فى فن برز فيه وبلغ منه الذروة فى مصر . وقارب الذروة بين زملائه فى أوربا ، وهو بحظه هذا راض لأنه لا يجد سبلاً أخرى للطمأنينة إلى عيشه وعيش أولاده . ولم تفكر وزارة المعارف فى مواهبه الفنية ، ولا فكرت فى أن تعهد إليه بعمل يستطيع معه أن يجد من أوقات الفراغ ما يكفيه ، ليرضى شيطان الفن فى نفسه . والمثقفون الذين يتحدثون عن الفن عندنا ويزعمون أنهم يقدرونه حق قدره ويؤازرونه ويؤيدونه والذين يعرفون مقدرة محمد حسن ، لا يمدون لهذا الفنان الكبير يداً تنقذه من المشاغل الإدارية التى دفن بين أوراقها وسخافاتها . وقد اخترنا محمد حسن مثلا لرجال الفن الذين دفن فنهم فى أطواء الوظائف الحكومية ، وإن كان غيره من أمثاله كثيرون ، لأنه أكثرهم فيما نعرف بروزا ، وأقواهم شخصية ، وأقدرهم إذا وجد العون على أن يقوم بخلق النهضة الفنية فى مصر وتوطيد أركانها . لكن أحداً لا يفكر فى هذا وأكبر الظن أن أحداً لن يفكر فيه ، لأن مجتمعنا المصرى وعلى رأسه جماعة المثقفين والمسكين بأعنة الحكم منا ، لا يسيغون معنى الجمال الفنى ولا يقدرونه لذاته. وإنى لواثق أن كثيرين منهم إذا قرأوا هذا الكلام سيهزون أكتافهم ويحسبوننى أعرض لشىء كمالى ضئيل القيمة فى حياة الأمم ، ولا يحتاج من الضجة إلى شىء مما يحتاجه طلب الوظيفة أو التربع فى منصب الحكم .

ولم لا يسيغ مجتمعنا معنى الجمال الفنى ولا يقدره لذاته ؟ الجواب يسير . فقد كانت التماثيل وكانت الصور والنقوش معتبرة إلى زمن قريب بعض المحرمات الدينية . وهذا الزمن القريب يرجع إلى ما لا يزيد على ثلاثين أو أربعين سنة ، وكانت آثار الفن الجميل الأخرى ، فيما خلا الغناء والشعر منظوراً إليها نظرة قاسية مرموقة بعين الإنكار ، بل العداوة . وكانت المرأة نفسها فى هذا العهد القريب معتبرة حرمة يجب أن تحتجب وراء الجدران ، ولمحاربة هذا الجمود فى التفكير بذلت جهود ضخمة غاية

الضخامة لاقى أصحابها فى سبيل القيام بها أشق التضحيات. ويكفى أن يتصور الإنسـان حرمان قاسم أمين من دخول قصر عابدين بعد أن نشر كتابه تحرير المرأة فى سنة ١٨٩٩ ، وما لقى الشيخ محمد عبده من عنت حتى لقد رمى بالكفر والإلحاد إلى أن مات فى سنة ١٩٠٦ ، ليقدّر قوة هذا الجمود ومبلغ ما كان يقتضى من قوى لمقاومته وتحطيم آثاره السيئة . وكانت الجهود التى تبذل لهذه الغاية ، والتى تحارب أشد الحروب وأقواها ، تلقى مع ذلك عطفًا من جانب الجمهور المستنير يسر لها أن تخترق جدران ذلك الجمود فى غير موضع ، وأن تيسر أسباب الفن للموهوبين من رجال الفن. وقد رأينا الفن المسرحى يخطو فى خلال هذه المجهودات خطوات موفقة فى سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٢ . فلما كانت الحرب الكبرى وكانت نهضة سنة ١٩٢١ حطمت أغلال الجمود جميعًا دفعة واحدة ، واندفع الناس بعد ذلك وراء أسوار هذا الجمود سعداء بالحرية الجديدة ، وكان للمرأة من الحظ فى ذلك ما كان لغيرها من طوائف الأمة . وكان للفن فى ذلك ما كان للبحث العلمى ، وللأدب ، وللتصوير ، والنحت ، وسائر الفنون . لكن هؤلاء الذين عبروا جدران الجمود سعداء بالحرية نسوا أن للحرية حدوداً هى الأخرى أقلها أن لا تجنى حريتك على حرية غيرك ولا على حرية المجتمع . ولو أن الأشياء تركت لطبائعها وترك لهؤلاء الذين أطلقوا سيقانهم للريح فى ميادين الحرية ، لنظمت الحرية من بعد ذلك نفسها بتضحيات جلت وعظمت أو قلت وصغرت. لكن الموانع أقيمت فى سبيل هؤلاء الذين يلتمسون الحرية موانع قوية قاسية، أقيمت بالتشريع حينًا ، والحكم العرفى العسكرى الذى لا يعرف القانون ولا يعرفه القانون حينًا آخر . واصطدم طلقاء سجون الجمود إلى ميادين الحرية بهذه الحواجز ، فوقفوا يصيحون : تحيا الحرية ، لكن ما هى هذه الحرية التى يجب أن تحيا وأن تنظم نفسها ؟ ذلك شىء لم يفكر فيه أحد من هؤلاء ولا من أولئك ، وما هى هذه الحرية التى يجب أن تبذل الجهود فى سبيل الحصول عليها وتنظيمها؟ أهى حرية الرأى ؟ أم هى حرية القول؟ أم هى حرية الاعتداء على الغير ؟ أم هى حرية المشرع فى إثقال الشعب بالقيود والأغلال لابسة ثوب القانون يطبقها رجال العدل ؟ ، وأين حرية المرأة من ذلك كله ؟ ليس أحد يدرى . واختلطت الأشياء بعضها ببعض واضطرب ميزان الأمور وذهب كل على هواه ، ولم تصبح فى مصر قواعد مقررة يحترمها الجميع احتراماً قلبياً ، وإن بقيت قوى العنف تواجه بعضها بعضاً عن ترقب وخوف وحذر لا عن احترام وتقديس وإجلال .

وفى هذا المعترك الذى تصادمت فيه أحط القوى الإنسانية المنكرة ، ولت الحرية الصحيحة الأدبار ناكصة على عقبيها ناظرة لهذا الجمع من الفريقين نظرة إشفاق وأسف ونظرة ازدراء أحيانًا . وحيث تتوارى الحرية الصحيحة ، الحرية المقدسة التى يحميها إيمان النفوس بها إيمان عقيدة تدبرها صاحبها لا إيمان جمود ذليل أحمق ، حيث تتوارى هذه الحرية ينكمش الناس يلتمس كل واحد منهم رزقه ، ويلهث كل منهم وراء منفعته العاجلة ، ويستظل كل منهم بلواء قوى من الأقوياء وباطش من الباطشين. وما كان للفن أن يظهر فى مثل هذا الجو الجاحد للفن . فرجل الفن الموهوب ثائر بطبعه ، طالب مزيداً من الحرية بفطرته ، فإذا لم يجد فى المجتمع الذى يعيش فيه ما يعاون ملكاته على أن تؤتى ثمراتها ، انقلب وشأنه شأن غيره . يجرى وراء الرزق ، ويلهث فى سبيل المنفعة العاجلة والجاه الباطل السريع الزوال .

لعلك ترى الآن لم لا يسيغ المجتمع المصرى الجمال الفنى ولا يقدره لذاته. فإلى عهد قريب جداً إلى ثلاثين أو أربعين سنة ، كان الفن الجميل بمعناه الصحيح محرّمًا بحكم تسلط الجمود على القلوب والعقول ، فلما آن للمجهودات التى بذلت فى سبيل تحرير العقول والقلوب من هذا الجمود أن تثمر نموها الطبيعى تنظمه الأيام والسنون على مهل ، جاءت جُنة الحرب التى أصابت العالم كله ، والتى أطلقت أكثر العقول جموداً فى مصر من عقالها ، ثم كان رد الفعل بعد ذلك رد فعل آزرته السلطات فى مصر أغلب الأحايين ، وآزرته إلى أن ردته فى حدود الجمود الأولى ، وما لم تستطع أن ترده إلى هذه الحدود بحكم العوامل الطبيعية والاجتماعية ، ردته إليها بحكم التشريع والقوة المادية المسلحة ، وانزوى أنصار الحرية فى حدودها الصحيحة من خوف من أصابهم هياجها ، وانزوى معهم حكم العقل والقلب ، وانطلق عنان الشهوات الجامحة من جانب الرجعية فى ناحية وفى أخرى . وليس هذا مقام تحليل العوامل الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية التى أدت إلى ذلك كله . فمثل هذا التحليل يطول ولا يكفى فيه مثل هذا المقال . لكن هذه الوقائع التى قررناها يشعر بها كل إنسان ويدركها إدراكًا عميقًا ولو كان من أنصار الجمود القديم أو الحرية الطائشة .

أفتظل بعد ذلك على المرأة المصرية تبعة من عدم إلهام الفن الجميل ؟ وهل يظل شىء من هذه التبعة على المصرية المستنيرة بنوع خاص ؟ نعم ، وإن وجب علينا أن

نقرر منذ الآن بأنها تبعة مخففة الظروف كما يقول رجال القانون . فواجب المرأة فى إلهام الفن فرض محتوم عليها ، لأن الطبيعة لا تستطيع أن تقوم بهذا الإلهام وحدها على الوجه الأكمل . واشتراك المرأة والطبيعة فى هذا الإلهام هو الكفيل بكمال الفن ، وكما أن من أرباب الفن موهوبون لتحقيقه ، فمن النساء موهوبات لإلهام أرباب الفن هؤلاء ، فإذا لم يقمن بواجبهن فى هذا الإلهام كن مقصرات ، وكانت عليهن تبعة إن خففتها ظروف المجتمع فإنها لن تستطيع أن تمحوها. وليس كاتب أو شاعر أو مصور أو مثال أو موسيقار لا يحدثك عن حظ من الإلهام قل أو كثر كان لامرأة فيه نصيب هو الذى أوحى إليه بخير ما له فى الفن . قد يصدر هذا الإلهام عن تمليق تلك المرأة لرب الفن أو عن دلها عليه أو صدها عنه أو عن تعذيبها إياه . وقد يصدر عن اشتراك فى الفكرة الفنية التى يموج بها خاطره فتورى الشرارة التى تلهب شعلة الفن المقدسة فى نفس رب الفن ، فتضىء جوانب روحه فيندفع إلى وضع الأثر الفنى ممتلئًا به فؤاده ، وهو حينما يضع هذا الأثر متأثراً بوحى المرأة المعينة التى تلهمه يشعر بقوة مضاعفة ، قوة موهبته هو ، موهبته التى تنطق الطبيعة الصامتة ، وقوة هذه المرأة التى تدفع إلى صمت الطبيعة حياةً وحديثًا أبلغ من كل حديث وأقوى من كل حياة .

أليس من بين سيداتنا المستنيرات من تشعر بهذا الواجب ومن تحس فى نفسها موهبة الإيحاء لرب الفن موهبة لا تستطيع مغالبتها ؟ . محال أن لا تكون بينهن كثيرات هذه حالتهن . فما بالهن إذن ينصرفن عن القيام بهذا الواجب المقدس ، وهو لا يقتضيهن شيئًا يخالف طبيعتهن النسوية الرقيقة التى صاغها الله فنًا جميلاً .

لعل السيدات المستنيرات يستطعن أكثر مما نستطيع أن يكشفن لنا عن هذا السر . على أنى أعتقد أن ثمة عاملان أساسيان لهما أكبر الأثر فيه . أولهما : هذه القطيعة بين معسكرى الرجال والنساء برغم ارتفاع الحجاب عن أكثر طبقات النساء . فقلّ أن تجد المجتمع المشترك الذى يتناول الجنسان فيه الأحاديث فى شتى الأمور، ومظاهر الفن بعضها سواء الفن التافه أو الفن الرفيع . والثانى : هذا الاتجاه يجعل المرأة تنظر للرجل وكأنه خصمها اللدود ، وكأنه القوة العابثة المستبدة التى يجب على المرأة محاربتها إذا أرادت أن تحيا . وإنك لتلمح هذا الاتجاه فى كثير مما تكتب سيداتنا أو آنساتنا المستنيرات المهذبات ، وهو اتجاه خاطئ كل الخطأ فى نظرى .

ولئن صح أن الرجل قد غصب المرأة حقوقها فى الماضى ، فخير ما تتوسل به المرأة لاسترداد هذه الحقوق أن تتعاون مع الرجل في كل ميادين الحياة ، لتكون عون الرجل فيها ، وإلهام الفن بعضها وفى مقدمتها . إذ ذاك يشعر الرجل بما لهذه المعاونة من مقام كريم ويرى لمصلحته هو ولمصلحة المجتمع كله ، أن يرد للمرأة ما عسى أن يكون لها من حقوق لا تتمتع بها ، إن كان لها من ذلك شيء بالفعل .

فأما أرباب الفن وما عليهم من تبعة فى عدم استلهام المرأة فى فنهم ، فيرجع إلى شيء من الحياء من ناحية ، وإلى كبرياء المرأة من الناحية الأخرى . وأخشى أن أقول إنه يرجع من ناحية ثالثة إلى ضعف إيمانهم باستطاعة المرأة المصرية في حالها الحاضرة أن تلهم الفن إلهامًا صالحًا . وهم فى ذلك كله مخطئون أو على الأقل مغالون ولو أنهم بذلوا شيئًا من الجهد وصادفهم التوفيق ، لظفروا من هذا الإلهام بمثل ما يظفرون بإلهام الطبيعة . وإذا كانوا ينفقون من الجهد لاستلهام الطبيعة ما يكلفهم الأسفار ومشاقها حتى يقفوا على خير الأماكن إلهامًا إياهم، فما أجدرهم بإنفاق شيء من هذه الجهود لاستلهام المرأة التى تجعل وحى الطبيعة أقوى ، وتجعل الآثار الفنية أبقى وأقوم .

هذه العوامل التى سردت إنما هى بعض ما يمر بالخاطر عفو الساعة حين التفكير فى موضوع له من جلال الخطر فى حياة الأمة المعنوية ما لهذا الموضوع الذى تناولنا ، وإنما أدى بنا إلى هذا الحديث اقتناعنا بأن الإفاضة بالقول قد يحمل رجالنا وسيداتنا المستنيرات على التفكير كما فكرنا ، وتقدير ما يجب عمله فى هذه الناحية الهامة من نواحى حياة مجتمعنا المصرى . وإننى لمؤمن بأن هذا التفكير قمين بأن يزيل كثيراً من هذه العوامل التى تحول بين المرأة المصرية وواجبها فى إلهام الفن . يومئذ تعود نهضة الفن إلى مثل نشاطها الذى شهدنا منذ سنوات ، والذى خبا منه فى السنوات الأخيرة مع أكبر الأسف الشيء الكثير .

الفرقة القومية

وأثرها فى حياتنا المسرحية (*)

أخرجت الفرقة القومية مسرحياتها الخمس بدار الأوبرا فى الأسابيع الأخيرة . فرواية زوجتى الثانية التى تمثل الآن هى آخر هذه الروايات التى تمثل عام ١٩٣٧ ، وستحل الفرق الأوربية محل الفرقة القومية بدار الأوبرا بعد عشرة أيام ، فإذا أتمت فصلها هذا الشتاء عادت الفرقة القومية فمثلت فى ختام الفصل روايات جديدة .

ولسنا نريد أن نقف عند كل واحدة من الروايات الخمس التى مثلتها الفرقة القومية فى الأسابيع الأخيرة لإبداء الرأى فيها ونقدها ، فقد تولى النقاد المسرحيون هذا الأمر فى الصحف اليومية . وقد نشرت هذه الجريدة فى أكثر من عدد من أعدادها نقداً لبعض هذه المسرحيات ، وما نحسب أحداً يستطيع أن يحول بين الناقدين والتماس موضع للضعف فى مسرحية من المسرحيات . ولو أن شيئا من ذلك دار بخلد أحد من الناس كان عبثًا ، فمعناه أنه يريد أن يخرج الناقدين من طبيعتهم . وحسبهم أنهم الناقدون الذين يلتمسون مواضع النقص فيما تقع عليه أنظارهم ، يريدون بذلك أن يبلغ كل شىء غاية الكمال ، ليكون الظن بأنهم يقفون عند الثناء ظنًا فى غير موضعه ، وليكون الواقف منهم فى حدود هذا الثناء قد أفسد طبيعة عمله .

لكنا نريد أن نتناول الحديث عن الفرقة القومية من حيث الغرض الذى تألفت له ومبلغ ما حققت من هذا الغرض ، وأن نجعل عملها فى هذا الفصل الأخير المثال الذى نتخذه إمامنا فيما نريد الحديث عنه . لقد كان المسرح المصرى إلى حين تألفت هذه الفرقة عرضة للزعازع التى تعصف به أحيانًا فى أشد أيام ازدهاره ، والتى تبعثه =

(*) السياسة الأسبوعية ، العدد ٤٧ ، بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩٣٧

إلى الحياة أحيانًا أخرى لأن ممثلاً ذا قيمة دخل فى غماره . صحيح أن المسرح لم يكن بدعًا فى ذلك ، وأنه كان فى ازدهاره وخباء نوره يسير فى الخطة التى تسير فيها أعمال الجماعات فى مصر بوجه عام . لكنه وهو مظهر من مظاهر الفن الجميل كان أكثر لفتًا للنظر من غيره فى هذه الناحية . فالناس لا يقبلون على مظاهر الفن الجميل إلا أن تبلغ شيئًا من الكمال. أما الأعمال التى تتصل بحاجيات الحياة مما لا غنى للناس عنه فلا مندوحة من الإقبال عليها متقدمة كانت أم متأخرة .

وقد دار بخاطر الحكومة أن تعاون المسرح فى ظروف مختلفة . لما جاء جورج أبيض من باريس بعد أن أوفده الخديوى عباس حلمى الثانى ليدرس فن التمثيل بها ألف فرقة انضم إليها جماعة من الهواة المثقفين ، وجعلت الحكومة مسرح الأوبرا تحت تصرفهم . ولقيت هذه الفرقة إقبالاً فى سنة ١٩١٢ وطول المدة التى بقيت الفرقة متماسكة فيها ، لكن هذه الفرقة لم يمتد زمنها لأن الممثلين إذ أحسوا بنجاحهم دب بينهم الخلاف الذى يدب بين كل جماعة مصرية يداعبها النجاح ، ويحسب كل فرد من أفرادها أنه هو سر هذا النجاح . من بعد ذلك فكرت الحكومة فى تشجيع التمثيل بالمكافأة تسديها للمتفوقين من الممثلين . وأخيراً تألفت هذه الفرقة القومية بعد أن تألفت هيئات أخرى كان لبعض الممثلين المتفوقين أمثال أحمد علام وفاطمة رشدى الفضل فى تأليفها ، ثم انحلت هذه الفرقة لأن الجمهور لم يسد لها ما هى أهل له من العناية . والواقع أن الفن الجميل فى صوره المختلفة لا يمكن أن يعيش بنفسه وبمجهود رجاله دون معونة من جانب الدولة إلا فى ظروف نادرة . وما تزال فرنسا بلاد الفن الجميل وحيث لا يكاد يجد الإنسان مقعداً خاليًا فى أكثر المسارح بباريس تدل بمعاونة الحكومة للمسرح الفرنسى ، وللأوديون ، وللأوبرا ، والأوبرا كوميك ولبعض مسارح أخرى . على أن المبرزين من رجال الفن والذين يفوقون الجمهور بتفوقهم فى حاجة إلى المعاونة إذا أريد بالفن أن يتقدم وبرجال الفن أن يؤدوا الرسالة السامية ، رسالة النهضة الإنسانية إلى ناحية الكمال .

ألفت الحكومة المصرية هذه الفرقة القومية ، لتنهض بالفن المسرحى ، واختارت له من الممثلين الممتازين من قبلوا مشاركتها فى العمل لهذا الغرض . ولقد عهدت بإدارة هذه الفرقة إلى الأستاذ الكبير خليل بك مطران الذى اتصل بالمسرح المصرى ، وترجم

إلى العربية بعض روايات شكسبير . وغيره من كبار المؤلفين المسرحيين فى الغرب منذ أكثر من ربع قرن من الزمان ، وجعلت الأستاذ محمود طاهر حقى أمين سر الفرقة . من يومئذ بدأت جهود من يعنيهم أمر المسرح من المؤلفين تتجه إلى ناحية الفرقة القومية ، وجعل كثيرون يقدمون إليها مسرحيات مؤلفة ومترجمة ، لتختار منها ما تراه جديراً بتحقيق الغرض الذى ندبت الفرقة له .

والخطوة التى خطتها الحكومة فى تأليف الفرقة أدنى إلى التوفيق من خطواتها السابقة فى سبيل تشجيع المسرح ، والنهوض به إلى المكانة الواجبة له فى مصر وفى البلاد العربية جميعًا . فالفنون الجميلة الناشئة تحتاج إلى تشجيع الدولة ، وبخاصة ما قصد منه إلى رفع مستوى الفن فى ذوق الجمهور وينسجم معه ، فتشجيع الجمهور لما يجارى ذوقه كاف لحياة هذا النوع من الفن . أما ما أريد منه إلى رفع المستوى العام لذوق الجمهور فيحتاج إلى مجهوداً كبيراً ما تنوء الفرق وينوء الأفراد به ، ولا سبيل لذلك إلى اتصاله إلا أن يجد عونًا خارجيًا يمد فى أسباب حياته .

تأليف الفرقة القومية أدنى إلى التوفيق فى النهوض بالمسرح سواء من ناحية الممثل وفنه ، أم المؤلف وفنه . والمسرح أكثر احتياجًا إلى المؤلف فى وقتنا الحاضر ، لأن التأليف المسرحى حديث فى الأدب العربى ، ولأنه لا يجد مشجعًا يعاونه على النهوض . وقد كان فى تأليف الفرقة القومية بعض التشجيع للمؤلفين . أقول بعض التشجيع وأقصد مدلول العبارة . فالأدب ما يزال حرفة ثانية فى هذه البلاد ، لأنه لا يكفى بذاته ليقيم حياة أديب ، ولم يبد من جانب أولى الأمر فى الفرقة القومية أى استعداد للمعاونة فى جعل الأدب المسرحى حرفة أساسية لصاحبه ، كما هو الشأن فى كثير من بلاد الغرب . وقد يكون لأولى الأمر فى الفرقة القومية من العذر أنهم يريدون النهضة أولاً بالتمثيل والممثلين ، فإذا نهضوا بهم كان ذلك داعيًا للإقبال على المسرح ، وكان مشجعًا للمؤلف المسرحى بما يبعث النجاح إلى النفس من دواعى الغبطة والإقبال على العمل الذى نجحت فيه . فإن يكن ذلك رأى أولى الأمر فى الفرقة القومية فلهم العذر وإن كان من حق من شاء أن يخالفهم ، وأن يعتبر نهضة المسرح قائمة على التأليف قبل أن تقوم على التمثيل ، لأن التمثيل متغير متطور ، والمسرحية التى تشهد بنبوغ مؤلفها باقية لا تتغير .

والواقع أن بين التأليف والتمثيل تلازمًا له فى كليهما على الآخر أبلغ الأثر . فكثيراً ما شجع ممثل بارع مؤلف نابغة على أن يضع مسرحية خالدة . وكثيراً ما أبرزت مسرحية مؤلف مواهب ممثل بارع ، بل كثيراً ما كان لمديرى الفرق أثر كبير فى إيجاد الصلة بين المؤلف والممثل ، فكان لذلك أثره فى نهضة التأليف والتمثيل المسرحي جميعًا .

وقد ظهر من أثر ذلك فى هذا الفصل الأخير روايتان هما سر المنتحرة للأستاذ توفيق الحكيم ، وبناتنا سنة ١٩٣٧ للأستاذ طاهر حقى . صحيح أن المؤلفين لا يذكران وجهًا للاتصال بينهما ، وبين الممثلين كما ذكر مؤلف شانتكلير أنه وضعها ليمثلها ساشا جيترى بباريس. وصحيح أن الأستاذ توفيق يذكر فى النبذة المنشورة فى برنامج سر المنتحرة أنها مؤلفة منذ سنة ١٩٣٠ أى قبل تأليف الفرقة القومية بسنين ، وأن الأستاذ طاهر حقى يقول إنه كتب مسرحيته ، ليدل الأستاذ توفيق الحكيم على أن اللغة العربية تتسع للكوميدى . وقد يكون هذا الكلام صحيحًا ، لكن ما حازت الروايتان من النجاح يرجع كثير من الفضل فيه للممثلين والممثلات الذين حذقوا أدوارهم ، وكان لهم فى إبرازها فضل إحياء المسرحيتين وبيان القصد من كل منهما . وهذا مشجع يدعو الأستاذين توفيق وطاهر حقى إلى التفكير فى المسرح أكثر مما كانا يفكران فيه لو لم توجد هذه الصلة بينهما ، وبين ممثلى المسرح وممثلاته .

والحق أن لهؤلاء الممثلين فضلاً لا يصح أن نجحده . وأشهد لقد كانت فردوس حسن فى مسرحية الخطّاب قوة تثير العجب فضلاً عن الإعجاب . صحيح أن هذه المسرحية قوية لذاتها، لكن الأمر الذى لا ريب فيه أن تمثيل فردوس أضاف قوة إلى قوتها . وكم كنت أتمنى لو لم يكن الحوار فى بعض أجزاء الرواية طويلاً بالقدر الذى ظهر به ، لتكون المسرحية كلها آية فى الكمال تأليفًا وتمثيلاً .

وإذا ذكرت اسم فردوس حسن فى رواية الخطاب ، فليس ذلك إلا لأنها أبرزت دورها فى قوة جعلت أنصار المسرح يرجون أن يطّرد نجاحه بفضل الفرقة القومية . على أن لزميلاتها وزملائها من الممثلين والممثلات مواقف جديرة حقًا بكل إعجاب . وإذا كان النقد لم يغفل فيهم وفيهن بعض نواح جديرة بالنقد ، فذلك لأنه يبتغى الكمال ويريد أن يصل المسرح إليه فى أوجز زمن وأقرب فرصة .

وإنما يتسنى ذلك إذا وجدت الفرقة القومية من يخلق الصلة بين ممثليها والمؤلفين المسرحيين ، ومن يوفق إلى معرفة هؤلاء المؤلفين وتشجيعهم وإبرازهم للجمهور وإمدادهم بالثقة بأنفسهم ، والثقة كذلك بأن عملهم يكفل لهم الطمأنينة إلى الحياة لا مجرد المجد الذى يسرع بريقه إلى الانطفاء .

وفق الله أولى الأمر فى الفرقة إلى تحقيق الغرض من تأليفها ، ليخدموا بذلك الفن المسرحى ، ويخدموا به المسرح العربى والشرقى أجل خدمة ! .

الفنون الرفيعة
وأثرها فى حياة شرقنا العربى (*)

شهدت لبنان فى الخريف الأخير جدالاً لا يخلو من عنف قام بين فيلسوف الفريكة الأستاذ أمين الريحانى ، وبين الشاعر الكبير الأستاذ بشارة الخورى . وكان مثار هذا الجدل قصيدة بشارة التى يقول فيها :

الهوى والشباب والأمل المنـ   شود ضاعت جميعها من يديا

فقد نعى الأستاذ الريحانى على الكتّاب والشعراء هذا النوع الباكى من الأدب ، وقام فى ذلك بحملة شديدة جمعها بعد ذلك فى كتاب نشره أخيراً بعنوان أنتم الشعراء . وكانت حملته هذه ترمى إلى حمل الشباب على هجر الأدب الباكى لما فيه من إضعاف العزيمة وتلوين الحياة أمام النظر بلون قاتم ، بينما فى الحياة مباهج كثيرة يجدر بالإنسان أن يصل إليها طواعية إن سلمت إليه نفسها أو كرهاً عنها وأخذاً إياها إذا هى استبدت عليه وحاولت مقاومته . أما الأستاذ بشارة فقد كان رده على هذه الحملة أن الشعر مصدره الشعور ، فإذا كان الشعور باكيًا كان الشعر باكيًا ، وإذا كان الشعور ضاحكًا كان الشعر ضاحكًا . وأن الدموع انهمرت من عيون أكبر الشعراء وأكثرهم على الزمان خلوداً ، وأجدرهم بتقديس الإنسانية بمثل تقديسها للشعراء الذين فاضت عنهم الحماسة أو فاضت عنهم أية عاطفة غيرها . وحمل الشاعر على أن يقول غير ما يفيض به شعوره حمل له على أن يحطم قيثارة الشعر ، وأن يقول كلاماً لا تفيض به عنده عاطفة ولا ينبض له به قلب .

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ نوفمبر ١٩٣٣

مثل هذا الجدل يمكن أن يقوم فى شأن الفنون الجميلة جميعًا ، وهو جدل بين الفن كما توحى به البيئة وتلهمه الطبيعة المحيطة بنا ، والفن كما يوحى به المثل الأعلى الذى يجب أن نتطلع إليه . وفى رأينا أنه جدل لن ينتصر فيه أحد الرأيين على الآخر فكلا الرأيين فى طبيعة الوجود ، فالوجود يوحى بهما جميعًا ، وإنما الفن خلاصة وحى الوجود . ولو استطاع أديب أن يجمع بين الناحيتين ، وأن يصدر فى ذلك عن عاطفة فياضة وإلهام صادق ، لبلغ من الفن مكانة يتطلع إليها رجال الفن جميعاً .

وإنما أوحى بهذا الجدل فى اعتقادى ما تتأثر به فنوننا الجميلة فى الوقت الحاضر بحكم ما يصيب الشرق العربى من هوان سياسى وانحلال اجتماعى . وإذا كان الشعراء يبكون فى قصائدهم بمقدار العُشر منها ، فإن فن الغناء عندنا يكاد فى هذه الظروف الأخيرة أن يكون بكاءً كله . استمع إلى عبد الوهاب ، استمع إلى أم كلثوم ، استمع إلى غيرهما ، بل استمع إلى صالح عبد الحى نفسه ، تجد النغمة المحزونة تسود كل الأغانى إلا قليلاً ، وهى تسود الأغانى اليوم أضعاف ما كانت تسودها قبل الحرب . وهذه النغمة المحزونة هى التى تستهوى الجماهير فى الشرق كله استهواء يجعلها تهرع إلى سماعها وتطرب أشد طرب لها . وأن عبد الوهاب وصالح عبد الحى وأم كلثوم ، ليُستقبل أحدهم حيث نزل من بلاد الشرق جميعًا استقبال الفاتح ، وأكثر من استقبال الفاتح . والسر فى ذلك أن هذه النغمة المحزونة تجد لها فى النفوس صوتًا يحرك فيها أشجانها، ثم إن لها ما تشاء من حرية البكاء فى أمة تفيض بهذه الأشجان . ولو أن ألحان الحماسة حركت الجماهير فأرادت أن تنفس عن حماستها بمظهر من المظاهر الخارجية ، كما يفعل الفرنسيون حين يسمعون المارسيليز ، أو الألمان حين يسمعون نشيد ألمانيا فوق الجميع ، لكبح هذا الإحساس نفوسهم ولزادهم ذلك همًا وشجنًا يزيد فى ميلهم للأنغام المحزونة . وقد أصبح تقدير الفن ونجاحه رهنًا فى زمننا الحاضر بحكم الجماهير عليه حكمًا يدر المال على صاحبه ، ولم يبق رهنًا بنقد الناقدين نوى العلم والمعرفة فى فن من الفنون ، لأن الإنسانية مسوقة منذ الحرب بسليقتها الفطرية البحتة أكثر مما هى مسوقة بحكم العقل الناضج وميوله .

والنقش فى الشرق العربى كالغناء وكالأدب أكثر ما يروج فى هذه السنين الأخيرة منه المناظر الطبيعية الصامتة أو الطبيعة الميتة على حد تعبير الفرنسيين .

وأنت إذا استثنيت الفنون الزخرفية ولست أدرى بأى مقدار تحسب هذه من الفنون الجميلة رأيت روح الأسى والهم ظاهراً فى النقش أيضاً . وما عسى توحى به الطبيعة الصامتة أو الطبيعة الميتة إذا لم يعمل الإنسان ، ليهبها من حياته حياة ومن عواطفه حبًا وإقداماً وحماسة وفروسية ، وما إلى ذلك مما يحرك الميت وينطق الصامت ويدفع الوجود إلى السير فى طريق المثل الأعلى الذى اضطربت أمام إنسانية هذا الجيل صورته ، وهى فى شرقنا اليوم أشد مع الشىء الكثير من الأسف اضطراباً .

هذه حال غير طبيعية ، أو بالأحرى هى حال غير سليمة . وقد أصيبت الفنون بما أصيبت به تبعًا لظروف الحياة التى يخضع الشرق العربى ، والتى تخضع الإنسانية بعد الحرب لها . ولا يكون علاجها بإنكار ما للدموع وما للشجن من أثر فى الحياة ، وإنما يكون علاجها بأن تبعث الدموع ، وأن يبعث الشجن النفس إلى التماس المثل الأعلى ، كما تدفعها الحماسة وتدفعها النجدة والمروءة إلى التماسه ، ولو أن أرباب الفن فى الأدب والغناء والنقش وسائر الفنون الرفيعة وضعوا هذا المثل أمام أنظارهم لأرجعوا إلى الفن حياة أقوى بكثير من حياته اليوم ، ولما كان الجدل الذى ثار فى هذا الصيف الأخير بين أمين الريحانى وبشارة الخورى . ومن أرباب الفن من يتوخى هذه الوجهة فى الظروف الحاضرة ، لكنها ليست ظاهرة ظهوراً واضحًا وهى بعد ليست مذهبًا يلتف جماعة أرباب الفن حوله . فليعمل العاملون على أن تكون مذهبًا ، وليجاهد الذين يتوخون هذه الوجهة فى فنهم إلى الدعوة إليها بقوة وحرارة . هم بذلك يضاعفون فى الفن حياته ، ويرتفعون بالفن إلى حكم ذوق الجمهور وتكوينه ، بدلاً من أن يهبط الفن لإجابة رغائب الجمهور وشهواته .

ماذا عسى أن يكون المثل الأعلى ؟ . أعتقد أن الشرق قد ضل طريقه فى هذه العصور الأخيرة متأثراً بتعاليم الغرب ، فأصبح مثله الأعلى مادياً ، يحسب الحرية التى تسمو بها النفس إلى المكان الأرفع هى أن ينال الجسم ، وأن تنال الشهوات كل مبتغاها . وقد يكون للبيئة الطبيعية فى الغرب ما يدفع إلى التطلع إلى هذا المثل الأعلى ، لكن بيئة الشرق الطبيعية وتاريخه منذ العصور الأولى ، وتاريخه بنوع خاص منذ انتشرت الحضارة الإسلامية فى ربوعه ، يجعل هذا المثل الأعلى الذى يتخذه الغرب

أمامه دون ما تتطلع إليه النفس الشرقية . فهذه النفس تؤمن بوحدة الوجود وهى فى هذه الوحدة والاتصال بها والفناء الروحى فيها غاية ما ترجو . ولذلك كانت أمثال هذا الشرق تجرى بأن من اعتز بغير الله ذَلّ، ومن افتقر لغير الله هان . ولا تعرف شيئًا فى الحياة يعادل تقوى الله . أفيمكن أن يصور الفن هذه المعانى ، وأن يصل بها من درجات السمو إلى ما يجب أن يصل إليه الفن ؟ .

هل نستطيع فى الغناء والنقش والموسيقى والأدب أن نطبع هذه الفنون بروح تصل من السمو إلى هذا المدى ، وتخلق فى الحياة صورًا شعرية أو أدبية أو موسيقية أو غنائية يتجلى فيها هذا المثل الأعلى واضحًا بقوة الفن وضوحًا يأخذ الرجل عن نفسه حين يشهدها أو يستمع إليها أو يقرأها .

ليكن فى الفن بعد ذلك دموع أو حماسة ، فهو ما صبا إلى هذا المثل الأعلى فقد حقق غايته إذا وصلت الإنسانية إليه بلغت غاية ما ترجو .

بعث الفن المصرى القديم

وهل يقضى عليه بموت (*)

لست أدرى إن كانت مصر تزداد كل يوم شعوراً بالهُوّة الفسيحة العميقة التى دهمت الفن فيها بموت مختار المثال النابغة. أما أنا فشعرت بهذه الهوة منذ اللحظة التى نعى فيها مختار وأنا أزداد بها كل يوم شعوراً . وليس يدفع هذا الشعور إلى نفسى ما كان لمختار من طابع ظاهر فى تماثيله ، فمهما يكن لمختار من طابع ذاتى قوى غاية القوة ، فإن هذا الطابع الذاتى لم يكن هو الذى سما بفن مختار إلى مكانه الرفيع فى الحياة ، إنما يدفع هذا الشعور إلى نفسى مذهب مختار فى الفن ، هذا المذهب الذى جعل غرضه وغايته بعث فن النحت المصرى الفرعونى فى عصرنا الحاضر بعثًا ترى معه الفن المصرى الحديث أقرب ما يكون إلى فن الفراعنة ، وتراه مع ذلك أقوى ما يكون تعبيراً عن المعانى التى ينشر العلم والفن فى عهدنا ، وأدقه فى الأداء وأقربه إلى النفس .

وهذا المذهب المصرى هو الذى جعل تماثيل مختار تخضع لوحى الفن الفرعونى ، بالرغم من أن هذا الفن المصرى القديم قد كان يحتضر إلى أن بعثه مختار فنًا أثريًا وكفى . ومن أن مختاراً فى دراساته للفن الجميل سواء بالقاهرة أو بباريس ، لم يدرس الفن الفرعونى على أنه حلقة متصلة بالفن الحديث اتصال الفن الإغريقى والفن الرومانى القديم ، وإنما درسه على أنه مظهر للوثنية المصرية القديمة ولعقائد أهل تلك الأجيال فى الحياة والموت . لكن مختاراً لم يلبث أن اتصلت روحه بهذا الفن المصرى

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ يوليو ١٩٣٤

القديم حتى لامس الفن جانب روحه المضيء ، وحتى استنارت أنحاء نفسه بوحى أجداده الذين عمّروا وادينا من ألوف السنين ، وحتى رأى ما سوى الفن الفرعونى زخرفًا لهذا الفن القوى اليسيط العظيم، وحتى آمن لذلك بأن بعث هذا الفن ليس بعثًا لجانب أثرى من الحياة، وإنما هو بعث للفن الصحيح فى أقوى مظاهره عظمة وأعظمها جلالاً ، وحتى توفر لذلك بكل روحه ونفسه لتحقيق هذا البعث توفرًا صادف أعظم النجاح بما خلف مختار من آثار خالدة ، وصادف نجاحًا لا يقل بما أسبغ من طابعه على الفن الغربى الحديث من بساطة وقوة وعظمة ، بساطة لا تعرف زخرف الفن اليونانى وزركشته ، وإن لم تنكرها وقوة لا تعرف العواطف المشبوبة بحكم الشهوة المادية وحدها وعظمة لا تعرف المصانعة والمداورة ، بل عظمة يفوح شذاها من القوة والبساطة مجتمعتين .

وليس أحد يقف أمام تماثيل مختار صغيرها وكبيرها ، إلا يلمح فيها هذه المعانى جميعًا أيا كان رأيه فيها من الناحية الفنية ، ويلمحها صريحة واضحة دالة على إيمان مختار بها ، واستلهامه وحيها فى علم وذكاء وموهبة فنية منقطعة النظير . ولقد أتيح لى يومًا أن ألمح إيمان مختار نفسه بهذه المعانى فى مختار نفسه لا فى أى واحد من تماثيله . ذهبنا جماعة قبل سنة ١٩٢٥ نزور سقّارة ومختار أحدنا ، وقد اتخذنا القطار وسيلتنا إلى السفر يومئذ فكان لابد أن نمر بالبدرشين ممتطين الحمر ذهابًا وأوبة ، وعند البدرشين تمثالا رمسيس ملقى أحدهما على الأرض مهشمة ساقه ، ملقاة إلى جانبه على الأرض تجاهه ، تحيط بالأرض جدران تحول دون عبث الأطفال والعابثين به ، لأنه أحسن من صاحبه الأول حالاً وأقل تحطيمًا فهو أجدر بالرعاية . وعند البدرشين كذلك تمثال أبى الهول الباسم الجاثم فوق صخر تحيط به مياه نشع راكدة . ولقد وقفنا عند هذه التماثيل الثلاثة فى ذهابنا وفى أوبتنا ، وإن أطلنا وقوفنا عند الأوبة لما تلقى الشمس على التماثيل من ضياء انحدارها إلى المغيب ما يزيد فى حيويتها . وفى وضوح المعانى التى أراد المثالون المصريون القدماء أن تنم أجزاؤها عنها وتتحدث بها . أى إيمان هذا الذى ارتسم على وجه مختار حين كان يحدق بهذه التماثيل ! وأية قداسة كانت تفيض بها ألفاظه وهو يحدثنا عنها وعما تنطق به من دقيق الفن . هذا هو قد رآها قبل ذلك مرات وعشرات المرات ، ويمسح بيده على ساق رمسيس ، ويتحدث عن

مبلغ دقتها الفنية واتفاقها فى ذلك مع دقائق علم التشريح ، وكف القدم وعظامها الكثيرة الصغيرة وتموج الجلد من فوقها وأصابع القدم ، ثم ينتقل مختار إلى الصدر والرأس ويتحدث عن هذا الفن الذى بلغ غاية ما يستطيع الفن أن يبلغ من جمال . فأما أبو الهول الباسم الجاثم على صخرته فوق المياه، فكان فى رأى مختار تحفة فنية تتوارى أمام ابتسامته ابتسامة الجيوكنده على نحو ما صورها ليوناردو دافنشي وتعنو أمام جبهته وأمام نظراته كل النظرات وكل الجباه . وهو مع ذلك يمثل ما أراد المصريون بفن أبى الهول أن يمثله قوة الحكمة ، الحكمة القوية التى كان مختار يؤمن بها ويخضع لها ويثور فى سبيلها . الحكمة القوية التى تأبى الطيش ولا ترضى الذلة وتعتصم بالأناة وحسن الروية ، حتى إذا لم يكن بد من أن تظهر القوة الباطشة براثنها دفعًا للمذلة من غير طيش لم يكن مفر مما ليس منه بد ، وإن كانت الحكمة كفيلة أكثر الأمر بأن تتغلب على الطيش وعلى القوة الباطشة جميعًا .

على أن هذا الإعجاب بالفن المصرى الفرعونى لم يجعل إيمان مختار به إيمان مقلد ينقل ولا يجدد ويستلهم آثار هذا الفن ولا يستلهم الحياة ، إنما استلهم مختار من هذا الفن روحه والأساس الذى يقوم عليه . أما فيما وراء ذلك فقد كان يستلهم حياة مصر الخالدة المتجددة فى خلدها ، والتى جعلت توحى إليه بهذا الفن كما كانت توحى به للأقدمين .

انظر إلى تماثيله تجدها مختلفة كل الاختلاف عن التماثيل المصرية القديمة متصلة أشد الاتصال بالحياة المصرية الحديثة . وهى مع ذلك تصدر عن وحى أزلى خالد أوحى بها وبالتماثيل القديمة على السواء ، هذا الوحى يستطيع كل موهوب أن يستمده كما كان الفراعنة يستمدونه ، وقد كان مختار يستمده من البيئة الطبيعية المصرية . ومن العلم فى أدق ما وصل إليه العلم .

ليجلس من شاء عند سفح الأهرام ، وليحدق ببصره إلى ناحية النيل ، ير السماء المهيبة الجلال فى صفوها تُظل نطاقًا من الخضرة الباسمة تنفسح وراء صحراء تذهب من البصر إلى الأفق حيث تتصل بالنيل أو يكاد يفصلها عنه نطاق من الخضرة أشد من النطاق الأول ضيقًا ، وليجلس من شاء بعد أن يتخطى المزارع إلى تلال سقارة ،

وليرسل ببصره من فوق تلك التلال تنفسح الصحراء من ورائها فى نطاق الخضرة ، وإلى الصحراء تنفسح مرة أخرى أمام النطاق الأخضر وأمام التلال ، وليحدق من شاء من فوق جسر النيل فى مصر العليا بمنظر ما أشد شبهه بهذا المنظر ، وما أشد جلال السماء وبساطة الصحراء وقوة الخصب فى ذلك النطاق عنده ، وفى جلال السماء بساطة وقوة وفى قوة الخصب روعةً وجلالاً وفى بساطة الصحراء المنفسحة عظمة ورهبة . ومن خلال هذه المناظر تقع العين على المصرية الريفية المشوقة القد البارزة النهد الجذاب لونها القمحى أو الأسمر ، وهى تارة تسير وجرتها فوق رأسها، وأخرى يتثنى قوامها اللدن عند حافة النهر لتملأ الجرة ، وفى مرة ثالثة تستند إلى جرتها ، لتنال إغفاءة جزاء تعبها ومشقتها من فجر اليوم إلى مقيله . أى وحى يستمد الموهوب من هذا فى عصرنا إلا ما استمد مختار؟ ، وهذه تماثيله أمامنا ترسم تلك الصور جميعاً وترسم إلى جانبها صورة عروس النيل واللقية فى بيبان الملوك ، وما إليها من مثلها وكلها متأثر بهذا الوحى المصرى السامى . لكن هذه الحياة التى كانت تلهم الأقدمين عظمة التماثيل التى ترك الأقدمون ، والتى تصور الخير والشر وقوة الطبيعة جميعاً لم تكن قد فضت كل سرها بعد لمختار ، ولعل هذا السر كان فى بداية الافتضاض مصوراً فيما نشاهده على القاعدة الجبسية لتمثال سعد زغلول من صور الحصاد والزراعة وأنواع السعى فى الحياة ، بما يصل بين الإنسان والطبيعة بصلة أقوى مما صور لنا مختار فى تماثيله التى سبقت تلك القاعدة . وأحسب أن مختاراً قد كان مقدراً له لو لم يتخطفه الموت من بيننا أن يفتض سر الطبيعة المصرية ، حتى يصل من ذلك إلى التصوير الرمزى للحياة الروحية كما يفهمها عصرنا ، ليسجلها فى تماثيله التى لا تقل قوة عبارة ولا بساطة مظهر ، ولا عظمة إلهام عما خلف الفراعنة الأقدمون .

بعث مختار إذن ذلك الفن المصرى والفرعونى القديم مصوراً فى صور من إلهام حياة مصر الحاضرة ، وبلغ من ذلك مقاماً يحسد عليه ، ولكنه لم يعش ليصل إلى ما تنطوى عليه الطبيعة المصرية من سر ، ليجلوه فى صور من هذا الفن القديم الحديث لا تقف عند تخليد جانب من صور الطبيعة المصرية ، بل تخلد هذه الصور وأسرارها جميعا . وهاهو مختار قد ودع الحياة فى ريعان الحياة وفى بداية إلهام الرجولة إياه رسالة الطبيعة للفن ورجاله . أفيقضى بموت مختار على بعث الفن الفرعونى ؟.

ليس التشاؤم من طبعى ، لكننى أخشى أن ننتظر طويلاً قبل أن يعود النشاط إلى هذا البعث على نحو ما كان فى حياة مختار. ذلك بأن هذا الفنان الذى غادرنا مغموراً فضله حتى من عارفيه والمعجبين به فى حياته ، كان يبلغ إيمانه برسالته حداً لا يقف عند إبرازها فى هذه التماثيل البديعة التى حازت الإعجاب فى فرنسا مهد الفن أكثر مما حازته فى مصر مهد الفنان ، بل كان يتخطى إلى الدعوة إلى هذه الرسالة دعوة حارة قوية صادقة تذر فى نفس من يدعوهم إليها أعمق الأثر وأقواه . لم يكن واحد من الصحفيين فى الصحف اليومية ، ولا فى المجلات الأسبوعية أو الشهرية إلا ويعرف مختاراً وكان أكثرهم يمت إليه بشىء من الصداقة قل أو كثر . وكان مختار قل أن يكلمهم فى السياسة أو فى الاقتصاد أو فى الاجتماع ، وكثر ما يكلمهم فى الفن بوجه عام فى النحت والتصوير والرسم فى مختلف صوره وفنونه . وكان يدعوهم إلى مشاهدة ما يقام من المعارض للفن ، ويلحّ فى الدعوة إلحاحاً رقيقاً قوياً فيه دعابة وفيه عنف وفيه شىء من التوسل والتهديد معاً . وما أحسب أصدقاءه من رجال الفن المصريين والأجانب المقيمين بمصر ، إلا يشعرون بالخسارة الفادحة التى نزلت بالفن بموت مختار . وفى هذه المعارض كان الناس يرون القطع البديعة من تماثيل مختار ، وكان هو يضن أكثر الأحيان بالتحدث إلى زائرى معارض الفن عنها إلا أن يكون لأصدقائه وأخصّائه ، لكن أصدقاءه من رجال الفن كانوا يتولون الحديث عنه ، وكانوا يقولون ما يريدهم أن يقولوا . فكانوا يبعثون إلى النفوس دعوته إلى الرسالة التى يؤمن بها ويدفعون إلى نفوسهم إيماناً كإيمانه بالفن المصرى الفرعونى القديم وضرورة بعثه فناً مصرياً حديثاً . وبهذا التمثال الذى أقامه لنهضة مصر فى أظهر مكان من عاصمة مصر ، نشر مختار فى الجو الفنى هذا الروح المصرى ، ودعا الكتّاب ودعا الصحف والمجلات ، لتشاطره رأيه ، ولتدعو وإياه إلى مذهبه . وبذلك خطا هذا المذهب فى سنوات قليلة خطوات واسعة تأثر بها الفن فى الغرب ، ولعله تأثر بها أكثر مما تأثر بها الفن فى مصر .

هل بين رجال الفن عندنا من ورث مذهب مختار ، وورث نشاطه ، وورث إيمانه إيماناً يدفعه إلى الدعوة إلى رسالته ؟ . قد يوجد هذا الرجل أو هؤلاء الرجال ، لكنى أقرر هنا بأنى لا أعرفهم . ومن أجل ذلك قدمت أنى أخشى أن يطول الزمن قبل أن يعود هذا

البعث للفن المصرى القديم إلى مثل النشاط الذى دفع به إليه مختار . فالخليفة الذى يدفع برسالة ما إلى الأمام لابد أن يكون له من الإيمان بها ما كان لأبى بكر من إيمان برسالة محمد ، إيمان لم يتردد معه فى خوض حروب الردة برغم ما كان يخشى أكابر المسلمين من خطرها . ورسالة مختار فى الفن رسالة قوية متينة الأساس تدعمها البيئة المصرية القوية الخالدة ، فلا خوف لذلك عليها أن تموت ، ولئن طال الزمن قبل أن تعود إلى مثل نشاطها أيام رسولها الأول فإنها يوم تعود . ولعل هذا اليوم لا يكون بعيداً ستعود بقوة ونشاط مضاعفين ، وستعود لتُقرّ فى حياة الغد وفى العالم كله مذهبها وقواعدها .

الفن والفنان (*)

يختلف حديث الناس عن الفن اليوم عن حديث أسلافهم عنه . فمنذ زمن غير بعيد كان الناس يتحدثون عن الفنون الجميلة على أنها النقش والتصوير والموسيقى . ولم يكن يدور بخاطر أحد أن الأدب والتمثيل المسرحى أو الأمور السياسية والاقتصادية يمكن أن تدخل تحت عنوان الفن . أما اليوم فقد اختلف نظر الناس ، وأصبح الحديث عن الفن مقابلاً للحديث عن العلم. فالفن ما ليس علماً ، والعلم إنما يقصد إلى تعرف سنن الكون من طريق الملاحظة والمقارنة والتبويب لاستنباط تلك السنن . فكل أثر ليست هذه غايته يستظل بعلَم الفن ويعتبر فنًا ، وأصحاب هذه الآثار التى لا تقصد أولاً وبالذات إلى معرفة أسرار الكون وحقائقه كبراها وصغراها ، هم رجال الفن وأربابه .

وهذه فى رأيى تفرقة يخالطها شىء من الإبهام من ناحية ، ولا ينطبق عليها معنى التعريف الجامع المانع من الجهة الأخرى . ويجب لبيان ذلك أن نذكر أن من الآثار ما هو فنى بحت ، ومنها ما هو علمى بحت ، ومنها ما يتردد بين العلم والفن وما يخلط العلم بالفن . فمن الآثار الفنية البحتة هذه التى تواضع الناس منذ القدم على أنها الفنون الجميلة ، فالنقش والتصوير والموسيقى آثارها جميعًا فنية بحتة إلا إذا قصد منها إلى غاية علمية ، كتصوير جسم الإنسان تصويراً تشريحياً لفائدة العلم الطبى ، أو كنقش تمثال لمثل هذا الغرض . قد يكون فى التصوير والنقش لهذه الغاية العلمية حظ عظيم من الفن أى من مقدرة المصور والمثال الذاتية ، لكن الأثر يظل مع ذلك أدنى إلى الأثر العلمى منه إلى الفن ، ذلك بأنه إنما يقصد منه إلى تصوير حالة ثابتة لا حركة فيها ،

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ يناير ١٩٣٥

ولا يراد بها تسجيل مظهر من مظاهر الكون الذاتية القائمة على التغير والتحول الدائمة الانهيار والتجدد . فأما آثار الفنون التى تعتبر فنية بحتة ، وأما آثار النقش والتصوير والموسيقى التى تواضع الناس على تسميتها منذ القدم فنوناً جميلة ، فيجب أن تتحقق فيها ظاهرتان : ذاتية رب الفن ؛ وتسجيلها حالات قد تتكرر ، بل هى حتماً لها على مر الزمن أشباه ونظائر ، ولكنها حالات تتغير وتتجدد ، وبحكم هاتين الظاهرتين تختلف الآثار الفنية للمظهر الواحد وتتفاوت حسب ذوق رب الفن الذاتى ، وحسب البيئة التى صدر الأثر الفنى عنها ، سواء بيئة الزمان أو بيئة المكان . فمنظر الطبيعة الريفية يوحى إلى الموسيقى النابغة العظيم بتهوفن سمفونيته عن الريف ، ويوحى إلى شوبان سوناتة (الشاعر والفلاح) . منظر الطبيعة متحول متجدد فى مظاهره ، وإن كان ثابتًا فى كنهه وجوهره والأثر الذى تتركه ظواهر تحوله وتجدده فى نفس رجل الفن هو الذى يوحى بالأثر الفنى ، وذاتية رب الفن فى تأثره بهذه الظواهر هى التى تخلع على الأثر الفنى مبلغ ما يرقى إليه من سمو وإبداع ، ليبلغ الذروة أحيانًا، وليكون جميلاً أحيانًا أخرى ، ثم تبقى بينه وبين الذروة مراحل .

مظاهر الكون الدائمة الانهيار والاستحالة هى إذن مصدر الوحى بالفن ، بينما سنن الكون الثابتة هى مطمح العلم ومدى غايته . وبمقدار ما يتأثر رجل الفن بمظاهر الكون هذه يكون سمو إلهامه ، فهو بمقدار تأثره يردد أثر هذه المظاهر عنده فى أنغام موسيقية شجية ، أو فى صور كلها الحياة والوحى ، أو فى تماثيل تنطق بمعان قوية سامية أوحت بها الحياة إلى نفس رجل الفن . وكلما ازدادت قوة الأثر فى نفس رجل الفن الموهوب استطاع هو أن يخلق جديداً فى الحياة بما ينشئ من آثار الفن ، وأن ينفث فى الطبيعة الصامتة ، أو فى الكون الدائم المور صوراً من الحياة تجلو هذه الطبيعة وهذا الكون لأعيننا ولمشاعرنا فى ألوان ما كنا لندركها لولا رجل الفن الموهوب وإدراكه إياها ، وتصوير مظاهرها على صورة هذا الإدراك .

على أن ألوان الفن لم تقف فى عصر من العصور عند النقش والتصوير والموسيقى ، بل لقد كان الشعر والتمثيل المسرحى معاصرين منذ القدم لهذا الذى اعتاد أهل الأجيال الماضية أن يسموه الفنون الجميلة . وكان الكثيرون يعتبرون الشعر والمسرحيات بعض الفن الجميل ، ولم يبق اليوم من ينكر عليهما هذه الصفة ، فهما

يصوران مظاهر الحياة الدائمة الانهيار والاستحالة على نحو ما يحسها الشاعر والمؤلف المسرحى والممثل المسرحى . والفرق بين هذين الفنين والفنون الجميلة الأخرى أن الموسيقى تمثل حالات نفسية خاصة ، وأن التصوير والنقش يمثلان مظاهر مادية للحياة ، بينما يصور الشعر والتمثيل المسرحى مشاعرنا وتأثر تفكيرنا بإحساسنا وعواطفنا ، وما ينشأ عما تختلج به هذه العواطف والأحاسيس من أثر فى حياتنا .

ولطالما امتزج الشعر بالفن المسرحى فكانت القطع المسرحية شعراً ، وكان الشعر القصصى أو الشعر الوجدانى مصوراً فى صورة مسرحية ، وإن لم يقصد به إلى أن يمثل على المسرح . والأوديسى اليونانية القديمة الخالدة من هذا النوع الأخير ، ومثلها الكوميديا الإلهية لدانتى ، وإن اختلف غرض كل من الشاعر اليونانى والشاعر الرومانى من شعره ، ورسالة الغفران لأبى العلاء من هذا النوع وهى تتفق من حيث الغرض مع كوميديا دانتى الإلهية تمام الاتفاق .

وأشد وضوحاً فى تمثيل هذا الاتصال بين الشعر والمسرحيات روايات شكسبير التمثيلية ، وبعض قطع ملتون التى لم يقصد بها إلى المسرح ، وروايات راسين وكورنى وموليير وفلتير ، وروايات جيتى، وروايات شوقى التى نشرت ومثلت قبل موته . وهذه والكثير من أمثالها ، إنما مصدر الوحى به مظاهر الكون الدائمة الانهيار والاستحالة ، كالنقش والتصوير والموسيقى سواء ، وهى تعتمد فى مكانتها الفنية على ذاتية رجل الفن فى تأثره بمظاهر الطبيعة والكون .

أحسب القارئ يريد أن يسبقنى إلى سؤال يحتم ما قدمنا وروده إلى الذهن . فالقصة والأقصوصة والأدب بوجه عام ، أين مكانه من الفن ؟ . وهنا موضع التفرقة التى أشرت إليها فى صدر هذه الكلمة حين قلت إن من الآثار الذهنية الإنسانية ما هو فن بحت ، ومنها ما هو علم بحت ، ومنها ما يتردد بين العلم والفن . وأنت تقرأ قصة بورجيه Le Disciple فتشعر أنك تقرأ فلسفة علمية أكثر مما تشعر بأنك تقرأ قطعة من الأدب ، وهى مع ذلك أدب فى أقوى معانى هذا اللفظ . وأنت تقرأ الجريمة والعقاب لدستويفسكى فتراك مأخوذاً عن نفسك بروعة الأسلوب ، وأنت تعود إلى قراءتها فتجد الروعة فى التحليل النفسى أكثر منها فى الأسلوب ، وتحس بنظريات العلم الجنائى

مطبقة فيها أدق تطبيق . أفيكون معنى هذا أن الأدب تطبيق النظريات العلمية وتصوير السنن الكونية ، وفى حكمها مظاهر الكون والحياة الدائمة التجدد والاستحالة ؟! ، لكنك لا تجد هذا واضحًا فى كثير من كتب الأدب ، بل تشعر فى كتب الأدب الإنكليزى وفى الشعر الإنكليزى أن الأغراض الإنسانية السامية أكثر توجيهًا للكتّاب والأدباء . وهم لذلك أكثر ميلاً إلى ناحية التاريخ منهم إلى ناحية التحليل النفسى ، وإن كان من بينهم من برع فى هذا التحليل غاية البراعة . أفيصدق على الكتب الأولى قول القائل إن الأدب إنما هو تطبيق قواعد العلم على مظاهر الحياة تطبيقًا يختلف دقة وقوة حسب ذاتية الكاتب وسمو إلهامه ؟ . وهل يصدق على الكتب الثانية ما يقال من أن الفن يجب أن تقصد الغاية منه إلى الفن ، على نظرية فلوبير والإخوان مارجريت وجى دى موباسان ؟ أم لزامًا مزاوجة هذين المذهبين : الفن للفن والفن كتطبيق لقواعد العلم على واقع ما فى الحياة ، ليكون الفن حيًا ، وليتاح له أن يبقى وأن يخلد ؟. الواقع أن الفن لا يستطيع ، وإن حاول أن يستمد حياته من خيال لا أصل له فى معروف الحياة . وكوميديا دانتى الإلهية ورسالة الغفران للمعرى ، يصفان الحياة الآخرة ، ولكنهما يصفانها من واقع هذه الحياة التى نحيا نحن ، يتهكمان بجوانب منها ويعجبان بجوانب أخرى ، ويصوران التوبة والعقاب على نحو ما يدور بخاطر أهل هذه الحياة تصويره . وثورة الملائكة لأناتول فرانس وما فيها من وصف للحرب بين الشياطين والملائكة ، يستمد الكاتب العبقرى الإلهام فيها من تصور الإنسانية لمصدر الحياة والخلق منذ الأديان الأولى ومنذ الأزل . فإذا صدق إذن قولهم أن لا جديد تحت الشمس فى شأن سنن الكون الثابتة فهو صادق كذلك فى شأن الفن .

والقصة والأقصوصة وسائر فنون الأدب النثرى تكسب لا ريبة قوة إذا بنى الإلهام فيها على قواعد العلم وسننه الثابتة ، ولن يحول هذا دون تصوير الخيال ظواهر الكون الدائمة التجدد والاستحالة فيما يشاء رجل الفن من الصور .

إن ذاتية رجل الفن فى استلهامه سنن الكون وظواهر الحياة وتطورها ، هى إذن قوام سمو الفن إلى غاية ما يوهب رجل الفن من قدرة على السمو . وأحسب ما سبق من تصوير ذلك يدل على أن رجل الفن أحوج الناس إلى غزارة المادة فى العلم ، وإلى تمثل هذه المادة تمثلاً يمكنه من أن يضفى على ظواهر الكون أبدع الصور وأكثرها سمواً .

ولعلى لا أجد مثلاً أضربه لذلك خيراً من أن هذا المثال المصرى القديم الذى نحت تماثيل رمسيس الملقاة على ثرى منف قد كان من دقة المعرفة بدقائق علم التشريح حتى تُرى بادية فى الحجر أعصاب المعصم ، وأعصاب الساق ، وأعصاب الحركة فى جميع المفاصل ، كما بلغ من دقة المعرفة بدقائق علم النفس ، وبتاريخ بلاده حتى تُرى بادية فى نظرة هذا التمثال ، وفى التاج على رأسه ما يجعلك تلمح فى شخصه كل ما قصد رجل الفن إليه من المعانى . إذا كان العلم قد تقدم ، أو على الأقل قد تطور منذ تلك العصور إلى حيث نعرف أنه قد بلغ ، فحاجة رجل الفن فى عصرنا إلى المعرفة الغزيرة أشد وأقوى ، وهذه المعرفة هى وحدها التى تسمح لموهبة الفنان بأن تضفى على ظواهر الحياة الصورة الفنية الممتازة التى تنشئ على الحياة خلقًا جديداً .

صلة الفن بالحياة الاجتماعية

الفن يؤثر فى المجتمع كما يتأثر به (*)

كنت مسافراً على باخرة نيلية بلغت بنا حلفا وقضت بنا الليل فيها ، مزمعة العودة إلى أسوان فى اليوم التالى . ولما كان عليها عدد من المسافرين لم يجعلوا المرفأ السودانى المصرى غايتهم ، بل اعتزموا أن يرجعوا على الباخرة إلى أسوان . فقد أعد ربانها لهم فى يوم استقرارها بحلفا نزهة إلى شلال النيل الثانى ، وأقلنا زورق بخارى إلى هناك تسرب بنا فى مسالك الشلال خلال أحجاره الجرانيتية الزرقاء ، حتى انتهى إلى هضبة ينزل عندها المتنزهون عادة ، ليشهدوا من فوقها منظر الشلال العام . فلما هبطنا منها عائدين إلى زورقنا سمعنا ضجة وصياح ، ثم إذا طائفة من أهل تلك المنطقة تعبر الشلال سابحة إلينا آتية لا ندرى من أين . ولقد كان كل ما يرتديه أفراد هذه الطائفة نطاقًا من جلد ينتطق كل منهم به ، وفى يد كل منهم قربة من جلد منفوخة تعاونهم فى سباحتهم ، ولعلها تعاونهم كذلك فى إحداث الضجة ، لتخويف التماسيح الكثيرة التى تعمر منطقة الشلال . وبلغت هذه الطائفة الشاطئ ووقف أفرادها بعضهم إلى جوار بعض ، وأجسامهم العارية إلا من هذا النطاق قد بلغت من إبداع التكوين حتى كأنها تماثيل من الأبنوس بسوادها اللامع أبدعتها يد الطبيعة الساذجة التى يعيشون بين أحضانها .

هذه الجماعة من الأهالى تمثل الجماعة الإنسانية التى لم تعرف الحضارة قط ، والتى لا تعرف مما يسمونه الحياة الاجتماعية الإنسانية شيئًا ، فحياتها جماعية وليست اجتماعية ، وهى لذلك أدنى إلى مراتب جماعات الحيوان التى تعيش قطعانًا ،

(*) مجلة الهلال ، بتاريخ أول نوفمبر ١٩٣٥

أو أسراباً . ومن ثم كانت لا تعرف من الفن إلا محاكاة أصوات الطبيعة دون تمييز بين الجميل والقبيح منها ، وبعبارة أخرى هى لا تعرف الفن الجميل بتاتًا . فإذا بدأت الجماعات الإنسانية تعرف أولى مراتب الحياة الاجتماعية بدأت تعرف الفن على صورة فطرية تتوهم الجمال ولا تعرفه ، وتتخيله ولا تدركه . وهذا ما يجعل بعض قبائل الزنوج ينقشون أجسامهم بألوان من الوشم للزينة مكتفين من اللباس بهذا النطاق من الجلد إن رأوا حاجة إلى اللباس . فإذا تقدمت حياة القبائل إلى مرتبة اجتماعية أرقى من هذه المرتبة الفطرية بدأت تدرك الفن فى مراتبه الأولى ، فبدأ فيها اللباس وزينته ، وبدأت تجمل مساكنها فى الخيام بما يروق ذوقها البدوى ، وبدأت ألوانًا من الشعر ومن الموسيقى تتفق مع تلك الحياة ، وبدأت تنحت تماثيل لا تكاد تمثل صورة معينة . ولعلنا جميعًا قد رأينا صوراً من ذلك فى أنحاء مختلفة من مصر ومن غير مصر من البلاد ؛ ورأينا فيها بدء الحياة الاجتماعية للجماعة الإنسانية .

يتصل تطور الفن من بعد ذلك بتطور الحياة الاجتماعية فى الجماعة الإنسانية اتصالاً دقيقًا . ويجب فى تقدير ذلك أن نفرق دائمًا بين الحياة الجماعية والحياة الاجتماعية . فالأولى حياة كل جماعة من الحيوان أو الناس تعيش أسراباً أو قطعاناً ولا تعيش فرادى أو أسرا كما تعيش الحيوانات المفترسة وجوارح الطير . أما الحياة الاجتماعية فهى الحياة الإنسانية بمعناها الإنسانى وفى صورتها المدنية . ومن ثم كانت الحياة الجماعية مرتبة واحدة ، وكانت الحياة الاجتماعية مراتب شتى بعضها أدنى إلى الحضارة من بعض . ورقى هذه الحياة الاجتماعية يسير جنبًا إلى جنب مع رقى الفن ، بل لعل الفن وتقدمه هو صاحب الشأن الأول فى رقيها .

أم إنًا نكون أدنى إلى تصوير الواقع إذا قلنا إن الفن يتأثر بالحياة الاجتماعية بمقدار ما يؤثر فيها، أو أكثر مما يؤثر فيها ! فقد لوحظ أن النظم القائمة لها أثر كبير على أرباب الفن فى تصوير فنهم وتوجيهه ، والنظم القائمة هى المظهر الأول للحياة الاجتماعية . من ذلك أن أرستقراطية لويس الرابع عشر وبلاطه فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، هى التى وجهت راسين وكورنى وموليير فى شعرهم إلى حد كبير ، وأن الحركة المسيحية التى قامت فى القرن السادس عشر كانت ذات أثر على فن رفائيل بلغ من أمره أن جعل المصور الإيطالى العظيم يضفى على جميلاته من المعانى الدينية

ما لا يمكن أن يدور بخاطره لولا هذه الحركة الدينية . ولقد كانت نهضة أوربا فى القرن الثامن عشر وتسلط فكرة الأرستقراطية العقلية على أهلها بالغة الأثر فى نفس الشعراء والكتّاب والموسيقيين الذين نادوا بنظرية الفن للفن ، ولم يروا من حق رجل الفن أن يكون لغير فنه سلطانًا عليه . ثم قويت هذه الفكرة فى القرن التاسع عشر حتى أصبحت عقيدة راسخة ، وحتى كان رجل الفن يأبى أن يكون لجمهور غير جمهور رجال الفن حكم على عمله. فلما تطورت الأفكار الاجتماعية تحت تأثير الحرب الكبرى ، تطور الفن معها وصار أوثق صلة بالجمهور فى مجموعه منه بجمهور رجال الفن وحدهم ! وكذلك كان اتصال الفن بالحياة الاجتماعية وكان تطوره تابعًا لتطور هذه الحياة الاجتماعية .

والفن والآثار الفنية الراقية تعتبر من الكماليات فى الجمعيات الإنسانية التى لم تبلغ من مراتب الحياة الاجتماعية ما يقارب الكمال ، بينما هى من ضروريات الحياة الأولية فى الجمعيات الراقية . وخير ما يصور ذلك مقارنة ما بين بيتين أحدهما لأسرة ذات ثراء وسعة فيه ، ولكنها من مراتب التهذيب الاجتماعية فى الدرجات الدنيا أو القريبة منها ، والآخر لأسرة ليست فى مثل ثراء الأسرة الأولى ولا سعة رزقها ، ولكنها أرقى تهذيبًا وأسمى ثقافة . قد تجد فى البيت الأول فرشًا وطنافس غالية القيمة يعجز أهل الأسرة الثانية عن دفع ثمنها . وقد تكون فيه نقوش وزخارف لا شىء من مثلها فى البيت الثانى ، لكن يد الفن تغيب عنه دائمًا . فطنافسه وزخارفه ، إنما يراد بها أن تتحدث عن ثمنها أكثر مما قصد أصحابه إلى جمالها. فالنفس إنما تدرك الجمال وتتذوقه بمقدار تهذيبها وتثقيفها . أما بيت الأسرة الثانية فقد لا ترى فيه تحفة غالية الثمن ، لكنك تجد اليد الصناع قد نسقت ما فيه تنسيقًا هو الذوق الفنى ، وهو الجمال الذى تستريح له العين وتطمئن له النفس . فى هذا الجانب من غرفة الاستقبال تمثال صغير وضع مكانه لأن الضوء إذ يغمره من هذا الجانب يزيده بهاء ، ويزيد المكان الذى وضع فيه مسرة للنفس وبهجة للفؤاد ، وهذا اللون الذى صبغ به الحائط قد لوحظ فيه أنه يتمشى مع استعمال الغرفة التى صبغت بـه ، وهذه الوسائد المنثورة فوق البساط أو فوق السجاد قد روعى فى تنسيقها أن تتفق ومجموع المكان بحيث تزيد النفس بهجة والقلب مسرة . لم يقصد بشىء مما فى المكان أن يتحدث عن ثمنه ولا عن المجهود الذى بذل فى اقتنائه ، وإنما قصد بأثاث المكان جميعًا وبما فيه من صور ونقوش

وتماثيل إلى رضى الذوق الفنى فى النفس المهذبة ، وإلى أن يكون بهجة للحياة الاجتماعية بالنسبة للأسرة كلها وللذين يجتمعون بها من أصدقائها .

هذه المقارنة بين البيتين هى صورة صادقة تبين الصلة بين الفن والحياة الاجتماعية فى الجماعات الإنسانية . وقد أتيح لى أن أشهد ما يؤيد صدقها فى قرى مختلفة من أوربا . فحيث يشهد الإنسان مظاهر الحياة الاجتماعية راقية تقارب الكمال يشهد رقيًا فى الفن يساير هذا الرقى الاجتماعى . وكثيراً ما رأيت فى بعض بلاد الريف بأوربا الوسطى وبأوربا الشمالية منازل لفلاحين وعمال فى أثاثها وفرشها من الذوق الفنى ما لا نظير له فى مدن البلقان إلا عند الأغنياء المهذبين ، مما يشهد بأن رقى الفنون يتمشى دائمًا مع رقى الحضارة .

ربما لوحظ على ما تقدم أن فنونًا ترتقى فى عهود انحلال الأمم والشعوب ، وأن أكبر رجال الفن والعباقرة الموهوبين منهم ينتجون خيراً مما ينتج أمثالهم فى عصور الازدهار والفتوة ، ويخيل إلى أن هذه الملاحظة فيها شىء غير قليل من التجوز . وأمامنا الشعر العربى قام فحوله فى أيام الأمويين ، وفى أيام العباسيين حين كانت الدولة فى قوة شبابها وفتوة نشاطها ، كما قام بعض فحوله حين آذن شباب الأمة بالأفول ، على أن هذه الملاحظة إن صحت ، فليست تعنى أن الفنون تزدهر حيث تنحط الحياة الاجتماعية . فقد يكون الانحلال السياسى ثم تكون هذه الحياة الاجتماعية فى أسمى درجاتها . والانحلال السياسى الذى يطرأ بعد القوة والرقى ينشأ عادة عن إمعان فى الترف تضعف معه قوة النضال المادى وتتدهور بسببه روح الغلب وقوة الدفاع ، لكن هذا الإمعان فى الترف إذا لم يبلغ حداً يفسد معه النشاط الذهنى يبتعث بطبعه الخيال ويغرى بحب الفنون وإكبارها وتقدير أربابها تقديراً يدفعهم إلى السمو بها جهد ما يستطيعونه من السمو . وهذا الإمعان فى الترف فن لذاته يجمع حوله طائفة من سائر الفنون ، وبخاصة إذا كان ترفًا ذهنيًا يدعو إلى الولع بالجمال فى مختلف مظاهره ، ثم إن هذا الإمعان فى الترف مظهر من مظاهر رقى الحياة الاجتماعية وإن ترتب عليه الانحلال فى الحياة السياسية.

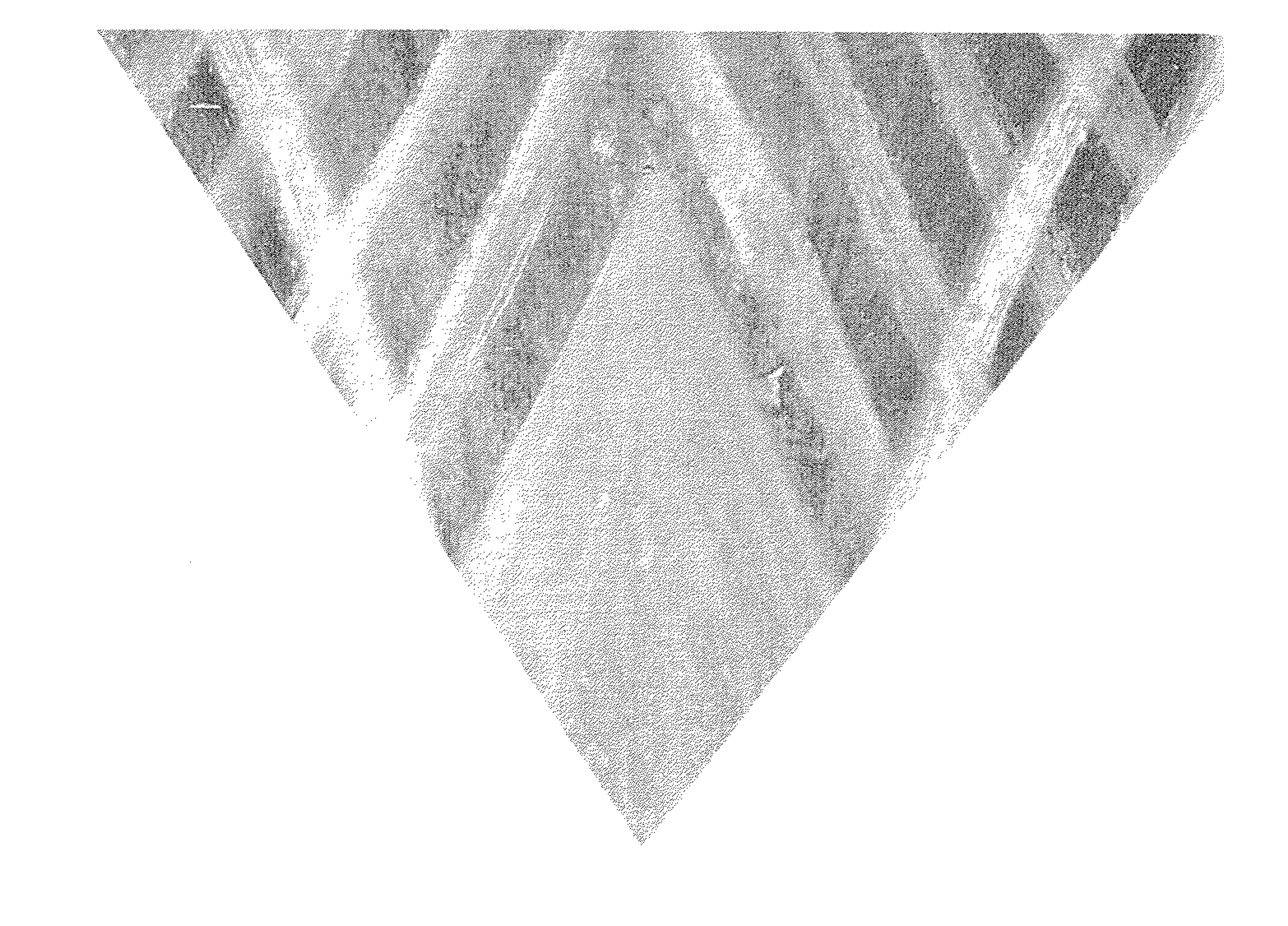
والفن فى الحقيقة غذاء الحياة الاجتماعية ، ولو أننا حاولنا أن نتصور هذه الحياة خالية من الشعر ومن الموسيقى ومن التصوير والنحت ومن الغناء ومن المسرح ،

لرأيناها قد فقدت كل قيمتها وقد أصبحت لا لون ولا طعم لها ، وكلما ارتقى نوع هذا الغذاء ازددنا ارتياحًا للحياة واغتباطًا بها واطمئنانًا لها ، وإن ساعة يقضيها الإنسان فى المتاع بثمرات هذه الفنون الصالحة ، لتعوض عليه مشقات كثيرة ، ولتحبب إليه الحياة . وفى طبيعة الفن أن يجمع الناس حوله للمتاع به . فهذا المسرح إذ تمثل عليه رواية من الروايات يفقد الكثير من بهائه إذا قل عدد حاضريه . وهذا الشاعر الذى يلقى قصيدته على الناس يشعر بالوحشة إذا قل عدد المستمعين له . فالفن بطبعه إذن ظاهرة اجتماعية هى أرقى ظاهرات الحياة الاجتماعية ، والناس أرقى تذوقًا له بمقدار رقيهم الاجتماعى ، وهم يقدرون حاجتهم للفن وللمتاع به بمقدار حظهم من هذا الرقى .

أما الجماعات القليلة الارتقاء فى درجات الحضارة فتحتاج إلى الفن هى الأخرى ، لكنها تحتاج إلى فن لا يزيد عليها رقيًا . فإذا كانوا من طراز هؤلاء الذين وصفناهم فى أول هذا الفصل لم يكن للفن عندهم قيمة ، ولم يميزوا خبيثه من طيبه .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٧٢٢ / ٢٠٠٣



تأتى أهمية هذه المجموعة من المقالات للدكتور محمد حسين هيكل من كونها تعبر عن مرحلة تاريخية مهمة من حياة الثقافة المصرية، على مدار فترة زمنية طويلة، شهد فيها المجتمع المصرى تغيرات جذرية فى نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية وقد تنوعت بين الخواطر الإنسانية والآراء فى اللغة والأدب والفنون. وبذلك فهى مرجع مهم ودال فى تاريخ مصر الحديثة.

